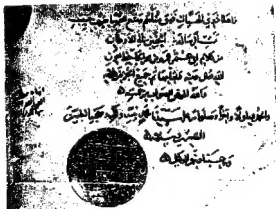


١ مَنَاقِبُ التُّرْكِ

رسالة إلى الفتح بن خاقان في مناقب الترك وعامة جند الخلافة



سورة الفاتحة الأولى من مجموعة دمام



الفاتحة الأخيرة من مجموعة دمام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه هي الرسالة الأولى من مجموعة رسائل الجاحظ نسخة مكتبة دالماد ، وعنوانها في المجموعة « فضائل الأتراك » . وقد اشترت لها العنوان الذي في سائر التراجم الرموز لها بالرموز التالية :

م = مختارات فضول الجاحظ لعبد الله بن حسان . نسخة للتحف البريطاني للأخذ منها نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٦٩ .

ف = الفصول المختارة لعبد الله بن حسان ، للطبعة بهامش كلاد الجرد طبعة التقدم المالية سنة ١٣٢٤ . وتختلف عن النسخة السابقة .

ن = ثلاث رسائل للجاحظ نشر قان قلوطن . طبع ليدن ١٩٠٣ .

س = مجموعة رسائل للجاحظ نشر الساسي .

كما جعلت الرمز « ب » لبقية النسخ إذا اقررت نسخة من النسخ السابقة بصورة من النص بخلاف أخوانها .

وهذه الرسالة تسترق من الأصل ما بين الورقة ٢٠ والورقة ٤٩ . وقد أثبتت أرقام هذه الأوراق على جنبات الكتاب تيسيراً للرجوع إلى الأصل .

وأكرر التنبيه هنا أن هذا الترقيم هو الترقيم الذي ورد في النسخة ، وأنه ترقيم « مسلسل مع كتاب آخر غير مجموعة دالماد سابق عليها .

والفتح بن خاقان هذا هو وزير للتوكل العباسي ، وكان أديباً شاعراً فصيحاً بلوع الدكا ، وكانت له خزائن كتب حافظة ، وله مؤلفات منها كتاب اختلاف الملوك ، وكتاب الصيد والجراح ، وكتاب الروضة والزهراء . وقد مع للتوكل سنة ٢٤٧ . وهو غير الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان صاحب قلعة العميان .

انظر فهرست ابن الدليم ١٦٩ - ١٧٠ ونوات الوفيات ٢ : ١٤٣ - ١٥٤ .

وَقَدْ أَفْهَمَ (شَدِيدُ) ، وَأَعَزَّ عَلَى شُكْرِكَ ، وَأَصْلَحَكَ وَأَصْلَحَ عَلَى يَدَيْكَ ، وَجَعَلْنَا وَإِيَّاكَ مِمَّنْ يَقُولُ بِالْحَقِّ وَيَسْمُلُ بِهِ ، وَيُؤْتِرُهُ وَيَحْتَمِلُ مَا فِيهِ [عَمَّا قَدْ بَعْدَهُ مِنْهُ ^(١)] ، وَلَا يَكُونُ حَفْظُهُ مِنْهُ ^(٢) الْوَصْفَ لَهُ وَالْمَرْفَعَةَ بِهِ ، دُونَ الْحَثِّ عَلَيْهِ وَالْإِطْعَامِ إِلَيْهِ ، وَكَشَفَ الْقِنَاعَ فِيهِ ، [وَإِصَالَهُ إِلَى أَهْلِهِ ، وَالصَّبْرَ عَلَى الْحَافِظَةِ إِلَى الْأَبْصَالِ إِلَى غَيْرِهِمْ ، وَالتَّثَبُّتَ فِي تَعْقِيقِهِ لَدَيْهِمْ ^(٣)] ؛ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَعْلَمْ النَّاسَ لِيَكُونُوا عَالِينَ دُونَ أَنْ يَكُونُوا عَامِلِينَ ، بَلْ عَلَيْهِمْ لِيَعْمَلُوا ، وَيَبِينَ لَهُمْ لِيَتَّقُوا التَّوَرُّطَ فِي وَسْطِ الْخُوفِ ، وَالْوُقُوعَ فِي الْمَضَارِّ ^(٤) ، وَالتَّوَسُّطَ فِي الْمَهَالِكِ .

[فَلِذَلِكَ ^(٥)] طَلَبَ النَّاسُ التَّيِّينَ ، وَلِحَبِّ السَّلَامَةِ مِنَ الْمَلَكَةِ ، وَالرَّغْبَةَ فِي الْمُنْعَمَةِ ، احْتَمَلُوا ثِقَلَ الْعِلْمِ ، وَتَعَبُوا مَكْرُوهَ الْعِلَافَةِ . وَتَعَلَّقَ الْعَامِلِينَ وَكَثَرُوا الْوَاصِفِينَ | قَالَ الْأَوَّلُونَ : الْعَارِفُونَ أَكْثَرُ مِنَ الْوَاصِفِينَ ، وَالْوَاصِفُونَ أَكْثَرُ مِنَ الْعَامِلِينَ . وَإِنَّمَا ^(٦)] كَثُرَتِ الصُّفَاتُ وَقَلَّتِ الْمَوْصُوفَاتُ ، لِأَنَّ ثَوَابَ الْعَمَلِ مُزْجِلٌ ، وَاحْتِمَالُ مَا فِيهِ مُعْجِلٌ .

(١) ساقطة من الأصل . وإيائها من سائر النسخ .

(٢) في الأصل « فيه » . وأثبت ما في ف ، ن ، س .

(٣) التسككة من م ، ف ، ن ، س .

(٤) في الأصل و س : « لِيَتَّقُوا وَلِيُخَفِّفُوا الْوُقُوعَ فِي الْمَضَارِّ » .

(٥) التسككة من م ، ف .

(٦) التسككة من م ، ف ، ن ، س .

وقد أعجبنى ما رأيت من شَفَنِكَ بطاعة إمامك ، والحماة لشديدي خليفتك ،
 وإشفاقك من كل خلل وخلَّة دخل على ملكك وإن دق^(١) ، ونال سُلطانَه وإن
 صغر ، ومن كل أمر خالفه وإن خفى مكانه ، وجانب رضاه وإن قلَّ ضرره ؛
 ومن تخوفك أن يتناولك إليه طريقاً^(٢) والعدو عليه متملِّقا ؛ فإنَّ السلطانَ
 لا يتخلو من متناولٍ ناظم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم
 زار^(٣) ، ومن متعطِّل متصنِّع ، ومن معجَّب برأيه ذى خطئ في بيانه ، مولع
 بتبجيز الصواب ، وبالاعتراض على التدبير ، حتى كأنه رائدٌ لجميع الأمة ،
 ووكيلٌ لساكن جميع المملكة ؛ يضع نفسه في موضع الرقيب ، وفي موضع
 التصفح على الخلفاء والوزراء ؛ لا يتدبر وإن كان تجاز العذر وانضا . ولا يقف
 فيها يكون للشك محيلا ، ولا يصدق بأنَّ الشاهد يرى ما لا يرى الغائب .
 وأنه لا يعرف مصادر^(٤) الرأى من لم يشهد مَوَارِدَه ، ومستدبره من لم يعرف
 مستقبله . ومن محروم قد أضفته الحرمان^(٥) ، ومن لئيم قد أفصده الإحسان .
 ومن مستعجب قد أخذ أضعاف حقه ، وهو لجهله بقدره ، ولغيبي ذرعه وقلة
 شكره ، بظن أن الذي بقي له أكثر ، وأنَّ حقه أوجب . ومن مستزيد

و ٢١

(١) م . ف : « من كل خلل يدخله وإن دق » ن : « من كل خلل دخل على
 ملكك وإن دق » .

(٢) المراد بالتناول التعلل الذي ينسب إليه وتأويلا لقيامه على السلطان .

(٣) في الأصل : « عن الحكمة » . وأثبت ما في ب . والراى . من قومه ؛
 زرى عليه يزرى زردا ووزراية : عابه وعابه .

(٤) في الأصل : « صدق » . صوابه في سائر النسخ .

(٥) أضفته : حله على الضمن والحق . وفي الأصل : « أضفته » . صوابه في
 سائر النسخ .

لو ارتفع السلطان^(١) سالف أيديهِ البيضِ عنده ، ونِمتَه السَّاقِةَ عليه ، لكان
لذلك أهلاً ، وله مستحقاً . قد غرَّه الإملاء^(٢) ، وأبطره دواءُ الكفاية ،
وأفسده طولُ الفراغ . ومن^(٣) صاحبِ فتيةٍ خاملٍ في الجماعة ، رئيسٍ
في الفرقة ، تَنَاقٍ في الفرج ، قد أقصاه السلطان ، وأقام صنوه تحاف الأدب^(٤) ،
وأذله الحكمُ بالحق ، فهو مَنِيظٌ لا يجد غير الفتنج ، ولا يتشقى بنير الإرجاف ،
ولا يستريح إلَّا إلى الأمانى . ولا يأنس إلَّا بكلِّ مرجفٍ كذاب ، ومفتونٍ
مرتاب ، وخارصٍ لا خيرَ فيه^(٥) . وخالفَ لا غناَ عنده ، يريد أن يسوَّى
بالسكفة ، ويرفع فوق الحُفَّة : لأمرٍ ما سلف له ، وإحسانٍ كان من غيره ،
وليس ممن يربُّ قديماً بحديث^(٦) ، ولا يحفل بدروس شرف ، ولا يفصل بين
ثواب المحسنين ، وبين الحفظ لأبناء الحسين .

وكيف يعرف فرق ما بين حقِّ القمام وثواب الكفاية ، من لا يعرف
طبقات الحق في مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل في منازلها .

(١) في الأصل : « لو ارتفع السلطان » . صوابه في سائر النسخ .

(٢) في الأصل و ف : « الإملاء » .

(٣) كلمة « من » سائطة من الأصل ون و س .

(٤) الصنوه . البذل في الأصل : « صنوه » م ، ف : « صنوه » . وأثبتت مافي
س . ن .

(٥) الخارص : الكاذب . يقال خرس وخارص واخترص . وزجل خرامس :
كذاب . وفي التبريل العزيز : « قلل الخرامسون » س ، ن « خرامس »
بالهمزة ، تحريف .

(٦) ربه به : أصله وطيه .

ثم أعلّنى بذلك أنك بنفسك بدأت في تعظيم إمامك ، والحفظ لمناب
أنتصار خليفتك ، وإيّاها حطت بحياطتك لأشياعه ، واحتجاجك لأوليائه .
ونيم المون أنت إن شاء الله على ملازمة الطاعة ، والفرار من على الظلم ،
والمكافأة لأهل الحق^(١) .

وقد استدلت بالذي أرى من شدّة عنايتك ، وفراط اكرامك ، وتفقدك
لأخاير الأعداء^(٢) ، وعثك عن مناقب الأولياء ، على أنّ ما ظهر من نصحتك
أمم^(٣) . في جنب ما يمكن من إخلاصك .

فانتفع الله بك خليفته ، ومنحنا وإيك بحبته^(٤) ، وأعدنا وإيك من قول
الزور^(٥) . والتعرب بالباطل ، إنّه حميد مجيد ، فقال لما يريد .

وذكرت أباك الله أنك جالت أخلافا من جند الخلافة ، وجماعة من
أبناء الدعوة . وشيوخا من جلة الشيعة ، وكهولا من أبناء رجال الدولة ،
والتسويين إلى الطاعة والمناصرة ، والحجة^(٦) : الدينية ، دون محبة الرغبة
والرهبة ، وأن رجلا من عرض تلك الجماعة ، ومن حاشية تلك الجلة^(٧) ارتحل

٢١ ظ

(١) المكافأة : المعاونة .

(٢) م ، ف فقط : « لأجناس الأعداء » .

(٣) الأمم : النى . اليسير .

(٤) في الأصل : « نغبة » ، مرابه في سائر النسخ .

(٥) في الأصل و ن : « قبول الزور » .

(٦) الشككة من ف ، م ، س .

(٧) م : « وأن رجلا من عرض تلك الجلة »

الكلام ارجمال مستبده ، وتفرد به تفرّد مُعْجَب^(١) ، وأَنَّهُ لم يستأمر زعماءهم ، ولم يراقب خطباءهم ، وأَنَّهُ تَمَسَّكَ للعائى وتَهَجَّمَ على الألقاظ ، وزعم أن جُند الخلافة اليوم على خسة أقسام : خراسانى ، وتركى ، ومولى ، وعربى ، وبنوى . وأَنَّهُ أكثر من تحدا الله وشكره على إحسانه وِيسْته ، وعلى جميع أياديه وسابغ نعمه ، وعلى شمول عافيته وجزيل مواهبه ، حين ألف على الطاعة هذه القلوب المختلفة ، والأجناسَ اللبائية ، والأهواءَ المفرقة . وأنتك اعترضت على^(٢) هذا التكلم المسبذ ، وعلى هذا القائل للتكلف ، الذى قسم هذه الأقسام ، وخالف [بين^(٣)] هذه الأركان ، وفصل بين أنسابهم^(٤) ، وقرق بين أجناسهم ، وباعد بين أنسابهم^(٥) . وأنتك أنكرت ذلك عليه أشد الإنكار ، وقدمته أشدّ القدح^(٦) ، وزعمت أنهم لم يخرجوا من الاتفاق أو من شئ يقرب من الاتفاق . وأنتك أنكرت التباعد فى النسب ، والتباين فى السبب . وقلت : بل أزعّم أن الخراسانى والتركى أخوان ، وأن الحيز واحد ، وأن [حكم ذلك الشرق ، والقضية على^(٧)] ذلك الضمّ متفق غير مختلف ، ومتقارب غير متفاوت . وأن الأعراق فى الأصل إبت لا تكن [كانت^(٨)] راسخة فقد كانت متشابهة ، وحدود البلاد المشطّعة عليهم إن

(١) الكلام يبدء إلى « خطباءهم » ساقط من ف .

(٢) فى الأصل : « أعرضت عن » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٣) الكلمة ساقطة من الأصل ثابتة فى سائر النسخ .

(٤) ن ، س : « وباعد بين أنسابهم » . و « باده إلى » أنسابهم » التالية ساقطة

من ف ، م .

(٥) فى الأصول : « أنسابهم » ، والوجه ملائمت .

(٦) قدّعه قدّنا : رماه باللعش وسوء القول .

(٧) ما بين القفّين ثابت فى جميع النسخ ساقط من الأصل .

لا سكن متساوية فإنها متناسبة : وكلهم خراساني في الجملة وإن تميزوا ببعض
الخصائص ، فافترقوا ببعض الوجوه .

وزعمت أن اختلاف التركي والخراساني ليس كالاختلاف بين العجمي
والعربي ، ولا كالاختلاف بين الرومي والصقليني ، والزنجي والحبشي ،
فضلا عما هو أبعدُ جوهرًا وأشدَّ خلافًا . بل كاختلاف ما بين المكّي والمدني ،
والبدوي والحضري ، والشامي والجليلي ، واختلاف ما بين الطائي والجليلي والطائي
الشامي ، وكما يقال : أن هذيلًا أكراد العرب ، واختلاف ما بين من نزل
البلون وبين من نزل الخزون ، وبين من نزل النجد وبين من نزل الأغوار .

وزعمت أن هؤلاء وإن اختلفوا في بعض اللغة ، وفارق بعضهم بعضًا
في بعض الصور ، فقد تحافت عليها تميم . وسقّى قيس ، وعجّز هوازن
وفصحاء الجبار ، في اللغة ، وهي في أكثرها على خلاف لغة حمير . وشكّان
تحالف الهيم ، وكذلك في الصورة والشانل والأخلاق^(١) . وكلهم مع ذلك
عربي خالص ، غير مشوب ولا مملّج^(٢) ولا مدرّج^(٣) ولا مزّج^(٤) . ولم
يختلفوا اختلاف ما بين بني قحطان وبني عدنان ، من قبل^(٥) ما طبع الله

٢٧ و

(١) ج . ف : « وكذلك الصورة والصورة . والشانل والشانل . والأخلاق
والأخلاق » .

(٢) الشايح : الهجين . وهو العربي ولد من أمة

(٣) الفرع : الذي له عربة وأبوه غير عربي . وانشد :

إذا باهلي عنده حظلية لها ولدهته فذاك المدرّج

ف . ج . : « مربوع » تحريف .

(٤) المزّج : المصنوع . والمزّج بالقوم وليس منهم .

(٥) في الأصل : « بأمر قبل » . صوابه في سائر النسخ .

عليه تلك البرية من خصائص الفرائز ، وما قسم الله تعالى لأهل كل جزيرة^(١) من الشكل والصورة^(٢) ومن الأخلاق واللغة .

فلن قلت : فكيف كان أولادها جميعاً عرباً مع اختلاف الأبوة .

قلنا : إن العرب^(٣) لما كانت واحدة طسروا في القرية وفي اللغة ، والشأن والملة ، وفي الأنف والمهية^(٤) ، وفي الأخلاق والتجنية ، فسيكوا سبكاً واحداً ، وأفرغوا إفراغاً واحداً ، وكان القالب واحداً ، تشابهت الأجزاء ، وتساوت الأخلاق ، وحين صار ذلك أشد تشابهاً في باب الأمم والأخص وفي باب الوفاق واللبانة^(٥) من بعض ذوى الأرحام ، جرى عليهم حكم الاتفاق في الحسب ، وصارت هذه الأسباب ولادة أخرى حتى تناكحوا عليها ، وتصارفوا من أجلها ، ولتمتعت عدنان طاطية من مناة حتى إسحاق وهو أخو إسماعيل ، وجادوا بذلك في جميع الدهر لبنى قحطان - وهو ابن عابر^(٦) - فني إجماع^(٧) الفريقين على التناكح والمصاهرة ، ومنهما من ذلك جميع الأمم : كسرى فمن دونه ، دليل على أن النسب عندهم متفق ، وأن هذه للماني قد قامت عندهم مقام الولادة والأرحام الثلاثة .

(١) الجزيرة . بالسكر : الناحية ، كافى القاموس . ف . ج . : جزيرة . تحريف .

(٢) في الأصل : الصورة مع سقوط الواو بعدها . ووجه من سائر النسخ . (٣) م . ف . : الجزيرة .

(٤) الأنف . بالتحريك : الأنفة . ف فقط : الأنفة .

(٥) م . ف . : وفي البية . وفي الأصل : الشية . وأثبتت في سائر النسخ .

(٦) في الأصحاح ١١ : ١٢ من التكوين أنه قحطان بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ .

(٧) في الأصل : اختلاف . صوابه من سائر النسخ .

وزعمت أنه أراد الفرقة والتحزيب^(١) ، وأنتك أردت الألفة والتقريب .
 وزعمت أيضاً أن البتوى خراساني ، وأن نسب الأبناء نسب آباؤهم ،
 وأن حُسن صنيع الآباء ، وقديم فعال الأجداد ، هو حسب الأبناء . وأن
 اللواتي بالمرب أشبه ، وإليهم أقرب ، وبهم أَمْسُ ؛ لأن السَّنة جعلتهم منهم .
 قلت : إن اللواتي أقرب إلى العرب في كثير من اللغات ؛ لأنهم عربٌ
 في اللدعي^(٢) ، وفي العاقلة^(٣) ، وفي الوراثة^(٤) . وهذا تأويل قوله « مولى
 القوم منهم » و « مولى القوم من أنفسهم »^(٥) ، و « الولاء لِحمة كلحمة
 النسب »^(٦) . وعلى شبيه ذلك صار حليف القوم منهم ، وحكمه حكمهم ، فصار
 الأخنس بن شريق^(٧) وهو رجلٌ من قتيب ، وكذلك يعلّى بن مُنيّة^(٨)
 وهو رجلٌ من بَندوبة . وكذلك خالد بن عرقطة^(٩) وهو رجلٌ من عُذرة

٢٢ ظ

(١) التحزيب : أن يجعلهم أحزاباً وفتراً . في الأصل : « التخريف » صوابه
 في سائر النسخ .

(٢) في الأصل فقط : « النسب » .

(٣) العاقلة : العصب التي تنقل عن القاتل دية .

(٤) م ، ف : الراءة .

(٥) أخرجه البخاري عن أنس . الجامع الصغير ٩١٢٤ .

(٦) أخرجه الطبراني عن عبد الله بن أبي أوفى ، والحاكم والبيهقي عن ابن

عمر . الجامع الصغير ٩٦٨٧ .

(٧) ترجم له في الإصابة ٦٩ وذكر أنه ممن اختلف في إسلامه .

(٨) في الأصل : « منه » ، صوابه في سائر النسخ وجمهرة ابن حزم ٢١٣ .

٢٢٩ . قال ابن حزم : « وهي أمه . وهي بنت غزوان ، أخت عتبة بن غزوان .

اسم أبيه أبيه بن عبدة » .

(٩) الاشتقاق ٥٤٧ .

من قريش . وبذلك السَّبَّ حُرِّمَتْ الصَّدَقَةُ على موالى بنى هاشم : فَبَيْنَ
النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَجْرَاهُمْ فِي بَابِ التَّنْزِيهِ وَالتَّطْيِيرِ تَجْرِي مَوَالِيهِمْ .
وبذلك السَّبُّ قَدَّمَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى عَبْدِ الْمَطْلَبِ عَلَى بَنِي عَبْدِ شَمْسٍ ،
وَقَرَابَتِهِمْ سِوَاهُ ، وَنَسَبُهُمْ وَاحِدٌ ، لِقَوْلِهِ لَلتَّقَدُّمِ ، وَلِلْأَيْدِي التَّضَفَةِ .

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « يَا خَيْرَ فَارِسٍ فِي الْعَرَبِ : عُكَاشَةُ
ابْنِ عَمَّصَن ^(١) » ، فَقَالَ خِرَارُ بْنُ الْأَزْوَارِ الْأَسَدِيُّ : ذَلِكَ رَجُلٌ مَثَلُ يَارَسُولِ
اللَّهِ . قَالَ : « بَلْ هُوَ مَثَلٌ بِالْحِلْفِ » . فَجَمَلَ حَلِيفَةُ الْقَوْمِ مِنْهُمْ ، كَمَا جَمَلَ
ابْنُ أُخْتِ الْقَوْمِ مِنْهُمْ .

ثُمَّ زَعَمَتْ أَنَّ الْأَرَاكَ قَدْ شَارَكُوا هَؤُلَاءِ الْقَوْمَ فِي هَذَا النَّسَبِ ، وَصَارُوا
مِنَ الْعَرَبِ بِهَذَا السَّبِّ ، مَعَ الْقَدَى بَنَوَاهُ مِنَ الْخِلَالِ ، وَخَبَّوَاهُ مِنَ
شَرَفِ الْخِلَالِ .

عَلَى أَنَّ وَلَا الْأَرَاكَ لِبَابِ قُرَيْشٍ ، وَلِلْمَصَاصِ عَبْدِ مَنَافٍ ، وَ[م]
فِي سَرِّ بَنِي هَاشِمٍ ، [وَهَاشِمٌ ^(٢)] مَوْضِعُ الْمَذَارِ مِنْ خَدِّ الْقُرَيْشِ . وَالْعِدِيدُ
مِنْ كَبَّةِ الْكَعَابِ ، وَالْجَوْهَرُ الْكَكُونُ ، وَالذَّهَبُ الْمَعْنَى ، وَمَوْضِعُ الْمَعْنَى
مِنَ الْبَيْضَةِ ، وَاللَّيْنُ فِي الرَّأْسِ ، وَالرُّوْحُ مِنَ الْبَدَنِ ؛ وَهِيَ الْأَنْفُ الْقَدَمُ ،
وَالسَّامُ الْأَكْبَرُ ^(٣) ، وَالدُّرَّةُ الزَّهْرَاءُ ، وَالرُّوْضَةُ الْخَضْرَاءُ ، وَالذَّهَبُ
الْأَحْمَرُ . قَدْ شَارَكُوا الْعَرَبَ فِي أَنْسَابِهِمْ ، وَلِلْمَوَالَى فِي أَسَابِهِمْ ، وَفَضْلِهِمْ

(١) الإصابة ٥٦٦ . وعكاشة بتشديد الكاف وتخفيفها . وفيه الحديث :
« سَبَّكَ بِهَا عَكَاشَةُ » .

(٢) ساقطة من الأصل ثابتة في سائر النسخ .

(٣) في سائر النسخ : « الْأَكْبَرُ » .

بهذا الفضل الذي لا يُلغى فضلُ وإنْ برَّحَ . بل لا يَبْشُرُهُ شرفٌ وإنْ عظمَ ، ولا مجدٌ وإنْ قَدِمَ .

فرُحِمَتْ أَنْ أُنَبِّأَ الجميعَ مقاربةً غيرَ متباعدة ، وعلى حسب ذلك التقارب تكون المَوَازرة والمكانفة ، والطاعة والناسخة ، والمحبة للخلفاء والأئمة .

وذكرت أَنَّهُ ذَكَرَ نُجَلَاءَ من مفاخرة الأجناس ، وجهرة من مناقب هذه الأصناف ، وَأَنَّهُ جَمَعَ ذَلِكَ وَقَصَّاهُ^(١) وفسره ، وَأَنَّهُ أَلْفَى ذَكَرَ الْأَثَرِ كَ فُلْمَ يَمْرُضُ لَمْ ، وَأَضْرَبَ عَنْهُمْ صَفْحًا ، يُخْبِرُ عَنْهُمْ كَمَا أَخْبَرَ عَنْ حُجَّةِ كُلِّ جِيلٍ . وعن بَرَهَانَ كُلِّ صِنْفٍ : وَذَكَرَ أَنَّ الْفَرَّاسِيَّ يَقُولُ : نَحْنُ الثَّقَبَاءُ وَأَبْنَا .
و ٢٣ الثَّقَبَاءُ ، وَنَحْنُ الثَّجَبَاءُ وَأَبْنَا الثَّجَبَاءُ ، وَمَنَا الدُّعَاءُ ، قَبْلَ أَنْ تَنْظُرَ نَقَابَةَ^(٢) .
أَوْ نَعْرِفَ تَجَابَةَ ، وَقَبْلَ الْغَالِبَةِ وَالْمَبَارَاةِ ، وَقَبْلَ كَشْفِ الْقِنَاعِ وَزَوَالِ الثَّغْيَةِ وَزَوَالِ مَلِكٍ أَعْدَانًا عَنْ مَسْتَقَرِّهِ ، وَثَبَاتِ مَلِكٍ أَوْلِيَانًا فِي نِصَابِهِ . وَبَيْنَ ذَلِكَ مَا أَتَيْنَا وَشَرَّدْنَا . وَنَهَكْنَا ضَرْبًا^(٣) وَبَضِعْنَا بِالشُّيُوفِ الْحَدَادَ^(٤) ، وَعَذَبْنَا بِأَلْوَانِ الْعَذَابِ .

وَبِنَا شَقَى اللَّهُ الْعُدُورَ ، وَأَدْرَكَ النَّارَ . وَمَنَا الْإِتْنَاعَشَرَ الثَّقَبَاءُ .
وَالسَّبْعُونَ الثَّجَبَاءُ . وَنَحْنُ الْخُنْدَقِيَّةُ^(٥) ، وَنَحْنُ الْكُفَيْيَةُ وَأَبْنَا الْكُفَيْيَةَ^(٦) .

(١) بجمع في معظم النسخ : « وأجمله » .

(٢) النقابة ، بالفتح المصدر . وبالكسر الاسم . والتغيب : تعريف على القوم .
أقدم عليهم الذي يتعرف أخبارهم ويتقرب عن أحوالهم .

(٣) م . ف : « وطلياً » .

(٤) الحداد : الرفعة ، جمع حديد . والبضغ : القمطع وتثقي .

(٥) الخندقية : أصحاب الخنادق أيام نصر بن سيار . كما سيأتي .

(٦) م . ف : « والكفئية وأبناء الكفئية » .

ومنا للتعجبية ومن يهرج التبيبة^(١) ومنا ييم خزان^(٢) وأصحاب الجوريين^(٣)
ومنا الزمخندية^(٤) والآذردية^(٥).

ونحن فحننا البلاد وقتلنا العباد، وأبدنا المدو بكل واد. ونحن أهل هذه
الدولة، وأصحاب هذه الدعوة، ومثيت هذه الشجرة. ومن عندنا هبت
هذه الرّيح.

والأنصار أنصارن: الأوس والطرزج نصر والنبي صلى الله عليه وسلم
أول الزمان، وأهل خراسان نصر وأورثته في آخر الزمان. غذانا بذلك
الهاونا وغدونا به أبنانا، وصار لنا نبا لا نعرف إلا به. وديننا لا نوال
إلا عليه.

ثم نحن على وتيرة واحدة، ومنهاج غير مشترك: نعرف بالشيعة،
بدين الطاعة، ونقتل فيها ونموت عليها. يمانا موصوف، ولياستامعروف.
نحن أصحاب الرّايات السود، والروايات الصحيحة، والأحاديث المأثورة،
والذين يهدمون مدن الجبابرة، وينزعون الملك من أيدي الظلمة. وفيما

(١) ن. س. : يهرج. م. : التبيبة.

(٢) ف. : ييم. بدل. نيم.

(٣) الجوريين مهلة في الأصل وإجمالها من س. ن. وفي ف. : الجوريين.

م. : الجوريين.

(٤) زغند، في القاموسية بمعنى موت الحيوان الوحشي. في الأصل: الصيدية
اللب. ما في سائر النسخ. وسيأتي قوله: «وكان الأسمرات التي تسقط منها الجبال»:

(٥) الآذردية، اسم كان يطلق على طبقة الأشراف من الفرس. انظر مقال
الله. وكرلوس في مجلة الثقافة العدد ٢٢٤.

تَقْدَمُ الْخَبَرُ ، وَصَحَّ الْأَمْرُ . وَجَاءَ فِي الْحَدِيثِ صِفَةُ الَّذِينَ يَفْتَحُونَ مَحْشُورَةً^(١) وَيُظْهِرُونَ عَلَيْهَا ، وَيَقْتُلُونَ مُقَاتِلَيْهَا وَيَسْبُونَ ذُرَارِيَهَا ، حَيْثُ قَالُوا فِي نَفْسِهِمْ : « شُعُومُ شُعُورِ النَّسَاءِ ، وَثِيَابُهُمْ ثِيَابُ الرِّهَانِ » . فَصَدَّقَ الْفَعْلُ الْقَوْلَ ، وَحَقَّقَ الْخَبَرُ الْحَيَانَ .

وَنَحْنُ الَّذِينَ ذَكَرْنَا وَذَكَرَ بَلَاءُنَا أَمَامُ الْأُمَمَةِ ، وَأَبُو الْخِلَافَةِ الْفُشْرَةِ : مُحَمَّدُ بْنُ عَلِيٍّ^(٢) ، حِينَ أَرَادَ تَوَجُّعَ الدُّعَاءِ إِلَى الْآلِ الْكَافِ ، وَتَفْرِيقَ شِيعَتِهِ فِي الْبِلَادِ ، أَنْ قَالَ :

٢٣ ظ

أَمَّا الْبَصْرَةُ وَسَوَادُهَا فَقَدْ غَلَبَ عَلَيْهَا عَنَانٌ وَصَنَاعٌ عَثَانٌ ، فَلَيْسَ بِهَا مِنْ شِيعَتِنَا إِلَّا الْقَلِيلُ . وَأَمَّا الشَّامُ فَشِيعَةُ بَنِي مَرْوَانَ وَآلِ أَبِي سُوَيْفَانَ . وَأَمَّا الْبَزْزَةُ فَخَرَّورِيَّةٌ شَارِيَّةٌ^(٣) ، وَخَارِجَةٌ مَارِجَةٌ ، وَلَكِنْ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الشَّرْقِ ؛ فَإِنَّ هَٰذَاكَ صَدُورًا سَلِيمَةً وَقَنُوبًا بَاسِلَةً ، لَمْ تُفْسِدْهَا الْأَهْوَاءُ ، وَلَمْ تَخْلُمْهَا الْأَدْوَاءُ ، وَلَمْ تَمَسَّهَا الْبِدْعُ ، وَهُمْ مَغِيظُونَ مَوْتُورُونَ . وَهَٰذَاكَ الْقَدَدُ [وَالْمُدَّةُ^(٤)] ، وَالتَّنَادُ وَالتَّجَدُّدُ .

(١) محورية : بلدي بلاد الروم ، فتحها المعتمد العباسي سنة ٢٢٣ . ولهذا التفتح قصة عجيبة في كتب التاريخ . وفيه يقول أبو تمام :

يا يوم وقعة محورية انصرفت عنك التي حلفا مصيلة الحلب

(٢) محمد بن علي بن عبد الله بن العباس ، والد السفاح والمنصور ، أول من نطق بالدعوة العباسية . توفي سنة ١٢٥ . تهذيب التهذيب .

(٣) الشارية : جمع شار ، وهم الذي شروا أنفسهم أي باعوها في سبيل الله ، وهم الخوارج .

(٤) ساقطة من الأصل ثابتة في سائر النسخ .

نم قال : [وأنا أنفعل^(١)] إلى حيث يطلع منه النهار^(٢) . فكثرت غير جند
ليخبر إمام ؛ فصدقتا ظنه ، وكثبتا رأيه ، وصوبنا فرائسته .

وقال مرة أخرى :

أمرنا هذا شرق لا غرب ، ومقبل لا مدبر^(٣) ، يطلع كطلوع الشمس ،
ويبتدئ على الآفاق امتداد النهار ، حتى يبلغ حيث تباينه الأخفاف^(٤) ، وتناوله
الموافر .

قالوا : ونحن فتننا الشخص^(٥) ، والدقيقة ، والذكوانية ، والراشدية^(٦) .
ونحن أيضاً أصحاب الخنادق أيمان نصر بن سيار ، وابن جندب الكرماني^(٧) ،
وشيبان بن سلمة الطارجي . ونحن أصحاب نبأته بن حنظلة^(٨) ، وعلم بن
ضهارة^(٩) ، وأصحاب ابن هيرة . فلنا قديم هذا الأمر وحديثه ، وأوله وآخره .

(١) موضعها يامن في الأصل . وإثباتها من سائر النسخ .

(٢) م . ف : « إلى حيث ما تطلع » قط . ن . س : « إلى حيث يطلع النهار » .

(٣) م . ف : « غير مدبر » .

(٤) م . ف : « حيث تباينه الأخفاف » .

(٥) في الأصل ، م . ف : « الشخصية » صوابه في ن . س .

(٦) الشخصية : نسبة إلى مصحح . وكان أحد التكاوين . انظر الحيوان
٣ : ٣٩٥ والبخلا ، ٤ والطبري ٩ : ١٣١ في حوادث سنة ١٣٢ . والدقيقة . بدلها في
المباري : « الذكوانية » . والراشدية ذكرهم الطبري في لوضع الذي أشرت إليه .

(٧) هو علي بن جندب الكرماني . الطبري ٩ : ٩١ . ٩٧ . والاشتقاق ٢٩٥
١٠ اندر المخطوطات ٢ : ١٨٦ . ١٩١ . وجمهرة ابن حزم ٣١٧ .

(٨) جمهرة أسبب العرب ٢٨٣ . وهو من بني كلاب بن ربيعة .

(٩) الاشتقاق ٢٨٩ . ٢٩٠ . وجمهرة ٢٥٤ . وكان من قول ابن هيرة .

(٢ - رسائل الجاحظ)

ومنا قاتل مروان^(١) .

ونحن قوم لنا أجسام وأجرام ، وشعور وهام ، ومناكب عظام ،
وجباه عراض ، وقصر غلاظ^(٢) ، وسواعد ضوال .

ونحن أولئك للذكورة ، وأنثى بقولة ، وأقل ضوى وضووة ، وأقل
إنثا وأنتق أرحاما^(٣) . وأشد عسبا وأتم عظاما ، وأبدنا أتمل السلاح ،
وتجفأنا^(٤) أملا للميون .

ونحن أكثر مادة ، وأكثر عددا وعدة .

ولو أن ياجوج وماجوج كاثروا من وراء النهر منا لظهروا عليهم بالتدد .
فإنما الأبد وشدة الأثر ، فليس لأحد بعد عاد ونمود والمعاقة والكمنائين
مثل أيدنا وأسرنا .

(١) في الطبري ٩ : ١٣٦ أن قاتل مروان بن محمد سنة ١٣٢ رجل من أهل
البصرة يقال له « النود » . في الأصل : « وبنا قاتل من ولي » ، صوابه في سائر النسخ .
(٢) القصر ، بالتحريك : جمع قصرة . وهي أصل العنق . وبه فسر ابن عباس
قوله تعالى : « إنها ترى بشر كالقصر » في قرأته بفتح الصاد . في الأصل : « قصص »
وفي ن . س : « قصص » صوابه في م ، ف .

(٣) هذا ما في م ، ف . والإنثام : أن تله اثنين في بطن . وأنتق أرحاما :
أكثر ولادة . وفي الأصل : « وأجل أحسابا وأوتق أبدانا » وفي ن . س
« وأقل أيامنا وأنتق أرحاما » . لكن بعض أصول ن توافق الأصل .

(٤) التجفاف : ما جل به الفرس من سلاح وآلة تحبه الجراح في الحرب
وفي الأصل : « وخفأنا » وفي سائر الأصول : « وأخفأنا » ، والوجه ما أثبت
وفي البيان ٣ : ١٨ في قول الشعوية : « ولا تمرغون الأقيمة ولا السرويلات .
ولا تليق السيوف ، ولا الطبول ولا البنود ولا التجانيف » وانظر ص ١٩ س ١٢ .

ولو أن خيول الأرض وفرسان جميع الأطراف نجعوا في خلبة واحدة ،
لكُنّا أكثر في العيون ، وأهول في الصدور .

ومتي رأيت مواكبتنا وفرساننا ، وبنودنا التي لا يحصاها غيرنا ، علمت
أننا لم نخلق إلا لقلب القؤل ، وطاعة الخلفاء ، وتأيد السلطان .

و ٢٤

ولو أن أهل الثبت ورجال الزابج^(١) ، وفرسان الهند ، وخلبة الزوم ، هجم
عليهم هاشم بن أستاخنج^(٢) لما امتنعوا من طرح السلاح والحرب في البلاد .
ونحن أصحاب الله وأرباب التقى ، وأهل الحلم والحجبا ، وأهل
الشخانة^(٣) في الرأي ، والبعد من الطيش . ولنا كجند الشام للتعرضين للحرّم ،
وللتنهكين لكل محرم .

ونحن ناس لنا أمانة وفينا عفة . ونحن نجتمع بين النزاهة والقناعة والصبر
على الخدمة ، والتجبر عند بدء الشقة^(٤) . ولنا الطبول المتهوّة المظام والبنود ،
ونحن أصحاب التجافيف والأجراس ، والبازيكند^(٥) واللبود العلوال ، والأغناد

(١) الزابج بفتح الباء وكسر ها : جزيرة في أقصى بلاد الهند في حدود الصين .
وفي الحيوان ٧ : ٣٣٠ : « وزعم تجار الثبت ممن قد دخل الصين والزابج » . م :
« الزنج » ، تحريف .

(٢) كلمة « بن » ساقطة من الأصل . وإثباتها من سائر النسخ والطبرى
٢٨٣ : ٩ . وتكل هاشم هذا سنة ١٥٢ .

(٣) في الأصل : « التجابة » ، وفي م ، س : « التجابة » . وأثبت
مالي سائر النسخ . والمراد قرة الرأي وجزائه .

(٤) تجبر الجليش : إيقاؤه في ثمر العدو .

(٥) الباز بكند . يبدو أنه كسا ، يلقى على الكتف . و « باز » في الفارسية =

للقنفه^(١) والشوارب المحفرة ، والقلائس الشائبة ، والخيول الشهيرة^(٢) .
والكافر كوبات^(٣) والطبرزيات^(٤) [في الأكف] ، والخنجر في الأوساط .
ولنا حسن الجلالة على ظهور الخيل . ولنا الأصوات التي تسقط منها الحياتي .
وليس في الأرض صناعة غريبة من أدب وحكمة ، وحساب وهندسة ،
وإبداع وصنعة^(٥) ، وصدق ورواية ، نظرت فيها الخراسانية إلا قرعت فيها
الرؤسا^(٦) ، وبرت فيها العلماء .

ولنا صنعة السلاح من ليد وركاب ودروع . ولنا مما جعلناه رياضة
ونمريتنا ، وإرهاصا للحرب ، وتنقيفا ودربة الجاولة والشائلة ، [و] للكفر

= بمعنى الكف . انظر اليان ١ : ٩٥ / ٣ : ١١٥ . في الأصل : « الباركد »
وفي سائر النسخ : « البار فكد » .

(١) اللقفة : العرجة . وذلك لاعوجاج السيوف التي تجعل فيها . ف :
« والأعمدة والحفلة » ج : « والأعمدة واللقفة » .

(٢) في اليان : « والشهيرة : ضرب من البراذين ، وهو بين البرذون والقرى
من الخيل » .

(٣) الكافر كوبات : جمع كافر كوب . وهي القرعة . انظر حواشي اليان
١ : ١٤٢ . في الأصل : « الكافر كورات » . صوابه في سائر النسخ .

(٤) الطبرزيات : جمع طبرزين ، وهو فارس تستعمل في القتال عند الفرس .
مركب من « تبر » بمعنى الفأس ، و « زين » بمعنى السرج ، ولله سمي بذلك للبرام
وضعه بجانب السرج . استينجاس ٢٧٠ والحرب ١٩٤ والألفاظ الفارسية ١١١ .
وكلمة « في الأكف » بعدها من سائر النسخ .

(٥) م . ف : « وارتفاع بناء وصنعة » .

(٦) قرعته : علاه وطاله .

بعد الكز : مثل الدُّبُوق^(١) ، والتزُّو على الخيل صغراً ، ومثل العُطْبَاب^(٢) والصَّوَالِجِ الكبار ، ثم رمى الجُشَّة^(٣) ، والبرجاس^(٤) والطائر الخُطَاف .
فنعن أحمق بالأثرة^(٥) ، وأولى بشرف المنزلة .

ثم قلت : وزعم أن القرية^(٦) تُشَقَّقُ بالأسباب الناتجة ، وبالأرحام الشائكة ، وبالقدمة ، والطاعة للآباء ، والعشيرة ، والشكر النافع ، وللدعج الكافي^(٧) بالشعر للوزون الذي يبقى بقاء الدهر ، وبفوح مالاخ نعيم ، ويُشَدُّ ما أهل بالخج ، وما هبت العبا ، وما كان للزيت عامر : وبالكلام للشور والقول للأثور . أو بصفة عرج الهوة والاحتجاج للدعوة ، وحيد المآثر ، إذ لم يكن ذلك من^(٨) [عادة المعجم ، ولا كان يُحفظ ذلك معروفا لسوى العرب . ونحن نرتبطها بالشعر المُقَنَّى ، ونصلها بحفظ الأُمَمِينَ^(٩) . الذين

٢٤ ظ

(١) في اللسان : « الدبوق : لعبة يلعب بها الصبيان » ، هروفة .

(٢) العُطْبَاب : مضرب الكرة .

(٣) الجُشَّة : منصب من الحيوان لرمى والقذف .

(٤) البرجاس : غرض في الهواء على رأس رمح أو نحوه . الألفاظ الفارسية

١٨ . في الأصل م : « البرجاس » وفي ف : « البرجاسبار » ، وأثبتت مافي سائر النسخ .

(٥) في الأصل وبعض أصول ن : « بالإمرة » . وانظر ٢٥ س ٩ و ٢٨ س ١٤ .

(٦) القرية : القرابة . م : « إن تسكن القرية » ف « إن تسكن القرى » :

(٧) م ، ف : « والدعج الباقي » ولعلها : « والدعج الباقي » .

(٨) التشككة من سائر النسخ .

(٩) في الأصل : « الأثر » ، سوابه من سائر النسخ . وقد سقط بعده سقط كبير

ينتهي في م ٢٥ أثبتته من سائر النسخ بين معقدين .

لا يتكفون على الكتب للدونة ، والخطوط للطرسة . ونحن أصحاب الضأخر
والتنافر ، والتنازع في الشرف ، والتحاكم إلى كل حكم مُتَعَمِّق وكاهن سَجَاع
ولنا التعاير بالتأليب ، والتضأخر بالتأليب . ونحن أحفظ لأنسابنا ، وأرعى لحقوقنا
وتقيدها أيضاً بالنشور المرسل ، بعد للوزون العدل ، بلسان أمضى من الشان ،
وأوهف من السيف الحسام ، حتى نذكرهم ماقد درس رُشْمُهُ ، وعفا أثره .

وبين القتال من جهة الرغبة والرغبة فرق ، وليس الشرق في الحفاظ كن
هذا فيه حادث . وهذا بابٌ يتقدم فيه التالذ القديم الطارف الحديث .

وطلاب الطوائل رجلان : سجتاني وأعرابي . وهل أكثر التقباء
إلا من صميم العرب ، ومن صليبة هذا النسب ، كُأبى عبد الحميد قَحْطَبَة
ابن شبيب الطائي ، وأبى محمد سليمان بن كثير الخزاعي ، وأبى نصر مالك
ابن الميثم الخزاعي ، وأبى داود خالد بن إبراهيم الذُهَلِيّ ، وكأبى عمرو لاهز
ابن قريظ المزني^(١) ، وأبى عتيبة موسى بن كعب التمراني^(٢) ، وأبى سهل القاسم
ابن مجاشع المزني ، ومن كان يمرى يمرى النقباء ولم يدخل فيهم ، مثل مالك
ابن الطواف المزني .

وبعد فن هذا الذي باشر قتل مروان^(٣) ، ومن هزم ابن هيرة ، ومن

(١) نسبة إلى امرئ القيس . فهو لاهز بن قريظ بن سري بن الكاهن بن
زيد بن عتبة بن امرئ القيس . جبهة أنساب العرب ٣١٤ . قال : « كان من وجوه
أهل دعوة بني أمية » وفي الأصول : « للزني » .

(٢) إن صح كان نسبة إلى مروان بن جعفر بن سعد العشيرة . انظر جبهة ابن
حزم ٤٠٩ والعارف ٤٨ .

(٣) انظر سابق في ص ١٨ . ويبدو أن قتل مروان بن محمد كان موضع مفارقة
بين العرب وغيرهم .

قتل ابن ضبارة ، ومن قتل نيبطة بن حنظلة ، إلا عَرَبُ الدَّعْوَةِ ، والعَصِيمُ من أهل الدولة ؟! ومن فتح السُّنْدَ إلا موسى بن كعب ، ومن فتح إفريقية إلا محمد ابن الأشعث ؟!

وقلت : وقال : ويقول المولى : لنا النصيحة الخالصة ، والحجة الراسخة ، ونحن موضع الثقة عند الشدة . وعالمٌ للمولى ^(١) من نعمتٍ موجبة لحبة المولى من فوق ، لأنَّ شرف مولاه راجعٌ إليه ، وكرمه زائدٌ في كرمه ، وخوفه : سقطَ قدره . وبودَّه أنَّ خصال الكرام كلها اجتمعت فيه ؛ لأنه كلاً كان . ولله أكبر وأشرف وأظهر ، كان هو بها أشرف وأنبى . ومولاه أسلمت سمرًا ، وأردُّ ضميرًا ، وأقلَّ حذرًا .

وبعدُ فاللؤلؤ ، لحمة كلحمة النسب ^(٢) ، فقد صار لنا النسب الذي يصوبه المربي ، ولنا الأصل الذي يقتخر به المعجى .

قال : والصبر ضروري ، فأكرمها كلها المعبر على إفتاء السر . وللمولى ، هذه المكربة ما ليس لأحد .

ونحن أخضرٌ مدخلًا ، وألطف في الخدمة ملكًا . ولنا مع الطاعة والخدمة والإخلاص وحسن النية ، خدمة الأبناء ، والآباء ، والآباء للأجداد ، وهم بمواليهم آتس ، وبناحياتهم أوثق ، وبكفائتهم أسر .

وقد كان المنصور ، وعبد بن علي ، وعلي بن عبد الله ، يخطرون مواليتهم بالمرأكة والبسط والإناس ، لا يهرجون الأشرار لسواده ^(٣) ، ولا الصميم

(١) م : « المولى » ، وكذا بعض أصول ن .

(٢) انظر ما سبق في ١٢ س ٧ .

(٣) بهرج النوى : أبطله وأهدره . والمراد أنهم لا يضمنون من قدره .

لدماعت ، ولا الصناعة الدينية لدعاتها . ويرصون بحفظهم أكابر أولادهم ،
ويعلمون لكثير من موتاهم الصلاة على جنازتهم ، وذلك بحضرة من الصوامة
وبني الأعمام والأخوة .

ويتذكرون إكرام رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة
مولاه ، حين عقد له يوم مؤتة على جثة بنى هاشم ، وجعله أمير كل بلدة
يطؤها^(١) .

ويتذكرون حبه لأسامة بن زيد ، وهو الحب بن الحب^(٢) . وعقد له
على عظماء المهاجرين وأكابر الأنصار .

ويتذكرون صنيعه بساتر مواليه ، كابي أنفة^(٣) . وشقران^(٤) ،
وقلان وفلان .

قالوا : وفنا من رموس النقباء أبو منصور مولى خزاعة ، وأبو الحكم
عيسى بن أعين مولى خزاعة ، وأبو النجم عمران بن إسماعيل مولى آل

(١) أى يدخلها ويمنعها .

(٢) الثانية للجاحظ ١٤٧ ، وقد وقع هناك تحريف في الطبع .

(٣) اختلف في اسم قبيل أنفة أيضا كما في الإصابة ٣٨٥ . وكان حبشيا كافرا
جذوع السيرة لابن حزم ١١٤ وكان يأذن على النبي صلى الله عليه وسلم . و.م.ت
في خلافة أبي بكر .

(٤) شقران يقال كان اسمه صالح بن عدى ، وكان حبشيا أهداه عبد الرحمن بن
عوف لرسول الله . الإصابة ٣٩١١ . وهو أحد من ولي رسول الله صلى الله عليه وسلم
في نبره . جذوع السيرة ٣٦٥ . وذكر ابن هشام في السيرة ١٠١٨ أنه تولى صب
الاء عليه في غسله .

أبي مُعَيْط . فلما منقلب الخراسانية ، ولما منقلب اللواتي في هذه الدعوة ،
 ونحن منهم وإليهم ، ومن أنفسهم ، لا يدفع ذلك مسلم ولا ينكره مؤمن ،
 خدمتهم كباراً وحملتهم على عواتقنا صغاراً . هذا مع حق الرضاع والخزوة ،
 والنشوء في الكتائب ، والتقلب في تلك العيراص التي لم يبلغها إلا كل
 سيد الجند ، وجبه في الملوك . فقد شاركنا العرب في غزوه ، والخراساني
 في مجده ، والبنوي في فضله ، ثم تفرّدنا بما لم يشاركونا فيه ، ولا سبقونا إليه .
 قالوا : ونحن أشكل بالعتية ، وأقرب إلى طباع الضمائم ؛ وهم بنا آسن
 وإلينا أسكن ، وإلى قاتنا أحن ؛ ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطف ، وبهم
 أشبه . فنحن أحن بالآخرة ، وأولى بحسن النزلة ممن هذه الخصال له ، وهذه
 الخلال فيه .

وقلت وذكر أن البنوي قال :

أنا أصلي خراسان ، وهي تخرج الدولة ومطلع الدعوة ؛ ومنها نجم هذا
 القرن ، وصبا هذا الناب^(١) ، وتغفر هذا التيموم ، واستفاض هذا البحر ،
 حتى ضرب الحق بجمراته^(٢) ، وطبق الأفاق بضياته ، فأبرأ من الشتم القديم ،
 وشفى من الداء الفضال ، وأغنى من القيلة^(٣) ، وبغفر من العسى^(٤) .

(١) صبا الناب : طلع حده وخرج .

(٢) ضرب بجمراته : استقر وثبت . وأصل الجمران باطن عنق البعير . فإذا
 برك البعير واستقر قيل : ألقى جمراته . وفي حديث عائشة أيضاً : « حتى ضرب الحق
 بجمراته » .

(٣) أي بعد البلية وهي الفقر .

(٤) هنا يذهب السقط الذي بدأ في ص ٢١ ، وأجابه من سائر النسخ .

قال : وفرعى بغداد ، وهى مستقرُ الخلافة ، والقرار بعد الحولة^(١) ،
وفيهما بقية رجال الصعوبة ، وأبناء الشيعة ، وهى خراسان العراق ، وبيت
الخلافة ، وموضع المأذنة .

قال : وأنا أعرفُ فى هذا الأمر من أبى ، وأكثرتُ تردداً فيه من جدى^(٢) ،
وأحقُّ فى هذا الفضل^(٣) من المؤلى والعربى . ولنا بعدُ فى أنفسنا حالاً ينكر من
الصبر تحت ظلال الشيوف القصار والزمامح الطوال^(٤) . ولنا معاينة الأبطال
عند تعلم القنا واحطاع الصفائح^(٥) . ولنا اللوإجاة بالنسكاكين ، وتلقى الخناجر
بالميون ، ونحن حواة للسلح ، وأبناء التضايق . ونحن أهل الثبات عند
الجولة ، وللمرفة عند الحيرة^(٦) ، وأصحاب الشهوات ، وزينة الساكر
وحلى الجيوش ، ومن يمشى فى الرميح ، ويختال بين الصفين . ونحن أصحاب
الفتك والإقدام ، ولنا بعدُ النساق ، ونقب المدن ، والتضح على طلبات
السيوف وأطراف الرماح . ورفض الجندل . وهشم الغمد ، والصبر على
الجراح وعلى جرّ السلاح^(٧) إذا طار قلب الأعرافى ، وساء ظن الخراسانى .
ثم الصبر تحت العقوبة ، والاحتجاج عند السائلة . واجتماع العقل ، ومحنة

(١) الحولة . بالحاء المهملة الفتوحة : التحول والتقلد .

(٢) فى الأصل ون . س : « وأكثرتُ تردداً من جدى » . وأثبت ما فى م . ف .

(٣) ج . ف : « وأحقُّ بهذا الفضل »

(٤) جده سقط فى الأصل ، ثمأ . فى ص ٢٨ س ٩ .

(٥) الصفائح : جمع صنيعة ، وهى السيف العريض .

(٦) ج وبعض أصول ن : « الحيرة » . وفى سائر النسخ : « الحيرة » .

والوجه ما أثبت .

(٧) يقال أجره الرمح . إذا طعنه به فثنى وهو يجره .

الطرف ، وثبات القدمين ، وقلة التكنف بحبل النقبين^(١) ، والبعد من الإقرار^(٢) ، وقلة الخضوع للدهر واللعنوع عند جفوة الزوار^(٣) وجفاء الأقارب والإخوان .

ولنا القتال عند أبواب الخنادق ، ورمس القناطر . ونحن الموت الأحر عند أبواب الثقب . ولنا المواجهات في الأزقة ، والصبر على قتال الشجون . فقل عن ذلك الخائدية^(٤) ، والكسفة ، والبلائية . وانغريبية^(٥) . ونحن أصحاب المكابدة^(٦) وأرباب التيات ، وقتل الناس جهاراً في الأسواق والمعقات .

ونحن نجتمع بين السلة والمزاحمة^(٧) . ونحن أصحاب القنا الطوال ماكنة رجالة ، والتطارد القصار ماكنة فرسانا^(٨) . فإن ميرنا كمننا^(٩) فالحنف

(١) التكنف : التقليل والقتل . والقناطر : خشبان يشح بينهما الرجل فيجهد . القنا (قنب) وجى الجنبز ٨٠ .

(٢) ف ققط : « من الفرار » . والمراد الإقرار بالله .

(٣) في معجم الأصول : « حنوة » . بالحاء المهملة ، والوجه ما أثبت .

(٤) طائفة منسوبون إلى خلد . وجاء في البخلاء ٤٢ - ٤٣ : « مدعى الكسفة والحلبدية والحريبية والبلائية » . ويدو أنهم طوائف من أهل الشعب والفوضى .

(٥) الحريبية : نسبة إلى الحرية ، بالتصغير . وهي موضع بالبصرة . يدو أنه كان أولى القطار .

(٦) هذا ما في ف . وفي سائر الأصول : « المكابرات » .

(٧) السلة : الدفعة في السباق إحضاراً .

(٨) المطارد . جمع . مطرد بالكسر . وهو الرمح القصير .

(٩) جمع كبن . وهم الذين يكذبون ويخفون في الحرب .

القاضي ، والسهم اللداعف . وإن كنا طلائع فكلنا يقوم مقام أمير الجيش .
فقاتل بالليل كما فقاتل بالنهار ، وقاتل في الماء كما فقاتل على الأرض ، وقاتل
في القرية كما فقاتل في الحقل .

ونحن أنطك وأخشب^(١) ، ونحن أقطع للطريق وأذكر في الثغور ،
مع حسن القلود وجودة الخمرط ومقادير الشحى ، وحسن العبة ، والنفس المبررة .
وأصحاب الباطل والفتنة^(٢) ، ثم الخط والكثابة ، والفقه والرواية .

ولنا بنداؤ بأسرها ، تسكن ما سكنا ، وتتحرك ما تحركنا . والدنيا
كلها معاقبة بها ، ومناثرة إلى معناها . فإذا كان هذا أمرها وقدرها لجميع
الدنيا تبع^(٣) لها . وكذلك أهلها لأهلها . وقتلها لقتلها . وخلعها
لخلعها^(٤) ، ورؤسؤها لرؤسائها ، وصلواتها لصلواتها .

ونحن بعد تربية الخلفاء ، وجيران الوزراء ، وكلدنا في أقبية مئوكنا ،
ونحن أجنعة خلفائنا ، فأخذنا بأمارهم ، واحذينا على مثالهم ، فلما نعرف
سوامهم . ولا نعرف بنبرهم ، ولا يطمع فينا أحد قط من خطاب ملوكهم ،
ومن يترشح للاعتراض عليهم . فمن أحق بالأثرة ، وأولى بالقرب في التركة
يتمن هذه الخصال فيه . وهذه الخلال له .

(١) أي أعد خشيونة وغلاظة .

(٢) كلمة « الباطل » ساقطة من ف .

(٣) هنا ينتهي سقط الأمد الذي بدأ في ص ٢٦ ر ٦ وإتيانه من سائر النسخ .

(٤) كذا في جميع النسخ .

بسم الله الرحمن الرحيم

إِنْ ذَهَبْنَا حَفْظَكَ اللَّهُ بِمَقْبِ هَذِهِ الِاحْتِجَاجَاتِ ، وَعِنْدَ مَقْطَعِ هَذِهِ
الِاسْتِدْلَالَاتِ ، نَسْتَعْمِلُ هَذِهِ الْمَعَارِضَ^(١) بِمَقَابِلِ الْأَرَاكِ ، وَلِلْوِازِنَةِ بَيْنَ
خَصَائِمِ وَخِصَالِ كُلِّ صَفٍّ مِنْ هَذِهِ الْأَصْنَافِ ، سَلَكْنَا فِي هَذَا الْكِتَابِ
سَبِيلَ أَصْحَابِ الْمُصَوِّمَاتِ فِي كُتُبِهِمْ ، وَطَرِيقَ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ فِي الْاِخْتِلَافِ
الَّذِي يَنْشَبُ عَنْهُمْ .

وَكِتَابُنَا هَذَا إِنَّمَا نَكَلِّفُهُهُ لِنُؤَافِ بَيْنَ قُلُوبِهِمُ الَّتِي كَانَتْ مَخْتَلِفَةً ، وَلِنُزِيدَ
الْأَلْفَةَ إِنْ كَانَتْ مَزْتَلِفَةً ، وَلِنُخَيِّرَ عَنْ اتِّفَاقِ أَسْبَابِهِمْ لِنَجْمِعَ كُلَّهُمْ ، وَلِنَقْلَمَ
صُدُورَهُمْ ، وَلِنَعْرِفَ مَنْ كَانَ لَا يَعْرِفُ مِنْهُمْ مَوْضِعَ التَّفَاوُتِ فِي النِّسْبِ ،
وَكَمْ مَقْدَارُ الْاِخْتِلَافِ فِي الْخُصْبِ^(٢) ، فَلَا يَغْيِرُ بَعْضُهُمْ مَغْيِرَ ، وَلَا يَغْدُوْهُ عَدُوٌّ
بِأَهَابِلِ مُمُوْهَةٍ وَشَبَاهِ مَزُوْرَةٍ : فَإِنَّ الْمُنَافِقَ الْعَلِيْمَ ، وَالْعَدُوَّ ذَا الْكَيْدِ الْعَظِيْمَ ،
قَدْ يَصُوْرُ لَمْ يَبْأْطِلْ فِي صُوْرَةِ الْحَقِّ ، وَبَلِيْسُ الْإِسَاعَةِ ثِيَابَ الْحَزْمِ .
إِلَّا أَنَّ عَلَى حَالِ سَنَدِ كَرَجَلًا مِنْ أَحَادِيثِ رُوَيْنَاهَا وَوَعَيْنَاهَا ، وَأَسْوَرِ رَأْيَانَاهَا
وَشَاهِدِنَاهَا ، وَفَضَائِلِ نَاقَضَتْنَاهَا^(٣) مِنْ أَفْوَاهِ الرِّجَالِ وَصَحَافِهَا .

٢٥

وَسَنَذَكِّرُ جَمِيعَ مَا فِي هَذِهِ الْأَصْنَافِ^(٤) مِنَ الْآلَاتِ وَالْأَدَوَاتِ ، ثُمَّ نَنْظُرُ
أَيْتَهُمْ لِمَا أَشَدَّ سَتْمَالًا ، وَبِهِ أَشَدُّ اسْتِغْلَالًا ، وَمَنْ أَثَقَبَ كَيْسًا وَأَفْخَعَ عَيْنًا

(١) مَا عُدَّ الْأَصْلَ وَبَعْضُ أَصْوَلِهِ : « الْمَعَارِضُ » . وَالْوَجْهُ مَا أَثَبَتْ .

(٢) - . ف : « كَمْ مَقْدَارُ » . عَدُوٌّ وَارٍ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « نَقَضَتْنَاهَا » . وَاثَبَتْ مَا فِي سَائِرِ النُّسخِ .

(٤) فِي سَائِرِ النُّسخِ : « مَا حَفِظَ خَلِيعَ الْأَصْنَافِ » .

وأذكر بقاءً ، وأبعد غوراً وأجمع أسراً ، وأعمّ خواطر وأكثُر غرائب ،
وأبدع طريقاً ، وأدومّ نعماً في الحروب ، وأضمرى وأدبُ ذريةً ، وأغصُ
مكيدةً^(١) ، وأشدُّ احتراساً وألفُ احتيالاً ؛ حتى يكون الخيار في يد الناظر
للتصفح لعنايه ، ولقلب لوجوهه ، والفكر في أبراهه ، والتقابل بين أوله
وآخره . فلا نكون نحن استعلاء شيئاً دون شيء ، وتقلدنا تفضيل بعض
على بعض . بل [لعائن أن لا^(٢)] نخبر عن خاصة ما عندنا بحرف واحد .

فإذا دبرنا كتابنا هذا التدبير ، وكان موضوعه على هذه الصفة . كان
أبعد له من مذاهب الجدال والبراء ، واستعمال الهوى .

وقد ظنّ ناسٌ أن أسماء أصناف الأجناس كما اختلفت في الصورة
وانططت والمجاء ، أن حقائقها^(٣) ومعانيها على حسب ذلك . وليس الأمر
على حسب ما توهمه ؛ ألا ترى أن اسم الشاكرية^(٤) وإن خالف في الصورة
والمجاء اسم الجنود ، فإن المعنى فيها ليس بيميد ؛ لأنهم يرجعون إلى معنى
واحد وعمل واحد . والذي إليه يرجعون طاعة الخلفاء ، وتأيد السلاطان .

وإذا كان المولى منقولاً إلى العرب في أكثر المعاني ، وبحمولاً منهم في طائفة

(١) بده في الأصل : « وأبدع طريقاً وأدومّ نعماً في الحروب » ، وهو تكرار .

(٢) التكة من سائر النسخ .

(٣) ج . ف . هـ : كانت حقائقها .

(٤) الشاكرية : ضرب من الجنود . وفي القاموس : « الشاكرى : الأجير

المستخدم » ، عرب چاكر . وانظر الحيوان ٢ : ١٣٠ .

الأسباب ، لم يكن ذلك باهيجاً ممن جمل الخلال ولداً ، وخليف من الصميم ، وابن الأخت من القوم .

وقد جمل ابن الملاعة^(١) للولود على فراش البعل منسوباً إلى أمه .

وقد جعلوا إسماعيل وهو ابن مجسمين عربياً : لأن الله تعالى فتق لهاته بالريشة السخنة على غير الحاقين والترتيب . ثم فطره على الفعاحة العجيبة على غير النسو والتقدير^(٢) ، وسلخ طباعه من طباع العجم ، وهل إلى بدنه تلك الأجزاء ، زودكه اختراعا^(٣) على ذلك التركيب ، وسواء تلك التسوية ، وصاغه تلك الصياغة^(٤) ، ثم حياء من طباعهم ، ومنحه من أخلاصهم وشمالهم ، وعلقه من كرمهم واشتيتهم ومهمهم على أكرمها وأمكنها ، وأشرفها وأعلاها ، وجعل ذلك برهاناً على رسالته ، ودليلاً على نبوته : فكان أحق بذلك النسب ، وأولى بشرف ذلك الحسب .

وكا جمل إبراهيم أبنا لمن لم يلد ، فالبنوي خراساني من جهة الولادة ، والولي عربي من جهة المدعى والعاقلة^(٥) . وإن أحاط علماً بأن زيداً لم يخلق من نجل عمرو إلا عيلاً لتفنيته عنه^(٦) ، وإن وثقتنا^(٧) أنه لم يخلق من صلبه .

(١) الملاعة : أن يخفف الرجل امرأته رجل أنه زنى بها .

(٢) وكذا في بعض أصول ن ، وفي سائر النسخ : « والفرين » .

(٣) التسكة من سائر النسخ .

(٤) وكذا في بعض أصول ن ، وفي سائر النسخ : « الصيفة » .

(٥) انظر ما سبق في ص ١٢ الحاشية ٣ .

(٦) في الأصل وبعض أصول ن : « إلا بما هو ألحقناه به » .

(٧) وكذا في بعض أصول ن ، وفي سائر النسخ : « وإن أيقنا » .

وكا يجعل النبي صلى الله عليه وسلم أزواجه أشتات المؤمنين ومن لم يهنهم ولا أرضعنهم ، وفي بعض القراءات ^(١) : « وَأَزْوَاجُهُ أَسْتَأْتُهُمْ وَهِيَ أَبْتُلْهُمُ » ، على قوله : « مِلَّةٌ أُبَيِّكُمْ إِذْزِلَهُمْ » ^(٢) . وجعل للمرأة من جرة الرضاع أمًا ، وجعل [امرأة] البعل أم ولد البعل من غيرها ، [وجعل] الرب والدة ، وجعل الم أمًا [في كتاب الله ^(٣)] . وهم عبيده لا يقتلون إلا فيا قلوبهم فيه . وله أن يعمل من عباده من شاء عربيًا ومن شاء مجعيا ، ومن شاء قرشيا ، ومن شاء زنجيا ؛ كما له أن يعمل من شاء ذكرا ومن شاء أنثى ، [ومن شاء خنثى ^(٤)] ، ومن شاء أفرده من ذلك فجعله لا ذكرا ولا أنثى ولا خنثى .

وكذلك خلق لللائكة وهم أكرم على الله من جميع الخليفة . وخلق آدم فلم يعمل له أب ولا أمًا ، وخلق من طين ونسبه إليه ، وخلق حواء من ضلع آدم وجعلها له زوجا وسكنا . وخلق عيسى من غير ذكر ونسبه إلى أمه التي خلقه منها . وخلق الجان من نار السموم . وآدم من طين ، وعيسى من غير نقطة . وخلق السماء من دخان ، والأرض من الماء ، وخلق إسحاق من عاقرة . وأطلق عيسى في العهد ، وأطلق يعقوب بالحكمة وهو صغير ، وعلم سليمان منطق الطير ، وكلام النمل ، وعلم الحفظة من اللائكة جميع الألسنة حتى كتبوا بكل خط ، ونطقوا بكل لسان . وأطلق ذنب أهبان بن أوس ^(٥) .

(١) هي قراءة أبي وعبد الله بن مسعود في الآية ٦ من سورة الأحزاب .

تفسير أبي حيان ٧ : ٢١٢ .

(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .

(٣) هذه الكلمة والثتان قبلها من سائر النسخ .

(٤) الكلمة من سائر النسخ .

(٥) أهبان هذا : أحد الصحابة . ذكروا أن الذنب نحه ثم ينرمه بالرسول . =

والمؤمنون من جميع الأمم إذا دخلوا الجنة ، وكذلك أطفالهم والمجانين منهم^(١) ، يتكلمون ساعة يدخلون الجنة بلسان أهل الجنة ، على غير الترتيب والتنزيل ، والتعليم على طول الأيام والتقين . فكيف يستعجب الجاهلون من إنطلاق إسماعيل العربية على غير تعليم الآباء ، وتأديب الحواضن ؟ !

وهذه المسألة ربّما سأل عنها بعض القحطانية ، ممن لا علم له ، ببعض المدنانية ، وهي على القحطاني أشدّ . فأثنا جواب المدناني : فليس النظام سهل المخرج ، و قريب للمنى ؛ لأنّ بني قحطان لا يدعون قحطاني نبوءة^(٢) فيعطيه الله مثل هذه الأهوية .

وما الذي قسم الله - عزّ اسمه - بين الناس من ذلك ، إلّا كما صنع في طينة الأرض ، فجعل بعضها حجراً ، وبعض الحجر ياقوتاً ، وبعض ذهباً ، وبعض نحاساً ، وبعض رصاصاً ، وبعض حديدًا ، وبعض تراباً ، وبعضه فخّاراً . وكذلك الزجاج^(٣) ، والنفرة ، والزرنخ ، والبرّتك ، والكبريت^(٤) ، والقار^(٥)

= انظر تفصيل ذلك في تمار القلوب ٣٠٩ . وانظر كذلك الحيوان ١ : ٢٩٨ / ٣
٥١٣ / ٤ : ٧ / ٨٠ : ٥٠ : ٢١٣ . ٢١٧ والإصابة ٣٠٥ . في الأصل : « لغير » .
سواء في سائر النسخ والراجع للفتحة .

(١) التكلة من م . ف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « بنوم » . تحريف .

(٣) في الأصل وبعض أصول ن : « الزجاج » . تحريف .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « والطين » . صوابه في سائر النسخ .

(٥) في بعض أصول ن وس : « والقار » تحريف . والقار : الزفت .

(٣ - رسائل الجاحظ)

والتوتيا ، والتوشادر^(١) ، والرقيشا ، والفتايلس .

ومن يَحصى عددَ أجزاء الأرض^(٢) ، وأصناف الفيز ؟ !

وإذا كان الأمر على ما وصفنا فالتبئوى خراساني . وإذا كان الخراساني مولى ، والمولى عربيٌّ - فقد صار الخراساني والتبئوى والمولى والعربي واحدًا

وأدنى ذلك أن يكون الذي معهم من خصال الولاة غامراً ما معهم من خصال الخلفاء ، بل هم في معظم الأمر وفي كُثير الشأن^(٣) وعود النسب متفقون . والأزلاء خراسانية وموالى الخلفاء قصرة^(٤) ، فقد صار التركي إلى الجميع راجعاً ، وصار شرفه إلى شرفهم زائداً .

وإذا عُرِف سائر ذلك ساحت النفوس ، وذهب التعقيد^(٥) ، ومات الضنن ، واقطع سبب الاستقلال ؛ فلم يبقَ إلا التحاسد والتنافس الذي لا يزال يكون بين المتنازعين في القربة وفي الجاورة .

على أن التوازر والتسالم^(٦) في القربات وفي بني الأعمام والمشاير ، أفضى وأعم من البُعداء .

(١) انظر حواشي الحيوان ٣ : ٣٧٧ و ٥ : ٣٤٩ .

(٢) وكذا في بعض أصول ن . وفي سائر النسخ : « جواهر الأرض » .

(٣) كبر الشأن ، بكسر الكاف وضمها : مظهره . وبها قرئ قوله تعالى : « والذي تولى كبره منهم » .

(٤) قصرة ، بالفتح ، أى أدى إليهم ، كما يقال هو ابن عمي قصرة ، أى داني النسب . وفي الأصل وبعض أصول ن : « قصرة » .

(٥) التعقيد كناية عن الضخامة المعقدة . ويقولون للرجل إذا سكن غضبه : قد تحللت عنه . وفي الأصل وبعض أصول ن : « التحلل » ، تحريف .

(٦) في الأصل وبعض أصول ن : « فإن التوازن في الفساد » ، صوابه في سائر النسخ .

وخلوف التغافل ولحُب التناثر ، والحاجة إلى التعاون - انضم بعض القباطل في البوادي إلى بعض ، ينزلون مّا ويطلقون مّا . ومن طارق أصحابه أقل^(١) ، [و] من نصر ابن عمه أكثر . ومن اغتبط بنمته وتمنى بقاءها والزيادة فيها أكثر ممن بفاها النوائل^(٢) ، وطلب انقطاعها وزوالها . ولا بدّ في أضعاف ذلك من بعض التنافس والتغافل ، إلا أن ذلك قليل من كثير .
وليس يجوز أن تصفو الدنيا وتنقى من الفساد والمكروه^(٣) حتى يموت جميع الخلائق ، وتستوى لأهلها ، وتمهد لكانها على ما يشتهون ويهوّون :
لأن ذلك من صفة دار الجزاء ، وليس كذلك صفة دار العمل .

٢٦ ط

(١) في الأصل : « أولى » .

(٢) النوائل : المهلكات . ويقال بيتك الشيء : طلبته لك ونجته . وفي التنزيل

العزير : « يهنوكم الفتنة » ، أى يهنون لكم .

(٣) نقي الشيء ينقى : صار خبياً خالوا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذا كتاب كنتُ كتبتُه أَيَّامَ المتصم بالله^(١)، رضى الله عنه ، فلم يعدل إليه ، لأسبابٍ يطول شرحها ، فلذلك لم أعرض للإخبار عنها . وأحببتُ أن يكونَ كتاباً قَصِداً ، ومذهباً عدلاً ، ولا يكونَ كتابَ إسرائٍ في مدح قوم ، وإغرائٍ في هجم آخرين . وإن كان الكتابُ كذلك شأبهُ الكذب ، وخالفه التزيُّد ، وبني أساسه على التكلف ، وخرج كلامه مخرجَ الاستكراه والتقليق^(٢) .

وأشعُّ للدائح^(٣) للمادح وأجداها على الممدوح ، وأجملها أثراً وأحسنها ذكراً : أن يكونَ للدِّيحِ صِدْقاً ، وللظَّاهر^(٤) من حالِ الممدوح موافقاً ، وبه لاحقاً ، حتَّى لا يكونَ من المدَّبرِ عنه والواصفِ [له^(٥)] إلا الإشارةُ إليه ، والتنبيةُ عليه .

وأنا أقول : إن كان لا يمكن ذلك في مناقب الأتراكِ إلا بذكر مناقب سائر الأجناد ، فتركُ ذكر الجميعِ أضوب ، وإلّا ضرباً عن [هذا الكتاب

(١) يروج المتصم بالله محمد بن هارون الرشيد بعد وفاة أخيه لأُمون سنة ٢١٨ . وتوفى بسرمن رأى سنة ٢٢٧ . وولى الخلافة بعده ولده هارون الواثق .

(٢) التقليق ، الراد به العسر ، كما يطلق الباب تخليقاً . وفي جميع الأصول : « التقليق » بين مهمة .

(٣) في الأصل وجسُ أصول ن : « للدح » . ولا تساوق سائر الكلام .

(٤) في الأصل وجسُ أصول ن : « والظاهر » ، والوجه . من سائر النسخ التي سقطت منها كلمة « من » بعدها .

(٥) التكلفة من سائر النسخ ، وقد سقطت من وجسُ أصول ن .

أحزم ، وذكر الكثير من^(١) [هذه الأصناف بالجليل^(٢)] ، لا يقوم بالقليل^(٣) من ذكر بعضهم بالتبسيط ، لأن ذكر الأكثر بالجليل نافذة ، وباب من التطويع ، وذكر الأقل بالتبسيط مصيبة ، وباب من ترك الواجب . وقليل الفريضة أجدى علينا من كثير التطويع .

ولكل نصيب من النقص ، ومقدار من الذنوب ؛ وإنما بفاضل الناس بكثرة المحاسن وقلة المساوي . فأما الاشتغال على جميع المحاسن ، والسلامة من جميع المساوي دقيقتها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يعرف . وقد قال النابغة :

ولست بمسبق أخاً لا تنه على شئت ، أي الرجال المهذب
وقال حريش الحمدي^(٤) :

أخ لي كأيام الحياة إيازم تلون أوانا على خطوبها
إذا عبت منه خلّة فتركه دعنى إليه خلّة لأعيها
وقال بشر^(٥) :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً خليك لم تنق الذى لا تعاتبه

(١) التكلفة من سائر النسخ .

(٢) في الأصل : « أجل » . سواء من سائر النسخ .

(٣) في الأصل : « لا يقوم الكثير من ذكر بعضهم بالجليل بالقليل » ، وتوجيه العبارة من باقي النسخ .

(٤) في الأصل : « درس الحمدي » ، وأثبت مافي سائر النسخ . والبيتان بدون نسبة في عيون الأخبار ٣ : ١٧ .

(٥) ديوان بشر ١ : ٣٠٩ وحامسة البعري ١٠٠ وحامسة ابن الشجري ١٤٣ والأغانى ٣ : ٧٧ والنيل والحاضرة لتمامي ٧٤ .

فَإِنْ وَاحِدًا أَوْ صِلَ أَخَاكَ فَإِنَّهُ مُقْسَرِفُ ذَنْبٍ مَرَّةً وَنَجَابَةٍ
إِذَا أَنْتَ لَمْ تَشْرَبْ يَرَأُ عَلَى الْقَذَى ظَمِيتَ وَأَيُّ النَّاسِ تَصْفُو مَشَارِبَهُ
وَقَالَ مَطِيعُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ النَّخَعِيُّ :

وَلَنْ كُنْتَ لَا تَصَاحِبُ إِلَّا صَاحِبًا لَا تَزِلُّ ، مَا عَاشَ ، نَهْ
لَمْ تَبْذُهُ وَلَوْ جَهَدْتَ وَأَيُّ بِالَّذِي لَا يَكُونُ يُوجَدُ مِثْلُهُ
إِنَّمَا صَاحِبِي الَّذِي يَنْفِرُ اللَّهُ بَ وَكَفَيْهِ مِنْ أَخِيهِ أَثْلُهُ
وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدٍ ^(١) ، وَهُوَ رَجُلٌ مِنَ الْجُنْدِ :

سَأَشْكُرُ عَمْرًا إِنْ تَرَاخَتْ مَنِيَّتِي أَيْدِي لَمْ تُنَنِّ وَإِنْ هِيَ جَلَّتْ
فَتَى غَيْرَ مَحْجُوبِ النِّفَى عَنْ صَدِيقِهِ
وَلَا مُظْهِرِ الشُّكْرِ إِذَا النُّعْلُ زَلَّتْ
رَأَى خَلْقِي مِنْ حَيْثُ يَخْفَى مَكَانُهَا فَكَانَتْ قَدْ ذَى عَيْنِيهِ حَتَّى تَجَلَّتْ

(١) في معجم الشعراء للمرزباني ٤٢١ أنه محمد بن سعد الكاتب النخعي . وأنه شاعر بنداى . وقيل الشعر لأبي الأسود الدؤلي وكان عند عمرو بن سعيد بن العاص فيينا هو يحدث إذ ظهر كم قبضة من تحت جبهته وبه خرق ، فلما انصرف بحث إليه بشرة آلاف درهم ومائة توب . وقال هذا الشعر . وقيل الشعر لعبد الله بن الزبير الأسدي . وأنه أتي عمر بن أبان بن عثمان فسأله فأعطاه . اللآلي ١٦٦ . ونسب إلى إبراهيم بن العباس الصولي في مجموعة الغاني ٩٦ ومعجم الأدباء ٥ : ٢٥٨ مرجليوث وابن خلكان ٢ : ٢٤٧ . وقيل لعمرو بن كيل يمدح عمرو بن ذكوان وكان فدراة وعليه جبة بلا قميص فقتل له حتى ولي الحرب بالبصرة ، فأصاب في ولايته مالا عظيما . أو هو رجل من أشرف الدبنة أنتم عليه عمرو بن سعيد بن العاص وكان قد ظهر كم قبضة من تحت جبهته . شرح التبريزي للعامة . والأبيات بدون نسبة في الجامعة ١٥٨٩ بشرح الرزوقي وحاشية البحري ١٥٩ والكمال ١٢٣ .

فلذا كان الخطأ^(١) من جُهور الناس، وأصحاب المائش من دُعاة الجماعة، يرون ذلك واجباً وتديراً في التعامل، على ما هم فيه من مشاركة الخطأ لهوَاب، واستزاج الضعف بالقوَّة، فلنا نكثُ أنَّ الإمامَ الأكبرَ والرئيسَ الأعظم، مع الأعراقِ الكريمة والأخلاقِ الرفيعة، والتَّمام في الحلم والعلم، والكمال في الحزم والتَّزم، مع التَّكِين والقُدرة، والتَّفضيل والرَّئاسة [والسيادة^(٢)]، والخصائص التي منه من التَّوفيق والمِصْمة، والتَّأييد وحسن المَعونة، أنَّ الله^(٣) جلَّ اسمه لم يكن ليُجْهله باسم الخلافة، وبحبِّه بتاج الإمامة، وبأعظم نعمة وأسبغها، وأفضل كرامة وأسنَّها، ثمَّ وصل طاعته بطاعته، ومصمَّيته بمصمَّيته، إلَّا ومه من الحلم في موضع الحلم، والمنور في موضع المنور، والتَّنافل في موضع التَّنافل، ما لا يُلْهيه فضلُ ذِي فضل، ولا حِلْم ذِي حِلْم.

ونحن فانون، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله، فيما اتَّعَى إلينا في أمر الأتراك:

زعم محمد بن الجهم، وثُمَامَةُ بن أَشْرَس، والقاسم بن سيار، في جماعه ٢٧ ظ
من يَفْشَى دارَ الخلافة، وهي دارُ المائَةِ^(٤)، قالوا جميعاً:

يبتا حَمِيد بنُ عبد الحميد جالسا ومعه يَخْشَد الصَّفدي^(٥)، وأبو شجاع

(١) في الأصل: وجبُ أصول: «الخطأ». صوابه في سائر النسخ.

(٢) التَّكَلُّف من سائر النسخ.

(٣) في الأصل. وجبُ أصول: «وأنَّ الله». وفي سائر النسخ: «لم يكن الله».

(٤) ف قطع: «الإمامة».

(٥) ن، س: «يَخْشَد» ج، ف: «إخشيذ الصفدي».

[شيب^(١)] بن بخار اخداى البلخى ، وبمعى بن معاذ ، ورجال من الملودين
للتقدمين فى السلم بالحرب [من أصحاب التجارب والراس ، وطول المالبة
وللمانة^(٢)] فى صناعات الحرب^(٣) ، إذ خرج رسولُ للأُمون قال لم : قول
لكم مفرقين^(٤) ونحشمين : ليكتب كل رجل منكم دعواه وحجته ، وليقل
أبنا أحب إلى [كل^(٥)] قائد منكم إذا كان فى عدته من محبه وثقائه : أن
ينقى مائة تركي* أو مائة خارجي* ؟ قال القوم جميعا : [لأن^(٦)] نلقى مائة
تركي* أحب إلينا من أن نلقى مائة خارجي* ! ونحيد^(٧) ساكت .

فذا فرغ القوم [جميعا] من حُججهم^(٨) ، قال الرسولُ : قد قال القوم فقل

(١) التكلة من سائر النسخ .

(٢) فى سائر النسخ : « صناعة الحرب » . وكذا فى بعض أصول ن .

(٣) فى سائر النسخ وبعض أصول ن : « مفرقين » .

(٤) التكلة من سائر النسخ .

(٥) التكلة من ف فقط .

(٦) هو أبو غانم حميد بن عبد الحميد الطوسي . أحد أمراء الدولة العباسية
وقوادها وأجوادها ، وهو أحد من وطد الخلافة للأُمون بهزيمة إبراهيم بن الهدي .
وكان لأبي الناهية وعلى بن جبلة وأبي تمام فيه مدائح . كما رثاه أبو تمام ورثى بنه
عمداً وقسطاً وأباً نصر بقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمر فليس لبن لم بغض ماؤها غدر

وفد قتل جرية منها له جبريل بن يحيى شوع سنة ٢١٠ . الأغاني ١٩ :
١٠٠ - ١١٤ والطبرى ٩ : ٢٤٥ - ٢٥٤ وأسماء المتألمين من نوادر المخطوطات
١٩٩ : ٢ - ٢٠٠ .

(٧) فى الأصل وبعض أصول ن : « حشيم » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .
وكلة « جميعاً » قبله تكلة من ف وبعض أصول ن .

واكتب قولك ، وليكن حجة لك أو عليك . قال : بل التي مائة خارجي أحب إلي ؛ لأنني وجدت اتصال التي يفضل بها الخارجى جميع القاتلة غير تامة في الخارجى ، ووجنتها تامة في التركى . ففضل التركى على الخارجى بقدر فضل الخارجى على سائر القاتلة ، ثم بأن التركى عن الخارجى بأمر ليس فيها للخارجى دعوى ولا متعلق . على أن هذه الأمور التي بان بها التركى عن الخارجى ، أعظم خطراً وأكثر غمًا ، مما شاركه الخارجى في بعضها^(١) .

ثم قال حيد : والاتصال التي يؤول بها الخارجى على سائر الناس صدق الشدة عن أول وهلة ، وهى الدفعة التي يبذلون بها ما أرادوا ، ويتألمون الذي أمثلوا^(٢) .

والثانية : العسر على الخلب وعلى طول الشرى ، حتى يصبح القوم [الذين مرقوا بهم^(٣)] غارين^(٤) فيجمعوا عليهم وهم يسوء^(٥) ، ولحم على وشم^(٦) ، يتجألونهم عن الرؤية ، وعن رد النفس عن النزوة والجلوة ؛ لا يظنون أن أحداً يقطع فى ذلك القدار من الزمان ذلك القدار من البلاد .

(١) ج ، ف : د فى جنه .

(٢) ج ، ف : د ويتألمون بها ما أمثلوا .

(٣) الكلمة من سائر النسخ . وللروق : الرور بسرعة . كما يمرق السهم من الرمية .

(٤) غارين : غائلين .

(٥) ج ، ف وجنى أصوله : د يبر .

(٦) الوشم : جمع وشمه ، وهو كل شئ يوضع عليه الخشب من خشب أو حديد يوق به الأرض . والشم على الوشم ، مثل للضعف وعدم الامتناع .

والثالثة : أن الخارجى موصوف عند^(١) الناس بأنه إن طلب أدرك ، وإن طلب فات .

والرابعة : خفة الأزواد وقلة الأمتعة ، وأنها تجنب الخيل^(٢) وتركب البغال ، وإن احتاجت أمت بأرض وأصبحت بأخرى ، وأنهم قوم حين خرجوا لم يخلفوا الأموال الكثيرة ، والخيل للنفقة ، والثور المشيدة ، ولا ضياعاً ولا مستغلات ، ولا جوارى مطهات^(٣) ، وإنهم^(٤) لا سلب لم ولا مال معهم فيرغب الجنود في قتالهم ، وإنما هم كالطير لا تدخر ولا تهتم أن يد ، ولها في كل أرض من الباء والأقوات ما تنبلغ به^(٥) ، وإن لم تجد ذلك في بعض البلاد فأجنتها تقرب لها البعيد ، وتسهل لها الحزون . وكذلك الخوارج لا يمتنع عليهم القرى والتطم ، وإن تمتع عليهم فني بنات شحاج وبنات صهال^(٦) ، وخفة الانتقال على طول الخطب ، ما يسهل أقواتها ، ويكثر من أرزاقها .

٢٨ و

(١) وكذا في بعض أصول ن . وفي سائر النسخ : « بعد » .

(٢) أى تعودها إلى جنب البغال . والضمير للخوارج .

(٣) للطم من الناس والخيل : الحسن التام كل شيء منه على حدته . فهو بارع الجمل .

(٤) التسلية من ج . ف وبعض أصول ن .

(٥) ج . ف وبعض أصول ن : « من الماء والبرزور ما يقوتها » .

(٦) بنات شحاج . هى البغال ، لأنها تشجع بصوتها . وبنات صهال . هى الأفراس ، قالقرس صويل . ويقال بنات شحاج أيضاً . وبنات صهال لم ترد في اللسان ولا القاموس . ولكن وردت في الزهر ١ : ٥٢٥ .

والخامسة : أن للوك إن أرسلوا إليهم أعدادهم ليكونوا في خفة أوزارهم^(١) وأثقلهم ، وليقووا على التثقل كقوتهم ، لم يقووا عليهم ؛ لأن مائة من الجند لا يقومون لمائة من الخوارج ؛ وإن كثفوا الجيش بالجيش ، وضاعفوا العدد [بالتعدد^(٢)] ثقلوا عن طلبهم ، وعن القوت إن طلبهم عدوهم . ومتى شاء الخارجى أن يقرب منهم ليتطرقهم^(٣) أو يعيب الفرة منهم ، أو يسلبهم ، قتل ذلك ثقة بأنه يقتر عند الفرصة^(٤) وروية الصورة ، ويمكنه الحرب عند الخوف . وإن شاء كبسهم ليقطع نظامهم ، أو ليقطع^(٥) القطعة منهم .

قال حميد : هذه هي مقاضاؤهم وخصالهم ، التي لها كره القواد لقاءهم .

قال قاسم بن سيار : وخَمَلَة أُخْرَى ، وهى التى رَعِبَت القنوبَ وخَلَقَتْهَا ،
وقَضَت المِزَامَ وفَخَّتْهَا ، وهو ما تَسَع الأجنَادُ ومَقَاتِلَةُ المَوَاقِمِ ، مِنْ ضَرْبِ
الثَّلَاثِ بِالْعُلُورِجِ ، كَقَوْلِ الشَّاعِرِ :

إذا ما البغيضُ والمُحاذِرُ للقرى

رَأَى الضَّيْفَ مِثْلَ الْأَزْرَقِ^(٧) الْخَفِّفِ

(١) الأوزار : جمع وزر بالكسر ، وهو الخلل الضيق . ف ، ج وبعض أصول ن : « أزوادهم » ، وهو جمع زاد .

(٢) التكملة من سائر الأصول .

(ج) التطرف : الإغارة من حول المعسكر .

(٤) في الأصل: «ولعلم ذلك فإنه يختم عن القرعة»، وصوابه من سائر النسخ.

(هـ) في الأصل وجرى أصول ن : ليقطع .

(٦) الجفنف : الذي جفف فرسه بالجبفف ، وهو ما جلل به من سلاح وآلة نفعه الجراح .

وكقول الآخر :

وَقَلْبٍ وَدَّ حَالٍ عَنْ عَهْدِهِ وَالشَّيْفِ يَنْبُو بِيَدِ الشَّارِي

وكقول الآخر :

لَقَاءِ الْأَسَدِ أَهْوَى مِنْ لِقَاءِهِ إِذَا التَّحْكِيمُ يَسِيرُ بِالْأَصِيلِ

فهذه زيادة قاسم بن سيار .

فأثنا حميد فإنه قال :

الشَّدَّةُ الْأُولَى التَّرَكُّيُّ فِيهَا أَحَدُ [أَثَرًا ، وَاجْمَعُ ^(١)] أَسْمَاءً ، وَأَحْكَمُ شَأْنًا ؛

لِأَنَّ التَّرَكُّيَّ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَعْدُقَ شَدَّتُهُ وَتَسْكُنَ عَزَمُهُ ، وَلَا يَكُونُ مَشْرُكَ الْعَزَمِ

وَلَا مَقْصِمِ الْخَوَاطِرِ ، قَدْ عَوَّدَ بِرَفْوَتهِ أَلَّا يَنْتَقِىَ وَإِنْ ثَلَاثُهُ ، أَنْ يَمْلَأَ فَرْجَهُ ^(٢)

لِلْأَمْرِ بِدِرْهِمَةٍ أَوْ مِائَتَيْنِ ، وَإِلَّا فَإِنَّهُ لَا يَدْعُ سَنَتَهُ ، وَلَا يَقْطَعُ رَكْعَتَهُ . وَإِنَّمَا

أَرَادَ التَّرَكُّيُّ أَنْ يُوَسِّسَ نَفْسَهُ مِنَ الْبَدَوَاتِ ^(٣) ، وَمَنْ أَنْ يَعْتَرِضَهُ التَّكْذِيبُ بَعْدَ

الاعْتِزَامِ ، لِقَوْلِ [الْقَاءِ ^(٤)] ، وَحُبِّ الْحَيَاةِ ؛ لِأَنَّهُ إِذَا عَلِمَ أَنَّهُ قَدْ صَيَّرَ بِرِذْوَنِهِ

إِلَى هَذِهِ النِّهَايَةِ حَتَّى لَا يَنْتَقِىَ وَلَا يُجْبِيهِ إِلَى التَّصَرُّفِ مَعَهُ إِلَّا بِأَنْ يَصْنَعَ شَيْئًا بَيْنَ

الْمَتْنَيْنِ فِيهِ عَطْبُهُ ، لَمْ يُقَدِّمِ عَلَى الشَّدَّةِ إِلَّا بَعْدَ إِحْكَامِ الْأَمْرِ ، وَالْبَصَرِ

٢٨ ظ

(١) التسكلة من سائر النسخ .

(٢) الفروج : ما بين قوائم الفرس . وملؤها كناية عن الإسراع وعدة العدو

حتى لا تكاد تبدو .

(٣) البدوات : الخطرات والآراء تبدو وتظهر .

(٤) موضع هذه الكلمة يماس في الأصل ، وإبائه من سائر النسخ . وفي الأصل :

« لعلول » ، تحريف .

بالمودة^(١) . وإنما يريد أن يُشَبَّهَ نَفْسَهُ بالشرح الذي إذا رأى أشدَّ القتال^(٢) لم يدعُ جهدا ولم يدخر حيلة ، وليفتق عن قلبه خواطر الفرار ، ودواعي الرجوع . وقال : الخارجىُّ عند الشدةِ إنَّما يعتمد على الطُّعان ، والأثرak تظن طمن الخوارج ، وإن شدَّ منهم ألف فارس فرموا ريشقا واحداً مرعوا ألف فارس ، فما بقاه جيش على هذا النوع من الشدة !

والخوارج والأعراب ليست لهم رمايةٌ مذكورة على ظهور الخيل ، والتركى يرى الوحشَ والطيرَ ، والنَّهرَ جالس^(٣) ، والنَّاسَ^(٤) ، والسَّجْسةَ ، والنَّشْلَ الموضوعَ ، ويرى وقد ملأ فُروجَ دابَّته مديراً ومقبلاً ، وبيئته وبئسه ، ومُعْدا وسُقْلا ، ويرى بعشرة أسهم قبل أن يفوق الخارجىُّ سهماً واحداً^(٥) ، ويركض دابَّته متحدراً من جبل ، أو مستغلاً إلى بطن واد بأكثر مما يمكن الخارجىُّ على بساط الأرض .

وللتركى أربعة أعين^(٦) : عينان في وجهه ، وعينان في قفاه . وللخارجىِّ

(١) في الأصل : « والنظر إلى المودة » وكذا في بعض أصول ن ، والصواب من سائر النسخ .

(٢) في الأصل : « إذا تر القتال » ، ووجهه من سائر النسخ .

(٣) سبق تفسيره في ص ٣١ .

(٤) انظر ما سيأتى في ص ٤٨ س ٦ و ٥٩ س ٢ .

(٥) فوق السهم : جبل له فوقه ، والفوق بالضم : موضع الوتر من السهم ، والراد وضع السهم في الفوق .

(٦) كذا بتأنيث الأربعة مع العين المؤنثة ، وهو وجه جائز في العربية مذكور في المطبوعات . انظر الصبان : ٦٣ حيث ذكر ابن هشام أن ما كان لفظه مذكراً ومعناه مؤنثاً . أو بالعكس . فإنه يجوز فيه وجهان .

عيبٌ في مُستدبرِ الحرب ، وللخراساني عيبٌ في مُستقبلِ الحرب . فعيب
الخراسانية أنَّ لها جولةً عند أوَّل الالتقاء^(١) ، وإن ركبوا [كُثُفهم^(٢)]
كانت هزيمتهم ، وكثيراً ما يُنوبون ، وذلك [بعد^(٣)] [الخطار بالمكر ،
وإطعام العدو في الشدة .

والخوارج إذا ولّوا قد ولّوا وليس لهم بعد القُرّة^(٤) ، إلا ما لا يُمَدُّ .
والتركّي بُسبب له جولةُ الخراساني ، وإذا أدبرَ فهو النسيمُ النافع ، والحتفُ
القاضي ؛ لأنه يصيبُ يسره وهو مدبرٌ كما يصيبُ به وهو مُقبل ، ولا يُؤمن
وَهَقَّه^(٥) ، ولا انشاقُ القَرَس^(٦) ، واختطافُ الفلوس بثلث الرُّكفة .

ولم يُلْتَمَس من الوَهَق في جميع الدهر إلا للهابب بن أبي صفرة ، والحرّيش
ابن حلال^(٧) ، وعبد بن الحصين^(٨) . وربّما رمى بالوهق وله فيه تدبير آخر

٢٩ و

(١) في الأصل : « بين أول الالتقاء » . ووجهه من سائر النسخ .

(٢) وضعها ياض في الأصل . وإثباتها من سائر النسخ ما عدا ف ، فبها :
« أ ك س ا م » بالجمع . ويقال ركب كسأ : وقع على قفاه ، والراد أدبروا وتعقبهروا .
وكس . كل شيء : مؤخره . (٣) إثباتها من سائر النسخ .

(٤) الوهق . بالتحريك : جبل شديد الفتل يرمى وفيه أنشودة . فتؤخذ فيه
الدابة والإنسان ، وجمعه أوهاق . والكلام بعده إلى كلمة « الرمي » ساقط من
ج . ف . وبعض أصول ن .

(٥) انتسف الشيء : اقلعه . قل أبو النجم :

وانتسف الجلاب من أندابه إغياطنا ليس على أصلايه

(٦) في الاشتقاق ٣٥٧ : « الحرّيش بن حلال بن قدامة ، كان من فرسان
بن نعيم ، وله أيام بخراسان مشهورة » .

(٧) هو عبد بن الحصين بن يزيد النخعي ، كان شجاعاً رئيساً ، جمهرة ابن حزم
٢١٣ والاشتقاق ٢٠٢ والبيان ٤ : ٣٦ .

وإن لم يَجُنبَ الرميَّ معه ، يوم الجاهل أن ذلك إنما كان لخرق التركي^(١) ،
أو لحذق الرمي .

قال : وم علّوا الفرسان حل قوسين وثلاثة قسي ، ومن الأوتار
على حسب ذلك .

قال : والتركي في حال شدته ، معه كل شيء يحتاج إليه لنفسه وسلاحه
ودابته وأداة دابته . فأما الصبر على التعب وعلى مواصلة السر ، وعلى طول
الشرى وقطع البلاد ، فمجبب جداً .

فواحدة : أن فرس الخارجى لا يصبر صبر برذون التركي .

والخارجى لا يُعين أن يعالج فرسه إلا معالجة الفرسان لخيولهم ،
والتركي أحذق من البيطار ، وأجود تعويماً ليرذونه على ما يريد من الرضا^(٢)
[وهو استتجبه^(٣)] ، وهو رباه فلذا ، وتنبه إن سماء^(٤) ، وإن ركض
ركض خلقه . وقد عوّده ذلك حتى عرفه ، كما يعرف الفرس أقدام^(٥) ،

(١) في الأصل : « لخرق » صوابه في ن . س . والخرق : بالنسب : الجهل والحق ،
وتجسس الرفق .

(٢) الرضا : جمع راض . وهو من يروض الدابة ويسوسها ويذلها .
وفي الأصل وبعض أصول ن : « الرضا » ، صوابه من سائر النسخ .

(٣) موضعها يائس في الأصل ، وإثباتها من النسخ .

(٤) في الأصل وبعض أصول ن : « وتبه » ، صوابه من سائر النسخ .

(٥) أقدام : زجر للفرس ، وكذا أقدام . والله أجدم وهجدم . كلها زجر
للفرس . في معظم النسخ : « أجدم » بالجمع . وهذه بوصل الممزة وفتح الدال .

وَالنَّاقَةُ حَلَّ^(١)، وَالْجَلَّ جَامٍ، وَالْبَنَلُ عَدَسٌ، وَالْحَارُ سَاسَا، وَكَأَ يَعْرِفُ
الْجَنُونَ لِقَبِّهِ وَالصَّبِيَّ اسْمَهُ.

وَلَوْ حَصَلَتْ عُمَرُ التَّرْكِيُّ وَحَسِبَتْ أَيْلَهُ لَوَجَدَتْ جَنُوسَهُ عَلَى ظَهْرِ دَابَّتِهِ
أَكْثَرَ مِنْ جُلُوسِهِ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ. وَالتَّرْكِيُّ يَرْكَبُ فَحْلًا أَوْ رَمَكَةً، وَيَخْرُجُ
غَازِيًا أَوْ مُسَافِرًا، أَوْ مُتَبَاعِلًا فِي طَلَبِ صَيْدٍ، أَوْ سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبَابِ، فَتَقْبَهُ
الرَّمَكَةُ وَأَفْلَاوُهَا، إِنْ أَعْيَاهُ اصْطِيَادُ النَّاسِ اصْطِلَادُ الْوَحْشِ، وَإِنْ أَخَفَّقَ مِنْهَا
أَوْ احْتِاجَ إِلَى طَعَامٍ فَصَدَّ دَابَّةً مِنْ حَوَابِيهِ، وَإِنْ عَطِشَ حَلَبَ رَمَكَةً مِنْ
رِمَاكِهِ، وَإِنْ أَرَادَ وَاحِدَةً تَحْتَهُ رَكَبَ أُخْرَى مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْزِلَ إِلَى الْأَرْضِ.
وَلَيْسَ فِي الْأَرْضِ أَحَدٌ إِلَّا وَبَدَنُهُ يَنْعَضُ عَلَى اقْتِنَاتِ اللَّحْمِ وَحَدِّهِ غَيْرُهُ؛
وَكَفَلَتْ دَابَّتُهُ تَسْكُنِي بِالْقَنْفَرِ^(٢) وَالْمَشْبِ وَالشَّجَرِ، لَا يَفْلُذُهَا مِنْ شَمْسٍ وَلَا يَكْتُمُهَا
مِنْ بَرْدٍ.

قَالَ: وَأَمَّا الصَّبْرُ عَلَى انْخِلَابِ فِلَانٍ الشَّرَّائِيْنِ^(٣) وَالْفَرَاتِيْنِ^(٤)، وَالْخُلَصِيَانِ
وَالْخَوَارِجِ، لَوْ اجْتَمَعَتْ قَوَائِمُ فِي شَخِصٍ وَاحِدٍ لَمَّا وَقَوْا بِتَرْكِيٍّ وَاحِدٍ^(٥).

(١) وَيُقَالُ: «حَلَّ» أَيْضًا كَمَا فِي بَعْضِ النُّسخِ. وَقَالَ أَبُو النُّجُمِ:

«وَقَدْ حَدَوْنَاهَا بِمَحَبِّ وَحَلٍّ»

(٢) الصَّنْفَرُ، بَضْمُ الْعَيْنِ وَالْقَافِ: أَسْلُ الْبَقْلِ وَالْقَصَبِ وَالْبَرْدَى مَا دَامَ أَيْضًا
مَجْتَمِعًا. فِي الْأَصْلِ: «بِالصَّنْفَرِ». صَوَابُهُ مِنْ سَاطِرِ النُّسخِ.

(٣) الثَّرَبِيُّونَ: نَسَبَةٌ إِلَى الثَّرِ، وَهُوَ وَاحِدٌ تَعَوَّرَ الشَّامِ. وَمِنْ أَشْهُرِ مَدَنِهِ
أَنْطَاكِيَّةُ وَبَنْرَاسُ وَالصَّيْغَةُ، وَأَسْلُ أَهْلِهَا مِنَ الرُّومِ.

(٤) نَسَبَةٌ إِلَى الْفَرَاتِ، يَعْنِي بِهِمْ عَمَالُ الْبَرِيدِ. وَيَدَّوْهُمْ كَانُوا مِنْ غَيْرِ الْعَرَبِ.
وَالْفَرَاتِيُّ: الَّذِي يَدُلُّ صَاحِبَ الْبَرِيدِ عَلَى الطَّرِيقِ، مَعْرَبٌ «بَرْوَانِكٌ».

(٥) يُقَالُ وَفَى النِّسَى، وَوَفَى بِهِ: عَادَلَهُ. وَفَى الْأَصْلُ وَبَعْضُ أَسْمَاءِ نِ:
«لَمْ يَوْفُوا»، تَحْرِيفٌ.

والتركي لا يبق معه على طول الناية إلا الصميم من دوابه^(١) . | أو الذي يقتله التركي بإتباعه له ، ويقنيه^(٢) عند غزاته ، هو الذي لا يصير معه فرس انخارجي ، ولا يبقى معه كل يرذون بخاري^(٣) . ولو سائر خارجيا لاستفرغ وسسته قبل أن يبلغ انخارجي عفو^(٤) .

ظ ٢٩

والتركي هو الراعي ، وهو السائس وهو الرانض ، وهو النخاس ، وهو البطار ، وهو الفارس . والتركي الواحد أمة على حدة .

قال : وإذا سار التركي في غير عساكر الترك ، فصار القوم عشرة أميال سار عشرين ميلا ؛ لأنه ينقطع عن السكر يمنة ويسرة ، ويسرع في ذرى الجبال ، ويستيقظ قُعود الأودية في طلب الصيد ؛ وهو في ذلك يرى [كَلَّ^(٥)] ماديَّة ودَرَج ، وطَارَ ووقع .

قال : والتركي لا يَسير في العساكر سِيرَ النّاس قط ، ولا سارَ مستيقاظا قط .

قالوا : وإذا طالت الدُّجَّة واشتدَّ السير ، وبُعدَ النّزل ، وانصفَ النّهار ، واشتدَّ الّثَمب ، وشغلَ الناس الكلال^(٦) ، وسمعت المنسايرون فلم ينطقوا ،

(١) الصميم : الخالص المحض . في الأصل : « الاطول الصميم » ، صوابه في سائر النسخ .

(٢) في بعض أصول ن : « ويقنيه » .

(٣) نسبة إلى بخاري . وفي بعض أصول ن : « بخاري » .

(٤) العفر : ما بيني . بسهولة وبغير كلفة . في سائر النسخ : « لاستفرغ جهده » .

(٥) التكة من سائر النسخ .

(٦) الكلال : التعب والإعياء . ج . ف وفي بعض أصول ن : « الكلام » ،

نحريف

وقطعهم مام فيه عن التشاغل بالحدث ، وتفسخ كل شيء من شدة الحر ،
 وخذ كل شيء من شدة البرد^(١) ، وتمنى كل جليد القوى على طول السرى^(٢)
 أن تطوى له الأرض ، وكلما رأى خيالاً أو أبصر علماً^(٣) سر به واستبشر ،
 وظن أنه قد بلغ المنزل ؛ فإذا بلغه الفارس نزل وهو متفحج^(٤) كأنه صبي
 تحفون ، ين أنين الربض ، ويستريح إلى الثأوب ، وبدلوى مما به بالتمطى
 والتضجج . وترى التركي في تلك الحال وقد سار ضعف ماساروا وقد أتمب
 منكيه كثيرة التزع^(٥) ، يرى قرب المنزل عيلاً^(٦) أو ظلياً ، أو عرض له
 ثعلب أو أرنب ، فيركض ركض مبتلى مستأنف ، كأن الذي سار ذلك
 السير وتمب ذلك التعب غيره .

وإن بلغ الناس وادياً فازدحوا على مسلكه أو [على]^(٧) قنطرة ، بطن
 برذونه فانقصه^(٨) ثم طلع من الجانب الآخر كأنه كوكب . وإن اتهموا إلى
 عقبة صعبة ترك السن^(٩) وذهب في الجبل صنداً ، ثم تدلى من موضع يتجز

(١) ج ، ف : « وتفسخ كل شيء من شدة البرد » قطع .

(٢) ف قطع : « قوى على طول السرى » .

(٣) أبصر ، من الأمل قطع . وفي الأصل : « عطاء » موضع « علماً » . مرابه

من باقي النسخ .

(٤) متفحج : قد فتح ما بين رجله .

(٥) التزع في القوس : مد وترها لرمى بهامياً .

(٦) في الأصل وبعض أصول ن : « عزاً » . ووجهه من سائر النسخ .

(٧) التسكة من سائر النسخ .

(٨) بطنه بطناً : ضرب بطنه .

(٩) السن : نهج الطريق وعجته . في الأصل ، ف : « السير » ، مرابه في

سائر النسخ .

عنه الويل ! وأنت تحسبه مخاطراً بنفسه ، للذي تَرَى من مُتَظَلِّه . ولو كان في كُلِّ ذلك مخاطراً لما دامت له السلامة مع تابع ذلك منه .

قال : ويفخر انطارجي بأنه إذا طَلَب أدرك ، وإذا طَلَب لم يدرك . ٣١ و
والتركى ليس يُعَوِّج إلى أن يموت ؛ لأنه لا يُطَلَب ولا يُرام . ومن يروم
[ما لا يطمع فيه] ؟ !

هذا . على أن قد علمنا أن الملة التي عَمَّت الخوارج بالنجدة استواء
حالاتهم في الديانة ، واعتقادهم أن القتال دين ؛ لأننا حين وجدنا الشجستاني
وانخراساني والجزري واليماني والغري والهماني ، والأزرق منهم والنجدى^(١)
والإباضي والصفري ، والمولى والعربي ، والمجشي والأعرابي ، والتبيد
والقاسي ، والملائك والقساح ، كلهم يقاتل مع اختلاف الأنساب وتباين
البلدان^(٢) - علمنا أن الديانة هي التي سَوَتْ بينهم ، ووفقت بينهم في ذلك .
كما أن كل حجاج في الأرض من أي جنس كان ، ومن أي بلد كان ، فهو يحب

(١) نسبة إلى نجدة بن عامر - وقيل ناصم - الحنفي . وهم النجدات أيضاً . وكان
نجدة ممن خرج مع ابن الزبير ثم فارقه هو ونافع بن الأزرق من الخوارج ، فصار
نافع إلى البصرة ، ونجدة إلى الحجاز . وذلك في سنة ٦٤ . الملك والنعل ١ : ١٦٥
والطبري ٧ : ٥٦ - ٥٧ . ثم سار إلى الطائف ثم إلى البحرين ، ووجه إليه ، صعب
الزبير . فحبل به خيل فمزقه ، وطل خمس سنوات هو وعمله بالبحرين والحجاز وعمان
وهجر والعرض ، ثم تم عليه الخوارج فظلموه بعد أن كان يسمى أمير المؤمنين .
واقاموا أبا فديك مكانه سنة ٧٣ وقتل نجدة في تلك السنة . الطبري ٧ : ١٩٤ .
وانظر أيضاً الفرق بين الفرق ٦٧ والوافي ٦٣٩ .

(٢) في الأصل : « وسائر البلدان » . صوابه من سائر النسخ .

التعبد ، وكما أن أصحاب الخلقان^(١) والسّاكِن والنّخّاسين والهاكّة في كلّ بلد من كلّ جنس ، شرّارُ خلق الله في المباشرة والماملة . فقلنا بذلك أن ذلك خيانة في هذه الصناعات ، وبذينة في هذه التّجارات ، حين صاروا من بين جميع الناس كذلك .

قال : ورأينا التركي في بلاده ليس يقاتل على دين ولا على تأويل ، ولا على مُلك ولا على خراج ، ولا على عصبيّة ولا على غيريّة دون الحرمة والتّحرّم^(٢) ، ولا على حجة ولا على عدّاة ، ولا على وطن ومنع دار ولا مال ؛ وإنّا يقاتل على السلب والخيّار في يده . وليس يخاف الوعيد إن هرب ، ولا يرجو الوعد إن أبى عنرا . وكذلك هم في بلادهم وغلواتهم وحروبهم . وهو الطالب غير المطلوب ؛ ومن كان كذلك فإنّا يأخذ الضّوء من قوته ، ولا يحتاج إلى [مجهوده^(٣)] . ثم هو مع ذلك لا يقوم له شيء ولا يقطع فيه أحد ، فما ظنك بمن هذه صفته أن لو اضطرّ إخراج أو نجوة أو غضب أو تدبّر ، أو عرض له بعض ما يصعب التّأويل المحامي من الملل والأسباب .

قال : وقناة الخارجى طويّة صمّاء ، وقناة التركي معترّد أجوف^(٤) . والقنى المجوّفة القصار أشدّ طعنة وأخفّ في الحيل . والمعجم تجعل القنى

(١) يراد بهم من يبيعون الخلقان من الثياب ، جمع خلق ، وهو البالى . انظر الحيوان ٢ : ١٠٥ .

(٢) أى على غيرة على حرمة وهرمه . في الأصل وبعض أصولن : « غير ذلك » صراجه في سائر النسخ . (٣) روتها ياض في الأصل . وإبباتها من ب .

(٤) المترد : روح قصير .

الطوائف للفرجانية ، وهى قبي الأبناء^(١) ، على أبواب الخنادق والمضائق .
والأبناء فى هذا الباب لا يَمْرُونَ مع الأتراك والغرسانية : لأن الغالب على
الأبناء الطاعة على أبواب الخنادق وفى المضائق ، وهؤلاء أصحاب الخيل والفرسان
وعلى الخيل والفرسان تدور الجيوش ، لم الكرك والقر . والفارس هو الذى
يَطْرُق الجيوش على السجل ، ويفترقهم تفريق الشعر . وليس يكون الككين
إلا منهم ولا الطليعة ولا الساقة^(٢) . وهم أصحاب الأيَّام المذكورة والحروب
الكبار والفتوح العظام^(٣) ، ولا تكون لقائب والكتائب إلا منهم .
ومنهم من يحمل الجنود والرايات ، والطيول والتجافيف^(٤) والأجراس .
وهم أصحاب السبل والقائم^(٥) ، وزجر الخيل ، وقضبة الريح فى الثياب^(٦)

(١) الأبناء : قوم من الفرس أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن لما جاء
يستعبد على الحبشة ، فصره وملكوا اليمن ونديروها . وتزوجوا فى العرب ضد
لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم . لأن أمهاتهم من غير جلس آباءهم .
السان (بدر) . وفى التنبية والإشراف ٢٢٦ أنهم الذين ساروا مع خرزاذ بن نرسى
ابن جلداسب أخى قباد بن فيروز . وفى ص ٤٢١ أنهم الذين شخصوا مع وهرز
إلى اليمن . ويبدو أن جميع الذين اجتذبهم الحروب من الفرس إلى جزيرة العرب
كان العرب يسمونهم الأبناء .

(٢) كذا فى الأصل وبعض أصول ن . وفى ب : « وليس يكون الككين
ولا الطليعة ولا الساقة إلا الكبار منهم » .

(٣) الكلام جده إلى موضع التنبية فى ص ٦٥ لم يرد فى ج . ف . وسأنبه على
ذلك فى موضعه .

(٤) جمع تجفاف . بكسر التاء . وضعها . وهو ما يوضع على الخيل من حديد
وسلاح يقيه الجراح فى الحروب .

(٥) القائم : البار . وفى الأصل وبعض أصول ن : « القيام » .

(٦) فى الأصل : « ثياب » مع ياض بعدها ، وأثبت ١٠ فى ن . س .

والسلاح ووقع الحوافر، والإدراك إذا طَلَبُوا، والفَوْتُ إذا طَلَبُوا. ولم يعمل
النهي صلى الله عليه وسلم للفارس سهين والراجل من القاتلة سهماً واحداً
إلا لتضاعيف الردى في القتل والفُتوح، والنهية والمنام^(١).

ثم قال: ونعمرى إن للأبناء من القتال في الشكك والشجون^(٢)
والتصابق ما ليس لنعيم. ولكن الرجالة أبدأ أنبياعاً ومأمورون ومقادون،
وقائد الرجالة لا يكون [إلا^(٣)] فارساً، وقائد الفرسان من اللتغ أن
يكون راجلاً. ومن تعود الطمان والفُرب والرمي راكباً إن اضطرَّ إلى
الطمن والفُرب والرمي راجلاً كان على ذلك أدفع عن نفسه، وأردَّ عن
أصحابه، من الرّاجل إذا احتاج أن يستعمل سلاحه فارساً. وعلى أنه ما أكثر
ما يزلون ويقاتلون. وقد قال الشاعر^(٤):

لَمْ يَطِيقُوا أَنْ يَزِلُوا وَيَزَلُوا وَأَخُو الْحَرْبِ مَنْ أَطْلَقَ التَّزُولَا
وقال الفُصيّ^(٥):

• وَعَلَامَ أَرْكَبُهُ إِذَا لَمْ أَنْزِلْ^(٦) •

(١) الرد: التفع. والتية، بالضم التنية. كالنهي. وفي الأصل: «الحية». صوابه في ن. س.

(٢) وكذا سبق في ص ٣٧ س ٦.

(٣) تسكة ضرورية.

(٤) هو ميهل، كما في الأغاني ٤: ١٤٩ وشروح سقط الزند ٦٦ والخزانة ٣: ٣٠٥. وانظر ما قيل في النزول في هذا الموضع من الخزانة.

(٥) هو ربيعة بن مقروم الضبي. الحماسة ص ٦٢ بشرح المزدوق والخزانة ٣: ٣٠٥.

(٦) صدره: فدعوا يزال فكنت أول نازل

وقال آخر :

• فماتق ومنزل^(١) •

وقال حميد : وليس في الأرض قوم إلا والناسد في الحروب ، والاشتراك
في الرياسة خازنهم ، إلا الأتراك . على أن الأتراك لا يتسندون ولا يتشاركون ؛
وذلك أن الذي يُكره من المائدة وللشركة اختلاف الرأي ، والتنافس
في السر^(٢) ، والتحاسد بين الأشكال ، والتواكل فيما بين المشتركين .

والأتراك إذا صلحوا جيشاً إن^(٣) كان في القوم موضع عودة فكلهم قد
أبصرها وعرفها ؛ وإن لم تكن هناك عودة ولم يكن فيهم مطمع ، وكان الرأي
الانصراف ، فكلهم قد رأى ذلك الرأي وعرف الصواب فيه . وخواطهم
واحدة ، وجواعهم مستوية يجهلهم معاً . وليس هم أصحاب تاويلات ولا أصحاب
تفاخر وتناشد ، وإنما شأنهم إحكام أمرهم ؛ فالاختلاف يقل بينهم .

وكانت الفرس تعيب العرب إذا خرجوا إلى الحرب مقسدين ، وكانت
تقول : الاشتراك في الحرب وفي الزوجة وفي الإمرة سوا .

قال حميد : فما ظنك بجوم إذا تساندوا لم يضرهم التساند ، فكيف
يكونون إذا تحاسدوا .

(١) لم أجد إلى فيه ولا إلى فائه .

(٢) في الأصل وبعض أصوله : « السر » .

(٣) في الأصل وبعض أصوله : « وإن » ، وأتوا مقصدة .

فلما انتهى الخبر إلى الأُمون^(١) قال : ليست بالثرك حاجةٌ إلى حكم حاكم
بعد حميد ؛ فإنَّ حميداً قد مارسَ الفريقين ، وحميد خُراسانيٌّ وحميد عربيٌّ ،
فليس للثمة عليه طريق .

قالوا : وأتى الخبرُ ذا اليمنيين^(٢) طاهر بن الحسين فقال : ما أحسنَ
ما قال حميد . أمّا إنه ! يقصرُ ولا يفرطُ .

فهذا قول الخليفة الأُمون ، وحكم حميد . وتصويب طاهر .

وخبرني رجلٌ من أهل خراسان أو من بني سدوس قال : سمعت أبا البطّ
يقول : وبلكم ، كيف أصنع بفارسٍ يتلأ فروج دابته منحدرًا من جبل ،
أو مُعَصِّدًا في مقطعٍ عَفِير ، ويمكنه على ظهر الفرس ما لا يمكن الرّقامص
الأُتَي^(٣) على ظهر الأرض .

قال : وقال سعيد بن عَقبة بن سَليم الهنائي^(٤) ، وكان ذا رأيٍ في الحرب
وابنٌ ذى رأيٍ فيها^(٥) : فَرَّقْ ما بيننا وبين التُّرك أن التُّرك لِمَنْ تَنْزِ قَوْمًا قَطْ ،

(١) كَلَّةٌ = الحُر = سافطة من ن . س .

(٢) قالوا : سمى بذلك لأنه ضرب شخصًا بالسيف في وقته مع علي بن مهزيب .
قدّمه صفين ، وكانت القرية بيساره . ولد طاهر سنة ١٤٩ هـ ونوفى سنة ٢٠٧ هـ . وفيات
الأعيان وتعار القلوب ٢٠٧ هـ .

(٣) نسبة إلى الأَبَّة . وهي بلدة على شاطئ دجلة . وفيها يقول الأصمعي :
جنان الدنيا ثلاث : غرطة دمشق ، ونهر بلخ ، ونهر الأَبَّة .

(٤) نسبة إلى بني هُناة بن مالك بن قيس بن دوس . الاشتقاق ٤٩٨ وجمهرة
ابن حزم ٣٨٠ حيث ذكر عَقبة بن سلم .

(٥) كان عَقبة بن سلم والد سعيد والياً للمصور على البحرين والبصرة .

ولا صأفت جيئاً ولا همت على عدو كانوا عرباً أو عجماً ، فأخـرجوا إليهم أعدادهم ولقوهم بمثلهم . وليس غايتهم إلا أن يتقادوا ليكشفوا عنهم بأنهم ومترسهم^(١) ، ويصرفوا عنهم كيدهم . فإن هم استمعوا من الصالح واعتزموا على الحرب فليس شأنهم والذي يدور عليه أمرهم إلا منع أنفسهم وتمعين عكرهم ، والاحتراس منهم . فأنما أن ترقى همهم وتسمو أنفسهم إلى الاحتيال عليهم ، والتماس غيرتهم ، فإن هذا شيء لا يخطر على بال من يحاربهم .

ثم قال : وقد عرفتم حيلهم في دخول المدن من جهة حيطانها المنصنة العريضة ، وحيلتهم في عبور نهر بلخ .

وسميد هذا هو الذي قال : إذا حاربتم وكنتم ثلاثة فاجعلوا واحداً مدداً ، وآخر كيتاً . وله كلام في الحرب غير هذا كثير .

قال سعيد : وأخبرني أبي قال : شهدت أبا الخطاب يزيد بن قتادة ابن دعامة الفقيه^(٢) ، وذكر قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه في الترك حيث قال : « عدو شديد طلبه » قليل سلبه » ، فقال رجل من العالية : نهى عمر^(٣) أبا يزيد الطائي عن وصف الأسد ؛ لأن ذلك مما يزيد في رعب

(١) للمرة : الشدة والأذى في الحرب .

(٢) ليس الفقيه يزيد . بل أبوه قتادة هو الفقيه . وهو قتادة بن دعامة الدوسي . وكنيته أبو الخطاب أيضاً . وقد سنة ٦٦ وتوفي سنة ١١٧ . نهذيب التهذيب ووفيات الأعيان ونكت الحليان ٣٣٠ . وقد ذكر الجاحظ قتادة في مواضع كثيرة من الحيوان والبيان .

(٣) كذا . والمعروف أن عثمان بن عفان هو الذي نهى . انظر طبقات ابن سلام

البيان ، وفي قول الجندان ، ويقال من رغب الشجاع^(١) ، وقد وصف الترك
بأنشد من وصف أبي زيد الأسد .

وقال سعيد في حديثه يومئذ ، وقد قطعت شيرزمية منهم بلاد أبي خزيمة
- يزيد حمزة^(٢) بن أدرك الخارجى - وما والى خراسان [في] بعض الأمر ،
وحمزة في معظم الناس ، قال لأصحابه : أفرجوا لهم ما تركوكم ، ولا تتعرضوا
لهم : فإنه قد قيل : « تاركوهم ما تاركوكم » .

فهذا قول سعيد بن عقبة ورأيه وحديثه : وهو عربى خراسانى .

وذكر يزيد بن مزيد الرقعة التى قتل فيها يولبا^(٣) التركى الوليد بن طريف^(٤)
الخارجى ، فقال في بعض ما يصف من شأن الترك : ليس لبدن التركى على

(١) الرغب : الرغبة والطمع والحرص .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « يزيد بن حمزة » تحريف . وأبو خزيمة
كنية حمزة . وفي البيان ٤ : ٢٥ عند الكلام على الكنية بأبي خزيمة : « وهذه
الكنية كنية ذرارة بن عدس . وكنية خازم بن خزيمة . وكنية حمزة بن أدرك » .
وفي الطبرى ١٠ : ٦٥ وابن الأثير ٦ : ٥٣ : « حمزة بن أدرك » وما هنا يطابق
البيان واللؤلؤ والنحل ١ : ١٧٤ . وكان حمزة صاحب فرقة من فرق المعارضة
من الخوارج . خرج في أيام هارون الرشيد سنة ١٧٩ بسجستان وخراسان ومكران
وفهستان . وهزم الجيش الكبيرة . وبقي الناس في قتله إلى أن مضى صدر
من أيام خلافة المؤمنين . ودارت بينه وبين طاهر بن الحسين وعبد الرحمن
النباسوى حروب انتهت بموت حمزة . وانظر الواصف ٦٣٠ والفرق بين الفرق ٧٦
والاعتمادات للرقصى ٤٨ .

(٣) أحمل نطق الحرف الأول في الأصل وبعض أصول ن .

(٤) هذا نص نادر . فإنه الضريرة التى أصيب بها الوليد بن طريف لم يعين =

ظهر الدابة نُقِلَ ، ولا لشيء على الأرضي رُفِعَ ، وإنه أبهى وهو مدبرٌ ما لا يرى
الفارسُ منّا وهو مُقْبِلٌ . وهو يرى الفارسَ منا صَيِّداً وبعدُ غنّةً قَهْداً ،
وبعدُ غلياً^(١) وبعدُ غنّةً كاليا . والله لو رزى به في قمرٍ بزمكتوفا لما أجهزته
الحيلة ؟ ولولا أن أعمار ثلثهم تقصر دون الجبل - يعني جبل حُلوان -
ثم هموا بنا ، لألقوا لنا سُفْلاً مطوبلاً .

وأنشد رجلٌ من أصحابه :

صَبِرَ الدُّنْيَا نَسَقُ إِلَيْكَ عَفْوَاً أليس مصيرُ ذلك إلى ذَوَالٍ

قال : أنا التركي فلان ينال الكفافَ غصباً أحبُّ إليه من أن ينال
الذلَّ عفواً . ولم يتبنَّ تركي بطمايم إلا أن يكون صيداً أو مفناً ، ولا يترز^(٢)
على ظهر دابته مطالباً كان أو مطرباً .

وقال ثمامة بن أشرس ، وكان مثلي محمد بن الجهم في كثرة ذكره للترك .
قال ثمامة : التركي لا يخاف إلا الخوفاً ولا يطمع في غير مطمع ، ولا يكفه عن
الطلب إلا اليأس سرفاً ، ولا يدع القليلَ حتى يصيب أكثر منه ، وإن قدر
أن يجمعهما لم يفرط في واحدٍ منهما . والباب الذي لا يحسنه لا يحسن منه شيئاً ،

== ضاربها المؤرخون . انظر ابن الأثير ١: ٩٦ في حوادث ١٧٩ وكذا الأغانى ١: ٩٠ .
وقد ذكر ابن الأثير وأبو الفرج والطبري ١٠ : ٦٥ أن يزيد بن مزيد هو الذي
احترز رأسه بعد ما أصيب . وفي ذلك قول أخت الوليد ليلي بنت طريف ، أو الفارعة :
فلت بك أرداء يزيد بن مزيد فيارب خيل فضها وصفوف
وانظر الأمالي ٣ : ٣٧٤ واللكمى ٩١٣ ووفيات الأعيان ٢ : ١٧٩ .

(١) أى بعد الفارس منا طيباً جديراً بالقنص . وفي الأصل وبعض أصول ن :

« وند » .

(٢) أى لا يناب . في الأصل ون : « ولا يتر » . وفي س : « ولا يتر » .

والباب الذي يحسنه قد أحكمه بأسره وأمره^(١) وخفيته عنده كظاهرة^(٢) ،
ولا يشغل بشيء ليس فيه شيء ، ولا على نفسه من شيء^(٣) . فنولا أن نجيم
نفسه بالنوم لما نام ، على أن نومه مشوبٌ باليقظة ، ويقظته سليمة من الرقة .
ولو كان في شقهم أنبياء ، وفي أرضهم حُكماء ، وكانت هذه الخواطر قد مرّت
على قلوبهم ، وقرعت أسماعهم^(٤) ، لأنسوك أدب البصريين ، وحكمة
اليونانيين ، وصنعة أهل العيين .

وقال تمامة : عرض لنا في طريق خراسان تركيٌّ ومنا قائد يصول بنفسه
ورجاله ، وبيننا وبين التركيّ وادٍ ، فسأله أن يبارزه فارس من القوم ، فأخرج
له رجلاً لم أر قط أكل منه ، ولا أحسن تملأ وقواتنا منه ، فاحتال حتى عبر
إليهم الفارس ، فتجاوزوا ساعة ، ولا نظنُّ إلا أن صاحبنا بقي بأضافه ، وهو
في ذلك يبعد عنا . فبينما هم في ذلك إذ ولي عنه التركي كالمغرب منه ، وقُتل
ذلك في موضع ظننا أن صاحبنا قد ظهر عليه ، وأتبعه الفارس لانشك إلا أنه
سيأتينا برأسه ، أو يأتينا به مجنوباً إلى فرسه ، [فلم نسمع^(٥)] إلا وصاحبنا قد
أفلت عن فرسه وغلب عنه ، فنزل التركي إليه فأخذ سلبه وقتله ، ثم عرض
فرسه لجنبه إليه معه .

(١) أمره بإمرار: أحكمه ووثقه توثيقاً .

(٢) في الأصل و ن : « وأمره عنده خفيه كظاهرة » . والوجه ما أثبت من س .

(٣) صححت في ن . س بزيادة « يخاف » بدالة « لا » .

(٤) هذا هو الصواب . وصححت في ن . س إلى : « وفرغت لها أسماعهم » .

وليس ما يدعو إلى ذلك . وما أثبت من الأصل أوفق وأعلى .

(٥) موضعها يائس في الأصل ، وإبائها من ن . س .

قال ثمامة : ثم رأيتُ بعد ذلك التركيَّ قد جيءَ به أسيراً إلى دار الفضل ابن سهل ، فقلتُ له : كيف صنعتَ يومئذٍ ، وكيف طاولته ثمَّ علاك ثمَّ وليت عنه هارباً ثمَّ قتلته ؟ قال : أما إنِّي لو شئتُ أن أقتله حينَ عَثَرْتُه ، وقد كانَ مقتله بارزاً لي ، ولكنتُ احتلتُ عليه حتَّى نُعِيته عن أصحابه لأجوزَه ، فلا يُحَالَ بيني وبين فرسه وسَلَبه .

قال ثمامة : وإذا هو يدير القارص من سائر الناس ويربُّه كيف شاء وأحبُّ^(١) .

قال ثمامة : وقد غيَّرتُ في أيديهم أسيراً فما رأيتُ كإكرامهم وتُخفهم والطفهم .

هذا ثمامة بن أشرس ، وهو عراقيٌّ لا يُتَمُّ في الإخبار عنهم . وأنا أخبرك أنَّي قد رأيتُ منهم شيئاً عجيباً وأمرأ غريباً : رأيتُ في بعض غزوات الأُمون يَمَاطُي خيلَ على جَنَبَتِي الطَّرِيق بِقُرب التَّنَزِل ، مائة فارس من الأتراك في الجانب الأيمن ، ومائةٌ من سائر الناس في الجانب الأيسر . وإذا هم قد اصطَفَوْا يَنْتَفِرون بحِجَى الأُمون ، وقد انتصفَ النهارُ واشتدَّ الحرُ . فورد عليهم وَجَعُ الأتراك^(٢) جنوسٌ على ظهور خيولهم إلَّا ثلاثة أو أربعة ، وجميع تلك الأخطا من الجند قد رَمَوْا بنفوسهم إلى الأرض إلَّا ثلاثة أو أربعة . فقلتُ

(١) أَرادَه : أَرادَه وطلبه . وعن الأمر : أداره عليه . وانتدوا :

يجرونني عن سالم وأُريسه وجالده بين العين والأُنف سالم

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « وجميع » .

لصاحب لي : انظر أي شيء اتفق لنا . أشهد أن المعتصم كان أعرف بهم حين
جمعهم واصطنعهم .

وأردت مرة القاتلون - وهي الباركة - وأنا خارج من بغداد ، وأرى
فوارس من أهل خراسان والأبناء وغيرهم من أصناف الجند ، قد عاز لهم
فرس^(١) ، وهم على خيل عتاق يُربونونه فلا يقدرّون على أخذه ، ومرتزكي^(٢)
ولم يكن من ذوى همتهم وذوى القدر منهم ، وهو على يردون له خيس ،
وهم على الخيول اللطمة ، فاعترض الفرس اعتراضاً ، وقتله قتلاً وجيئاً^(٣) ؛ وأتاه
من زجره بشيء ، فوقف أولئك الجند وصاروا نظارة ، فقال بعضهم من كان
يزري على ذلك التركي : هذا وأيك التكلف والتمريض : أن فرسا قد أهرم
وهم أشد البلاد ، وجاء هذا مع قصر قامته وشف دابته ، فطبع أن يأخذه .
فما اتفقوا كلامه حتى أقبل به ثم سلّمه إليهم ومضى لطليته ، لم ينتظر ثناءهم
ولا ذمهم . ولا أراه أنه قد صنع شيئاً ، أو أتى إليهم معروفاً .

والأثر لا يقوم لا يعرفون التثق ولا الخلافة ، ولا التفاق ولا السعاية ،
ولا التصنع ولا التهمة ولا الرها ، ولا البذخ على الأولياء^(٤) ، ولا البغى
على الخطاء ، ولا يعرفون البدع ، ولم تفيدهم الأهواء ، ولا يستحلّون الأموال
على التأول ، وإنما كان حبهم ، والذي يُوحش منهم ، الحنين إلى الأوطان ،
وحب الثلب في البلدان ، والصبابة بالنارات . والشغف بالنهب ، وشدة

و ٢٣

(١) عاز يجير : اقلعت وذهب هاهنا وهاهنا وحاد عن الطريق .

(٢) الوحي : السريح .

(٣) البذخ : الكبر والتطاول والتمعر .

الإلف للمادة ، مع ما كانوا يتذاكرون من سُرور الفخر وتغايبه ، وخلاوة التسنم وكثرته ، وملاصهم في تلك الصحارى ، وترددهم في تلك الشروج ، وألا يذهب بطول الفراغ فضل نَجْدَتِهِم باطلا ، وبصير خدمهم على طول الأيام قليلا .

ومن حَقَّق شيئا لم يصير عنه ، ومن كره أمرا فرَّ منه .
وإنما خُشُوا بالحنين من بين جميع الصم لأنَّ في تركيبهم وأخلاقهم طلباتهم من تركيب بلدهم وتربيتهم ، ومشاكله مياهم ومناسبة إخوانهم ، ما ليس مع أحد سواهم . ألا ترى أنَّك ترى البصريَّ فلا تدرى أبصريَّ هو أم كوفي ، وترى المسكِّيَّ فلا تدرى أمكِّيَّ هو أم مدني . وترى التجلبيَّ فلا تدرى أجبليَّ هو أم خراساني ، وترى التجزريَّ فلا تدرى أجزريَّ هو أم شامي . وأنت لا تَنَاطُ في التركي ، ولا تحتاج فيه إلى قيافة ولا إلى فِرَاسَة ، ولا إلى مُسَاوَة . ونساوهم كرجالهم ، ودوابهم تركية مثلهم .

وهكذا طَمَحَ اللهُ تلك البلدة ، وقسمَ لِتلك الثَّرى . وجميعُ دُور الدنيا ونسُوها إلى منتهى قُواها ومُدَّة أجلها ، جارية على عجلها ، وعلى مقدار أسبابها ، وعلى قدر ما خَصَّها اللهُ تعالى به وأهَّأها ، وجعلَ فيها . فإذا صاروا إلى دار الجزاء ، فهي كما قال اللهُ تعالى : ﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنِشَاءً ﴾^(١) .

وكذلك ترى أبناء العرب والأعراب الذين نزلوا خراسانَ ، لا تَفْصِلُ بين من نزل أبوه بفرغانة وبين أهل فرغانة ، ولا ترى بينهم فرقا في السَّبل الضَّهَب

والجلود القشرة^(١)، والأتقاء المظبية، والأكسية القرغانية. وكذلك جميع تلك الأرباع، لا تفصل بين أبناء النازلة وبين أبناء النابتة.

٣٣ ظ

ومحبة الوطن شيء شامل لجميع الناس. وغالب على جميع الجيرة^(٢). ولكن ذاك في الترك أغلب، وفيها أرسخ؛ لما معها من خاضعة للشاكلة وللناسة، واستواء الشئبه، وتكافئ التركيب. ألا ترى أن العبدى يقول^(٣): «عمر الله البلدان بحب الأوطان»، وأن ابن الزبير قال: «ليس الناس بشيء من أفساسهم أفنح منهم بأوطانهم»^(٤)، وأن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: «لولا تفرق أهواء البلاد لما عمر الله البلاد»، وأن جمعة الإيادية قالت: «لولا ما أوصى الله به البلاد من قفر البلاد، لما وسجهم وإد ولا كفاهم زاد». وذكر قتيبة بن مسلم الترك فقال: «هم والله أحسن من الإبل للمقلة إلى أوطانها»: لأن البعير يمن إلى وطنه وعطنه، وهو نعمان، من ظهر البصرة، فهو يخبط^(٥) كل شيء ويبطن كل وإد. حتى يأتي مكانه: على أنه طريق لم يسلكه إلا مرة واحدة، فلا يزال بالشتم والاسترواح وحسن الاستدلال، وبالطبيعة المخصوص بها حتى يأتي متركه، على بُد ما بين عمان والبصرة.

(١) من القشر، بالتحريك. وهو شدة الحرارة.

(٢) في الأصل وبعض أصول: «الجيرة». وفي ف: «الجيرة». والجيرة بمعنى الناحية.

(٣) به في الحيوان ٣: ٢٢٧. وقد قالوا: «.

(٤) الأقسام: جميع قسم، بالكسر. وهو الحظ والنصيب. والهم في الحيوان ٣: ٢٢٧.

(٥) في الأصل وبعض أصول: «فهى تحت» تحريف.

فلذلك ضرب به قتيبة المثال^(١).

والشُّح على الوطن [والحنين إليه]^(٢)، والمعبأة به، مذكورة في القرآن، مخلوطة في [المشغف بين]^(٣)، جميع الناس غير أن التركي للعلل التي ذكرناها أشد حُبًّا وأكثر نزوعاً^(٤).

وباب آخر، مما كان يدعوهم إلى الرجوع قبل العزم الثابت^(٥)، والمادة النقوضة^(٦)، وذلك أن الترك قومٌ يشتدُّ عليهم العطش والجُوع^(٧)، وطول اللَّبث والسُّكُت، وقلة التصرف والحركة، وأصل يفتيم إنسا ونُصِع على الحركة، وليس للسكون فيها نصيب، وفي قوى أنفسهم فضلٌ على قوى أبدانهم، وهم أصحلب توفد وحرارة، واشتغال^(٨) وضطة، كثيرة خواطرم، سريع لظهم، وكانوا يرون الكفاية متميزة، وطول المقام بلادة، والراحة حَقْلَة^(٩)، والقناعة من عصر الهمة، وأن ترك الفزُو يورث الذلة.

(١) إلى هنا يقضى إغفال الاختيار في ج. ف الذي نهت على بدايته في ص ٥٣.

(٢) التَّكَلُّف من ب.

(٣) هذا ما في ف. وفي الأصل. ن: «واشد نزاعاً». ج: «وأكثر نزاعاً».

(٤) ج: «عزم الثاني» ف: «نفي العزم». وفي الأصل: «العزم الثاني».

والوجه ما أثبت من سائر النسخ.

(٥) في الأصل. س: «ومادة النقوضة». م: «مما به في ج. ف. وفي ن:

«ومادة النقوضة».

(٦) التَّكَلُّف من ن. والكلمة سائطة من ف. ويدلها في ج: «المحتوم».

جسم: «لزم مكانه فلم يرحه».

(٧) في الأصل. و ف: «واشتغال». وأثبت ما في ب.

(٨) أي تخلد صاحبها ومحبه عن الانطلاق.

(٩) «وسائل الجاهل»

٣٤ و

وقد قالت العرب في مثل ذلك : قال عبد الله بن وهب الراسبي :
 « حب اللهو بنا يُكسب الثَّعب » . والعرب تقول : « من غلادماغه
 في الصَّيف حَلَّتْ قَدْرُهُ في الشَّاء » . وقال أكرم بن صبيح : « ما أحبُّ أني
 مكفي كلَّ أمر الدنيا » . قيل : ولم ؟ قال : « أخاف العجز » .

فهذه كانت عِلَلُ التَّرك في حبِّ الرجوع والحزن إلى الوطن .

ومن أعظم ما كان يَدْعُوهم إلى الشُّرود ويمنهم على الرجوع ، ويُسكِّرهم
 عندهم النِّقام ، ما كانوا فيه من جَهْل قَوادِم بأفئادهم ، وقَلَّة معرفتهم
 بأخطارهم ، وإغفالهم موضع الرَّد عليهم والانتفاع بهم ، حتَّى جعلهم أسوَّة
 أجنادهم ، ولم يقتنعوا أن يكونوا في الحاشية والحشوة ، وفي غمار العامة
 ومن غرض العساكر . وأنفوا من ذلك لأنفسهم ، وذكروا ما يجب لهم ،
 ورأوا أنَّ الصَّيِّم لا يُلقي بهم ؛ وأنَّ المحلول لا يعموز عليهم ، وأنهم في النِّقام
 على من لا يعرف حقَّهم ألوم ممَّن منعمهم حقَّهم . فلما صادفوا تلكا حكيما ،
 وبأقدار النَّاس عليا ، لا يميل إلى [سو^(٢)] عادة ولا يمتَح إلى هوى ،
 ولا يعضَّب لبهر على بلد ؛ يدور مع التدبير حيثما دار ، ويقيم مع الحقِّ حيثما
 أقام ، أقاموا إقاةً من قد فهم الخط^(٣) ، ودانَ بالحقِّ ونَبَذ العادة ، وآثَر

(١) في الأصل وبنسب أصول ن : « الدنيا » ، صوابه في ب .

(٢) التَّكَلُّف من ب .

(٣) في الأصل وبنسب أصول ن : « الحق » ، واثبت ما في ب . لكن في ف :

« منح » موضع « فهم » .

الحقيقة ، ورَحَلَ ثَمَّةَ قَعْلِيَّةٍ وَمَلَنَهُ ^(١) ، وآثَرَ الإِمْلَةَ عَلَى مُلْكِ الْبَجَرِيَّةِ ^(٢) ، واختار الصَّوَابَ عَلَى الْإِلْفِ .

نَمِ اعْلَمْ ^(٣) بِمَدِّ هَذَا كُلُّهُ أَنَّ كُلَّ أُمَةٍ وَقَرْنٍ ، وَكُلَّ جِيلٍ وَبَنِي أُنْبٍ وَجَدْتَهُمْ قَدْ بَرَعُوا فِي الصَّنَاعَاتِ ، وَفَضَّلُوا النَّاسَ فِي الْبَيَانِ ، أَوْ فَاقُوهُمْ فِي الْأَدَابِ ، وَفِي تَأْسِيسِ الْمُلْكِ ، وَفِي الْبَصَرِ بِالْحَرْبِ ؛ فَإِنَّكَ لَا تَجِدُهُمْ فِي الْغَايَةِ وَفِي أَنْصَى النِّهَايَةِ ، إِلَّا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ سَخَّرَهُمْ لِمُلْكٍ الْمُنَى بِالْأَسْبَابِ ، [وَقَصَرَهُمْ ^(٤)] عَلَيْهِ بِالْمُلْكِ الَّتِي تَقَابِلُ تِلْكَ الْأُمُورَ ، وَتَصْلُحُ لِمُلْكٍ الْمَعَانِي ؛ لِأَنَّ مَنْ كَانَ مَتَّسِعًا مَلُومًا ، مَشْتَرَكًا الرَّأْيَ ، وَمَقْشُوبًا النَّفْسَ ، غَيْرَ مُؤَفَّرٍ عَلَى ذَلِكَ الشَّيْءِ ، وَلَا مُهَيَّأً لَهُ ، لَمْ يَحْذِقْ مِنْ تِلْكَ الْأَشْيَاءِ [شَيْئًا ^(٥)] ؛ بِأَشْرِهِ ، وَلَمْ يَبْلُغْ فِيهِ غَايَتَهُ ، كَأَهْلِ الْعَيْنِ فِي الصَّنَاعَاتِ ، وَالْيُونَانِيِّينَ فِي الْحِكْمِ وَالْأَدَابِ ، وَالتَّوَرِّبِ فِيمَا نَحْنُ فِيهِ ذَاكِرُوهُ فِي مَوْضِعِهِ ، وَآلِ سَامَسَانَ فِي الْمُلْكِ ، وَالْأَتْرَاكِ فِي الْحُرُوبِ . أَلَا تَرَى أَنَّ الْيُونَانِيِّينَ الَّذِينَ نَظَرُوا فِي الْعِلَالِ لَمْ يَكُونُوا تِجَارًا وَلَا صُنَاعَاتِيًّا كَقَوْمِهِمْ ، وَلَا أَصْحَابَ زَرْعٍ وَلَا فِلَاحَتَوْنًا ؛ وَغَرَسَ ، وَلَا أَصْحَابَ جَمْعٍ وَمَنْعٍ ، وَحِرْصٍ وَكَدٍّ ، وَكَانَتِ الْمُلُوكُ تُفَرِّغُهُمْ ، وَتُجْرَى عَلَيْهِمْ كِفَايَتُهُمْ ،

ظ ٣٤

(١) يُقَالُ رَحَلَ تَعَسَلَ كَذَا ، إِذَا صَبَرَ عَلَى إِذَاءِهِ . وَفِي الْأَمَلِ وَبَعْضِ أَصُولِ ن : غَطَّكَ • تَحْرُفُ .

(٢) فِي الْأَمَلِ وَبَعْضِ أَصُولِ ن : « وَآثَرَ مُلْكَ الْإِقَامَةِ عَلَى مُلْكِ الْحَرِيَّةِ » . صَوَابُهُ فِي ب .

(٣) فِي الْأَمَلِ وَبَعْضِ أَصُولِ ن : « وَأَعْظَمَ » .

(٤) مَوْضِعُهَا يَبْلُغُ فِي الْأَمَلِ ، وَإِبْنَانُهُ مِنْ ب .

فَنظَرُوا حِينَ نَظَرُوا بِأَنْفُسِ بَحْثَمَةِ ، وَقُوَّةِ الْفَرَةِ ، وَأَذْهَانِ فَارِغَةِ ، حَتَّى اسْتَخْرَجُوا الْأَلَاتِ وَالْأَدْوَاتِ ، وَالْمَلَاهِيَّ الَّتِي تَكُونُ تَجَامُاً لِلنَّفْسِ ، وَرَاحَةً بَعْدَ الْكَدِّ ، وَسُرُوراً بِدَاوَى قَرْحِ الْهَمِّ ، فَصَنَعُوا ^(١) مِنَ الْفَرَاتِ ، وَصَاغُوا مِنَ الْفَنَافِعِ كَالْقَرِصُطُونَاتِ ^(٢) ، وَالْقَبَائِنَاتِ ، وَالْأَسْطُرْلَابَاتِ ^(٣) ، وَآلَةِ السَّاعَاتِ ، وَكَالْكُونِيَا ^(٤) وَكَالشِّيزَانِ ^(٥) وَالْبِرَكَارِ ^(٦) وَكُفْهَانِ الْفَرَسِ وَالْمُطَازِفِ ، وَكَالطَّبِّ وَالْحِسَابِ وَالْمُنْدَسَةِ وَالْأَحْوَاتِ ، وَآلَاتِ الْخَرْبِ كَالْمُجَانِيحِ .

(١) فِي الْأَمَلِ وَبَعْضِ أَمُورِهِ : « فَصَنَعُوا » .

(٢) جَاءَ فِي الرَّهْزَةِ الْمُهْجَةِ لِمَاوِدِ الْأَنْطَاكِ بِهَامِشِ تَذَكُّرَةِ دَاوُدَ ١ : ١٥ : « عِلْمُ مَرْكَزِ الْأَحْثَالِ مِثْلُ الْقَرِصُطِيِّينَ . يَمْنَى الْقَبَانِ » . وَجَاءَ فِي كُتُبِ التَّرْبِيعِ وَالتَّوْبُرِ مَس ١٣٨ س : « وَخَبَرَنِي عَنِ الْقَرِصُطِيِّينَ كَيْفَ أَخْرَجَ أَحَدُ رَأْسِيهِ ثَلَاثَةَ رُطُلٍ زَادَ ذَلِكَ أَمْ قَصَ ، وَوزَنَ جَمِيعَهُ ثَلَاثُونَ رُطُلًا زَادَ ذَلِكَ أَوْ قَصَ » . وَانْظُرِ الْخَيْرَانَ ١ : ٨١ ، فَيَدُو أَنَّهُ ضَرَبَ مِنَ الْقَبَانِ .

(٣) الْأَسْطُرْلَابُ أَوْ الْأَسْطُرْلَابُ : مِقْيَاسٌ لِلنَّجْمِ . وَهُوَ بِالْيُونَانِيَةِ أَسْطُرْلَابُون . وَأَصْطَرُ هُوَ النَّجْمُ . وَلَابُونُ هُوَ الْمُرَّةُ . وَقَدْ يَهْدَى بَعْضُ الْمُؤَلِّفِينَ بِالِاسْتِشْقَاقَاتِ فِي هَذَا الْمَعْنَى بِمَا لَا مَعْنَى لَهُ ، وَهُوَ أَنَّهُمْ يُزْعِمُونَ أَنَّ لَابَ اسْمُ رَجُلٍ وَأَصْطَرُ جَمْعُ سَفَرٍ وَهَذَا اسْمُ بَرْبَانِي ، اسْتِشْقَاقُهُ مِنْ لِسَانِ الْعَرَبِ جَهْلٌ وَسَخْفٌ . فَمُنَاجِيحُ الْعُلُومِ لِلْخَوَارِزْمِيِّ مَس ١٣٤ وَالْخَيْرَانَ ١ : ٨١ / ٢ : ٢٤٢ . وَقَدْ وَفَّقَ صَاحِبُ الْقَامُوسِ فِي هَذَا التَّوْحُمِ الَّتِي يَبْهِي عَلَيْهَا الْخَوَارِزْمِيُّ فِي مَادَّةِ (لُوبِ) .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « وَكَالْكُرْمَا » بِهَذَا الْإِهْمَالِ ، وَأَثْبَتَ حَاقِقُ ج . ف . وَفِي « مُنَاجِيحِ الْعُلُومِ » : « الْكُونِيَا » بِالْوَاوِ . وَقَالَ : « لِلتَّجَارِبِ يُقَدَّرُونَ بِهَا الزَّوَادِيَةُ الْقَائِمَةُ » .

(٥) ج . ف . : « وَالْكُسِيرَانِ » ن . س . : « وَالْكُشْتَرَانِ » .

(٦) الْبِرَكَارُ : آتَةٌ هَنْدِيَّةٌ مَرْكَبَةٌ مِنْ سَاقَتَيْنِ مُتَصِلَتَيْنِ تُثَبَّتُ إِحْدَاهُمَا وَتُدَوَّرُ حَوْلَهَا الْأُخْرَى . رَسَمَ بِهَا الدَّوَائِرَ وَالْأَقْوَامَ . وَتُسَمَّى بِالْعَامِيَةِ « الْبَرَجِ » . وَهِيَ فِي الْفَارْسِيَةِ « بَرَكَار » .

والترادفات^(١)، والرتيلات^(٢)، والدُّبَّابات، وآلة الدَّقْطِ^(٣)، وغير ذلك مما يطول ذكره.

وكانوا أصحاب حكمة ولم يكونوا قلة؛ يصوّرون الآلة، ويغرطون الأداة، ويصوغون المثل ولا يحسنون العمل بها^(٤)، ويشيرون إليها ولا يمشونها، ويرغبون في العلم ويرغبون عن العمل.

فأنا شكّان الصين فهم أصحاب التبتك والصياغة، والإفراغ والإذابة والأصباغ المعجبة، وأصحاب المنظرط والنحت والتلوين، والنسخ والخط، ورفق الكف في كل شيء يتوقونه ويغاثونه، وإن اختلف جوهره، وتباينت صنته، وتفاوت ثمنه.

واليونانيون يعرفون الفلك، لأن أولئك حكماء، وهؤلاء قلة^(٥). وكذلك العرب، لم يكونوا تجاراً ولا صنّاعاً، ولا أطباء، ولا حساباً، ولا أصحاب فلاحه فيكونون مهنة، ولا أصحاب زرع، لخوفهم من صفار

(١) المرادة: «جنين صغير». والشجيق: آلة ترمى بها الحجارة في القتال. وانظر حواشي البيان والتبيين ٣: ١٧.

(٢) في الأصل وبعض أصول ن: «التريلات» بالإهمال. وفي بعض أصول ن: «الرتيلات». وبقي النسخ: «الرتيلات». وفي البيان ٣: ١٧: «الرتيلة». (٣) ج، ف: «الدقطين».

(٤) في الأصل وبعض أصول ن: «الآلة ولا يحسنون العمل به»، وعدلت العبارة لتتفق مع سائرهما.

(٥) في الأصل وبعض أصول ن: «حكماء وهم قلة». وأثبت الصواب من ب.

الجزية^(١) . ولم يكونوا أصحاب جمع وكس ، ولا أصحاب احتكار ثافي أيديهم
ومطلب ماعند غيرهم ، ولا طلبوا المعاش من ألسنة الموازين ورموس السكايل ،
[ولا عرفوا القوانين والقراريط ، ولم يفتقروا الفقر للدفع الذي يشغل عن
المعرفة^(٢)] ، ولم يستغنوا الذي الذي يورث البخل^(٣) ، والثروة التي تحدث
الغيرة ، ولم يمتثلوا ذلاً قط فبيعت قلوبهم وبصرهم عندهم أنفسهم . وكانوا سكان
فياف وتربية القراء ، لا يعرفون العمق ولا التيق^(٤) ، ولا البخار ولا الفلظ
ولا التمن ، ولا التخم^(٥) . أذهل حديد ، ونفوس منكرو ، فحين حملوا حقدهم
ووجهوا قواهم لقول الشعر وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة وتصاريف الكلام ،
بعد قياة الأثر وحفظ القسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآفاق ،
وتعرف الأنواء ، والبصر بالليل والليلح وآلة الحرب ، والحفظ لكل سموع
والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن الثالب والثاقب ، هبنا في ذلك
الغاية ، وحازوا كل أمنية . وبعض هذه الملل صارت نفوسهم أكبر ،
ومهمهم^(٦) أرفع من جميع الأمم وأغفر ، ولأيمانهم أحفظ وأذكرو .

وكذلك الترتك أصحاب عمد وسكان فياف وأرباب مواش ، وهم أعراب

(١) الصغار : القل .

(٢) التسكة من ب . ولم يبيض لها في الأصل .

(٣) البخله ، بضم الباء وفحوا : ضد التفاد والادكا ، والفناء في الأمور .

(٤) العمق : المدى والرطوبة والوخابة . والتيق : المدى مع سكون الريح .

في الأصل وبعض أصول ن : « العمق والسق » ، تحريف .

(٥) التخم : الوخم . وهو الوباء .

(٦) في الأصول وبعض أصول ن : « ونهمهم » ، وأثبت على ب .

التجم كما أنَّ هذيلًا أكراد العرب . فحين لم تشغلهم الصناعات والتجارات ، والطبُّ والفلاحة والمهندسة : ولا غرس ولا بُنيان ، ولا شقُّ أنهار ، ولا جباية غلات ، ولم يكن همهم غير الغزو والفسادة والصيد وركوب الخيل ، ومقارعة الأبطال ، ومطاب الفنائم وتدويج البلدان ، وكانت همهم إلى ذلك مصروفةً وكانت لهذه ^(١) الماشي والأسباب مستخرةً ومقصورةً ، عليها . وموصوفةً بها ، [أحكوا ذلك الأمر بأسره ، وأتوا على آخره ^(٢)] ، وإصار ذلك هو صناعتهم وتجارتهم ، ! ولذتهم ^(٣)] ونفهم ، وحديثهم وسمرهم .

فلما كانوا كذلك صاروا في الحرب كالليونانيين في الحكمة ، وأهل الصِّين في الصناعات ، والأعراب فياعدتنا ونزلنا ، وكآل ساسان في الملك والرياسة .

ومما يستدلُّ به على أنَّهم قد استصفوا هذا الباب واستغرقوه ، وبلغوا أقصى غاية وتعمقوه ، أنَّ الشَّيف إلى أن يقطَّعه متقطَّع . أو يضرب به ضارب ، قد مرَّ على أيدي كثيرة ، وعلى طبقات من العشاق ، كلُّ واحدٍ منهم لا يعمل عمل صاحبه ، ولا يحسنه ولا يبدِّيه ولا يتكلفه ، لأنَّ الذي يذيب حديد الشَّيف ويبيحه ، ويعصيه ويهذِّبه ، غير الذي يمدُّه ويمطِّله ^(٤) : والذي يمدُّه ويمطِّله ^(٥)

(١) في الأصل وجس أصول ن : « وكانوا يهذه » .

(٢) الشككة من ب .

(٣) في الأصل وجس أصول ن : « غير الذي يمدُّه ويمدِّه » ، وأثبت ما في ب .

(٤) للطل : اللد . وفي الأصل وجس أصول ن : « ويمطِّله » تحريف .

٢٥ ظ

غير الذى يطعمه وبسوى متنه ، وبغير حَشِيْبَتِه^(١) ؛ والذى يطعمه وبسوى متنه
غير الذى يَسْقِيه ويرْغِفُه ، والذى يرْغِفُه غير الذى يُرْكَبُ قَبِيْعَتُه ويستوثق
من سِيْلَانِه^(٢) ، والذى يعمل مسامير السِّلَانِ و [شَارِيْ^(٣)] القبيعة ونصل
السيف غير الذى ينحت حَشَبَ غَدِه ، والذى ينحت حَشَبَ غَدِه غير الذى
يدْبُغُ جِلْدَه ، والذى يدْبُغُ جِلْدَه غير الذى يَحْلِيه ، والذى يَحْلِيه ويرْكَبُ نَمْلَه
غير الذى يَخْرُزُ حِمَالَه ، وكذلك السَّرْجُ^(٤) ، وحالات السُّهُمِ والجُنْبَةِ والرُّمَحِ
وجميع السلاح ، مما هو جَلَارِيحٌ أَوْ جُنَّةٌ^(٥) .

والتركي يعمل هذا كله لنفسه من ابتدائه إلى غايته ، فلا يستعين برفيق ،
ولا يَفْزَعُ فيه إلى صديق^(٦) ، ولا يَخْتَلِفُ إلى صانع ، ولا يَسْتَلِ قَلْبَه بِمُطَالَعِ
وتسويته ، وأكاذيب مواعيده ، ويُسْرِمُ كِرَانَه .

وحين يُلَاحِظُ أَوْسُ بْنُ حَبِيْرٍ صِفَةَ الْقَانَصِ ، وبلغ له الغاية في جمعه لأبواب
الكفاية بنفسه ، قال :

(١) في اللسان : « يقال سيف مشقوق الحشية ، يقول عرض حين طبع » .
في الأصل وجنس أصول ن : « جنبته » ، ج : « خضابته » ، وأثبت ما في ن .
س . ف .

(٢) السِّلَانُ ، بالكسر : سنخ قائم السيف ، أى أصل مقبضه .

(٣) السَّكَّةُ مِن ن . س . وبهذا في ج « وشاذى » وفي ف : « وشاذى » .
والقبيعة : ما على مقبض السيف من فضة أو حديد . والشاربان : أعنان طويلان
في أصل مقبض السيف .

(٤) في الأصل وجنس أصول ن : « السراج » .

(٥) الجنة ، بالضم : ما تبقى به من ترس ونحوه . في الأصل وجنس أصول ن :
« خراج أو منه » ، تحريف .

(٦) ب : « ولا يَفْزَعُ إلى رأى صديق » .

قَصِي سَيْتِ الْبَيْتِ لِمَصِيدِ نَطْمٍ لِأَسْبِهِ غَارٍ وَهَارٍ وَرَاصِفٍ^(١)
وليس أنه ليس في الأرض تركي^٢ إلا وهو كما وصفنا ، كما أنه ليس كل
روائي حكيمًا ولا كل صبي غابة في الخلق ، ولا كل أعرج شاعرًا قانيًا ،
ولكن هذه الأمور في هؤلاء ، أعم وأتم ، وهي فيهم أظهر وأكثر .

قد قلنا في الباب الذي تكاملت به التبعة^(٣) والفروسيّة في الترك دون
جميع الأمم ، وفي العلل التي من أجلها انتظموا جميع معاني الخرب ، وهي معاني
تشمل على مذاهب غريبة ، وخصال مجيبة .

فنها : ما بقى لأهلها بالكرم وبتعد الهمة وطلب الغاية . ومنها : ما بدّل
هي الأدب الشديد والرأي الأميل ، والقطنة الناقية والبصيرة النافذة .
إلا ترى أنه ليس بدّ لصاحب الحرب من العلم والعمى ، والحزم والعزم ، والصبر
والكتمان ، ومن الثقافة^(٤) ، وقلة التقلّة وكثرة التجربة . ولا بدّ من البصر
بالغيل والسلاح ، [والخبرة^(٥)] بالرّجال والبلاد ، والعلوّ بالتسكان والزّمان
واللكايد . وبما فيه صلاح هذه الأمور كلّها .

(١) ديوان أوس ص ٧١ . قصي سبيت البيل . يقول : لا بيت مع أهله .
إنا بيت مع الوحش . ويقال فلان مطعم للصيد ومطعم الصيد . إذا كان ، رزوقه .
منه . غار . هو من غراه يغروه ، إذا طلاء بالمرام . والبري معروف . والراصف .
من الرصفة . وهي ما يشتد على صدر السهم . في الأصل : « وواصف » . صوابه في ن .
س . والبيت والكلام المنطق به قبله ساقط من ج . ف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « قد قلنا في السنة التي ما تكاملت التبعة » .
صوابه في ب .

(٣) التكة من ب . (٤) التكة من ب .

و ٣٦

والملك يحتاج إلى أرواحٍ شديدةٍ وأسبابٍ متَّكِنٍ ، ومن أُنْعَمَ سببا وأعمقها
نِعْمًا ما نُثَبِتَه في نِصَابِهِ ، وأَقْرَبَهُ وَسَكَنَهُ في قَرْوَرِهِ ، وزاد في تَمَكُّنِهِ وبِهَانِهِ ،
وقطع أسباب المَطْمَعَةِ فيه ، ومنع أيدي البِنَاءِ من الإِشَارَةِ إليه فضلًا عَنِ الْبَسْطِ
عليه^(١) .

قال : ثم إنَّ التُّرْكَ عَطَفَتْ عَلَى الْعَرَبِ بِالْحَاجَةِ وَالْقَابِضَةِ ، وقالوا : قلتم
إنَّ تَسْكُنَ الْقَرَابَةَ مَا يَسْتَحِقُّ بِالْكَفَايَةِ فَنَحْنُ أَوْقَدُ فِي الطَّاعَةِ وَالْوُدِّ وَالنَّاصِحَةِ ،
وإنَّ نَكُنْ نَسْتَحِقُّ بِالْقَرَابَةِ فَنَحْنُ أَقْرَبُ قَرَابَةٍ .

قالوا : والعرب بعد هذا مِنْفَازٍ : عَدْنَانُ وَقَحْطَانُ . فَأَمَّا الْقَحْطَانُ فَنَسَبْنَا
إِلَى الْخَلْفَاءِ أَقْرَبُ مِنْ نَسَبِهِمْ ، وَنَحْنُ أَمْسُ بِهِمْ رَحْمًا : لِأَنَّ الْخَلِيفَةَ مِنْ وَلَدِ
إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ ، دُونَ قَحْطَانَ وَعَاتِرَ . وَوَلَدَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِسْمَاعِيلَ ،
وَأُتُوهُ هَاجِرٌ ، وَهِيَ قَبْلِيَّةٌ . وَإِسْحَاقُ وَأُتُوهُ سَارَةُ وَهِيَ شُرَيْشِيَّةٌ . وَالسَّنَةُ الْبَاقُونَ
أَسْمُهُمْ قَطُولُوا بَنَتْ مَفْطُونُ^(٢) عَرَبِيَّةٌ ، مِنَ الْعَرَبِ الْمَعْرُوبَةِ .

وفي قول القحطانية : إنَّ أُنْتَا أَشْرَفُ فِي الْحَسَبِ إِذْ كَانَتْ عَرَبِيَّةً .
وَأَوْبَعَةً مِنَ السَّنَةِ هُمُ الَّذِينَ وَقَعُوا بِخُرَاسَانَ ، فَأَوَلَدُوا تُرْكَ خُرَاسَانَ . فهذا قولنا
للقحطانية .

(١) الكلام جده إلى « وكلها جواد » في ص ٨٧ ليس في اختيار] ، ف .

(٢) في الأصل وبعض أصول ن : « أسهم قطور » . والوجه ما أثبت من جمهرة

أسباب العرب . . ٥١٠ . وسيرة ابن هشام ٧١ . وفي سفر التكوين ٢٥ : ١
« قطورة » . وقد ذكرت أسماء السنة في سفر التكوين .

وأما قولنا للمدنانى ، إبراهيم أبونا ، وإسماعيل غننا ، وقرابتنا من إسماعيل كقرابتهم .

قال المهيم بن عدى : قيل ثبارك التركى ، وعنده حماد التركى : إنكم من مذحج . قال : ومذحج هذا من هو ذاك ؟ وما نعرف إلا إبراهيم خليل الله وأمير المؤمنين .

قال المهيم : وقد كان سقط إلى بلاد الترك رجل من مذحج فأنزل نألاً كثيراً ، ولذلك قال شاعر الشعوية للعرب فى قصيدة طويلة :

زعمتم بأنَّ الترك أبناء مذحج . ويتكتم قُربى وبين البرابر
وذلك نل ابن ضبة باسل . وصوفان أنال كثير الجرار^(١)
وقال آخر :

مضى كانت الأتراك أبناء مذحج . ألا إنَّ فى الدنيا عجيبا إنَّ عجيب

وقد سمعتم ما جاء فى سذ بنى قنطور^(٢) . وشأن خيلهم بدخل السواد^(٣) ،
وإنما كان الحديث على وجه التهويل والتخويف بهم لجميع الناس ، فصاروا
للإسلام مادة [و] جنداً كثيراً . ولخلفاء وقاية وموتلاً وجنة حصينة ،
وشعراً دون الدثار .

(١) فى جمهرة ابن حزم ٢٠٣ : • وباسل بن ضبة يقال إن الديلم من ولده • .

(٢) فى الأصل : • قنطور • . وانظر ما سبق .

(٣) ن . س : • تبخر السواد • . والسواد سواد العراق ، وهى قرى الكوفة والبصرة . وأصل السواد جماعة النخل والشجر .

وفى للأتود من الخمر : « تاركوا الترك ما تاركوكم » . وهذه وصية يلجج العرب : فلئن لم أرأى متاركتنا وماسلتنا . وما تشكم بقسوم ! يعرض لهم ذو القرنين . ويقول « اتركوهم » نتموا الترك . هذا بعد أن غلب على جميع الأرض غلبة وقسراً ، وعنوة وقهراً .

وقال عمر بن الخطاب رضى الله عنه : « هذا عدو شديد كلبه . قليل سائبه » . فنهى كما ترى عن التعرض لهم ، بأحسن كناية .

والعرب إذا ضربت السِّلَ في العداوة الشديدة قالوا : ما هم إلا الترك والذليل . قال عمار بن عَقِيل بن عُلْفَةَ :

تبدلت منه بعد ما شلب مفرق عداوة تركي^١ وبنض أبي حنبل
وأبو حنبل هو الضَّب . والعرب تقول : « هو أعن من ضَب » : لأنه يأكل أولاده .

ولم يرعب قلوب أجناد العرب مثل الترك . وقال خلف الأحمر :

كأنى حين أرهنتهم يئني دفعتهم إلى ضهب السبال^(٢)
قال : وإياهم عى أوس بن حجر :

نكبتنا ما هم لنا رأيتهم ضهب السبال بأيديهم ييازير^(٣)

(١) يجوز في ياء التثنية المدغم فيها ياء أن تكون مفتوحة كما يجوز كسرهما . وبالأخيرة قرأ حمزة : « وما أتم بمصرخي » بالكسر . الأصموني ٣ : ٢٨٢ .

(٢) في الأصل وفى بعض أصول ن : « سكرم اسم » . وكتب فى حاشيتها : « ط حسبهم أنهم لما رأيتهم » أى الظاهر . والصواب ما أثبت من ن ، س وديوان أوس ٣٣ . واليازير : جمع بزيارة . وهى الصا العظيمة . وفى الأصول : « ما رن » صوابه من الديوان .

وحدثني إبراهيم بن السدي مولى أمير المؤمنين ، وكان علماً بالقوة ، شديد الحب لأبناء الدعوة ، وكان يحوط موالتيه ويحفظ آبائهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ، ويدرسهم مناقبهم^(١) ، وكان نعم الملقى نعم الألفاظ ، لو قلت لانه كان أروء^(٢) على هذا النك من عشرة آلاف سيف شهر ، وسنان طرير^(٣) ، لكان ذلك قولاً ومذهباً .

قال : حدثني عبد الملك بن صالح ، عن أبيه صالح بن علي ، أن خاقان ملك الترك وقف مرة الجنيد بن عبد الرحمن^(٤) أمير خراسان ، وقد كان الجنيد هاله أمره ، وأفرغه شأنه ، وتماطله جموعه وجمعه ، وبطل به^(٥) ، وفطن به خاقان وعرف ما قد وقع فيه ، فأرسل إليه :

« إني لم ألق هذا الوقت وأنت هذا الإمام وأنا أريد مكروهاً ، فلا ترع . ولو كنت أريد غلبة أو مكروهاً لقد كنت انتفعت عسكريك انشاقاً »

(١) يقال درسته الشيء ، درساً وأدرسته إياه : علمت إياه . انظر اللسان (درس ٣٨٢) .

(٢) يقال هذا الشيء أروء من ذلك ، أي أنفع وأكثر عائداً .

(٣) التبرير : التهور السوان ، وإن كان لم ينص عليه في المعاجم المتداولة . والطبرير : المهدد . وانظر البيان ٣ : ٢٧٣ .

(٤) هو الجنيد بن عبد الرحمن بن عمرو بن الحارث ، اللري . حجة أنساب العرب ٢٥٢ ، وقترح البلدان للبلاذري ٩٠٣ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ . وقد استشهد هشام ابن عبد الملك على خراسان سنة ١١١ وكانت له حروب مع خاقان ملك الترك . الطبري ٨ : ٣٠٤ - ٣١٤ . وهو غير الجنيد بن عبد الرحمن بن عوف بن يحيى الكلابي . وقد ولي خراسان أيضاً . الجيرة ٢٨٧ .

(٥) جن به : ضاق به ودعش فلم يدرك كيف يصنع .

أعجبتك فيه عن الروية وقد ابصرت موضع العورة . ولولا أن تعرف هذه
المسكبة فتعود بها على غيرى من الأتراك ، لمرفقتك موضع الانتشار والخلل
والخطأ في عسكرك وتعميتك . وقد بلغت أنك رجل عاقل ، وأنك لك شرفاً في
بيتك وفضلاً في نفسك ، وعلماً بدينك ، وقد أحيت أن أسأل عن شيء من
أحكامكم لأعرف به مذهبكم ، فأخرج إليّ في خاصتك لأخرج إليك وحدي ،
وأسألك عما أحتاج إليه بنفسى . ولا تحضروا ولا تعترس : فقيس مثل من
غدر ، وليس مثل يؤمن من نفسه ، ومن مسكره وكيده ، ثم ينسكب بوعده .
ونحن قوم لا نخدع بالصل ، ولا نستحسن الخديعة إلا في الحرب ، ولو استقام
أمر الحرب بنهر خديعة لما جوزنا ذلك لأنفسنا .

فأبى الجنيد أن يخرج إليه إلا وحده ، ففصلاً من الصفوف . وقال :
سئل عما أحببت ، فإني كان عندي جواباً أَرْضاه أجبتيك ، وإلا أشرت
عليك بمن هو أبصر بذلك مني .

قال : ما حكمكم في الزاني ؟

قال الجنيد : الزاني عندنا رجلان : رجلٌ دفننا إليه امرأةً نَفَنِيه عن
حَرَمِ الناس ، وتسكفه عن حُرَمِ الجيران ؛ ورجلٌ لم نُطْعِمْه ذلك ، ولم نُحِلْ
بينه وبين أن يفعل ذلك لنفسه . فأما الذي لازوجة له فإننا نجلبده مائة جلدة
ونُخْضِرُ ذلك الجماعة من الناس لنُشْهَرَهُ ونُعْذِرَهُ به ، ونُفَرِّه في البلدان
لنزيد في شهرته وفي التحذير منه ، ولينزجر بذلك كلُّ من كان يُهْمُ بمثل
عمله . فأما الذي قد [أغْنِيناه ^(١)] فإننا نرجئه بالجنْدَلِ حَتَّى تَمُوتَهُ .

(١) موضعها يابض في الأصل . وإبائها من ن . س .

قال : حسن جميل ، وتدير كبير ، فاقولكم في الذي يَقْدِرُ عفيفاً بالزنى ؟

قال : يَحْدُ ثمانين جلدَةً ، ولا يَقْبَلُ له شهادة ، ولا نُصَدِّقُ له حديثاً .

قال : حسن جميل ، وتدير كبير ، فاحكمكم في السارق ؟

قال : السارق عندنا رجلان : رجل يحتال لما قد أحرزه الناس من أموالهم حتى يأخذها بنقب حيطانهم وبالنسك من أعالي دُورهم ؛ فهذا نَقَطَعُ يده التي سَرَقَ بها ، ونَقَبَ بها ، واعتد عليها . ورجل آخر يُخَيِّفُ السبل ، ويقطع الطريق ، ويكايِدُ على الأموال ^(١) ، ويَشْهَرُ السلاح فإن منته صاحب المتاع قَتَلَهُ ، فهذا شَتْلُهُ ونَصْبُهُ على المناهج والطرق .

قال : حسن جميل ، وتدير كبير . قال : فاحكمكم في الناصب والسلب ؟

قال : كل ما فيه الشبهة ويمحوز فيه النكط والوجوه ، كالتنصّب والاستلاب ، والجنابة ، والشرقة لتأبؤ كل أو يشرب فإنَّ لا تقطع فيها فيه شبهة وتستحل ^(٢) لذلك وجهاً غير السرقة .

قال : حسن جميل وتدير كبير . قال : فاحكمكم في القاتل وقاطع الأذن والأنف ؟

(١) للرد بالكسابة هنا الاحتيال والعاجلة . وفي الأصل : « يكابر » ، وأثبت ما في ن . س .

(٢) في أصول ن : « ويمتثل » وقد جعلها فان فلوتن : « ويمتثل » ، وبتة نسخة س . وما أثبت من الأصل أولى وأوفق .

قال : النفس بالنفس ، والمؤمن بالمؤمن ، والأنف بالأنف . وإن قتل رجلاً
عشرة قتلناه . وقتل القوى البدن بالضعيف البدن ، وكذلك اليد والرجل .
قال : حسن جميل وتدبير كبير . قال : فما تقولون في الكذاب
والنشام والفسراط .

قال : عندنا فيهم الإحصاء لم وإبادهم وإعانتهم ، ولا قبل شهادتهم ،
ولا نصدق أحكامهم .

قال : وليس إلا هذا ؟

قال : هذا جوابنا على دينا .

قال له : أأنا النمام عندي ، هو الذي يُصَرَّب بين الناس^(١) ، فإنني أحبته
في مكان لا يرى فيه أحدًا . وأأنا الفسراط فإنني أكرى استه ، وأعاقب ذلات
النسكان فيه^(٢) . وأأنا الكذاب فإنني أقطع الجارحة التي بها يكذب ، كما قطعتم
اليدين التي بها يسرق ، وأأنا الذي يضحك الناس ويهودهم الشخف فإنني أخبر^(٣) .
من سلطان . وأصالح بإخراجه عقول رعي .

قال : فقال الجنيد بن عبد الرحمن : أأنتم قوم تردون أحكامكم إلى جواز
القول ، وإلى ما يمتحن في ظاهر الرأي : ونحن قوم نتبع الأنبياء ، ونرى أن
لم نصلح على تدبير العباد . وذلك أن الله تعالى أعلم بغيب المصالح وسير الأمور^(٤)

(١) وكذا في ن مع عدم سبق واو لكلمة « هو » فيها . لكن في س :
« وهو الذي يرغع الحديث بين الناس إشاعة » .

(٢) جللت في ن . س : « « « » » .

(٣) ن . س : « وبسر الأمر » .

وحقيقته ، وتحصوله وعواقبه ، والناس لا يصفون ولا يرون الحزم إلا على ظاهر الأمور . وكم من ضيع يسلّم ، وحازم يسطب .

قال : ما قلت كلاماً أشرف من هذا ، ولقد أقيت لي فكراً طويلاً .

قال إبراهيم : قال عبد اللطيف : قال صالح : قال الجنيد : فلم أر أوفى ولا أنصف ولا أهدى ولا أذكى منه . ولقد واقفته ثلاث ساعات من النهار وما تحرك منه شيء إلا لسانه ، وما من شيء لم أحرّكه .

و ٣٨

وهكذا يصفون ملوك الترك ، يزعمون أن ساسان وخاقان الأكبر ، تواقفا يعض الكسور^(١) ، وفصلاً من الصّفين ، وطالت النجاة ، فلما افتلا قالوا : كان خاقان أركن وآدب ، وكان مركب كسرى أركن وآدب^(٢) ، ولم يتحرك من خاقان إلا لسانه ، وكان يردونه برفع فائمة ويتبع أخرى ، وإن مركب كسرى كأنما ضبّ حبّاً ، وكان كسرى يحرك رأسه ويثير يده .

قالوا : ومن الأعاجيب أن الحارث بن كعب لا يقوم تلخزم^(٣) ، وحزم لا تقوم لكندة ، وكندة لا تقوم للحارث بن كعب .

(١) كسور الأودية والجبال : معاطفها وشعابها ، لا يبرد لها واحد كافي اللسان .
 (٢) حورث في ن . س إلى « الجسور » خلافاً لما في الأصول ، وليس ما يدعى إليه .
 (٣) أركن من الركاة . وهي السكون والوقار . وفي جميع الأصول : « أركى » في هذا الموضع .

(٣) بشر حزم بن زيد بن لؤدان بن عمرو بن عبيد بن عوف بن غنم بن مالك ابن النجار . جريدة أنساب العرب ٣٤٨ . وفي العرب جرم بن ريان بن حلوان ابن عمران بن الحاف بن قضاعة . الجهمرة ٢٥٦ .

قالوا : ومثل ذلك من الأعاجيب في الحارث : أن العرب لا تقوم للترك ،
والترك لا تقوم للرؤم ، والرؤم لا تقوم للعرب .

قال جهم بن صفوان الترمذى^(١) : قد عرفنا ما كان بين فارس والترك
من الحرب ، حتى تزوج كسرى أبرويز ، خاتون بنت خاقان ، يستمليه بذلك
الصهر ، ويدفع بأهله عنه . وقد عرفنا الحروب التي كانت بين فارس والرؤم ،
وكيف تساجلوا الظفر ، وبأى سبب غرس الزيتون بالمدائن وسوسا^(٢) ، وبأى
سبب بنيت الزومبة^(٣) ، ولم سميت بذلك ، ولم بنى كسرى على انخليج قبالة
قسطنطينية التواويس^(٤) وبيوت النار . ولكن متى ظهرت الرؤم على ترك
خراسان ظهوراً موالياً ، ضربوا بها اللئلى إلى آخر دارمه^(٥) ، ومن هناك من
الأشياء ، ومن يتخلل هذا التسب .

وكانت خاتون بنت خاقان عند أبرويز فولدت له شيرويه . وقد ملك
شيرويه بسد أبرويز ، فتزوج شيرويه مريم بنت قيصر ، فولدت له

(١) نبة إلى ترمذ ، وكان قد أظهر دعونه بها . السمعاني ١٤٩ والفرق بين
الفرق ١٩٩ واللؤلؤ والعمل ١ : ١٠٩ . وقد قتل سنة ١٢٨ . البداية والنهاية
١٠ : ٢٧ ولسان البزان ٢ : ١٤٢ . ويقال له أيضاً السمرقندي كما في لسان الميزان .
وفي الأصول : « الریدی » بالإجمال .

(٢) التي في معجم البلدان « شوشة » قال : قرية بأرض بابل .

(٣) هذه رومية للدائن ، وهي غير رومية الروم . انظر معجم البلدان
(رومية) .

(٤) التواويس : جمع ناووس ، وهي مقابر النصارى .

(٥) كذا وردت هذه العبارة .

فيروزاشاهي^(١) أُمّ يزيد الناقص^(٢) والوليد . وكان يقول : ولدي أربعة أملاك : كسرى ، وخالقن ، وقيصر ، و مروان . وكان يرتجز في حروبه التي قتل فيها الوليد بن يزيد بن عائكة :

أنا ابنُ كسرى وأبي خالقنُ وقيصرُ جدّي وجدّي مروان^(٣)
فلما صار إلى الاختيار في شعره بالنجدة والثغافة بالحرب ، لم يفخر
إلا بخالقن قطع فقال :

فإن كنتُ أرى مُقبِلًا ثم مُدبرًا وأطلع من طودٍ زليق على مُهر
نخالقن جدّي فاعرف في ذاكٍ واذكري أخايرة في السهل والجبل الوعر^(٤)
قوله « وأطلع » يريد : وأنزل ، وهي لغة أهل الشام^(٥) وأخذوها من
نازلة العرب في أول الدهر . وجعل دأبه مهرا ، لأنّ ذلك أشدّ وأشق .

(١) في الأصول : « فيروزا بنتاهي » تحريف . وفي الطبري ٩ : ٤٦ أن اسمها
« شاه آفريد بنت فيروز » .

(٢) هو يزيد بن الوليد بن عبد الملك بن مروان . الطبري ٩ : ٢٢ . ٤٦ قال :
« وإعاقيل يزيد الناقص لتقصه الناس الزيادة التي زادهاها الوليد بن يزيد في أعطياتهم
وذلك عشرة عشرة » . وروى الطبري أيضا أنه سمى بذلك تلقيا له من مروان
ابن محمد ، إذ سماه الناقص بن الوليد فسماه الناس الناقص قتلًا . فهذا تحليل آخر .
وفي أمثلة التهذيب : « الناقص والأشج أعدلا بني مروان » . والأشج : عمر
ابن عبد العزيز ، سمى بذلك لشدة أصابته .

(٣) في الطبري ٩ : ٤٦ :

أنا ابن كسرى وأبي مروان وقيصر جدّي وجدّي خالقن

(٤) ن ، س : « أخايرة » .

(٥) لم تسجلها للماجم المتداولة ولا كتب الأضداد ، لكنهم ذكروا طلع عنهم
وعليهم بمعنى غاب واخفى . وطلع عنهم وعليهم بمعنى أقبل .

وقال الفضل بن العباس بن رزيق : أنا ذات يوم فرسان من الترك ، فلم يبق أحد ممن كان خارجا إلّا دخل حصنه وأغلق بابه ، وأحاطوا بحصن من ذلك الحصون ، وأبصر فارس منهم شيئا يطلع إليهم من فوق ، فقال له التركي : لئن لم تنزل إلّى لأقتلك قتلة ماقتلتها أحدا ! قال : فنزل إليه وفتح له الباب ، ودخلوا الحصن ، واكتسحوا كل شيء فيه ، فضحك من نزوله إليه وفتح له وهو في أحسن موضع وأمن مكان ، ثم أقبل به إلى حصن أنا فيه فقال : اشتروه مني . قلنا : لا حاجة لنا في ذلك . قال : فإني أبيعهم بدرهم واحد . فرمينا إليه بدرهم غلّ سبيله ، ثم أدبر عنا ومضى مع أصحابه ، فالتفت إلّا قليلا حتّى عاد إلينا فوقف حيث نسمع كلامه ، فراعنا ذلك ، فأخرج الدرهم من فمه وكسره بنصفين . وقال : لا يستوى درهما^(١) ، وهذا غبن طاحش ، فخذوا هذا النصف ، وهو على كلّ حال غال جدا بالنصف الآخر . قال : فإذا هو أغلف الخلق .

قال : وكنا نعرف ذلك الرجل بالخبين ، وقد كان سيمع باحتيال التّرك في دخول المدن وعُبور الأنهار في الحروب ، فزعم أنه لم يتوعد بفتح الباب^(٢) .

وقال ثمانية : ما شَبَّهْتُ الدَّرَّ إلّا بالترك ؛ لأنّ كلّ ذرّة على حدّتها معها من المعرفة بأذخار الظلم ، ومن الشَّمِّ والاسترواح ، ونَجَبُ اللَّدَخِرِ^(٣) حتّى

(١) أى لا يساوى درهما . وقد أنكر هذه الكلمة أبو عبيد . وحكاها أبو عبيدة كافي اللسان (سوى ١٤٠) .

(٢) أى لم يكن كلامه وعيدا لحجب . وفي ن بعده : « إلا وعنده » . ثم أكملها فان فلونين جبارة « شيء من ذلك » .

(٣) التجب : النفس والفسر ، والمراد شق الحرب . انظر الحيوان ٤ : ٦٠-٥٠ .

لا يَنْبَغُ في جِبره^(١) ، ثم الاحتيال للناس في الاحتيال لها بالصَّامة والليفاص
واللزج^(٢) ، وتعليق الطعام على الأوتاد والبرادات ، مثل القَرِّ مع صاحبها .
وقال أبو موسى الأشعري : كل جنس يحتاج إلى أمير ورئيس ومدبر ،
حتى القَرِّ^(٣) .

وروى أبو عمر الضمير^(٤) ، أن رئيس القَرِّ الرائد الذي يخرج أولاً
ليشئ قد كتبه دون أصحابه ، تلصوصية خَصَّه الله تعالى بها ، ولطافة الحسن ،
فلذا حاول حمله وتعلمي قَلَّه ، وأهجزه ذلك بعد أن يُبَيِّلَ عُذْرًا ، أتاهنْ
فأخبرهن فرجع ، وخرجت بعده كأنها خيط أسود محدود . وليست ذَرَّةٌ أبداً
تستقبل ذَرَّةً أخرى إلا واقفتها وسارعتها بشئ . ثم انصرفت عنها^(٥) .

وكذلك الأتراك كل واحد منهم غير عاجز عن معرفة مصلحة أمره ،
إلا أن التفاضل واجب في جميع أصناف الأشياء والنبات والتموات . وقد تختلف
الجواهر وكلها كريم^(٦) ، وتفاضل المتاق وكلها جَوَاد .

== ١٨ و ٧ : ٣٥ . وفي الأصل « محب » بإعمال الحرف الأول والثالث . وجعلها
فان فلون : « وتجنب المزجر » .

(١) في الأصل : « حتى لا يبيت إلا في جبره » . والوجه ما أثبت . انظر التبيه
السابق ومراجعته .

(٢) في الأصل : « وللودجر » .

(٣) انظر الحيوان ٢ : ١٩ ، ٢٠ .

(٤) وكذا ورد اسم في البيان ٢ : ٦٩ . وفي بعض نسخ البيان « أبو عمرو والضمر »
وورد في الحيوان ٣ : ٢٠ « أبو عمرو المكثوف » .

(٥) انظر الحيوان ٢ : ٧ - ٨ .

(٦) في الأصل : « وكله كريم » .

وقد قلنا في مناقب جميع الأصناف بجعل ما انتهى إلينا وبلغه علما ؛ فإن وقع ذلك بالواقعة فتوفيق الله وصنعه ، وإن قصر دون ذلك فالذي قصر بنا نقصان علما ، وقلة حفظنا وسماعتنا . فأما حسن التثنية ، والذي نُصير من الحجة والاجتهاد في القرينة ، فإننا لا نرجع في ذلك إلى أنفسنا بلائمة . وبين القصير من جهة التفريط والتضييع ، وبين القصير من جهة التجزؤ وضعف التزم ، فرق .

ولو كان هذا الكتاب من كتب الناقضات ، وكتب السائل والجوابات ، وكان كل صنف من هذه الأصناف يريد الاستغناء على صاحبه ، ويكون غايته إظهار فضل نفسه وإن لم يصل إلى ذلك إلا بإظهار نقص أخيه ووليه^(١) . لكان كتابا كبيرا ، كثير الورق عظيما ، وكان العدد^(٢) الذين يقتضون لؤلؤه بالملم والأشاع في المعرفة أكثر وأظهر . ولكننا رأينا أن القليل الذي يجمع خبر من الكثير الذي يُمَرَّق .

ونحن نمود بالله من هذا المذهب ، ونسأله القون والقديد ، إنه سمع قريب ، فقال لما يريد .

تم الكتاب والله الفاعل ، وبه الحول والقوة

والله الموفق للصواب

الحمد لله وحده وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين وسلانه وهو حسين ونم الوكيل .

(١) في ن . س : « ووليه » .

(٢) في ب : « عدد » .

٢

رِسَالَةٌ

الْمِعَاشِ وَالْمَعَادِ
أَوْ

الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ وَالْمَذْمُومَةِ

كُتِبَ بِهَا إِلَى أَبِي الْوَلِيدِ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دَوَادٍ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

هذه الرسالة من نسختين في الأصل :

النسخة الأولى عنوانها : (رسالة أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى عبد الملك في الأخلاق الحميدة والذمومة) وهي ثاني رسالة في مجموعة الأصل .
والنسخة الثانية عنوانها : (رسالة للماد والمطاش في الأدب وتدبير الناس ومعاملاتهم كتب بها إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد) وزيتها في المجموعة هو الرابع . إذ يفصل بين النسخة الأولى والثانية رسالة أخرى هي (كتاب كتمان السر وحفظ اللسان) .

أما محمد بن عبد الملك الريات فهو في غنى عن التعريف . وإن كنت قد عرفت به في كتاب الحيوان والبيان .

وأما محمد بن أحمد بن أبي دواد فكان قاضياً كائيه . ولاء المتوكل على قضاء بغداد والأعمال بعد أن نال أجور سنة ٢٣٣ ، ثم عزله المتوكل سنة ٢٣٧ . وتوفي أبو الوليد محمد سنة ٢٣٩ وراث أبوه بعده بشرين يوماً^(١).

والراجع أن الرسالة كتبها الجاحظ إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد ، لا إلى محمد بن عبد الملك ؛ لأنه يذكر في صدرها أنه عرف المكتوب إليه هذه الرسالة « أيام الحدادة » . ولا ينطبق ذلك على محمد بن عبد الملك الريات . فقد كانت حياته بين سنتي ١٧٣ ، ٢٣٣ ولم تعرف صلة الجاحظ به إلا في أيام سالفاته .

(١) تاريخ بغداد ١ : ٢٩٧ - ٣٠١ . وانظر لدرجة أبيه وإخوانه حمزة أنساب العرب ٣٢٨ . وتاريخ بغداد ٤ : ١٤١ - ١٥٦ ووفيات الأعيان ١ : ٢٢ - ٢٦ . وله انفراد بن حزم بنسبة أبيه أحمد بن محمد بن أبي دواد .

وتجد ما يقتضى التسوية بالعماس والمعاد في ص ٩٥ س ١٧ .
وقد حققت هذه الرسالة على أربع نسخ :

- ١ — نسخة الأصل في الموضع الأول من المجموعة .
- ٢ — نسخة الأصل في الموضع الثانى من المجموعة . ورمزها د .
- ٣ — نسخة المصحف البرطاني التى تنقلها مصورة الجامعة ، ورمزها م .
- ٤ — نسخة ياول كراوس ومحمد طه الحاجرى ورمزها ط .

حَفِظَكَ اللَّهُ وَأَمَنَكَ بِكَ ^(١)

أما بعدُ فَإِنَّ جماعاتِ أهل الحكمة قالوا : واجبٌ على كلِّ حكيمٍ أن يحسن الارتياذَ لموضعِ البُغيَّةِ ، وأن يبين أسبابَ الأمور ويَعْمِدَ لمواقبها . فإنما سُحِّدَتِ العلماءُ بحسن التنبُّؤِ في أوائلِ الأمور ، واستشفافِهِمْ ^(٢) بقولهم ما تجي . به العواقبُ ، فيعلمون عند استقبالها ما تُزُولُ به الحالات في استدارها . ويقدِّرُ تفاوتَهُمْ في ذلك تسدين فضائهم . فأما معرفةُ الأمور عند تَكشُّفِها وما يظهر من خَفِيَّاتِها فذاك أمرٌ يستدل فيه الفاضل والمفضول ، والمعالون والجاهلون ^(٣) .

وإني عَرَفْتُكَ - أكرمَكَ اللهُ - في أيامِ الحداثة ، وحيث سُلِطَ اللهُ على الخلق للأعراض أغلبٌ على نظرائك ، وسُكِرَ الشباب والجِدَّةُ ^(٤) التَّحْقِيقِ للذين والرَّوْءةِ مستولٍ على لِدَاتِكَ فاختيرت أنت وهم [فَفَقَّهَهُمْ ^(٥)] يَسْطِطُ للقدرةِ وَحَيَا الحداثة ، وطُولِ الجِدَّةِ ، مع ما تقدَّمَتْهُمْ فيه من الوسامة في الصُّورة ، والجمال في الهيئة . وهذه كُلُّها أسبابٌ [تَكَادُ أَنْ ^(٦)] تُوجِبَ

(١) « حفظك الله وأمنك بك » من د ق ط .

(٢) د : « واستشفافهم » .

(٣) م : « والعالم والجاهل » .

(٤) الجِدَّةُ ، كعدة : اليسار والحة والنقى ، وهن لها الوجد مائة الواو : م :

« الحدة » تصغير .

(٥) التَّكْفَةُ من م .

(٦) التَّكْفَةُ من م .

الاضْيَادَ للهوى ، ونَجِجَ من الهالك لا يَلْمُ منها إِلَّا للتقطع القرن في رِيحة القطرة ، وكال الثقل . فاستبدتْهم الشهواتُ حتى أعطوها أَرْقَمَةَ أديانهم ، وسلطوها على مُرواتهم وأباحوها أعراضهم ، قَالَتْ بَأْ كَثَرُهم الحلالُ إِلَى ذَلِّ الشُّدْمِ وَقَدْ عَزَّ الغنى فِي العاجِل ، والثَّدَامَةُ الطويلة والحسرة فِي الآجَل .

وخرجتْ نسيجَ وحديك ، أو حديبًا فِي عصرِكَ^(١) ، حَكَمْتَ وَكَيْلَ الله عندك . - وهو عَقْلُكَ - على هَوَاكَ ، وأَلَقَيْتَ إِلَيْهِ أَرْقَمَةَ أَمْرِكَ ، فَسَلَّكَ بِكَ طريقَ السَّلَامَةِ^(٢) ، وأَسْلَمْتَ إِلَى العاقبة المحمودة ، وَبَلَغَ بِكَ من نيل اللذاتِ أَكْثَرَ مما بَلَغُوا ، ونَالَ بِكَ من الشهواتِ أَكْثَرَ مما نَالُوا ، وَصَرَّفَكَ من صنوف النِّتَمِ^(٣) أَكْثَرَ مما صَرَّفُوا ، وَرَبَطَ عَلَيْكَ من نِيَمِ الله التي خَوَّلَكَ ما أَطَاقَهُ من أَيْدِيهِمْ إِيْثَارَ الله^(٤) وتسليطهم الهوى [على أنفسهم]^(٥) ؛ غَنَاضَ بِهِمْ سُبُلَ تِلْكَ اللَّجْجِ^(٦) ، واستنقَذَكَ من تِلْكَ الماعط ، فأخرجَكَ سَائِمَ الدِّينِ ، وافرَّ المُرُوءَةِ ، نَقَى العَرَضَ ، كَثِيرَ الثَّرَاءِ ، بَيْنَ الجِدَّةِ^(٧) . وَفَلَّكَ سَبِيلَ مَنْ كَانَ مِثْلُهُ إِلَى الله تعالى أَكْثَرَ من مِيلِهِ إِلَى هَوَاهُ .

٢١ و

(١) هذا ما في د . وفي الأصل م : « نَسِكَ » .

(٢) هذا ما في د . وفي الأصل : « طَرَق » وفي م : « سَبِيل » .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « التَّم » .

(٤) د : « إِيْثَارَ الهوى » .

(٥) هذه من د .

(٦) في الأصل م : « غَنَاضَ بِكَ تِلْكَ اللَّجْجِ » ، وأثبت ما في د .

(٧) هذه الكلمة والتي قبلها ساقطتان من د . وفي الأصل م : « من الجِدَّة » .

فَلَمْ أَرْكَلْ [أَبْقَاكَ اللَّهُ ^(١)] فِي أَحْوَالِكَ تَهْتَ كُلُّهَا بِفَضِيلَتِكَ عَارِفًا ، وَلَكِ
بِنِعْمِ اللَّهِ عِنْدَكَ غَايِلًا ، أَرَى ظُلُومَ أُمُورِكَ الْمُحْصَوَةِ فَتَدْعُونِي إِلَى الْإِضْطَاعِ
إِلَيْكَ ، وَأَسْأَلُ عَنْ بَوَاطِنِ أَحْوَالِكَ فَتَزِيدُنِي رَغْبَةً فِي الْإِتِّصَالِ بِكَ ، أَرْتِيَادًا
مَنْ لِمَوْضِعِ الْخَيْرَةِ فِي الْأَخْوَةِ ، وَاتِّمَامًا لِإِصَابَةِ الْأَصْطِفَاءِ فِي الْمَوْدَةِ ، وَتَحْيِيرًا
لِمُسْتَوْدِعِ الرَّجَاءِ فِي الثَّانِيَةِ .

فَلَسَا مَحْضَتُكَ الْخَيْرَةُ ، وَكَشَفَتْكَ الْإِبْتِلَاءُ عَنِ الْمَحْمَدَةِ ، وَقَعَّتْ لَكَ
التَّجَارِبُ بِالْقَدِيمَةِ ، وَشَهِدَتْ لَكَ قُلُوبُ الْعَائَةِ بِالْقَبُولِ وَالْحُبَّةِ ، وَقَطَعَ اللَّهُ
عُدْرَ كُلِّ مَنْ كَانَ يَطْلُبُ الْإِتِّصَالَ بِكَ ، طَلَبْتُ الْوَسِيلَةَ إِلَيْكَ وَالْإِتِّصَالَ
بِحَبْلِكَ ، وَمَتَّتُ بِحُرْمَةِ الْأَدَبِ وَذِمَامِ كَرَمِكَ . وَكَانَ مِنْ نِعْمَةِ اللَّهِ عِنْدِي
أَنْ جَعَلَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ ^(٢) - حَفِظَهُ اللَّهُ - وَسِيلَتِي إِلَيْكَ ، فَوَجَدْتُ لِلطَّلَبِ سَهْلًا
وَالْتِرَادَ عَمُودًا ، وَأَنْصَبْتُ إِلَى مَا يَمْحُوزُ الْأَمْنِيَّةِ وَيَمُوتُ الْأَمَلُ ، فَوَصَلْتُ
إِلَى ^(٣) إِخَائِي بِمَوْدَتِكَ ، وَخَطَلْتَنِي بِفُسْكَ ، وَأَسْتَمْتَنِي فِي مَرَامِي ذَوِي الْخَاصَّةِ
بِكَ ، تَفَضُّلاً لَا مَجَازَاةَ ، وَتَطَوُّلاً ^(٤) لَا مَكَاافَاةَ ، فَأَمِيتُ الْخَطُوبَ ، وَاعْتَلَيْتُ
عَلَى الزَّمَانِ ، وَأَتَخَذْتُكَ لِلْأَحْدَثِ عُدَّةً ، وَمِنْ نَوَائِبِ الدَّهْرِ حِصْنًا مَنِيعًا .

فَذُكْرُ حُرَّتِ اللُّزَانَةِ ، وَتَقَلُّبُ مِنْ فَضْلِكَ فِي صُنُوفِ النِّعَةِ ، وَزَادَ
بَصْرِي مِنْ مَوَاهِبِكَ فِي الشُّرُورِ وَالْخَيْرَةِ ، أَرَدْتُ خَيْرَةَ الشَّاهِدَةِ ، فَبُيُوتُ

(١) التَّكْفِيلَةُ مِنْ أَحَدِ أَمْرٍ ط .

(٢) لِلَّهِ بَنِي أَبَا عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَوَاد .

(٣) د : د : رَجَائِي .

(٤) د : د : وَتَكْرَمًا .

أخلاقك ، وامتنعت شيمتك ، وعجت مذاهبك على حين غفلاتك ، وفي
 ٤١ ظ الأوقات التي يقل فيها تحفظك ، أراعي حركاتك ، وأراقب مخارج أمرك
 ونهيك ، فأرى [من] استصنارك لعظيم النعم التي تنعم بها ، واستكثرارك
 لقليل الشكر من شاكريك ، ما أعرف به^(١) [و] بما قد بلوت من غيرك ،
 وما قد شهدت لي به التجارب ، أن ذلك منك طبع غير تكلف .

هيهات ! ما بكاد ذو التكلف أن يخفى على أهل الفتوة^(٢) ، فكيف
 على مثلي من التصفحين . فزادني الزانة فيك رغبة ، وطول الميرة لك
 محبة ، وامتناني أفاعيلك لك تفضيلاً ، وبطاعتك دينونة .

وكان من تمام شكري لربي وفي كل نعمة ، والبتدي بكل إحسان ،
 الشكر لك والقيام بمكافأتك بما أمكن من قول وفضل^(٣) ؛ لأن الله تبارك
 وتعالى نظم الشكر له بالشكر فدى النعمة من خلقه ، وأبى أن يقبأها
 إلا ماعاً ؛ لأن أحدهما دليل على الآخر ، وموصول به . فنضيق شكر
 ذي نسبة من أطلق فأمر الله ضيق ، وبشاهد استخف^(٤) .

وقد جاء بذلك الخبر عن الطاهر الصادق صلى الله عليه وسلم ، فقال
 صلى الله عليه وسلم : « من لم يشكر للناس لم يشكر لله » .

(١) التكلفة من أحد أصول ط .

(٢) في الأصل و د : « أعرف » فقط . والكلمة التي قبلها والتي بعدها من أحد
 أصول ط . وقد زدت الواو بعد هذه العبارة لينتم القول .

(٣) في الأصل و د : « على التباة » ولم يحرف هذا الجمع لقي ، ولا هو مقيس .
 وأثبت ما في م .

(٤) د : « ومعل » .

(٥) الشاهد : الدليل . في الأصل : « وبشاهدته » ، وأثبت ما في د .

ولعمري إنَّ ذلك لتوجود في الفطرة ، قائم في الثقل : أن من كفر نيم الخلق كان لينعم الله أكفر ؛ لأنَّ الخلق يُعطى بمضيه بمضاً بالكلفة والشقة ، ويُقَلَّ المعطية على القلوب ، والله يعطى بلا كلفة . ولهذا العلة جمع بين الشكر له والشكر لذوي النعم من خلقه .

فلما وجبت على الحجة بشكرك ، وقطع عذري في مكافأتك ، اعترفت بالتقصير عن تعقبي ذلك ، إلا أني بسطت لاني بتقريظك ونشر محاسنك .
موصول ذلك مني^(١) عند السامعين بالاعتراف بالجزء عن إحسانها .

وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أودع عرفاً قلبه شكره ، فإن لم يمكنه فليشره ، فإذا نشره فقد شكره ، وإذا كتبه قد كفره » .

نعم رأيت أن قد بقي على أمر من الأمور يمكنني فيه برك ، وهو عندي عتيق ، وأنت عنه غير مستن . وللنفعة لك فيه عظيمة عاجلة وآجلة إن شاء الله .
و لم أزل أبتاك الله بالموضع الذي قد عرفت^(٢) ، من جمع الكتب ودراسيتها والنظر فيها ، ومعلوم أن طول دراستها إنما هو تصفح عقول العالمين ، والعلم بأخلاق النبئين ، وذوي الحكمة من الماضين والباقيين من جميع الأمم ، وكتب أهل اللال .

فرايت أن أجمع لك كتاباً من الأدب ، جامعاً لما لم يكن من التمداد والمعاش ، أصيف لك فيه على الأشياء ، وأخيرتك بأسبابها وما انتفتت عليه عاين الأمم .

(١) في الأصل : « عندي » وأثبت ما في د .

(٢) د : « عرفت » .

وعلمتُ أَنَّ ذلك من أعظم ما أُبرِّك به^(١) ، وأرجع ما أتقرب به إليك .
وكان الذي حداني على ذلك ما رأيتُ الله قَسَمَ لك من الفهم والعقل ،
ورغب فيك من الطبع الكريم .

وقد أجمعت الحكماء^(٢) أَنَّ العقل للطبوع والكرم الفرزى لا يلبثان
غاية الكمال إلا بمعاونة العقل للكتسب . ومثّلوا ذلك بالنار والطلب ،
والصباح والدّهن . وذلك أَنَّ العقل الفرزى آلة والكتسب مادة ، وإنّا
الأدب عقلٌ غيرك تزيد في عقلك .

ورأيتُ كثيراً من واضعي الآداب قيل قد عهدوا إلى الفارين^(٣) بدم في
الآداب عهدوا قاربوا فيها الحق ، وأحسنوا فيها الدلالة ، إلا أنّي رأيتُ أكثر
مارسهم من ذلك فروغاً لم يبينوا عقلاً ، وصفات حسنة لم يكشفوا أسبابها ،
وأموراً عمدة لم يدنووا على أصولها .

فإن كان ما فعلوا من ذلك [روايات رَوّوها عن أسلافهم ، و^(٤)] وراثتِ
وَرِثوها عن أكابرهم ، فقد قاموا بأداء الأمانة ، ولم يبلغوا فضيلة من استنبط^(٥) .
وإن كانوا تركوا الدلالة على علل الأمور^(٦) التي بمعرفة عليها^(٧) يوصل إلى

(١) د : « أُسرك به » .

(٢) م : « وقد أجمعت الحكماء على » .

(٣) د : « الفارين » .

(٤) التسكّة من د م .

(٥) د : « يستنبط » م : « استنبط » .

(٦) هذا مافى الأصل وم . وفى د : « على أعيان الأمور » .

(٧) د : « اللاتى على معرفة عليها » . وفى الأصل : « التى فى معرفة عليها »

وانت مافى م .

مباشرة اليقين فيها ، وينتهى إلى غاية الاستيعار منها ، فلم يتعدوا في ذلك منزلة الظن بها . ولن تجلدوا وصايا أنبياء الله أبداً إلا ميّنة الأسباب ، مكشوفة العلل ، مضروبةً معها الأمثال .

فألفت لك كتابي هذا إليك ، وأنا واصل لك فيه الطبائع التي ركب عليها الخلق ، وفطرت عليها البرايا كلهم ، فهم فيها مستون^(١) ، وإلى وجودها في أنفسهم مضطرون ، وفي المعرفة بما يتولد عنها متفقون .

ثم مبين لك كيف تفرق بهم الحالات ، وتفاوت^(٢) بهم المنازل ، وما المأل التي يوجب بعضها بعضاً ، وما الشيء الذي يكون سبباً لغيره ، متى كان الأول^(٣) كان ما بعده ، وما السبب الذي لا يكون الثاني فيه إلا بالأول ، وربما كان الأول ولم يكن الثاني . وفرق ما بين الطبع الأول وبين الاكتساب والمادة التي تصير طبناً ثانياً . ولم اختص ذلك ؟ وكيف دواعي قلوب الناس ، وما منها يمتنعون عنه ، وما منها لا يمتنعون منه . وما أسباب نوازع شهواتهم ؟ وما الشيء الذي يخالقهم بهم^(٤) حتى تستال ، وحتى تؤنس بعد الوحشة ، وتستكن بعد الثغار ؟ وكيف يتأتى^(٥) لينقش^(٦) ما فيهم من الطبائع المذمومة حتى تصرف إلى الشيم المحمودة ؟ ورأسهم لك في ذلك أصولاً ، ومبين لك مع كل أصل منها علته وسببه .

(١) في الأصل : « متساوون » وأثبت ما في د .

(٢) أي تفاوت ، بحذف إحدى التاءين . وفي د : « وتفاوت » .

(٣) د : « لقص » .

وقد علمت أن في كثير من الحقّ مشبهات لا تُقبل إلا بعد النظر ،
وهناك يَحْتَلُّ^(١) الشيطانُ أهلَ النفلة ، وذلك أنه لا يند سبيلا إلى اختداعهم عن
الأُمور الظاهرة^(٢) .

فلم أدع من تلك المواضع الخفية موصفاً إلا أقتُ لك يازن: كلُّ شبهة منه
دليلاً^(٣) ، ومع كلِّ حقٍّ من الحقّ حجة ظاهرة ، تستدبط لها غوامض البرهان
وتسقين بها دقائق الصواب^(٤) ، وتُسَيِّفُ بها سرائر القلوب ، فتأني ما تأتي
عن يئنه ، وتدع ما تدع عن خيرة ، ولا يكون بك وحشة إلى معرفة كثير
مما ينبغي عنك ، إذا عرفت الحال والأسباب ، حتى كأنك شاهدٌ لصغير
كلِّ امرئٍ ، لمعرفتك بطبعه وما ركَّب عليه ، وعوارض الأمور الداخلة عليه
ثمَّ : غيرَ راضٍ لك بالأصول حتى أتقصي لك ما بآفته على من التروع .
ثم لا أرسم لك من ذلك [إلا^(٥)] الأمرَ المعقول في كل طبيعة ، والوجودُ
في فطر البرايا كلها^(٦) . فإن أحسنت [رعاية^(٧)] ذلك وأقته على حدوده ،
ونزلته منازلَه ، كان عمرك - وإن قصرت أيامُه - طويلاً ، وفارقت ما لا بد
لك من فراقه محموداً ، إن شاء الله .

٤٣ و

(١) في الأصل : « يَحْتَلُّ » صوابه في د . ويَحْتَلُّ : يَخْدَع .

(٢) في الأصل : « عن الأمر الظاهر » ، وأثبت ما في د .

(٣) كلمة « منه » ليست في الأصل ، وإثباتها من م وفي د : « منها دليلاً » .

(٤) هذا ما في د . وفي الأصل : « دقائق الصواب » .

(٥) الكلمة من د .

(٦) في الأصل : « في فطرته » ، وأثبت ما في د .

(٧) الكلمة من د .

واعلم أن الآداب إنما هي آلات تصنع أن تستعمل في الدين وتستعمل في الدنيا ، وإنما وضعت الآداب على أصول الطباع . وإنما أصول أمور التدبير في الدين والدنيا واحدة ، فما صنعت فيه المعاملة في الدين فسدت فيه المعاملة في الدنيا ، وكل أمر لم يصح في معاملات الدنيا^(١) لم يصح في الدين . وإنما الفرق بين الدين والدنيا اختلاف الدارين من الدنيا والآخرة فقط ، والحكم هاهنا الحكم هنالك ، ولولا ذلك ما قامت مملكة ، ولا ثبت دولة ، ولا استقامت سياسة . ولذلك قال الله عز وجل : ﴿ وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَصْلَ سَبِيلًا ﴾^(٢) ، قال ابن عباس في تفسيرها : من كان ليس له من العقل ما يعرف به كيف دُبرت أمور الدنيا فكذلك هو إذا انتقل إلى الدين ، فإنما ينتقل بذلك العقل . فيقدر جهله بالدنيا^(٣) يكون جهله بالآخرة أكثر ؛ لأن هذه شاهدة وتلك غيب^(٤) ؛ فإذا جهل ما شاهد فهو بما غلب عنه أجهل .

فأول ما أوصيك به ونفسي تنوى الله : فإنني جماع كل خير ، وسبب كل نجات ، وفتح كل رشد . هي أحرز حريز ، وأقوى معين ، وأمنع جنة . هي الجامعة محبة قلوب العباد^(٥) ، والمختصة بك محبة قلوب من لا تجرى عليهم

(١) د : « في معاملة الدنيا » .

(٢) الآية ٧٣ من سورة الإسراء .

(٣) في النسخ : « في الدنيا » ، والوجه ما أثبت .

(٤) الشاهدة : تفيض القافية .

(٥) في الأصل : « قلوب محبة العباد » . صوابه في د .

نعمك^(١). فأجعلها عدتك وسلاحك^(٢)، واجعل أمر الله ونهيه نصب عينيك .
 وأحذرْك ونسى الله والاعتقار به ، والإدهان في أمره ، والاستهانة
 بمراميه ، والأمن لسكره ؛ فقد رأيت آثاره^(٣) في أهل ولايته وعداوته ،
 كيف جعلهم للعاضين عبرة ، وللغابرين مثلاً .

واعلم أن خلقه كلهم بريئة ، لا وصلة بينه وبين أحدٍ منهم إلا بالطاعة ،
 فأولاهم به أكثرهم تزيُّداً في طاعته ، وما خالف هذا فإنه أمانى وغرور .

وقد مكَّن الله لك من أسباب المقدرة ، ومَهَّدَ لك في تمكين الفنى والبسطة
 ما لم تُنَحِّله بحيلة^(٤) ، ولا ببلغة بقوة^(٥) ، لولا فضله وطوله . ولكنه مكَّنك
 ليلا خَبْرَك ، ويختبر شُكْرَك ، ويعصى سَمِيكَ ، ويكتب أَمْرَك ، ثم يرقبك
 أجرك ، ويأخذك بما اجترحتْ بِدُكْ أو بِسُفْوَر ؛ فأهل العفو هو .

وقه ابتلاءان في خلقه - والابتلاء هو الاختبار - ابتلاء بنعمة ، وابتلاء
 بمصيبة . ويقدر عظمها بحسب التكليف من الله عليها^(٦) ؛ فبقدر ما خَوَّلَكَ من
 النعمة يستأديك الشُّكْر^(٧) .

(١) كلمة « حجة » ساقطة من الأصل . وإثباتها من د .

(٢) د : د عونك وسلاحك .

(٣) د : د أثره .

(٤) تنحله ، من النحلة وهي الصلابة . د : د ما لم تنله بحيلة .

(٥) في الأصل : د ولم تلقنه بقوة ، وأثبت ما في د .

(٦) د : د ويقدر عظمها بحسب التكليف عليهما .

(٧) استأداه المال ونحوه : استخرجه . نه وطلب أدائه .

ولو تَصَوَّى اللهُ على خلقه لَمَذَّبَهُمْ ؛ ولذلك قال : ﴿ وَلَوْ يُوَاسِئُ اللهُ النَّاسَ رِبَاً كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظُهُرِهِمْ دَابَّةً ^(١) 〉 . ولكنه قَبِلَ التَّوْبَةَ ، وأَقَالَ التَّوْبَةَ ، وجعل بالحسنة أضعافها .

واعلم أن الحكم في الآخرة هو الحكم في الدنيا : ميزان قِسط ، وحكم عدل . وقد قال الله تعالى : ﴿ مَن تَقَلَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَن خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ^(٢) 〉 .

وهذا مثل ضربته الله ؛ لأنَّ الناس يعلفون أن لو وضع في إحدى كفتي الميزان شيء ، ولم يك في الأخرى قِليل ولا كثير ، لم يكن لوزن معنى يُعْقَل . وذلك أن أحدا من المخلوق لا يخلو من هفوة أو زلة أو غفلة ؛ فأخبر أن من كان حسنة الرجعة على سيئاته ، مع التَّدَمُّ على السيئات ، كان على سبيل النجاة ، وطريق الفوز بالإفلاح . ومن مالت سيئاته بحسناته كان المعطب ^{و ٤٤} والعذاب أولى به .

وكذلك حكمه في الدنيا ؛ لأنه قد تولى أولياء من خلقه وشهد لهم بالعدالة ، وقد عاتبهم في بعض الأمور لثبته الصلاح [في أفهامهم وإن هفوا ، وتبرأ من آخرين وطأهم لثبته الجور ^(٣)] على أفعالهم ^(٤) ، وإن أحسنوا في بعض الأمور .

(١) الآية ٤٥ من سورة قاطر .

(٢) الآية ١٠٢ - ٢٠٣ من سورة المؤمنون .

(٣) التكة من د .

(٤) د : د على أفهام .

وكذلك جرت معاملات الخلق بينهم ، يُدْكَون العادلَ بالغالب من فعله
وربما أساء ، ويفتقون القاسق وربما أحسن . وإنما الأمورُ يعواقبها ، وإنما
يُغْفَى على كلِّ امرئٍ بما شا كلُّ أحواله .

فهذه الأمورُ قائمةٌ في القول ، جرت عليها للعامة ، واستقلت بها
السياسة ، لا اختلافٌ بين الأمة فيها .

فلا تُنَبِّئَنَّ حَتْلَكَ مِنْ دِينِكَ ^(١) ، وإن استطعتَ أن تبلغَ من الطاعة
غالبَها فأنفك تُهْمُ ، وإلا فاجتهدْ أن يكونَ أغلبُ أفعالك عليك الطاعة ^(٢) ،
مع الثدامة عند الإساءة ، ويكونَ ميلُك عند الإساءة ، إلى الله أكثر .
ولله يوفقك .

اعلمْ أنَّ اللهَ جَلَّ ثَنَاهُ خَلَقَ خَلْقَهُ ، ثُمَّ طَبَعَهُمْ عَلَى حَبٍّ اجْتِرَارِ
النافع ^(٣) ، ودفعَ الضرَّ ، وبُغِضَ ما كانَ بخلافِ ذلك ^(٤) . هذا فيهم طبعٌ
مرَّكَبٌ ، وجِبِلَّةٌ منطويةٌ ، لا خِلافَ بينَ الخلقِ فيه ؛ موجودٌ في الإنسانِ
والحيوانِ . لم يذيعْ غيره مدَّيْعٌ من الأولين والآخرين . وبقدرةِ زيادةِ ذلك
ونقصانه تَزِيدُ الحُبَّةَ والبِضَاءَ ؛ [فنقصانه ^(٥)] كزيادته تميلُ الطَّبيعةُ معها ^(٦)
كيلَ كِفَتَيِ المِيزَانِ ، قُلْ ذَلِكَ أَوْ كَثُرَ .

(١) في الأصل : « فلا تنبئ » . صوابه في د .

(٢) في الأصل : « اطعك الطاعة » ، وأثبت ما في د .

(٣) اجترار النافع : اجتلابها . وكلمة « حب » ساقطة من د .

(٤) في الأصل : « وقص من كان » . صوابه في د .

(٥) تسكفة ضرورية ليزن بها الكلام

(٦) في الأصل . د : « معها »

وهاتان جملتان داخلٌ فيها جميع تحابِّ العباد ومكارهمهم . والنفس في طلبها حبَّ الراحة والدعة ، والازدياد والمز ، والعز والغبابة ، والاستطراف والتثنوق^(١) ، وجميع ما تستلذ المحواش من المناظر الحسنة ، والروائح الطيبة ، والطعموم الطيبة^(٢) ، والأصوات اللوثة ، واللامس اللذيذة . وما كراهيته^(٣) في طباعهم أصدقاء ما وصفت لك وخلافه .

فهذه الخلائق التي تجمعها خلتان^(٤) غرائز في الفطر ، وكوامن في الطبع ؛ جبهة ثابتة ، وشبهة مخلوقة . على أنها^(٥) في بعض أكثر منها في بعض ، ولا يعلم قدر القوة فيه والكثرة إلا الذي دبرهم .

٤٤ ظ

فلما كانت هذه طبائعهم ، أنشأ لهم من الأرض أرزاقهم ، وجعل في ذلك ملاحاً لجميع حوائشهم ، فصلت به قلوبهم ، وتطلعت إليه أنفسهم . فلو تركهم وأصل الطبيعة ، مع ما مكّن لهم من الأرزاق للشهوات في طبائعهم ، صاروا إلى طاعة الهوى ، وذهب التصالح والتباز . وإذا ذهب كل ذلك سبباً للفساد ، واضطراب التناسل ، وفناء الدنيا وأهلها ؛ لأن طبع النفس لا يسكن بمطية قليل ولا كثير مما حوته ، حتى تموت أكثر مما تملأ ، إما عاجلاً وإما آجلاً مما تستلذ حوائشها .

-
- (١) التثنوق في التوى : التجدد والبالغة فيه . من التأنق . وفي الصغين : التلون . وقد ارتضيت هذا التصحيح من ناشر ط .
- (٢) في الأصل : والطعم ذو الطيبة . وأثبت ما في د .
- (٣) هذا ما في د . وفي الأصل : كراهته .
- (٤) جنس : المحاب والكلام . وفي د : التي وصلت لك تجمعها خلتان . ولا وجه لهذه الزيادة .
- (٥) د : إلا أنها .

فَإِنَّ اللَّهَ أَنَّهُمْ لَا يَتَمَاطُونَ وَلَا يَتَوَاصِلُونَ وَلَا يَتَقَادُونَ^(١) إِلَّا بِالتَّأْدِيبِ ،
وَأَنَّ التَّأْدِيبَ لَيْسَ إِلَّا بِالْأَسْرِ وَالنَّهْيِ ، [وَهُنَّ الْأَسْرُ وَالنَّهْيُ^(٢)] غَيْرَ نَاجِمَيْنِ
فِيهِمْ إِلَّا بِالتَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ اللَّذَيْنِ فِي طِبَاعِهِمْ^(٣) . فَتَدْعَاهُمُ بِالتَّرْغِيبِ إِلَى
جَنَّتِهِ ، وَجَمَلَهَا عَرْضًا مِمَّا تَرَكُوا فِي جَنْبِ طَاعَتِهِ^(٤) ، وَزَجَّرَهُمُ بِالتَّرْهيبِ بِالنَّارِ
عَنْ مَعْمِيتِهِ ، وَخَوَّفَهُمْ بِعِقَابِهَا عَلَى تَرْكِ أَمْرِهِ . وَلَوْ تَرَكَهُمْ جُلًّا ثَنَاؤُهُ وَالطَّبَاعُ
الْأَوَّلُ^(٥) جَرَّوْا عَلَى سَنَنِ الْقَطَارَةِ ، وَعَادَةُ الشَّيْئَةِ^(٦) .

نَمُ أَقَامَ الرِّغْبَةَ وَالرَّهْبَةَ عَلَى حُدُودِ التَّدْلِيلِ ، وَمَوَازِينَ التَّنْصِفَةِ ، وَعَدَّلَهُمُ
تَعْدِيلًا مُتَقَفًا ، فَقَالَ : ﴿ فَمَنْ يَمْتَلِ يَمْتَلِ ذَرَّةً خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَسْلُ يَسْلُ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ^(٧) 〉 .

نَمُ أَخْبَرَ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ غَيْرُ دَاخِلٍ فِي تَدْيِيرِهِ الْخَلْقَ ، وَلَا جَائِزٌ
عِنْدَهُ الْحَابَاتُ ؛ لِيَمْلِكُ كُلُّ عَامِلٍ عَلَى ثَمَرِهِ مِمَّا وَعَدَهُ وَوَعَدَهُ ، فَتَعَلَّقَتْ قُلُوبُ

(١) وَلَا يَتَقَادُونَ ، سَافَطَةُ مِنْ د .

(٢) التَّكَلُّفُ مِنْ د .

(٣) د : « طِبَاعِهِمْ »

(٤) فِي الْأَسْرِ : « طَاعَتِهِمْ » ، وَابْتَدَأَ فِي د .

(٥) الطَّبَاعُ : الطَّبِيعَةُ وَالسَّيِّئَةُ . قَالَ الزَّجَّاجِيُّ : « الطَّبَاعُ وَاحِدٌ ، ذَكَرَ كَالْمُحَاسِنِ
وَالْمُجَارِّ ، يَجْنِي بِكَسْرِ أَوَّلِهَا . انْظُرِ الْإِنْسَانَ (طَبِيعٌ) . وَفِي د : « وَالطَّبِيعُ الْأَوَّلُ » ،
وَكَلَامُهُ مُتَجَهِّجٌ .

(٦) م : « وَعَادَاتُ الشَّيْئَةِ » .

(٧) الْآيَةُ ٧ - ٨ مِنْ سُورَةِ الزَّلْزَلَةِ .

المبالغة والرغبة والرهبة ، فأطرد التديير ، واستقامت السياسة ، لمواقفتها^(١) ما في الفطرة ، وأخذها بمجامع التصالح .

ثم جعل أكثر طاعته فيما تستقل النفوس ، وأكثر معصيته فيما تله .
وقلت قال النبي صلى الله عليه وسلم : « حُفَّتِ الجنة بالكآرة ، والنار بالشهوات^(٢) » . [يخبر أن الطريق إلى الجنة احتال للكآرة ، والطريق إلى النار اتباع الشهوات^(٣)] .

فإذا كانوا لم يصلحوا غلاتهم ولم يتقادوا لأمره إلا بما وصفت لك من
الرغبة والرغبة ، فأهمل الناس رأياً وأخطؤهم تدييراً ، وأجهلهم بموارد الأمور
ومصادرها ، من أمثل أو ظن أو رجاً أن أحداً من انطلق - فوقه أو دونه أو من
نظرائه^(٤) - يصلح له ضميره ، أو يصح له بخلاف ما يبرم الله عليه ، فيما
بينه وبينهم .

فالرغبة والرغبة أصلاً كل تديير ، وعليها مدار كل سياسة ، عظمت
أو صغرت . فاجعلها مثاقك الذي تحتذي عليه ، وركنك الذي تستند
إليه . واعلم أنك إن أهملت ما وصفت لك عرّضت تدييرك للاختلاط .

(١) جنى الرغبة والرهبة . وفي الأصل : « لمواقفتها » ووجه من د .

(٢) رواه مسلم والترمذي وأحمد عن أنس . - وسلم أيضاً عن أبي هريرة .
الجامع الصغير ٢٧٣٢ .

(٣) التكلفة من د .

(٤) في الأصل : « أو من يظن أن » مع سقوط هذه العبارة من د . وصوابها
مارأت وانظر ما سيأتي .

وإن آثرتَ الهويَّنا ونسكتَ على الكفايةِ في الأمرِ الذي لا يجوز فيه إلا نَفَرُكَ ، وَرَجَّيْتَ أمورَكَ على رأيٍ مدخولٍ ، وأصلٌ غيرِ محكمٍ ، رجعَ ذلكَ عليك بما لو حُكِّمَ فيكَ عدوكَ كانَ ذلكَ غايةَ أمنيتهِ ، وشفاءَ غيظِهِ .

واعلم أنَّ إجماركَ الأمورَ مجاريها ، واستمالةَ الأشياءِ على وجوها ، يجمعُ لك ألفةَ القلوبِ ، فيعلمُك^(١) كلُّ من علمكَ بمودةٍ ، أو أخذَ أو إعطاءٍ ، وهو على ثقةٍ من بَصَرِكَ بمواضعِ الإنصافِ^(٢) ، وعلمكَ بمواردِ الأمورِ .

واعلم أنَّ أثرتَكَ على غيرِ النصيحةِ والشفقةِ ، والحرمةِ والكفايةِ ، يوجبُ [لك^(٣)] للباعِدةِ وقلةَ الثقةِ من آثرتِهِ أو آثرتَ عليه .

فاعرفِ لأهلَ البلاءِ - ممن جرتَ بينك وبينه مودةٌ أو حرمةٌ ، ممن فوقكَ أو دونكَ أو نظرائك - أقدارَهم ومنازلَهم . ثمَّ لنسكنَ أمورَكَ معهم على قدرِ البلاءِ والاستحقاقِ ، ولا تُؤثرَ في ذلكَ أحداً لهوى^(٤) ؛ فإنَّ الأثرةَ على الهوى توجبُ السُّخطةَ ، وتوجبُ استعصارَ عظيمِ النِّمةِ ، ويُحقِّقُ بها الإفضالَ ، وتفسدُ عليها^(٥) الطائفتانِ : مَنْ آثرتَ ومن آثرتَ عليه .

أما من آثرتَ^(٦) فإنه يعلمُ أنَّك لم توافقه باستحقاقِ بل لهوى ، فهو

(١) في الأصل : « ويعلمك » والوجه من د .

(٢) د : « بمواقع الإنصاف » .

(٣) النكدة من د .

(٤) د : « بهوى » .

(٥) في الأصل : « بها » وأثبت ما في د .

(٦) د : « آثرته » في هذا النسخ وسابقه .

مترقبٌ أن ينצל هوائك إلى غيره ، فتَحُولُ أثرُك حيث مال هوائك . فهو
مدخولُ القَاب في مودَتك ، غير آمنٍ لتفريقك .

وأنا من آثرتَ عليه بمد الاستحقاق منه ، قد جعلتَ له السبيلَ إلى
الطمَن عليك ، وأعطيتَه العُجَّةَ على نُفْسِكَ . فكلُّ من يعمل على غير ثقة ٤٠ ظ
عاد ما أراد به التمتع ضرراً ، والإصلاح [فيه^(١)] فساداً .

وربما آثرَ الرجلُ المرءَ من إخوانه بالمنطقية السنية على بلاءٍ أبلاه^(٢) ،
فيعظمُ قدرُها^(٣) عنده حتى لعلَّه تطيبُ نفسه ببذلِ ماله ودمه دونَه^(٤) .
فلئن أعطى من أبلَى كبلانه وكانت له مثل ذلك^(٥) ، أكثرُ مما أعطاه ، انتقل
كلُّ محمودٍ من ذلك مذموماً ، وكل مستحسنٍ مستبغاً . وكذلك الأمر في
العقوبة ، يهربان مجرى واحداً .

فاجعل المدلَّ والنسفة في الثواب والعقاب حاكماً بينك وبين إخوانك ،
فمن قدَّستَ منهم قدَّستَه على الاستحقاق ، وبمحنة النية في مودته ، وخصوص
نصيحتك لك مما قد بلوتَ من أخلاقه وشيمه^(٦) ، وعلتَ بتجربتك له ،
أنَّه يعلم أن صلاحه موصولٌ بصلاحك ، وعطبه كائنٌ مع عطبك ، ففوض

(١) التكلفة من د .

(٢) في الأصل : « بلا بلاء . أبلاه » ، والوجه من د .

(٣) في الأصل : « قدرها » ، صوابه من د .

(٤) د : « ونفسه دونه » .

(٥) في الأصل : « دلالته » ، صوابه في د .

(٦) في الأصل : « ممن قد بلوت في أخلاقه وشيمه » ، والوجه من د .

الأمر إليه ، وأشركه في خواص أمورك وخفي أسرارك ، ثم اعرف له قدره في مجلسك ومحاورتك^(١) ومعاملتك ، في كل حالاتك ومزاولاتك في خلواتك معه^(٢) ، وبحضرة جلسائك ؛ فإن ذلك زيادة في نيته ، وداعية^(٣) لمن دونه إلى التقرب إليك بمثل نصيحته .

فإن ابتليت في بعض الأوقات بمن يتقرب بحرمة^(٤) ويمتد بدالة ، يطلب للكفاة بأكثر مما يستوجب ، فدعك الكرم والحياه إلى تفضيله على من [هو^(٥)] أحق منه ، إنا نخوفنا من لسانه^(٦) ، أو مداراة لغيره ، فلا تدع الاعتذار إلى من فوقه من أهل الأبالا ، والنصيحة وإظهار ما أردت من ذلك لهم ؛ فإن أهل خامتك والمؤتمنين على أسرارك ، هم شركاؤك في العيش ، فلا تسبئ بشئ من أمورهم ؛ فإن الرجل قد يترك الشئ من ذلك تسكلاً على حسن رأى أخيه^(٧) ، فلا يزال ذلك يجرح في القلب وينو ، حتى يولد ضغناً ويحول عدواة .

فصعقنا من هذا الباب ، واحمل إخوانك عليه بجهلك .

(١) د : « وعادتك » .

(٢) في الأصل : « ومزاولتك » . والكلام بدل « معاملتك » إلى هنا ساقط

من د .

(٣) د : « فإن ذلك زائد في نيته وداع » .

(٤) د : « يتقرب بحرمة » .

(٥) التكة من د .

(٦) د : « نخوفنا » بدل « خوفنا » .

(٧) في الأصل : « أموراً لا على رأى أخيه » ، صوابه في د .

و مستجد في من يتصل بك من بقاءه إفرط الحرس وحيا الشراء ، ولين
 جانبك له ، على أن ينقِم العافية ، ويطلب اللعوق بمنازل من ليس هو
 مثله^(١) ، ولا له مثل دأته ، فتأقاه لما تصنع به مستقلاً ، ولعروقت مستصيراً .
 وصلاح من كانت هذه حاله بخلاف ما فسد عليه أمره . فاعرف طرائقهم
 وشيئهم ، ودأوك كل من لا بد لك من معاشرته بالهواء الذي هو أنجح فيه ،
 إن ليئاً قليلاً ، وإن شدة فشة ؛ فقد قيل في الثل :

من لا يؤدبه الجلي لى ففى عقوبه صلاحه
 وقد قال بعض الحكماء :

« ليس بحكيم من لم يعاشر من لا يبعد من معاشرته بذاً^(٢) » ، بالعدل
 والتسفة ، حتى يعمل الله له من أمره فرجاً ومخرجاً^(٣) .

فاحفظ هذه الأبواب التي يوجب بعضها بسطاً ، وقد ضيقت لك أوائها
 كوناً أو آخرها . فاعرفها واحببها ، واعلم أنه متى كان الأول منها وجب
 ما بعده لا بد منه . فاحذر القدمات اللاتي يقبها السكروه^(٤) ، واحرص على
 توطيد الأمور التي على أثرها السلامة ، وألقح في البدئ الأمور التي نتائجها
 العافية^(٥) .

(١) د : « ويطلب اللعاق بمنازل من ليس مثله » .

(٢) د : « من لم يعاشر من لا بد من معاشرته » .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « حتى يعمل الله له فرجاً » فقط .

(٤) د : « التي » .

(٥) البدئ : الأول . في الأصل : « والتمح في بدئ » صوابه في د . وفي د :

« أموراً نتاجها العافية » . وفي الأصل : « ونتاجها » .

فمن الأمور التي يُوجب بعضها بعضاً : للنعمة توجب المحبة ، والتضررة
توجب البغضا،^(١) ، والنصافة توجب المداواة ، وخلاف المولى يُوجب
الاستئصال ، ومتابعتُهُ توجب الألفة ، والصدقُ يوجب الثقة ، والكذب
يُورث التهمة^(٢) ، والأمانة توجب الظمانينة ، والعذل يوجب اجتماع القلوب ،
والجور يوجب الفرقة ، وحسن الخلق يُوجب المودة ، وسوء الخلق يوجب
للباعدة^(٣) ، والانسياط يوجب اللؤامة ، والانهياض يوجب الوحشة ،
والتكبر^(٤) يوجب اللقت ، والتواضع يوجب الربة ، والجود بالقصد يوجب
الجد^(٥) ، والبخل يوجب للذمة ، والتواني يوجب التضييع ، والجد يوجب
رخاء الأعمال ، والهوان يورث الخسرة ، والحزم يورث الشُّرور ، والتفريط
يوجب الندامة ، والحذر يوجب الضر ، [وإصابة التدبير توجب بقاء النعمة^(٦)]
والاستهانة توجب التباغي ، والتباغي مقدمة الشر^(٧) وسبب التَّوَلَّى .

٢٦ غ

ولكلُّ شيء من هذا إفراط وتقصير^(٨) ، وإنَّا نصحُ نتائجها إذا أُقيمت
على حدودها ، وبقدر ما يدخل من الخلال فيها يدخل فيها يتولد منها ، لا بدُّ منه

(١) د : « لينفة » .

(٢) في الأصل : « النجاسة » ، صوابه في د .

(٣) د : « التباعد » .

(٤) د : « والكبر » .

(٥) د : « والجود والفضل يوجبان الجد » . ولا يتناقض هذا مع سائر الأسانيد .

(٦) التكلفة من د .

(٧) د : « مقدمات الشر » .

(٨) هذا ما يبرر عنه الأخلاقيون بمذهب الوسط .

ولا مزاحل عنه ، عليه عادة الخلق ، وبه جرت مطالبهم ، وتنام المنفعة بها إصابة مواضعها :

فالإفراط في الجود يوجب التّبذير ، والإفراط في التواضع يوجب للذلة^(١) ، والإفراط في الكبر يدعو إلى مقت الخاصة^(٢) ، والإفراط في للزّانة يدعو خلطاء الشؤ^(٣) ، والإفراط في الانقباض يوحش ذا النصيحة . وآفة الأمانة اثنتان الخيانة^(٤) ، وآفة الصدق تصديق الكذّبة ، والإفراط في الحذر يدعو إلى ألا يؤثّق بأحد ؛ وذلك ما لا سبيل إليه . [والإفراط في الفسرة متبعة على حربك^(٥)] ، والإفراط في جرّ النّعمة غتاء لن أفرطت في نفعه منك . واحذر كل الحذر أن يختدعك الشيطان عن الحرم^(٦) فيمثل لك التواني في صورة التوكل ، ويمثلك الحذر ، ويورثك الهويّنا بإحاطتك على الأقدار ؛ فإنّ الله إنّا أمر بالتوكل عند انقطاع الحيل ، والتسليم للقضاء بعد الإعذار ، بذلك أنزل كتابه ، وأمعى سنّته فقال : ﴿ خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾^(٧) ،

(١) في الأصل : « يورث الذلة » ، واثبت ما في د .

(٢) في الأصل : « يدعو القرب الخاصة » ، صوابه في د .

(٣) بده في الأصل : « والإفراط في الحذر يدعو إلى أن لا يثق بأحد » . وهو تكرار لما سيأتى بما انتفت عليه اللسختان .

(٤) الخيانة : جمع خائن ، وفي اللسان : « والجمع خانة وخونة ، الأخيرة شاذة » . ونظير هذه الأخيرة في الشذوذ حالك وحركة .

(٥) التكلفة من د .

(٦) هذا ما في د . وفي الأصل : « الحرم » .

(٧) الآية ٧١ من سورة النساء .

﴿وَلَا تَقْفُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾^(١) . وقول النبي صلى الله عليه وسلم :
« اغفلها وتوكل »^(٢) . وسئل ما الخزم ؟ قال : التذر^(٣) .

فحفظ من هذا الباب وأحكيم مفرقة إن شاء الله تعالى .

واعلم أن أكثر الأمور إنما هو على المادة وما تفرى عليه النوس ،
ولذلك قالت الحكماء : « المادة أمك بالأدب »

فرض نفسك على كل أمر محمود العاقبة ، وضرها بكل ما لا يذم من
الأخلاق^(٤) يعبر ذلك طباعا^(٥) ، وينسب إليك منه أكثر مما أنت عليه .

واعلم أن الذي يوجب لك اسم الجود القيام بواجب الحقوق عند
النواب ، مع بعض التفضل على الراغبين . وإذا أوجب^(٦) لك اسم الجود
زال عنك اسم البخل .

واعلم أن تميز المال آفة للكارم ، وعون على الدين ، ومثألف للإخوان ؛
وأن من قد فقد المال قلت الرغبة إليه ، والرغبة منه ؛ ومن لم يكن بموضع
رغبة ولا رهبة استهان الناس بقدره^(٧) .

(١) الآية ١٩٥ من سورة البقرة .

(٢) رواه الترمذي عن أنس ، وهو حديث ضعيف ، الجامع الصغير ١١٩١ .
ورواه الطبراني : « فيها وتوكل » أسنى الطالب لحمد بن درويش البيهقي ص ٤٤ .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « قل الخذر » .

(٤) في الأصل : « الإخلاص » صوابه في د . والتضرية : التعويد ، والضراوة :
العادة .

(٥) الطباع : الطبع والجلبة . وانظر ما سبق في حرائق ١٠٤ د . د . طبعا » .

(٦) د : « وجب » .

(٧) هذا ما في د . وفي الأصل : « به » .

فاجتهد الجهد كله ألا تزيل القلوب معقة منك برغبة أو رهبة ، في دين
أو دنيا .

واعلم أن الشرف لا بقاء معه لكثير ، ولا نسيء معه إقليل ، ولا تصلح
عليه دنيا ولا دين . ونادى بما أدب الله تعالى به نبيه ^(١) فقال : ﴿ وَلَا تَجْمَلْ
بِدُكْ مَخْلُوقَةٍ إِلَىٰ غُنْفِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ^(٢) 〉 .
وقالت الحكماء : « القصد أبقى للجنات ^(٣) » .

فدلومٌ حالٌّ وبقا، النعمة عليك ، بتقديرك أمورنا على قدر الزمان ،
وبقدر الإمكان ؛ فقد قال الشاعر ^(٤) :

مَنْ سَابَقَ الذَّهْرَ كِبَا كِبُوهُ لَمْ يَسْتَفِئْهَا مِنْ خَطِيءِ الذَّهْرِ
فَاخْطُ مَعَ الذَّهْرِ عَلَى مَا خَطَا وَاجِرْ مَعَ الذَّهْرِ كَمَا يَجْرِي ^(٥)
واعلم أن الصمت في موضعه رُبَّمَا كَانَ أَنْفَعُ مِنَ الْإِبْلَاجِ بِالْمُتَلَقِّ فِي
مَوْضِعِهِ . وعند إصابة فرصته . وذلك تَحْتَمُّكَ عِنْدَ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّكَ لَمْ تَصْمِتْ عَنْهُ
عِيًّا ^(٦) ولا رهبة . فليزدك في الصمت رغبة ما ترى من كثرة فضائع التكلمين
في غير القرم ، وَهَذَرٍ مَنْ أَطْلَقَ لِسَانَهُ بِغَيْرِ حَاجَةٍ .

(١) في الأصل : « ونادى الله فيه ، أدب به نبيه صلى الله عليه وسلم » .
سواء في د .

(٢) الآية ٢٩ من سورة الإسراء .

(٣) الجمل . كسحاب : الراحة .

(٤) هو أبو العاتية . كما في البيان ٤ : ٢١ وملحقات ديوانه ٩٨ قلاعن
الأغانى ٣ : ١٦٤ .

(٥) في الأصل والبيان : « إذا ما خطاه » . وأثبت ما في د وبعض أصول البيان .

(٦) إلى : العيز . وفي الأصل : « عياء » ، سواء في د .

(٨) - وسائل المنطق (

واعلم أن الجبن جبنان ، والشجاعة شجاعتان ، وليست تكون الشجاعة إلا في كل أمر لا يندري مآليته ، يخاطر فيه بالأنف والأموال . فإذا أردت الحزم في ذلك فلا تشجعن نفسك على أمر أبداً إلا والذي ترجو من ضمه في المآلة أعظم مما تبذل فيه في المستقبل ، ثم يكون لرجاء في ذلك أغاب عليك من الطوف .

وها هنا موضع يحتاج فيه إلى النظر : فمن كان ذلك أمراً واجباً في الدين ، أو خوفاً لمارئس به الاعتقاد ، فانت سنور بالخاطرة فيه بنفسك ومالك . وإن كان أمراً تعظم منفعته في الدنيا ^(١) إلا أنك لا تناله إلا بالخاطر بمهجة نفسك ^(٢) أو بتعريض كل مالك للتلف ، والإقدام على مثل هذا ليس بشجاعة ، ولكن حماقة يئنة عند الحكماء .

وقد قالت علماء أوائل الناس ^(٣) :

• لا يرسل السارق إلا ممكناً •

(١) في الأصل : « للدنيا » . وأثبت ما في د .

(٢) الخطار : الخطارة ، وهو أن يشق بنفسه خطر المالك . وفي الأصل : « بالإخطار » والوجه ما أثبت من د . وفي د : « بأخطار بنفسك » .

(٣) د : « علماء الأوائل » قطع .

(٤) في الأصل : « ممكناً » صوابه في د . وهو يحز بيت لأبي ذؤاد الإبادي . من آيات دولها العسكرية في الجفرة ٢١٢ . وانظر اللسان (حرب ، سوق) وعميون الأخبار ٣ : ١٩٢ . وأنال اليداني ١ : ٢٠٢ . وديوان العاني ١ : ٢٣٨ والمختص ٨ : ١٠٣ . ومصدره :

• أن أبيع له حرباء نفة •

وقالوا : « لا تخرج الأمر كله من يدك وخذ بأحد جانبَيْهِ »^(١) .
ثم الشجاعة والجليل في ذلك بقدر الحالات والأوقات .
واعلم أن أصل ما أنت مستظهر به على عدوك ثلاث خلال :
أشرفها : أن تأخذ عليه بالفضل وتبتدئه بالحسنى ، فتكون عليه رحمة
ونفسك ناظرا : فإن كثرة الأعداء تنبئ للسرور ، وقد قال الله تبارك
وتعالى : ﴿ ادْفَعْ بِالَّذِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ
وَلَّى حَبِيمٌ ﴾^(٢) .

فإن كان عدوك مما لا يصلح على ذلك لحسن عنه أسرارك ، وعم عليه
آثار تدبيرك^(٣) ، ولا يظلمن على شيء من مكابذتك له^(٤) بقول ولا فعل ،
فياخذ جذره ، ويعرف مواضع عوارك ، فإن تحصين الأسرار أخذ بأزمة
التدبير ، والإكثار من الوعيد للأعداء فشل^(٥) . ولكن داج عدوك
ما داجاك ، وأحصي معايبه ما لاحاك .
وقال الشاعر^(٦) :

كل يداجي على البغضاء صاحبه ز كنت منهم على مثل الذي زكنوا^(٧)

(١) د : « جوانبه » .

(٢) الآية ٣٤ من فصل .

(٣) د : « وعم عليه تدبيرك » .

(٤) د : « مكابذك » .

(٥) هذا ما في د . وفي الأصل : « وإكثار الوعيد للأعداء فشل » .

(٦) هو قصب بن أم صاحب ، كما في اللسان (زكن) . وانظر آياتاً من قصيدة

البيت في الحماة (باب المعياء) شرح التبرزي .

(٧) زكن بمعنى علم . وعداه بلى لأن فيه ، مني اطلمت .

واعلم أن أعظم أحوالك عليه الحرج ! ثم الفرصة ^(١) ، ثم لا تظهرن عليه حجة ، ولا تهبط منه غيرة ، ولا تطلبن له عثرة ، ولا تهتكن له سراً (إلا [عند الفرصة في ذلك كله ، وفي اللواضع التي يجب لك فيها العذر ويعظم فيها ضرره ، إن كان المنوع عنه شراً له .

وإن كان ممن يظهر لك العداوة ويكشف لك قناع المحاربة ، وكان ممن أعياك استصلاحه بالحلم والأناة ، فلتكن في أمره بين حالين ^(٢) : استبطان الحذر منه ، والاستعداد له وإظهار الاستهانة [به ^(٣)] . ولست مستظهِراً عليه بمثل طهارتك من الأدغاس ، وبرامتك من العايب .

فلتكن هذه سيرتك في أعدائك .

واعلم أن إشاعة الأسرار فساد في كل وجه من الوجوه ، من العدو والصديق ^(٤) . وقد روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « استعينوا على الخوانج بسترها ؛ فإن كل ذي نعمة محسود ^(٥) » .

وإذا أفتيت سيرتك لخاتم الأمور على غير ما تذر كان ذلك منك فضلاً من قولك على نفسك ^(٦) . وقد قيل في الأمثال : « من أفتى سيرة كثر التأمرون

(١) السكة من م .

(٢) د : « حالين » .

(٣) السكة من د .

(٤) هذا ما في د . وفي الأصل : « والعدو والصديق » .

(٥) أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٨٥ وذكر أنه حديث ضعيف .

(٦) الكلام من أول الفقرة إلى هنا ساقط من د .

عليه . فلا تَضَعْ سِرِّكَ إِلَّا عند من يَفْضُرُهُ نشره كما يَضُرُّكَ ، وبِنَفْسِهِ سَتْرَهُ
يَحْسِبُ مَا يَفْعَلُكَ^(١) .

واعلم أنك ستصعب من الناس أجنباً متفرقة حالاتهم ، متفاوتة
منازلتهم ، وكلهم بك إليه حاجة ، وكل طائفة تُدُّ عَنكَ كثيراً من النافع
لا يقوم به من فوقها ، ولعلهم يجتمعون على نصيحتك والثقة عليك . فمنهم
من تريد منه الرأي والشورة ، { ومنهم من تريد للحفظ والأمانة^(٢) } ، ومنهم
من تريد للشدة والنفظة ، ومنهم من تريد لللين . وكلُّ يَدُ مَسَدَةٍ على
حياله . وقد قيل في الحكمة : « إِنَّ الظلال تنفع حيث لا يَنفَعُ الشَّيْفُ » .

ولا تَخْلِيَنَّ أحداً منهم - عَظُمَ قدره أو ضُغِرَت منزلته - مِن عَنَابِكَ
وتَهْلِكُ بالجزاء على الحسنة ، والنعامة عند العثرة ؛ ليعلموا أنهم منك بمرأى
وسمع . كَيْفَ لَا تَجُوزَنَّ بِأَحَدٍ مِنْهُمْ حَدَهُ . وَلَا تَدْخُلْ فِيهِ لَا يَصْلُحُ لَهُ ، تَسْتَعْمُ
لَكَ حاله ، وَيَتَّقِ لَكَ أسرَه^(٣) .

واعلم أنه سيمرُّ بك في معاملات الناس حالاتٌ تحتاج فيها إلى مداراة
أصناف الناس وطبقاتهم ، يَلْغُ بِكَ غَايَةُ القَضِيَّةِ فيها ، وكلَّ العقل والأدب
منها ، أَنْ تُسَالِمَ أَهْلَهَا وتَمْلِكَ نَفْسَكَ عن هواها ، وتَكْفُفَ من جماحتها^(٤) ،
بِالأمر الذي لَا يُخْرِجُكَ في دينك^(٥) وَلَا يَرْضُكَ وَلَا يَدْنُكَ ، بل يُفِيدُكَ
عِزَّ الحِلْمِ ، وهَيْبَةَ الوقار . وهي أمور مختلفة ، تَجْمَعُهَا حَالٌ واحدة .

(١) في الأصل : « ويضمر نشره » . مراد به في د . (٢) التكلفة . ن . د .

(٣) يتق : ينتظم . وفي الأصل : « ويتق » . وأثبت ما في د .

(٤) في النسختين : « عن جماحتها » .

(٥) في الأصل : « بأمر لا يخرجك في دينك » . مراد به في د .

منها : أن تأتيَ تحيلاً فيه جمعٌ من الناس ، فجلس منه دون الوضع الذي تصحّقه حتى يكون أهله [الذين ^(١)] يرفضونك ، فظهر جلالُك وعِظَمُ قدرك .

ومنها : أن يفيضَ القومُ في حديثٍ ، عندك منه مثلُ ما عندهم أو أفضلُ ، فيتنافسون في إظهار ما عندهم ، فإنْ نافسَهم كنتَ واحداً منهم ، وإنْ أسكتَ انفضواك ذلك ، فمرتْ كأنك بمنّ عليهم بحديثك ، وأنصتوا لك ما لم ينصتوا لغيرك .

ومنها : أن يتأري جُلاؤك - والبراء نتائجُ الإحاجة وثمرةُ أصلها الحمية - فإنْ ضبطتَ نفسك كان تحاكمهم إليك ، وموئلهم عليك .

واعلم أنْ طبع اللُّغوس - إذْ كان على حسبِ العلوِّ والغلّة - أنْ في تركيبها بعضٌ من استغلالٍ عليها . فاستدعِ محبةَ المائنة بالتواضع ، ومودةَ الأخلاء بالزُانة والاستشارة ، والثقة والطَّائفة .

واعلم أنْ الذي تُعامل به صديقك هو ضدُّ ما تعامل به عدوك . فالصديق وجهُ معاملته السالِّمة ، والعدوُّ وجهُ معاملته المدارة ^(٢) والوارية ، هما ضدَّانِ يتفاخيان ، يفسدُ هذا ما أصلح هذا ^(٣) ، وكلُّما نقصت من أحدِ التَّابِئين زاد في صاحبه ، إنْ قليلٌ قليلٌ ، وإنْ كثيرٌ فكثيرٌ ^(٤) .

(١) النكبة من د .

(٢) د : « الداراة والسالة » . وكذا « والسالة » مقسمة .

(٣) د : « أصلح هذا . أصلحها »

(٤) د : « إنْ قليلٌ قليلٌ وإنْ كثيرٌ فكثيرٌ » .

فلا تَسْلَمْ بِالْوَارَةِ صَدَقَةٌ ، وَلَا تَنْظُرْ بِالْعَدُوِّ مَعَ الْإِسْلَامِ إِلَيْهِ . فَضَعَ الثَّقَّةَ مَوْضِعَهَا ، وَأَتَمَّ الْحِفْظَ مُقْلَقَةً^(١) ، وَأَسْرَعَ إِلَى التَّضَهُمِّ بِالثَّقَّةِ ، وَلَا تَبَادُرْ إِلَى التَّصَدِيقِ ، وَلَا سِيَّاهُ بِالْحَالِ مِنَ الْأُمُورِ .

وَاعْلَمْ أَنَّ كُلَّ عِلْمٍ بِمَنْاسِبٍ ، كَأَنَّا مَا كَانَ ، إِنَّمَا يُصَابُ مِنْ وَجُوهٍ ثَلَاثَةٌ لَا رَابِعَ لَهَا ، وَلَا سَبِيلَ لَكَ وَلَا لغيرِكَ إِلَى غَايَةِ الْإِحَاطَاتِ ؛ لِاسْتِثْنَاءِ اللَّهِ بِهَا . وَلَنْ تَهْنَأَ بِعَيْشٍ مَعَ شِدَّةِ التَّعَرُّزِ ، وَلَنْ يَتَسَيَّقَ لَكَ أَمْرٌ مَعَ التَّضْيِيقِ^(٢) . فَاعْرِفْ أَقْدَارَ ذَلِكَ .

فَاغَابَ عَنْكَ مِمَّا قَدْ رَأَى غَيْرُكَ عَمَّا يُدْرِكُ بِالْعِيَانِ ، فَسَبِيلُ الْعِلْمِ بِهِ الْأَخْبَارُ النَّوَائِرُ ، الَّتِي يَعْمَلُهَا الْوَلِيُّ وَالْعَدُوُّ ، وَالصَّالِحُ وَالطَّالِحُ ، الْمُسْتَضِیَّةُ فِي النَّاسِ ، فَظَلَّتْ لَا كَلْفَةَ عَلَى سَامِعِهَا مِنَ الْعِلْمِ بِتَصَدِيقِهَا . فَهَذَا الْوَجْهُ يَسْتَوِي فِيهِ الْعَالِمُ وَالْجَاهِلُ .

وَقَدْ يَحْسِبُ خَيْرَ أَخَصٍّ مِنْ هَذَا^(٣) إِلَّا أَنَّهُ لَا يَمُرُّ إِلَّا بِالسُّؤَالِ عَنْهُ ، وَالْمُنَاجَاةِ لِأَهْلِهِ ، كَقَوْلِهِمْ نَقَلُوا خَيْرًا ، وَمَثَلُكَ يَحِيطُ عَلَيْهِ^(٤) أَنْ مَثَلَهُمْ فِي تَغَاوُتِ أَحْوَالِهِمْ ، وَتَبَاعُدِهِمْ مِنَ التَّعَارُفِ ، لَا يُسَكِّنُ^(٥) فِي مَثَلِهِ التَّوَاطُّؤُ وَإِنْ جَاهِلَ ظَلَّتْ أَكْثَرُ النَّاسِ . وَفِي مَثَلِ هَذَا الظُّلْمِ يَمْتَنِعُ الْكَذِبُ^(٦) ، وَلَا يَتَهَيَّأُ الْإِتِّفَاقُ فِيهِ عَلَى الْبَاطِلِ .

(١) د : « مكاته » .

(٢) في الأصل : « وَلَنْ يَتَقَ » ، وَلَنْ يَتَقَ ، وَوَجْهٌ مِنْ د .

(٣) في الأصل : « أَصَحَّ مِنْ هَذَا » ، صَرَاهُ فِي د .

(٤) د : « وَعَلَيْكَ يَحِيطُ » ، فَقَط .

(٥) د : « لَا يَكُونُ » .

(٦) د : « يَمْتَنِعُ الْكَذِبُ » .

وقد يسمى خبر أخفى من هذا ، يحمله الرجل والرجلان من يجوز أن
يصدق ويجوز أن يكذب ، فصدق هذا الخبر في قلبك إنما هو بحسن الظن
بالخبر ، والثقة بمدايته . ولن يقوم هذا [الخبر ^(١)] من قلبك ولا قلب غيرك
مقام الخبرين الأولين [أبداً ^(٢)] . ولو كان ذلك كذلك بطل التصريح
بالذين ^(٣) واستوى الظاهر والباطن من العالمين .

ولما أن كان موجوداً في المقول أنه قد يفتش بعض الأئمة عن
خيانة ^(٤) ، وبعض الصادقين عن كذب ، وأن مثل ^(٥) الخبرين الأولين
لم يتمم الناس في مناهما كذباً قط ، علم أن الخبر إذا جاء من مناهما جاء
بحسب اليقين ، وأن ما علم من خبر الواحد إنما هو بحسن الظن والاثمان ^(٦) .
فهذه ^(٧) الأخبار عن الأمور التي تدركها الأبصار .

فإنما العلم بما غلب مما لا يدركه أحد ببيان ، مثل سرائر القلوب

(١) التكلفة من د .

(٢) أى والتصنع بالدين كأن لا محالة بين طائفة من الناس ، لا يغلو منه عصر .
والتصنع : تكلف حسن السمت وإظهاره والزين به والباطل مدخول . القسان :
(صنع ٧٨) .

(٣) أى تظهر خيانتهم بعد تفتيشهم .

(٤) فى الأصل : « أو مثل » ، صوابه من د .

(٥) د : « فإذا هم » .

(٦) فى الأصل : « بهذه » ، وفى د : « هذه » . وصواب الأول ووجه

الثانى ، أثبت .

وما أشبهها ، فإننا يدرك عليها بآثار أفعالها وبالناب^(١) من أمورها ، على غير إحاطة كإحاطة الله بها .

وأولّ العلم بكلّ غائب الظنون^(٢) ، والظنون^(٣) إننا تقع في القلوب بالدلائل ، فكلما زاد الدليل قوى الظن حتى ينتهى إلى غاية تزول معها الشكوك من القلوب : وذلك لكثرة الدلائل ، [ولترادفها .

فهذا غاية علم العباد بالأمور الغائبة^(٤)] .

فن عرف ما طبع عليه الخلق وجرت به عاداتهم ، وعرف أسباب اتصالهم واتصالهم بهم ، وتقصى علل ذلك ، كان خليقاً - إن لم يحط بعلم ما في قلوبهم - أن يقع من الإحاطة قريباً .

واعلم أن المقادير بما جرت بخلاف ما تقدّر الحكمة ، فقال بها^(٥) [الجاهل في نفسه ، المختلط في تدبيره ، ما لا ينال الحازم الأريب الحذر . فلا يدعوك ما ترى من ذلك إلى التضييع والانشغال على مثل تلك الحال : فإنّ الحكمة قد أجمعت أن من أخذ بالحزم وقدم الحذر ، نجحت المقادير بخلاف ما قدّر ، كان عندهم أحد رأيًا وأوجب عذراً ، بمن عمل بالتفريط وإن انفقت له الأمور على ما أراد .

(١) في الأصل : « وبالناب » ، صوابه في د .

(٢) الشككة من د . والكلام بعده إلى « والله يوفقك » في ص ١٢٣ انتقل في الأصل إلى ما يلي « والبراهنة عليه » في ظهر الورقة ٥١ من الأصل . وقد أجريت ترتيب العبارة من د .

(٣) الشككة من د .

ولم يرسى ما يكاد ذلك ينحى، إلا في أقل الأمور، [وما أكثر محيى،
السلامات إلا لن أنى الأمور] ^(١) من وجوها وإنما الأشياء بمواسمها ^(٢)، فلا تكون
لشيء مما في يدك أشد ضيئا، ولا عليه أشد حدبا، منك بالأخ الذى قد بلوته في
الشراء، والضرءاء، [فعرفت مذاهبه] ^(٣) [وخبيرت شيمه]، بوصح لك غيبه، وسدت
لك ناحيته؛ فإنما هو شقيق روحك ^(٤) وباب الزوج إلى حياتك، ومستند
رأيتك وتوأم عقلك ^(٥). ولست منتفعا ببش مع الوحدة. ولا بد من اللؤاسة،
وكثرة الاستبدال تهجم بعاصبه على المكروه. فإذا صفاك أخ فكن به
أشد ضئا منك بفئاس أموالك، ثم لا يزهّدك فيه أن ترى منه خلقا أو خلقين
تكراههما؛ فإنّ نفسك التى هى أخضر النفوس بك لا تعطيك للمقادة فى كل
ما تريد، فكيف بنفس غيرك!

وبحسبك أن يكون لك من أخيك أكثر، وقد قالت الحكماء: «من
لك بأخيك كله» ^(٦)، و«أخى الرجال الهدب» ^(٧).

ثم لا يمنحك ذلك من الاستكثار من الأصدقاء ^(٨) فإنهم جند مقدّون

(١) التسكعة من د

(٢) حتى أن العبرة فى الأحكام بالأعم الغالب

(٣) التسكعة من د

(٤) د : د : شق روحك . د : د : يوم غفلتك ، تحريف .

(٥) لا كتم بن صيفى . الثمرين ١٢ .

(٦) من قول النابغة الذبياني فى ديواته ١٤ :

ولست بمسبق أخا لائمه على شعث أى الرجال الهدب

(٨) د : د : الدين .

[لك^(١)] ينشرون محاسنك ، ويحاجون عنك . ولا يحملنك استغراف
صديق ثانٍ^(٢) على ملالة الصديق الأول ؛ فإن ذلك سبيل أهل الجهالة ، مع
ما فيها من الهداة وسوء التدبير ، وزهد الأصدقاء^(٣) جيمًا فى إخوانك .
والله يوفقك^(٤) .

وستجد فى الناس من قد جربته الرجال قبلك ، ونحطه اختبارهم لك .
فمن كان معروفًا بالوفاء ، فى أوقات الشدة وحالات الضرورة ، فنافس فيه
واسبق إليه ؛ فإن اعتقاده أنفس المصدق^(٥) . ومن بلاه غيرك فكشف عن
كفر النعمة ، والمقدر عند الشدة ، قد حذر نفسه وإن آنسك^(٦) وكا غلر
بنيرك بتدبير بك ؛ فإن من شيمته الوفاء بغير الصديق والعدو ، ومن طيمته
الفدر لا بغير لأحد^(٧) ، وإنما يميل مع الرجعان : يذل عند الحاجة^(٨) ويشخ
مع الاستغناء .

فاحذر ذلك أشد الحذر . واعلم أن الحكما لم تدم شيئًا ذمها
أربع خلال :

(١) التكلفة من د .

(٢) فى الأصل : « الصديق » فقط ، صوابه من د .

(٣) فى الأصل : « الصديقين » ، وأثبت ما فى د .

(٤) د : « موفقتك » .

(٥) أراد أنس ما يقتنى . وأصل القعدة الضيقة يقتنيتها الرجل .

(٦) فى الأصل : « وأنسك » وأثبت ما فى د .

(٧) فى الأصل : « لا يدوم » ، وأثبت ما فى د .

(٨) د : « فى وقت الحاجة » مع إسقاط كلمة « يذل » .

الكذب فإنه يجاع كل شر . وقد قالوا : لم يكذب أحد قط إلا لصغر
قدر نفسه عنده .

والنفس فإنه لو لم وسو مقيدة ؛ وذلك أن النفس ثمرة غلاف
ما بهوى النفس^(١) ، فإن جاء الإنسان خلاف ما بهوى من فوقه أغشى
وسى ذلك خزاناً ، وإن جاء ذلك من دونه حله لو لم النفس وسو . الطباع
على الاستقالة بالنفس ، والقدر والبسطة على البطش^(٢) .

والجزع عند الصيبة التي لا ارجع لها ؛ فإنهم لم يحملوا لصاحب الجزع
في مثل هذا عذراً ، لما يتعجل من غم الجزع مع عفه بقوت الجزوع عليه .
وزعموا أن ذلك من إفراط التره ، وأن أصل الشر والخسد واحد
وإن اختلف فرعاها .

وذموا الحد كذمهم الجزع ، لما يتعجل صاحبه من نقل الاهتمام ،
وكلفة مقاساة الاهتمام ، من غير أن يحدى عليه شيئاً^(٣) . فالحد اهتمام ، والندم
لو لم . وقال بعض الحكماء : « الحد خلق دني ، ومن دناته أنه يبدأ بالأقرب
فالأقرب » . وزعموا أنه لم يتدبر غادر قط إلا لصغر حمت عن الوفاء ، وخول
قدره عن احتمال المكارة في جنب تيل المكارم .

(١) د : « النفس » .

(٢) في الأصل : « والقدر والبسطة » . وفي د : « والقدر بالبطش » .
وصوبت العبارة وأكلفتها بما تلازم به مع ما قبلها .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « من غير أن يكون عليه في ذلك شيء » .
تحريف .

وبقوله ما ذهبت الحكما. هذه الأخلاق الأربعة^(١) ، فكذلك حجت أصداءها من الأخلاق ، فأكثر في تفضيلها الأول ، وضربت فيها الأمثال ، وزعت أنها أصل لكل كريم ، وجمعت لكل خير ، وأن بها تنال جسام الأمور في الدنيا والدين^(٢) .

•• فاجعل هذه الأخلاق إماماً لك ، ومتلاً بين عينيك ، ورضاً عليها نفسك ، وحكماً في أمرك ، تفز بالراحة في العاجل^(٣) ، والكرامة في الآجل . والصبر صبران : فأعلما أن تصبر على ما ترجو فيه النعم في العاقبة . والحلم حلمان : فأشرفها حلمك عن هو دونك . والصدق صدقان : أعظمها صدق فيما يضررك . والوفاء وفاءان : أستاذها وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه . فإن من عرف بالصدق صار الناس له أتباعاً ، ومن نسب إلى الحلم ألبس ثوب الوفاء والمهبة وأبهة الجلالة ، ومن عرف بالوفاء استقامت بالثقة به الجماعات^(٤) ومن استمر بالصبر^(٥) نال جسام الأمور . ولعمري ما غلظت الحكما حين سمعتها أركان الذين والدنيا . فالصدق والوفاء توأمان ، والصبر والحلم توأمان^(٦) ، فمن^(٧) تمام كل

(١) في الأصل : « من هذه الأخلاق الثلاثة » ، والوجه من د .

(٢) د : « في الدين والدنيا » .

(٣) هذا ما في د . وفي الأصل : « في العاجل والآجل » .

(٤) يقال استقام إليه . إذا أنس به واطمأن إليه وسكن . في الأصل :

« واستقامت بالثقة به الجماعة » . صوابه في د . وانظر ص ١٣٩ .

(٥) د : « استمر بالصبر » .

(٦) يقال هما توأمان أيضاً . في الأصل : « توأمان » في ترجمتين . وأثبت ما في د .

(٧) في الأصل : « فمن » . وفي د : « فمن » . والوجه ما أثبت .

دين ، وصلاخ كل دنيا . وأضدادهن سبب كل فرقة ، وأصل كل فساد .
واحدَرُ خِصْلَةٌ رَأَيْتَ النَّاسَ قَدْ اسْتَهَانُوا بِهَا ، وَضَيَعُوا النَّظَرَ فِيهَا ، مَعَ
اسْتِهَاْلِهَا عَلَى الْفَسَادِ ، وَقَذَحَهَا الْبُضَاءُ فِي الْقُلُوبِ « وَالْعِدَاوَةَ بَيْنَ الْأَوْدَاءِ :
الْفَاخِرَةُ بِالْأَنْسَابِ : فَإِنَّهُ لَا يَنْطَلِقُ فِيهَا عَاقِلٌ قَطُّ ، مَعَ اجْتِنَاعِ الْإِنْسِ جَمِيعاً عَلَى
الصُّورَةِ ^(١) » وَإِقْرَارِهِمْ جَمِيعاً بِتَفَرُّقِ الْأُمُورِ الْمَحْمُودَةِ وَالْمَذْمُومَةِ مِنَ الْجَمَالِ وَالذَّمَامَةِ ،
وَالْمَأْثُومِ وَالْكَرَمِ ، وَالْجُبْنِ وَالشُّجَاعَةِ ، فِي كُلِّ حِينٍ ، وَانْتِهَايِهَا مِنْ أَمَةٍ إِلَى أَمَةٍ ،
وَوُجُودِ كُلِّ مَحْمُودٍ وَمَذْمُومٍ فِي أَهْلِ كُلِّ جَنْسٍ مِنَ الْآدَمِيِّينَ . وَهَذَا غَيْرُ مَدْفُوعٍ
عِنْدَ الْجَمِيعِ .

فَلَا تَجْعَلَنَّ لَهُ مِنْ عَقْلِكَ نَعِيّاً ، وَلَا مِنْ نَسَانِكَ حَقّاً ، تَسَلَّمَ بِذَلِكَ عَلَى
النَّاسِ أَجْمَعِينَ ، مَعَ السَّلَامَةِ فِي الدِّينِ .

وَاعْلَمْ أَنَّكَ مُوسُومٌ بِسِيَا مِنْ قَارَنَتْ « وَمَنْسُوبٌ إِلَيْكَ أَفَاعِيلُ مِنْ
صَاحِبَةٍ . فَتَحَرَّزْ مِنْ دُخْلَاءِ السُّوءِ ، وَعِجَالَةِ أَهْلِ الرَّيْبِ ^(٢) » ، وَقَدْ جَرَتْ
لَكَ فِي ذَلِكَ الْأَمْثَالُ ، وَسَطَّرْتَ لَكَ فِيهِ الْأَقْوِيلَ ، وَقَالُوا : « الْمَرْءُ حَيْثُ يَجْمَلُ
نَفْسُهُ ^(٣) » ، وَقَالُوا : « يَنْظُرُ بِالْمَرْءِ مَا ظَنَّ بِقَرِينِهِ » ، وَقَالُوا : « الْمَرْءُ بِشَكْلِهِ ،
وَالْمَرْءُ بِأَلْيَنِهِ » .

وَلَنْ تَقْدِرَ عَلَى التَّحَرُّزِ مِنْ جَمَاعَةِ النَّاسِ ^(٤) ، وَلَكِنْ أَقِلَّ الزَّانَةَ

(١) أي انتقامهم جميعاً في الصورة الإنسانية .

(٢) د : « وَأَعْظَمُ عِجَابَةٍ أَهْلُ الرَّيْبِ » .

(٣) بونه قول ، نقر بن فروة ، أنشده الجاحظ في البيان ١٠٣ : ٣ و ٢٢٨ :

وما المرء إلا حيث يجمل نفسه ففي صالح الأخلاق عكسك فاجمل

(٤) د : « جَمَاعَاتُ النَّاسِ » .

إلا بأهل البراءة من كلِّ دس . واعلم أن لفرء بقدر ما يسبق إليه يعرف ،
وباستيفاض من أفعاله بوصف ، وإن كان بين ذلك كثير من أفعاله ^(١) أنشاء
الناس وحكموا عليه بالفالب من أمره .

فاجتهد أن يكون أغاب الأشياء على أفاعيلك كل ما تحمده المولم ^(٢)
ولا تذنه الجفاحات ، فإن ذلك يعنى على كل خلل إن كان .
فبادر السنة الناس فاشغلها بمعاسلك ، فإتهم إلى كل سعى سراع ^(٣) ،
واستظهر على من دونك بالتفضل ، [وعلى نظرائك ^(٤)] بالإنصاف ، وعلى من
فوقك بالإجلال . تأخذ برقائق الأمور ، وأزمة التدبير .

واعلم أن كثرة التاب سبباً للقطيعة ، وأطراحة كنه دليل على قلّة
الاكتراث لأمر الصديق ^(٥) . فكن فيه بين أمرين : عاتية فيما تشتركان في
نفعه وضرره وذلك في الميئات ^(٦) ، وتجاو له عن بعض غفلاته نسلم لك
ناحيته . وبحسب ذلك فكن في زيارته ، فإن الإلحاح في الزيارة يذهب
بالبهاء ، وربما أوردت اللالة ؛ وطول المجران يعقب الجفوة ، ويحسل عقدة

(١) في الأصل : « خلافه » . ووجه من د .

(٢) في الأصل : « عليك أفاعيلك » صوابه في د . وفي د أيضاً : « ما تحمده
المولم » .

(٣) في النسخين : « إلى كل شيء » والوجه ما أثبت . وفي م : « إلى كل شيء » .

(٤) التسكة من د م .

(٥) في الأصل : « الأمن » وفي د : « بأمر » وهذه الأخيرة صحيحة ، يقال
ما أكثرته به وما أكثرته له ، أى ما بالى به . وأثبت الوجه الذى يقتضيه الجمع
بينهما .

(٦) د : « المئات » . وكلامه منجيه .

الإخاء، ويعمل صاحبه مدرجة للقطيعة^(١) وقد قال الشاعر^(٢) :

إذا ما شئت أن تسلي حبيباً فأكثر دونه عددَ الأيال
فأبلي حبيبك مثل نأي ولا أبلي جديدَكَ كاجفال^(٣)
[وزر غيًّا إذا أحببت خيلاً فتعظي بالودادِ مع اتصال^(٤)]

والقصيد في مراحك ؛ فإن الإفراط فيه يذهب بالبها، ويبرئ عليك
أهل الذنابة . وإن التصير فيه يقبض عنك اللواتين . فإني مرحت فلا تمزح
بالذي يسوء معايريك .

وأنا أوصيك بخفي قل من رأيه يخلق به ، وذاك أن تحيله شديد ،
ومرتاه صعب ، وبسبب ذلك يورث الشرف وحميد الذكر : ألا يحدث لك
المعاطاة من حطت الدنيا من إخوانك استهانة به ، ولا لحقه إضاعة ، ولما
كنت تعلم من قدره استصفاً ؛ بل إن زرقته قليلاً كان أشرف لك ،
وأعطف للقلوب عليك . ولا يحدث لك ارتفاع من رفعت الدنيا منهم تذلاً
وإثارة له على نظرائه في الحفظ والإكرام ؛ بل لو اتعبت عنه كان مادحك
أكثر من ذامك ، وكان هو أولى بالتعطف عليك ، إلا أن يكون ساطعاً
تخاف شداه وممرته^(٥) ، وخرجو عنده بجر منفعته لصديق ، أو دفع مضرت

(١) هذا ما في د . وفي الأصل : « درجة للقطيعة » .

(٢) البيتان الثالوثان من أبيات الحماسة . انظر شرح الرزوقي ١٣٠٠ وشروح

سقط الزند ١٢٢ . ٦٥٣ . ٦٩٠ .

(٣) هذا البيت ساقط من د .

(٤) التكلفة من د .

(٥) الشدا : الأذى والضرر . د : « شداته » ؛ والشذاه : الحدة والعرة ؛

الأذى .

عنه ، أو كَيْتَا لَعْدُوْا وَإِزَالِ هَوَانِي بِهِ ؛ فَإِنَّ الشُّطْرَانَ وَخِيَلَاءَهُ وَزَهْوَهُ يُحْتَمَلُ فِيهِ مَا لَا يَجُوزُ فِي غَيْرِهِ ، وَيُعَدَّرُ فِيهِ مَا لَا يُعَدَّرُ فِي سِوَاهُ^(١) .

واعلمْ أَنَّ نَشْرَ مَحَاسِنِكَ لَا يَلِيْقُ بِكَ ، وَلَا يُقْبَلُ مِنْكَ^(٢) ، إِلَّا إِذَا كَانَ الْقَوْلُ لَهَا عَلَى أَلْسُنِ أَهْلِ الرُّوَاتِ ، وَذَوِي الصَّدَقِ وَالْوَفَاءِ ، وَمَنْ يَجْمَعُ قَوْلُهُ فِي الْقُلُوبِ ثَمَّنٌ يُسْتَنَامُ إِلَى قَوْلِهِ ، وَيُصَدِّقُ خَبْرَهُ ، وَعَمَّنْ إِنْ قَالَ صَدَقَ « أَوْ مَدَحَ اتَّصَدَ ، يُثْنِي بِقَدْرِ الْبَلَاءِ ، فَإِنَّ إِشْرَافَ^(٣) الثَّنَاءِ عَلَى قَدْرِ النُّسْئَةِ يُوَفِّدُ فِي الْقُلُوبِ التَّكْذِيبَ ، وَيَدُلُّ عَلَى طَلَبِ الْمَزَايِدِ .

فَأَمَّا ثَنَاءُ الْمَادِحِينَ لَكَ فِي وَجْهِكَ ، فَإِنَّمَا تَلِكُ أَسْوَأُ أَقَامُوهَا لِلْأَرْيَاحِ ، وَسَاءَ لَوْكَ فِي اللَّبَاقِيَةِ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ كُفَّةٌ ، لَكَادَ أَقَاوِيلُهُمْ عِنْدَ النَّاسِ . أُولَئِكَ الصَّادُونَ عَنْ طَرِيقِ الْمَكَارِمِ ، وَالشُّبُّوْنَ عَنْ ابْتِنَاءِ الْعَالِي .

فَارْتَدَّ لِنَسَمِكَ مَغْرِبًا تَنَمُّو فِيهِ فِرْعَوْنُهَا ، وَتَزَكُّو ثَمَرُهَا ، لَا تَذْهَبُ نَفَقَتُكَ ضَيَاعًا ، إِنَّمَا لِمَاجِلٍ تَقْدُمُهُ ، أَوْ لِأَجَلٍ ثَنَاءٌ تَنْتَفِعُ بِهِ^(٤) .

وَلَنْ تَمْدَمَ أَنْ يَفْجَأَكَ فِي بَعْضِ أَحْوَالِكَ حَقُوقٌ تَبْهَيْطُكَ ، وَأَحْوَالٌ تَعْدُحُكَ ، وَأُمُورٌ كُلُّهَا تَتَغَشَّمُ عَنَابَتُكَ ، وَفِي التَّثَبُّتِ فِي مَنَاهَا تُعْرِفُ فُضِيلَتَكَ ،

(١) الكلام بعده إلى كلمة « تنتفع به » في س ١٢ ساقط من د .

(٢) في الأصل : « فيك » .

(٣) الإشراف : العلو ، يقال أشرف عليه ، أى علا . والراد الزيادة . وفي الأصل : « إشراف » .

(٤) انظر ما سبق في التنبه الأول .

فلا تستقبلها بالتضعف وتغير الرأي^(١) ، وابدأ منها بأعظمها منفعة ، وأشدّها خوف ضرر . وكلّ ما أعجزك إلى الكفاة ، واعتذر من تقصير إن كان ؛ فإنّ الاعتذار يكسر حياءُ اللأئمة^(٢) ، ويردع شدّة الشرّة .

ثمّ تلاف بعد انكشاف ذلك عنك ما فاتك^(٣) ، واجهد لتجلبد كلّ أن تكون مخارج الحقوق اللازمة لك من عندك سهلة ، موصولة لأصحابها^(٤) ٥١ ظ
يشارك وطلاقة وجهك ؛ فقد زعمت الحكماء أن القليل مع طلاقة الوجه أوقع بقلوب ذوي المروءات من الكثير مع النبوس والاقبياض^(٥) .

وقد قال بعض الحكماء : « غاية الأحرار أن يأتقوا ما يحثون ويحرموا ، أحبّ إليهم من أن يأتقوا ما يكرهون ويُعطلوا » .
[وما أيسرّوا عن الحقّ^(٦)] .

ولا يدعونك كفر كافر لبعض رتبعك^(٧) من أثر هواه على دينه

(١) التضعف ، يقال تضعف في الأمر ، إذا تقعد ولم يغم به . وفي د : « وتشين الرأي » .

(٢) الحيا : السورة والشدّة والحلّة ، وأصله من كسر حيا التراب بمزجه بالآ . في الأصل : « حيا اللأئمة » ، ووجهه في د .

(٣) في الأصل « الانكشاف » وفي د : « انكسار » ، والوجه ما أثبت . وكذا « ما فاتك » ساقطة من د .

(٤) د : « لأصحابك » .

(٥) الكلام بعده إلى كلمة « ويحطوا » في س ٩ ساقطة من د .

(٦) التكهّن . د .

(٧) د : « نعمتك » .

وسمونه ، أو غدره غادر تصنع لك وختك عن مالك ، أن ترهده
في الإنعام^(١) ، ونسى بقتاتك الظنون ؛ فإن هذا موضع يجد الشيطان في مثله
القديمة إلى استنصاد الصنائع^(٢) ، وتعطيل للكارم .

واعلم أن استنصارك يتمك بكتبرها عند ذوى القول ، وسترك لها نشر
لها عندهم ؛ فانشرها بسترها ، وكبرها باستنصارها .

واعلم أن من الفعل^(٣) أفاعيل وإن عظمت مناقبها ، ومنافع أضدادها
فلا يشارها فضيلة على كل حال . فاجتعل صحتك أكثر من كلامك ؛ فإنه أدك
على حكمتك . واجعل عفوك أكثر من عقوبتك ؛ فإن ذلك أدك على كريمك .
ولا تفرطن فيه كل الإفراط حتى تطرح الكلام في موضعه ، والتأديب
في أوانه .

واعلم أن لكل امرئ سيئاً من عمله ، قد ساءلته فيه نفسه وسلس له
فيه هواه ، فحفظ ذلك من نفسك ، وتقاضها الزيادة فيه ، ورخصها على تشجيعه
واللواظية عليه^(٤) .

واحذر الحفر كله الاغترار بأمر ثلاثة ؛ فإن من عطب بها كثير ،
وتلاقيها صعب شديد :

(١) في الأصل : « الاحاض » ، وأثبت ما في د .

(٢) الصنائع : جمع صنعة ، وهو ما أعطته وأسدته من معروف أريد إلى
إنسان تحسنته بها . وفي الأصل : « الطبائع » ، صوابه في د .

(٣) د : « الأفاعيل » .

(٤) انظر ما سبق من التنبيه في ص ١٣١ .

أخذها : **الْأَتَى جَانِبُ نَصْرِكَ وَتَقْلِيدُ مَوْهِمِ أُمُورِكَ** ^(١) وروايتي تديرك
إلا اسرأ صلاحه موصول بصلاحك ، وبقاء النعمة عليك هو بقاء
النعمة عليه .

أو أن تأنس أو تنفّر ^(٢) بمن تعلم أن بصلاحك فسادك ، وارتفاعك
انحطاطك ، وبسلامتك عطشك ؛ فإن من كان هكذا فانت ملك موتته ^(٣) .
فبحسب ذلك فليكن عندك .

٥٧ ظ

أو أن تجعل مالك كله في عقدة واحدة ، أو حيز واحد ، [أو وجه
منفرد ^(٤)] ، إن اجتاحتها جائحة أو نابتة نابتة بقيت حيرا . وقد قال بعض
الحكماء : « فرّقوا الثنية » ، و « اطلبوا الأرباح بكل شئ » .

واعلم أنه ليس من الأخلاق التي ذمّتها الحكماء خلق إلا وقد ينفع
في بعض الحالات ، ويردّ به شكك ، ويقام بإزاء مثله ، ويدافع به نظيره ^(٥) .

إنك ستدقّ بصعوبة السلطان الحازم العادل ، وبصعوبة السلطان الآخرق
الجهول النشوم . فالحازم العادل يسوسه لك الأدب والتعصم ، والآخرق
تسوسه لك الحيلة والرفق . العادل يتصدك منه ثلاث ، وتصير نفسه لك
على ثلاث :

(١) في الأصل : « وتقليد أمورك » ، صوابه في د .

(٢) في الأصل : « وإن لا تأنس وتحرّ » ، صوابه في د .

(٣) د : « مالك مونه » ، والوجه ما أثبت من الأصل .

(٤) الشككة من د .

(٥) الكلام بعده إلى كلمة « النصحاء » في ص ١٣٣ مائظ من د .

فاللواتى بمُعدنك : تسليط العدل وإنفاذ الحكومة - وفي ذلك صلاحُ
الرعية حوإثابة المحسنين الذين إاثابتهم تحمينُ البيضة والشبل ، والعمو مابلغ به
الاستصلاح ، واكتفى به من البسط . واللواتى تصير نفسه لك عليهن : الموى
إلى ماوافق الراى ، وأمضى الراى الآ بعد التثبت حتى تعاونه عليه
التصعا.^(١)

ولكنى أوصيك بريضة نفسك حتى تذللها على الأمور الحمودة ؛ فإن
كل^(٢) أمر ممدوح هو مما تستقل النفوس . [ومن نسر به وتنقلب إليه
الأخلاق للذمومة^(٣)] . فإن أهلها وإيها غلبت عليك ، لأنها فيها طبيعة
[مركبة^(٤)] ، وجيلة منطورة .

فلتكن الساحلة فى أخلاقك أغلب عليك من الماسرة ، والحلم أولى بك
من التعبة ، والصبر الحاكم عليك دون الجزع ، والعمو أسبق إليك من
المجازاة بالذنوب ، ولكافاة بالسوء .

[وكذلك سائر الأخلاق الحمودة والذمومة ، فلتكن عموداتها غالبية
على أفعالك ، محكمة فى أمورك^(٥)] . فإنك إن ضببت [ذلك ، وقومت
عليه^(٦)] نفسك ، عشت رضى البال ، قليل الموم ، كثير الصديق قليل

(١) كذا . وله : « وإضاء الراى بعد التثبت حتى تعاونه عليه معاونة
التصعا » . وهذا نهاية سقط د القى نهت عليه فى ص ١٣٢ .

(٢) فى الأصل : « وإن كان » صوابه فى د .

(٣) التكهة من د .

المدوّ، [سليم الدين، نقي العريض، محمود القمّال^(١)]، جيل الأحدثوة
في حياتك وبعد وفاتك، وكنت بموضع الرجاء أن يصل الله لك السلامة
الآجلة بالنعمة العاجلة، [إن شاء الله عز وجل^(٢)] .

٥٣ وأسأل الله البتدئ بكل نعمة، والمتولّى لكل إحسان، أن يصلّي على محمد
خيرته من خلقه، وصفوته من بريته، وأن يتم^(٣) عليك نعمته، ويشفع
لك ماخوّلك من نعمته بالنعمة التي يؤمن معها الرّوال، في جواره ومرافقة
أنبيائه. والسلام عليك ورحمة الله.

تمت الرسالة في الأخلاق الحمودة والذمومة بمون الله ومنه. والله الوفي
للمصواب، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلاته.
يتلو هذه الرسالة:

كتاب كتان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر
الجاحظ أيضاً. والله سبحانه المستعان على ذلك برحمته^(٤).

(١) التكملة من د.

(٢) التكملة من د.

(٣) في الأصل: «ينعم»، وأثبت ما في د.

(٤) وفي د: «تمت الرسالة في كتان السر وحفظ اللسان من كلام أبي عثمان
عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله، والله الحمود على ذلك كثيراً برحمته. يتلو
هذه الرسالة إن شاء الله تعالى كتاب غر السردان على اليضاح من تأليفه أيضاً.
والله الوفي للمصواب، والحمد لله أولاً وآخراً، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه
الطيبين الطاهرين وسلاته» .

٣

كِتَابُ

كَيْمَانِ السِّرِّ وَحِفْظِ اللِّسَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الثالثة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« صكتان السرّ وحفظ اللسان »

ومن هذه الرسالة نسختان :

١ — نسخة الأصل ، وهي نسخة مكتبة دالماد ، في ضمن مجموع رسائل الجاحظ .

٢ — نسخة بول كراوس وعطه الجابري ، وهي مقابلة على نسخة دالماد وعلى كتاب المختار من كلام الجاحظ ، لمجهول . ورمزها « أ » . وقد وقع في هذه الأخيرة بعض السهو في إيراد الهمز على وجهه ؛ فنهت على ذلك في الحواشي ، والصحة لله وحده .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أنا بعد فإني قد تصفحت أخلاقك ، وتدبرت أحوالك ، وناقلت
شيمك ، ووزنتك صرقت مقدارك ، وقومتك فعلت قيمتك ، فوجدتك
قد ناهزت الكمال ، وأوفيت على الشام ، وتوقلت في درج الفضائل ^(١) ،
وكنت تكون منقطع القرن ، وطاربت أن تلقى عديم النظير ، لا يطلع
فاضل أن يفوتك ، ولا يأنف شريف أن يقصر دونك ، ولا يخشع عالم أن
ياخذ عنك .

ووجدتك في خلال ذلك على سبيل تنبيه وإعجال لأمرين هما القطب
الذي عليه مدار الفضائل ، فكنت أحق بالتدليل ، وأقرب بالتأنيب من لم يسبق
شأوك ، ولم ينسب رُبُوبتك ؛ لأنه ليس ملوما على تنبيه القليل من قد أضلح
الكثير ، ولا يُسام ^(٢) إصلاح يومه وهجوم ساعته من قد استحوذ الفساد
على دهره ، ولا يُعاسب على الزلة الواحدة من لا يعدم منه الزلل والعيثار ،
ولا يُنكر النكر على من ليس من أهل المعروف ؛ لأن النكر إذا كثر صار
معروفا ، وإذا صار المنكر معروفا صار المعروف منكرا .

وكيف يُعجب بمن أمره كله عجب ، وإننا الإنكار والتمجيب من خرج
عن مجرى العادة ، وطارق السنة والسجية ، كما قال الأول : « خالف تذكر » .

(١) التوقل : الصمود ، والإسراع به .

(٢) سامه الشيء : كله إياه وجشمه . وفي الأصل : « ولا يسام » . وفي ط :
« لا يهتم بإصلاح يومه » . وما أثبت أوفى ببيان النص .

وقيل : « الكامل من عُدَّتْ سَقَطَاتِهِ » ، وقيل : « من استوى يوماء فهو مضبون ، ومن كان يومه خيراً من غدّه فهو مفتون ، ومن كان غده خيراً من يومه فنظك السعيد المغموط » . وفي هذا المعنى قال الشاعر :

رَأَيْتُكَ أُمِّ خَيْرِ بَنِي مَدَّةٍ وَأَنْتَ الْيَوْمَ خَيْرٌ مِنْكَ أُمِّ
وَأَنْتَ غَدًا تَزِيدُ الضَّعْفَ خَيْرًا كَذَلِكَ تَزِيدُ سَادَةَ عِبْدِ شَمْسٍ

وقال آخر في معنى^(١) :

أَنْتَ أَرَوْهُنَّكَ الْمَالِي وَدَلَّوْهُ مَعْرُوفَكَ الرِّيسَ
وَأَنْتَ مِنْ وَائِلٍ صَمِيمٍ كَمَا تَلَبَّ تَحَنَّى لَهُ الضُّلُوعُ^(٢)

في كل عام تزيّد خيراً يُشِيرُهُ عَنْكَ مِنْ بَشِيعٍ و
والأمران اللذان نَقَبَتْهُمَا عَلَيْكَ^(٣) : وَضَعَ الْقَوْلَ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهِ ،
وَإِضَاعَةَ السَّرِّ بِإِذَاعَتِهِ .

وليس الخطرُ فيما أسُوْمُكَ وأحاولُ حملَكَ عليه بَسْهَلٍ وَلَا بِسَرٍّ . وكيف
وأنا لا أعرفُ في دهرِي - على كثيرٍ عَدَدِ أَهْلِهِ - رَجُلًا وَاحِدًا مِنْ يَنْتَحِلُ
الْخِلاصَةَ ، وَيُنْسَبُ إِلَى الْعِلْيَةِ ، وَيَطْلُبُ الرِّيَاسَةَ وَيَخْطُبُ السِّيَادَةَ ، وَيَتَحَلَّى

(١) معن بن زائدة الشيباني ، كان مضرب للثل في الجود والشجاعة .
وكان محدثاً مقصوداً . وكان من ولاية بني أمية ، وغضب عليه بنو العباس في أوائل
دولتهم . ثم أبلى بلا حسنا مع للتصور ، فأكرمه وقدمه وعار من خواصه .
وقتل سنة ١٥١ ، أو ١٥٢ وقيل سنة ١٥٨ . وفيات الأعيان وتاريخ بغداد ١٣ :
٢٣٥ - ٢٤٤ .

(٢) في الأصل : « نحي به » ، والوجه ما أثبت .

(٣) يقال تم يتم كضرب يضرب ، وتم يتم كفرح يفرح .

بالأدب وبديم النخاعة والزمانة^(١) ، والحلم والنخاعة ، أَرْضَى ضَبَطَهُ لِسَانَهُ ،
واحْتَدَّ حَيَاطَتُهُ لِسَرَّهُ . وذلك أَنَّهُ لَأَشَى . أَصْبَبُ مِنْ مَكَايِدَةِ الطَّبَائِعِ^(٢) ،
ومَنَالَةِ الْأَهْوَاءِ ؛ فَإِنَّ الدَّوْلَةَ لَمْ تَزَلْ لَهْوَى عَلَى الرَّأْيِ طَوَّلَ الدَّهْرِ . وَالْهَوَى
هُوَ الدَّاعِيَةُ إِلَى إِذَاعَةِ السِّرِّ ، وَإِطْلَاقِ اللِّسَانِ بِفَضْلِ الْقَوْلِ .

وإِنَّمَا سُمِّيَ الْعَقْلُ عَقْلًا وَحِجْرًا ؛ قَالَ تَمَالَى - (هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِّذِي
حِجْرٍ^(٣)) - لِأَنَّهُ يَزِمُ اللِّسَانَ وَيَحْطِيهِ ، وَيَشْكُلُهُ وَيَرْبُتُهُ^(٤) ، وَيَتَّيِدُ الْفَضْلَ وَيَعْقِلُهُ
عَنْ أَنْ يَخْضِيَ فَرْطًا فِي سَبِيلِ الْجَهْلِ وَالْخَطَا وَالضَّرَرَةِ ، كَمَا يُعْقِلُ الْبَعِيرَ ، وَيُحَجِّرُ
عَلَى الْيَتِيمِ .

وإِنَّمَا اللِّسَانُ تَرْجَمَانُ الْقَلْبِ ، وَالْقَلْبُ خَزَانَةُ مَسْتَحْفَظَةِ الْخُصُومِ
وَالْأَسْرَارِ ، وَكُلُّ مَا بَعِيهِ [مِنْ^(٥)] ذَلِكَ عَنِ الْخَوَاسِ مِنْ خَيْرٍ وَشَرٍّ ،
وَمَا تَوْلَدُهُ الشَّهَوَاتُ وَالْأَهْوَاءُ ، وَتَنْتَجِبُهُ الْحِكْمَةُ وَالْعِلْمُ .

وَمِنْ شَأْنِ الصَّدْرِ - عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ وَعَاءٌ لِلْأَجْرَامِ ، وَإِنَّمَا بَعِي بِقُدْرَةِ
[مِنْ^(٦)] اللَّهِ لَا يَعْرِفُ الْمَبَادُ كَيْفَ هِيَ - أَنْ يَضِيقَ بِمَا فِيهِ ، وَيَسْتَنْقِلَ مَا حُلَّ

(١) النخاعة ، مِنْ قَوْلِهِمْ رَجُلٌ نَخِيقٌ ، أَيْ رَزِينٌ نَفِيقٌ فِي مَجْلِسِهِ .

(٢) مَكَايِدَةُ الْأُمُورِ : مَعَانِيَةٌ مُشَقَّةٌ ، وَهِيَ مُعَادَاةٌ شَدِيدَةٌ . وَوَقَعَ فِي ط : « مَكَايِدَةُ »
خِلَافًا لِمَا فِي الْأَصْلِ .

(٣) آيَةُ ٥ - سُورَةُ الْفَجْرِ .

(٤) يَشْكُلُهُ . مِنْ شَكْلِ الدَّابَّةِ : شَدَّ قَوَائِمَهَا بِحِجْدٍ ، وَاسْمُ ذَلِكَ الْجَبَلِ الشَّكَلِ
كَكِتَابٍ . الرَّبْتُ : الْحَبْسُ . وَفِي الْأَصْلِ : « وَرَبَّتْ » ، وَالْوَجْهَ مَا اثْبَتَ . وَانْظُرْ
الْحَيَوَانَ ٥ : ٣٦٣ .

(٥) سَكَنَةٌ ضَرُورِيَّةٌ .

منه ، فيستريح إلى نبيه ، ويلتذّ بالقاء على اللسان . ثم لا يكاد أن يشفيه أن يخاطب به نفسه في خلواته حتى يفضى به إلى غيره ممن لا يرعاه ولا يحوطه . كأن ذلك مادام الهوى مستولياً على اللسان ، واستعملَ فضولَ النظر فدعت إلى فضول القول .

فإذا قهر الرأى الهوى فاستولى على اللسان ، منته من تلك العادة ، وردّه عن تلك الدّرية ، وجشّه مؤونة الصبر على متر الحلم والحكمة .

ولا شيء أعجب من أن للنطق أحد موانع الله النظام ، ونعمه الجسام ، وأن صاحبها مسؤول عنها ، ونحاسب على ماخوّل منها ، أوجب الله عليه استعمالها في ذكره وطاعته ، والقيام بفسطه وحجته ، ووضعتها مواضع النفع في الدين والدنيا ، والإنفاق منها بالمعروف لفضة لفضة ، وصرّها عن أضدادها . فلم يرض الإنسان أن عطّلها عما خلقت له مما ينفعه حتى استعملها في ضدّ ذلك مما يضرّه ، فاجتمع عليه الإيمان اللذان اجتمعا على صاحب المال الذي كنزه ومنعه من حقّه ، فوجب عليه إثم النفع وإن كان لم يصرفه في معصية ، ثم صرفه في أبواب الباطل والفسق فوجب عليه إثم الإنفاق فيها^(١) . وهذه غاية النّهب والخسران . نعوذ بالله منها .

فاللسان أداة مستعملة ، لا تحده ولا ذمّ عليه ، وإنما الحمد للعلم واللوم على الجهل . فالعلم هو الاسم الجامع لكلّ فضل ، وهو سلطان العقل القاصح للهوى . فليس قمع الغضب وتكسين قوة الشرّة ، وإسقاط طائر الخرق بأحقّ بهذا الاسم ، ولا أولى بهذا الرسم ، من^(٢) قمع فرط الرضا وغلبة الشهوات ،

(١) في الأصل : « منها » . وللرّاد به في أبواب الباطل .

(٢) في الأصل : « مع » ، صوابه من ط .

ولائع من سوء الفرح والبطر ، ومن سوء الجزع والملع ، وسرعة الحد والدم ، وسوء الطبع والبلشع ، وسوء مناهزة القرصة ، وفراط الحرص على الطلبة ، وشدة الحنين والرقة ، وكثرة الشكوى والأسف ، وقرب وقت الرضا من وقت الشخط ، ووقت الشخط من وقت الرضا ؛ ومن اتفاق حركات اللسان والبدن على غير وزن معلوم ولا تقدير موصوف ، وفي غير نفع ولا جدوى^(١) .

واعلم يقيناً أن الصمت سراً أبدأ ، أسهل تروماً - على ما فيه من المشقة - من إطلاق اللسان بالقول على جهة التحصيل والتمييز ، والقصد للصواب ، لما قدمنا ذكره من علة مجازبة الطباع ؛ ولأن من طبع الإنسان محبة الإخبار والاستخبار . وبهذه الجيلة التي جبل عليها الناس نقلت الأخبار عن الماضين إلى الباقين ، من الغائب إلى الشاهد^(٢) ، وأحب الناس أن ينقل عنهم^(٣) ، ونشروا خواطرم في الضخور ، واحتالوا لنشر كلامهم بصنوف الحيل . وبذلك ثبت حجة الله على من لم يشاهد مخرج الأنبياء ، ولم يحضر آيات الرسل ، وطمح بحجة الأخبار عن غير شاعر^(٤) ولا تواطؤ متلهم العيان ؛ وعرفت البلدان والأقطار والأمم والتجارات والتديرات والعلامات ؛

(١) الجدوى : الجدوى والمناء والنفع . يكتب بالالف والياء . وقال بالذ أيضاً

الجداء ، ومع قوله :

قل جسداه على مالك إذا الحرب شبت بأجذالها

(٢) الشاهد : الحاضر ، والمراد به الباقي للعاصر .

(٣) في الأصل : « أن ينقل عنهم » ، صوابه من ط .

(٤) المراد بالمتشاعر المتخالفة واللايسة والمثيرة . انظر المأينة ص ٣ س ١٥

و ٢٦٣ س ٢ . وأساس البلاغة (شعر) ولسان العرب (شعر ٨١) .

وصار ما ينقله الناس بعضهم عن بعض قريبة إلى قبول الإخبار عن الرسل ،
وسلماً إلى التصديق ، وعوناً على الرضا بالتقليد .

ولولا حلاوة الإخبار والاستخبار عند الناس لما انتقلت الأخبار وحأت
هذا المحل . ولكن الله عز وجل حَبَّبَهَا إليهم لهذا السبب ، كما جعل عشق النساء
داعيةً للعجاج ، ولذةً الجماع سبيلاً للنسل ، والرقعة على الولد عوناً على التربية
والحضانة - وبهما كان النشور والتماء - وحُبَّ الطعام والشراب سبباً للفناء ،
والفناء سبباً للبقاء ومহারاة الدنيا .

فسرُّ على الإنسان الكتمان لإثارة هذه الشهوة ، والاضتيار لهذه الطبيعة ؛
وكانت مزاولة الجبال الراسيات عن قواعد أسهل من مجازبة الطباع .
فاعترأه الكربُ لكتمان السرِّ ، وغشيته لذلك سقم وكده بحسٍّ به في سويداء
قلبه بمثل ديب الخمل ، وحِكْمَةُ الجرب ، ومثل لسع الذئب ووخز الأشافي^(١) ،
على قدر اختلاف مقادير الملوم والزناة والخلف . فإذا باع بسرّه فكأنه
أنشِطَ من عقال^(٢) . ولذلك قيل : « الصدر إذا نث برأ » مثلاً مضروباً
لهذه الحال . وقيل :

• ولا بدُّ من من شكوى إذا لم يكن صبر^(٣) •

(١) الفَرَج جماعة التحل . والأشافي : جمع الإخفى ، وهو اللغز يخرز به .

(٢) أى حل من عقال ، والمقال : الربط الذي يحل به .

(٣) نالك بن حنيفة كافي حماسة البصري ١٩٧ . وأنتد هذا المعبر في الحيوان

٣ : ٣٠٢ . وصدره كافي البيان ٣ : ٢٢٠ و ٤ : ٦٣ :

• وما كثرة الشكوى بأمر حزيمة •

وروى : • بعد حزيمة • . وروى : • لسرك ما الشكوى بأمر حزيمة • .

وليس قولنا « طبع الإنسان على حب الإخبار والاستخبار » حجة له على الله ، لأنه طبع على حب النساء ونسب الزنى ، وحُب إليه الطعام ومنع من الحرام . وكذلك حُب إليه أن يُخبر بالحق النافع ويستخبر عنه ، وجعلت فيه استطاعة هذا وذاك ، فاختر المولى على الرأى .

٥٦ ظ

ومما يؤكد هذا المعنى فى كَرَب الكتبان وصُوبته على العقلاء فضلاً عن غيرهم ، ما رَوَاهُ^(١) عن بعض قصائهم أنه كان يحمل أخباراً مستورة لا يحتلها المومنان ، فضايق صدره بها ، فكان يبرز إلى القراء^(٢) فيحضر بها حفيزةً يُودِعها دناءً ، ثم ينكب على ذلك الدن فيحدثه بما سمع ، فيروح عن قلبه ، وترى أن قد نقل سره من وعاد إلى وعاء .

وكان الأعمش^(٣) سبي الخلق غلفاً ، وكان أصحاب الحديث يضجرونه ويسومونه نشر ما يخبئ قلبه عنهم ، وتكرار ما يحدثهم به ، ويتعنتونه ، فيختلف لا يحدثهم الشهرة والأكثر والأقل ، فإذا فعل ذلك ضاق صدره بما فيه ، وتطلعت الأخبار إلى الخروج منه ، فيقبل على شاة كانت له^(٤) فيحدثها بالأخبار والفقهاء ، حتى كان بعض أصحاب الحديث يقول : « ليت أتى كنت شاة الأعمش » .

(١) فى الأصل : « رَوَاهُ » .

(٢) القراء : الأرض الواسعة للسوية الصحرة ، وأنت الضمير بعدها لأنها . وفى الأصل : « المرى » ، تحريف كتابى .

(٣) هو سليمان بن مهران الأعمش ، المحدث المروفي . ولد سنة ٦١ يوم عاشوراء ، وهو يوم مقتل الحسين ، وتوفى سنة ١٨٨ .

(٤) فى ثمار القلوب للعلاني ١٣٤ أنها عَز . والشاة : الواحدة من الغنم ، وقبل الشاة تكون من الضأن والتمر والقطا والبقر والتمام وحر الوحش .

(١٠) - رسائل الجاحظ (

وشكا هشامُ بن عبد الملك ما يجد من فقد الأُنيسِ للأُمونِ على سرِّه فقال :
أكلت الحامضَ والحلوَ حتَّى ما أُجدُ لها طمًا ، وأتيتُ النساءَ حتَّى ما أبالي أمرأةً
لقبتُ أم حانطًا ، فما بقيت لي لذةٌ إلَّا وجود أُنخ أضغ يني وبينه
مؤونة التخطُّط .

وقال معاوية لمعرو بن الناص : ما اللذة ؟ قال : تأمر شبلبَ قريش أن
يخرجوا عنا ، ففعل ، فقال : الآلةُ طرح الروعة .

وقد صدقَ عمرو ، ما تكون الزَّمانة والوفار إلا بحملٍ على النفس شديد ،
وربما ضُتِّبة .

وقال بعض الشعراء^(١) :

ألم ترَ أنْ وُشاةَ الرجا لي لا يتركون أدبًا صحيحا
فلا نفسَ سِرِّكَ إلَّا إليك فإنَّ لكلَّ نصيحٍ نصيحا

والسرُّ - أبقاك الله - إذا تجاوز صدرَ صاحبه وأفلتَ من لسانه إلى أذنٍ
واحدةٍ فليس حينئذ برٌّ ، بل ذلك أولى بالإذاعة ، ومفتاحُ الفُسر^(٢) والشُّهرة .
وإنما بينه وبين أن يشيع ويستطير أن يُدفع إلى أذنٍ ثانية . وهو مع قلَّة
الأمونين عليه ، وكُرب الكتمان ، حَرِيٌّ بالانتقال إليها في طرفه عين .

و ٥٧

(١) هو أنس بن أسيد ، كما في أدب الدنيا والدين ٤٧٩ . وفي الكامل ٢٢٤ :
« وأحسن ما سمع في هذا ما يرمى إلى علي بن أبي طالب ، فقال يقول : هو له .
ويقول آخرون : قاله . مثلاً . ولم يختلف في أنه كان يكثر إنشاده » . وانظر الحيوان
٥ : ١٨١ وما في حواشيه من تخريج .

(٢) في مد : « السر » ، خلافاً لما هو واضح في الأصل .

وصدّر صاحب الأذن الثانية أضيّق ، وهو إلى إفشائه أسرع ، وبه أسخى
وفى الحديث به أعنر ، والحجّة عنه أدحض .

ثم هكذا منزلة الثالث من الثاني ، والرابع من الثالث أبداً إلى حيث
انتهى .

هذا أيضاً إذا استعهد الخدث واستكتم ، وكان عاقلاً حليماً ، وناحياً
واذاً ، فكيف إذا أخبر ولم يؤتمر بالكتمان ، وكان من يمشى بالتسامح ويحب
إفشاء اللاب ، وكان ممن يتطوى على غش أو شحنا ، أو كان له في إظهاره
اجتلابٌ نفع أو دفع ضرر .

فاللوم إذ ذاك على صاحب السرّ أوجب ، وعن أفضى به إليه أنزل^(١) ؛
لأنه كان مالِكاً لسره فأطلق عقابه ، وفتح أقفاله ، وسرّحه فأفلت من قيده
ووثاقه ، وصار هو العبد القنّ للملوك لمن أئتمنه على سرّه ، ومنكّه رقّ رقبته ؛
فإن شاء أحسن ملكته لحفظ ذلك السرّ فجزّ ناصيته ، وجعله رهينة ليوم عتبه
عليه . وقلّ من يحسن التلّكة ، ويحرس الخربة أو يضبط نفسه ؛ فإنه ربّما
لم يخرج غشاً فأخرجه سُخفاً وضغفاً . وإن أساء التلّكة وختر الأمانة^(٢)
فأطلق السرّ واسترعه من هو أشدُّ له إضاعة ، فسكّ الهَمّ وأزال النَمّ وكشف
التوردة وفرّق بين الجميع ، وإن كان للضبع لسره ألوم^(٣) . قال الشاعر :

(١) أى أقل . وفى الأصل : « أدل » ، ولا وجه له .

(٢) الختر : عيبه بالتدرّ والحفيدة . يقال ختره فهو ختار ؛ وللراد : خانها .

(٣) فى الأصل : « اليوم » .

إذا ضاق صدرُ الرء عن سرِّ نفسه

فصدر الذي يتودع السرَّ أفضَحُ^(١)

فمن أسوأ حالا ، وأخسر مكاناً ، وأبعد من الخزم ، ممن كان حرّاً
مالكاً لنفسه فصير نفسه عبداً مملوكاً لغيره ، مختاراً لرقق : من غير أسرٍ
ولا قسر ! والعبيد لم يصبروا على الرق إلا بذلّ الأسر والسبّاء .

ومن كان يرّاه معصوناً في قلبه يُطلب إليه في الحديث به فأخرجه عن
يده ، صار^(٢) هو الطالبُ الراغب إلى من لا يوجب له طاعة ، ولا يشكر له
في عاقبة ، ولا يتحرّز له من مُصيبة^(٣) . وكلّما كانت إذاعتته لأسراره أكثر
كان عدد مواليه أكثر ، وشقاؤه بخدعتهم أذوم . فإذا كان أصل السرّ معلوماً
عند عدّة أو أقلّ من العدّة ، فاعسر استتاره . غير أنه لا لوم على صاحب
الخيانة فيه إذا كان ليس هو الذي أفضله ، ولا من قبله عِلْمٌ .

٥٧ ظ

ولو أن أوزنَ الناسَ حيناً ملكَ لسانه وحسن سرّه وقلل لفظه ، ما قدّر
على أن يملك لحظ عينيّه ، وسحنة وجهه ، وتنظير لونه ، وتبشّته أو قطوبه ، عند
ما يجري بلبّه^(٤) من ذكر ذلك السرّ ، أو ينظر^(٥) بيّاله منه ، فيدو في وجهه

(١) البيت من أبيات ستة رواها للبرد في الكامل ٤٢٥ .

(٢) في الأصل : « و صار » .

(٣) في الأصل : « ولا يتحرّز له بمصيبة » .

(٤) في الأصل : « به » .

(٥) في الأصل : « خطر » .

ومخايله إذا عرض بذكره^(١) ، أو سنع له نظير أو مثل^(٢) ، أو حضر من له فيه سبب - إلا بعد التصنع الشديد ، والتعقُّط المُفرط .

فإذا كان يُعرف من هذه الجهات وما أشبهها ، ويُطلع عليه بتلّين للرجسين^(٣) ، والتعقُّبين للأفعال والأقوال ، والنظر في مصادر التدبير ومخايل الأمور ، فينشو من هذه الجهات أكثر مما تنشيه ألسن المذاييع البذر^(٤) . فكيف إذا أطلق به اللسان ، وعُود إذاعته القلب . والمادة أملك بالأدب .

وربما أدركه الخلدس ، وقبضه الظن^(٥) ، فنالت صاحبه فيه خدعة ، بأن يُذكر له طرف منه ، ويؤمّم أنه قد فشا وشاع ، فيصدق الظن فيجعله يقيناً ، ويضّر الجلمة فيصوّرها تفصيلاً ، فيهلك نفسه ويؤوبها .

وربّ كلام قد ملأ بطون الطوامير^(٦) قد عُرف جملته وما فيه الضرر

(١) ط : « عرض ذكره » خلافاً لما في الأصل .

(٢) في الأصل : « مثل » ، وأثبت ما تقتضيه لغة الجاحظ .

(٣) الرجم : القول بالظن والحدس . ومنه قوله تعالى : « رجماً بالنيب » . والترجم تفعل منه .

(٤) البذر : جمع بذور ، كعبور وصبر . وفي حديث علي في صفه الأولياء : « ليسوا بالمذاييع البذر » . وللمذاييع : جمع مذايع ، وهو من يذيع السروفيه . انظر اللسان (بذر ، ذيع) . وفي الأصل : « البذر » ، صوابه ما أثبت .

(٥) قبضه : هيأه وسيله من حيث لا يحتسب . وفي الحديث : « ما أكرم شاب شيخاً لسته إلا قبض الله له من يكرمه عنه منه » .

(٦) جمع طومار ، وهو الصيغة ، عربي أو دخيل .

منه ، بسحاء^(١) أو طابع^(٢) ، أو لحظة مطلق في الكتاب ، أو حرف تبين من ظهري .

فاستيقظ عند هذه الأحوال ، واستعمل سوء الظن بجميع الأنام ؛ فإنه روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « الحزم سوء الظن » . وقيل لتخفيف : هم بالتم ما بالتم من الشرف والسؤدد ؟ قالوا : بسوء الظن . فلا تعتمد على رجل في سررك محمد عقه دون أن محمد ودّه ونصحه ؛ فإن الأمر في ذلك كما قال الشاعر^(٣) :

وما كل ذي لب بمؤتيك نصحه ولا كل مؤت نصحه بليب

و ٥٨

وقد استحسن الناس من بعض رجال العراق أنه دخل على عبد الملك ابن سهران فأوقع بالحجاج عنده وسبه ، فلما خرج من عنده خبر بما كان منه لبعض أصحابه ، فلامه وأنبه وقال : ما يؤمنك أن يخبر أمير المؤمنين عبد الملك بالحجاج بما قلت فيه - ومرجئك إلى العراق - فيضنه عليك ؟ قال : كلا ، والله إنى ما رطلت يدي قط أحدا أرزن منه^(٤) .

وهذا والله - أبقاك الله - النمل البين ، والنذر اللفق^(٥) ، وتحين فارط

(١) سحابة القرطاس : ما اخضر منه .

(٢) الطابع : بفتح الباء ، وكسرها : الخاتم الذي يختم به الكتاب . وفي الأصل : طائر ، صوابه في ط .

(٣) هو أبو الأسود الدؤلي . الأغانى ١١ : ١٠٥ . ونوادير المخطوطات ١ : ١٦٧ .

(٤) رطل الشيء : برطله وطلا : رازمه يده ليعرف وزنه ، كما في اللسان . وأرزن من الرزانة ، وأصل الرزانة الثقل .

(٥) في الأصل : « والنذر السلق » . تحريف .

الخطأ ؛ لأنه ليس كل راجع وعقل بناصح لصاحب السر ، ولو كان أخوه كذلك كان أمره إليه أهم ، وشأنه أولى . والأعلى من الناس لا يكلف الأدنى هذه المؤونة ، وإنما يفعلها الأدنى بالأعلى رغبة ورهبة ، ونحسنا عنهم بما جئتهم إليهم .

وأكثر ما يذيع أسرار الناس أهلهم وعبيدهم ، وحاشيتهم وصبيانهم ، و [من ^(١)] لم عليهم اليد والسلطان . فالسر الذي يودعه خليفة في عليل له يتلحقه زينة وشينه ، أخرى ألا يكتسه . وهذا سبيل كل سر يستودعه الجلة والعظماء ، ومن لا تبلغه العقوبة ولا تلحقه اللائمة .

وقال سليمان بن داود في حكته : ليكن أصدقاؤك كثيراً ، وصاحب سر منك واحداً من ألف .

وليس معنى الحديث أن تعد ممن تعرف ألفاً وتفضي إلى واحد بسرك ^(٢) . إن لم يكن ذلك الواحد موضعاً للأمانة في السر . لكنه قيل : رجل يساوى ألف رجل ، ورجل لا يساوى رجلاً . وكقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة ^(٣) » .

فكأن ذلك يراد به أن الفضل قليل والتقص قليل لا على نسب ما يتلقاه الاجتماع من هذه الأعداد ؛ لأننا قد نجد الرجل يُوزن بالأئمة ، ونجد الأئمة لا تساوى قلامة ظفر ذلك الرجل .

(١) ليست في الأصل .

(٢) ط : « سر » خلافاً للأصل .

(٣) وروى : « تجدون الناس بعدى كإبل مائة ليس فيها راحلة » . الراحلة : البعير القوي على الأسفار . أراد أن الكامل الزاهد في الدنيا قليل كما أن الراحلة النجبة نادرة في الإبل الكثيرة . رواه ابن ماجه ٣٩٩٠ بإسناد صحيح .

فإذا كان مَنْ نفع عليه الشريرة معدوماً - شيئاً من يُوْتَقى بحله وعقله ،
وأمانته ونصحه ، ومن لا ضررَ عليه ولا نفعَ له في الشرِّ الذي يُضمر ولا يحرّم
عليه كتابته ، ومن قد وُأى على نفسه بالشرِّ والحفظ^(١) ؛ فإنه ليس كلُّ من
ضَمَّن فلم يَضْمَنْ ضامناً ، ولا من استودع فلم يقبل مستحفظاً ، ولا من
استُخْلِف فلم يَخْلَف خائناً ، وإنما يالحقه الحمد والذمُّ ؛ والأجر والإثم إذا ضَمَّن
الأمانة ثم خَتَرها^(٢) - فكانَ القومُ قالوا : لا تودعنَّ سرَّكَ أحداً . وإلاّ أتى
تجد رجلاً فيه الصفة التي وصَفَ بها مكينُ الدَّارِئِ نفسه حيث يقول :

٥٨ ظ

إني امرؤ مني الحياء الذي ترى أنو ، بأخلاقٍ قليل خداعها^(٣)
أواني رجالاً استأطع بعضهم على سرٍّ بعضٍ غير أني جماعها^(٤)
يظنون شئى في البلاد وسرهم إلى صخرة أعبا الرجال انصداعها^(٥) .
وقيل لرجل : كيف كتابتك للسرِّ ؟ قال : أجعلُ قلبي له قبراً أدفنه فيه
إلى يوم النشور .

(١) وأى على نفسه : أى جعل عليها وعداً . وفي حديث وهب : « ثرات في
الحسكة أن الله تعالى يقول : قد وأيت على نفسي أن أذكر من ذكرنى » . عدها على
لأنه أعطاه معنى جعلت على نفسي .

(٢) أى خائناً . وانظر ما سبق في ص ١٤٧ .

(٣) لقطعوعة في حماسة أبي تمام في أول باب الأدب . انظر شرح المرزوقي
١١١٥ - ١١١٦ والحيوان ٥ : ١٨٢ وعيون الأخبار ١ : ٣٩ والكامل ٤٧٥
وأمالى القالى ٢ : ٦٢ والرتضى ١ : ٣٩٩ .

(٤) الجماع : اسم لما يجمع به الشيء ، كما أن النظام اسم لما ينظم به الشيء .

(٥) أى أن يصدعها فتصدع . وروى : « أعبا الجبال انضاعها » .

وقال الآخر^(١) :

• وأكتمُ السرَّ فيه ضربُةُ النقي^(٢) •

وهذه صفاتٌ موجودةٌ بالأقوال ، معلومةٌ بالأفعال . وللغرور من اغترّ بما يبدؤه الراعدُ منها دون أن يبْلُغَ الغَير .

والذي جربناه ووجدناه : أن من بفضى إليه بالشئ ، يبلغ من إذاخته ونسره ما لا يبلغه الرسولُ المستحفظُ للنقي بتبليغ الرسالة ، المحمودُ المجازي على أدائها ؛ حتّى ربّما كان يبلغ^(٣) في الإذاعة لمن أرادها أن يقصد للبلاغة من الرجال^(٤) ، المعروف بالثميمة والتفتيت^(٥) ، فيورعه أنه قد استحفظه السرّ ، فيشيع على لسانه كما يشيع الضو ، في الظلمة .

وهذا قيلُ عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين أحب أن يشيع إسلامه قال : من آمنَ أهل مكة ؟ قيل له : جميل بن النخيت . فأتاه فأخبره بإسلامه وسأله أن يكتسه عليه ، فلم يُبْسِ وبمكة أحدٌ لم يعلم بإسلام عمر ، رضى الله عنه .

(١) هر أبو محسن النقي . ديوانه ٦ والحيوان • : ١٨٢ والأغانى ٧ : ١٤٣ .

(٢) صدره في ديوانه :

• وأكشف للآزق الكروب غمته •

وفي الحيوان :

• وقد أجسود وما مالى بنى فنع •

وفي الأغاني :

• وأطمن الطنة النجلاء عن مرض •

(٣) في الأصل : لا يبلغ • وكلمة لا • مقعنة .

(٤) البلاغة : الكبير التبليغ ، عني بذلك وإن لم يكن مذكورا في المعاجم للتداول .

(٥) التفتيت : مبالغة من الفت ، وهو التهمة .

ثم يكون من أكثر الأعوان على إظهار السر الاستعداد له ، والتحذير من نشره ؛ فإنَّ النهي أغرى ؛ لأنَّه تكليف مشقة ، والصبر على التكليف شديد ، وهو خطر ، والنفس طيَّارة متقلِّبة ، تمسُّق الإباحة وتفرِّم الإحلاق .
ولعلَّ رجلاً لو قيل له : لا تمسح يدك بهذا الجدار - وهو لم يستحياه قطُّ - غرَّي بأن يفعل .^(١)

وكنكث ما حدث . به من السر فلم يؤثر بصره ، لله ألاً يخطر بباله ؛
لأنَّه موجود في طبائع الناس الولوع بكل ممنوع ، والضجر بكل محمول . ٥٩ و

فتريد أن نعلم : لم صار الإنسان على ما منع - وإن كان لا ينفعه -
أحرص منه على ما أبيح من غير علة ولا سبب إلاَّ امتنان ما كثر عليه^(٢) ،
واستطراف ما قلَّ عنده ؟ ولم أقبل على من ولَّى عنه وولَّى عن أقبل عليه ؟ ولم
قالوا : إذا جدَّت السألة جدَّ اللع ؟ وقال الشاعر^(٣) :

الحرُّ يُأخَى والمصا للعبدِ وليس للنأجف مثلُ الرَّدِّ
ولم صار يتمنى الشيء ، وينذر فيه التذوُّر ، ويتعلَّم إليه شوقاً ، فإذا ظفِرَ
به صدَّ عنه وأخلقَ عنده ؟ ولم زهد اللوكُ فيما في أيديهم ورغبوا فيما في
أيدي الناس ؟

فنقول : إنَّ الله تبارك وتعالى جعل لكل نفس مهلاً من الوُسع
لا يمكنها تجاوزه ، ولا تنسع لأكثر منه . فكان معها فيما دون الوُسع الفقرُ

(١) غرَّي بالشيء غرأ وغرأ : أولع به وأغرى .

(٢) في الأصل : « ولا امتنان بما كثر عليه » . صوابه في ط .

(٣) هو بشر بن برد . البيان ٣ : ٣٧ .

وخوف الإخوان ، وفيما تجاوزته عزّ النفي وأمن الدم . وبهذا ويمثله من البخل والحرص استخفت من احتاج إليها ، وأعطت من استغنى عنها . وجعلها توافقة مشاققة ، مطرفة ملاءة^(١) ، كثيرة النزاع والتقلب ، تستعكم عليها الفتنة^(٢) ، ويُبلى خيرها [من شرها^(٣)] وصبرها من جزئها . ولولا هذه الخلال سقطت اليقين ، فهي تنظم القليل بالضرورة إليه إن كان من أقواتها ، أو لشدة النزاع والشوق إن كان من طُرف شهرتها ؛ فإنّ صنوف الشهوات كثيرة ، ولكل صنف منها أهل لا يخفون بما سواه . وتتعب من الغريب النادر ، ويضحكها البديع الطاري . إلا أنه إذا كثّر الغريب صار قريباً ، وإذا تجاوز المطلوب مقدار وسعها وحاجتها صار غريباً وفضلاً استخفت به وقلّ في أعينها كثيره . وأعظم الأشياء عندها قدراً ما اشتدّ إليه الفقر والحاجة وإن قلّ قدره^(٤) ، وأهونها عليها ما استغنى عنه وإن عظم خطره . وجعل لما تنوق إليه ونشاته مكاناً بين قواها ، له^(٥) . فلذا امتلأ ذلك للسكان سروراً ، وقضى ذلك الأربط وطراً بما كان ملتحق إليه ، وروى بما كان ظامناً إليه ، انصرف عنه وقلاه ، وحال عشقه بفضاً ، وشوقه ملالاً .

والعلة في ذلك : أنّ الدنيا دار زوال وملال ، ليس في كيانها أن تثبت ٥٩ ظ

(١) التطرف والاستطرف : القى لا يثبت على أمر . وفي الأصل : مطرفة .
واللثة : الكبيرة اللد .

(٢) في الأصل : تستعكم عليها الفتنة .

(٣) ليست في الأصل .

(٤) في الأصل : ضرره .

(٥) أي مكاناً له من قواها .

هي ولا شيء مما فيها على حال واحدة ، وإنما الثبوت الدائم لدار القرار .
فالسامة تلحقها في محبوبيها ، كما يعيب المنتهى من الطعام والشراب والبهاء ،
فإنه ليس شيء أبغض إلى من ينهائى فيه إلى غايته ، من النظر إلى ناحيته ،
فضلاً عن ملابسته ، إلى وقت عودة السبب الأول .

فإذا كانت الطبايع تتشابه ، ولكل حاسة قوة ، فإذا امتلأت تلك
القوة من محسوسها لم تجد لها وراءها طمعاً ولا ريحاً ، وعاد عليها الضرر . فبعض
النفس يُمسى ، والصوت الشديد يُسمى ، والرائحة المُنقنة تبطل التشم ،
والأطعمة الحارة المَحْرِقة تبطل حاسة اللسان .

وتتطوّر كل واحدة منها ؛ فبين الطبيب عند مَنْ بُدِ عهده [به] ،
والجماع والنساع ، وبين من هو مغموس فيه بونٌ بعيدٌ جداً ، في الخلوة
وحسن الوقع . كل ذلك ما لم يأت المال والعلم ؛ فإنه كلما كثر كان أشعى
وأعجب ؛ لأنّ قَصْدَ الناس له ليس لطلب مقدار الحاجة وسدّ انخلّة كما يُريده
أهل القناعة والزَّهَادَة ، وإنما يَرَادُ قَصْعُ الحِرص ، والحِرصُ لا حدَّ له
ولا نهاية ؛ لأنه سعى لا حاجة ، وإبضاع لا بُغْيَة .

وهكذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لو أن لابن آدم واديين
من ذهبٍ لا يَتَنَى إليهما ثالثاً . ولا يملأ جوف ابن آدم إلا التراب »^(١) .
وقال بعض الحكماء :

من كان لا يَتَنَى بما يَنْفِيه فكلُّ ما في الأرض لا يَنْفِيه

(١) حديث صحيح ، أخرجه في الجامع الصغير ٧٤٧٦ باللفظ : « لو كان لابن آدم
واد من مال لا يَتَنَى إليه ثالثاً ، ولو كان له واديان لا يَتَنَى لهما ثالثاً » .

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَنُحِبُّونَ لِلَّهِ حُبًّا جَدًّا ﴾^(١) . وَقَالَ : ﴿ وَإِنَّهُ لَحُبٌّ خَلِيلٍ لَشَدِيدٍ ﴾^(٢) . وَقَالَ الشَّاعِرُ :

وَالنَّاسُ إِنْ شَبِعَتْ بَطُونُهُمْ فَمَيُونُهُمْ فِي ذَلِكَ لَا تَشْبَعُ

فَأَمَّا الْحَدِيثُ الَّذِي جَاءَ : « لَا يَشْبَعُ أَرْبَعٌ مِنْ أَرْبَعَةٍ : أَرْضٌ مِنْ مَطَرٍ ، وَعَيْنٌ مِنْ نَظَرٍ ، وَأَتَمٌّ مِنْ ذِكْرٍ ، وَطَلْمٌ مِنْ عِلْمٍ »^(٣) . فَإِنَّ الْعَيْنَ لَا تَشْبَعُ فِي الْجُمْلَةِ كَمَا لَا يَشْبَعُ الْغُلْبُومُ مِنَ الْاسْتِفْشَاقِ . فَأَمَّا مِنْ صَنِيفٍ مِمَّا يَرَاهُ دُونَ صَنِيفٍ ، فَإِنَّهُ يَشْبَعُ وَيَرْوَى ، وَيَصْدُ وَيَصْدِفُ إِلَى غَيْرِهِ .

وَأَمَّا الْعِلْمُ فَإِنَّهُ أَوْسَعُ مِنْ أَنْ يُحَاطَ بِهِ ، فَتَنْ طَلَبُهُ لَشَرَفِهِ وَتَغْفَرُهُ فَإِنَّهُ لَا حُدَّ لَهُ وَلَا نِهَايَةَ ، وَلَمْ يَزِدْ لَهُ طَلِبًا إِلَّا أَزْدَادَ فِيهِ رَغْبَةٍ . وَمِنْ طَلَبٍ مِنْهُ مَتَدَارُ كِفَايَتِهِ وَحَاجَتِهِ كِفَايَةَ مَتْنِ الْيَسِيرِ . عَلَى أَنَّهُ لَا يَمْلَأُ مِنْ كَثْرَةِ عِلْمِهِ أَنْ يَرَى فِيهِ النُّفَى وَالْكِبْرِيَاءَ . أَيْضًا . وَقَدْ يُتَلَّ كَمَا يَمْلَأُ كُلُّ شَيْءٍ . وَتَمَلُّ الْعَيْنُ أَيْضًا مِنْهُ وَمِنْ الْمَالِ .

وَقِيلَ : اثْنَانِ مِنْهُمَا : طَالِبُ عِلْمٍ وَطَالِبُ دُنْيَا . وَهَذِهِ الْقَضِيَّةُ^(٤) تَدُلُّ عَلَى الْخُرُوجِ عَنِ الْعَقْلِ ؛ لِأَنَّ التَّهَمَّ تَجَاوَزُ الْقَدْرَ .

(١) الْآيَةُ ٢٠ مِنْ سُورَةِ الْعَجْرِ .

(٢) الْآيَةُ ٨ مِنْ سُورَةِ الْعَالِيَاتِ .

(٣) حَدِيثٌ ضَعِيفٌ ، أَخْرَجَهُ الْبَيْهَقِيُّ فِي الْجَامِعِ الصَّغِيرِ ٩٢٢ بِلَفْظٍ : « أَرْبَعٌ لَا يَشْبَعْنَ مِنْ أَرْبَعٍ » .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « الْقِسْمَةُ » وَالْقَضِيَّةُ : الْحُكْمُ .

وأنت^(١) الحرص على المتنوع الذي لا ينفع به ، والمعجب مما يتمجّب من مثله ، فليس من أخلاق العقلاء . وما لم يكن في أخلاقهم فلا نظر فيه ولا قياس عليه ، وإنما فلك فمّل من استوحش من الحجّة ، وشرّد عن علم الملل والأسباب .

وإنشاء السرّ إنما يوكل بانطير الرائع ، والخطب الجليل ، والدفين المنور ، والأشنع الأبلق ، مثل سرّ الأديان^(٢) لفنّية الموى عليها ، وتضاعن أهلها بالاختلاف والتضادّ ، والولاية والمداوة . ومثل سرّ اللوك في كيد أعدائهم ومكنون شهواتهم ومستور تدبيراتهم ، ثم من يليهم من العطاء والجلة ؛ لغاسة العوامّ على اللوك^(٣) ، وأنهم سماء مظلّة عليهم ، أعينهم إليها سامية ، وقلوبهم بها متعلّقة ، ورغبتهم ورهبتهم إليها مصروفة . ثم عدداوات الإخوان ؛ فإننا صارت المداوة بعد الودّة أشدّ لأطلاع الصديق على سرّ صدّيقه ، وإحصائه مهابته ، وربّما كان في حال الصّدقة يمتّع عليه السّقطات ونحوه الميوس ، ويحتفظ بالرقاع ؛ إرصاداً ليوم النّبوة ، وإعداداً لحال الصّريّة .

وقد شكّا بعض اللوك تنقيب^(٤) العوامّ عن أسرار اللوك فقال :

ما يريد الناس منّا ما ينال الناس منّا

ظ ٦٠

(١) في الأصل : « وإنما » .

(٢) في الأصل : « الأديان » . صوابه في ط .

(٣) الغاسة : الحسد . يقال نفس عليه بنفس نكساً ، بالتحريك ، ونغاسة كغابة .

(٤) في الأصل : « تنقب » .

لو سَكَّنَا باطن الأَرَضِ لَكَانُوا حَيْثُ كُنَّا
إِنَّمَا هُمُومُنَا أَنْ يَنْشُرُوا مَا قَدْ دَقَّقْنَا

وَلَمْ تَرَى حُبَّ الطَّمَنِ عَلَى الْمُلُوكِ^(١) ، وَالتَّجَسُّسَ عَلَى أَخْبَارِهِمْ ، وَعَشَقَ
نَشْرِ الْمَغَائِبِ ، وَاسْتِعْلَالَ النَّفِيَةِ ، ظَاهِرًا فِي طِبَاحِ النَّاسِ لَا يَكَادُ يَنْجُو مِنْهُ
أَحَدٌ مِنْهُمْ إِلَّا مِنْ رَجَحَ حِلْمُهُ وَعَظَمَتْ مِرْوَتُهُ ، وَظَهَرَ سُودَدُهُ ، وَاشْتَدَّ
وَرَعُهُ ، حَتَّى قَالَ بَعْضُهُمْ : « النَّفِيَةُ فَاكَةُ النَّشَاكِ » .

وَرَوَوْا عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ قَالَ : « الْفَاسِقُ لَا نَجِيَّةَ لَهُ » .

وَقَالَ آخَرُ : « أَتَرَى عَوْنَ مِنْ ذِكْرِ الْفَاسِقِ^(٢) ؟ أَذْكَرُوهَ يَعْرِفُهُ النَّاسُ » .

وَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ ثَنَاهُ رَخَّصَ فِي اخْتِيَابِ مُؤْمِنٍ ، بَلْ ضَرَبَ الْمَثَلَ فِي النَّفِيَةِ
بِأَكْرَمِ مَا تَكْرَهُهُ النَّفُوسُ ، وَمَا تَخْتَارُ مِنْهُ الْمَوْتُ عَلَى الْحَيَاةِ ، قَالَ :
« وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَنْتَبِ بِمَعْصُكُمُ بَعْضًا أُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ
مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ^(٣) » .

وَاخْتِيَابِ النَّاسِ جَمِيعًا خُطَّةَ جَوْرِ فِي الْحَكْمِ ، وَسُقُوطَ فِي الْهَمَةِ ، وَسَخَافَةَ
فِي الرَّأْيِ ، وَدَنَاءَةَ^(٤) فِي الْقِيَمَةِ ، وَكُلْفَةَ عَرِيضَةِ ، وَحَسَدَ وَغَاسَةِ ، قَدْ

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَلَمْ نُوَجِبِ الطَّمَنَ عَلَى الْمُلُوكِ » وَفِي ط : « وَلَمْ تَرْجُبِ
الطَّمَنَ عَلَى الْمُلُوكِ » وَالْوَجْهَ مَا أَثْبَتَ . انْظُرْ لِتَأْيِيدِ هَذَا الْأُصُولِ مَا سَبَقَ فِي
ص ١٥٤ س ٣ وما بعده .

(٢) بِقَالَ وَرَعَ مِنَ النَّسَاءِ . يَرَى بِكَسْرِ الرَّاءِ فِيهِمَا وَيُورَعُ . كَيُوجَلُ ، أَيْ تَخْرُجُ
وَتَأْتِي . وَفِي ط عَنْ نَسْخَةِ الْمُخْتَارِ : « أَتَرَاوُنَ » .

(٣) الْآيَةُ ١٢ مِنْ سُورَةِ الْمَجِيدَاتِ .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « وَدَنَاءَ » .

استحوذت على هذا المالمَ وغلّبت على طبائهم ، وتوكدت لسوء المادّة
عندهم ، ولعلوا الشرّ على الخير ، وكثرة الدّغل والنّقل والحسد في القلوب .
فلست ترى منها ناجياً . إنا ناظرٌ بين عدلٍ وإنصاف ، فهو يرى ما يُنكر
فيبدو في وجهه ولسانه . وإما ناظرٌ بين البغضاء والعداوة فهو كثيراً ما يجد
من الميوس في عدوّه ما يسيئه على التخرّص عليه^(١) فيقويها ويزيد فيها .
وإنّ عديم الحقّ يقول وقبح الحسن ، وزاد في قبح التّبيع .

والحديث كلّ - إلّا ما لا يال به - ذكرُ الناس ، ونفوّ وخطل ، وهجر
وهذاء ، وغيبة وهمز ولز .

وقال بعض الحكماء لابنه : يا بُنى ، إنا الإنسانُ حديث ، فإن استطعت
أن تكون حديثاً حسناً فافعل .

وكأُسرٍ في الأرض إنا هو خبرٌ عن إنسان ، أو طيٌّ عن إنسان ، فله
في النية أكثر الخطأ ، وجلّها كلفة لا ضرورة ، يرى صاحبها أنه قد أهل
بحاسبة نفسه ، وغفر ذنوبها وألنى عيوبها ، وقصد قعد غيره ، فتشاغل عمّا
يعنيه بما لا يعنيه ، فأنكر أقواله وأفعاله ، وهجر تدييره ، وتعجب من مقامحه ،
وجهد نفسه في تنقذ أموره . ليس ذلك عن عناية بصلاحه ، ولا بحبة لتقويمه
وتهذيبه ، ولا أنه مسيطر عليه ولا محمودٌ عنده على ما عي به من شأنه ، بل هو
عنده عين للذموم .

وهذا جُلّ حديث البشر وشغلهم في الليل والنهار .

(١) في الأصل : « عن التخرص » تعريف . والتخرص : القول والكذب .

قال بعض الحكماء : فضول النظر تدعو إلى فُضْل القول ، وفضول الغواطر تبتث على اللغو والمخلل .

ولو كان الرجل لا يتكلم إلا بما ينيه ، ولا يتكلف ما قد كُفِيَهِ ، قل كلامه . ولو حكم القتل^(١) في أموره ، وفما بينه وبين خالقه ، وبينه وبين إخوانه ومعامله ، لطاب عيشه وخفت مؤنته وللؤونة عليه ؛ فإن الله تبارك وتعالى لم يخلق مذاقاً أحل من العدل ، ولا أروح على القلوب من الإنصاف ، ولا أمر من الظلم ، ولا أبشع من التجور .

وقال بعض المتقدمين : « إنما يعرف الظلم من حكم به عليه » . ومن استعمل العدل دله على أن الناس يمدحون من طمسه وطعم الظلم إذا فعله بهم مثل القدي يجد إذا خلى ، فسكره لم ما كره لنفسه ، فأنصف ولم يظلم .

وينظام للناس فيما بينهم بالشرع والحرص للركب في أخلاقهم ، فذلك احتاجوا إلى الحكماء - وقد أطلق لهم تصرف أخلاقهم وأماناتهم^(٢) - التي ردت إليهم بالأحكام فيها^(٣) ، ما جانيش عليه أكره مما يطالبهم به الخصوص^(٤) .

(١) في الأصل : « المني » .

(٢) في الأصل : « تصرفها وأخلاقهم وأماناتهم » .

(٣) في الأصل : « الأحكام فيها » .

(٤) للرد بالجناية جزاء الجناية ، كما في قوله تعالى : « يلقى أتاما » أي يلقى جزاء الأثم ، وهو الإثم . وكما في قول بشر بن أبي خازم :

وكانت مقامنا ندعو عليهم بأبطل ذي المبالاة أثم

وقال بعض الحكماء : إن من أصعب الأعمال إنصافك في نفسك ،
ومواساتك أخاك في مالك ، وذكر الله . أما إني لأعنى قول سبحانه الله ،
والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر - وإن ذلك من ذكر الله - ولكن
ذكره عند ما يمرض من الأمور ، فإن كان طاعة الله فعلته ، وإن كان معصية
الله اجتنبته .

٦١ ظ

وروى عن بعضهم أنه قال : « ثلاثة في ظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله :
رجل لم يعب أخاه بعب فيه مثله حتى يصلح ذلك العيب من نفسه ؛ فإنه
لا يصلحه حتى يهجم على آخر^(١) ، فتشله عيوبه عن عيوب الناس . ورجل
لم يقدم يدا ولا رجلا حتى يعلم : أفي طاعة الله هو أم في معصيته ؟ ورجل
لم يلتبس من الناس إلا مثل ما يعطيهم من نفسه . أما تحبون أن تُصغروا » .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « رحم الله عبداً أنفق للفضل من
ماله وأمسك الفضل من قوله ، وشغل عيبه عن عيوب الناس » .

وقال عيسى بن مريم^(٢) : « يا بني إسرائيل أرى أحدكم القذاة في عين أخيه
وبنّى عن الجذع للمترض في عينه » .

وقيل لعيسى بن مريم : ما أفضل أعمالك ؟ قال : تركي ما لا يميني .

وقال عمرو بن عبس : أعيتني ثلاث خلال : تركي ما لا يميني ، ودرمي
من حيله ، وأخ إذا احضرت إلى ما في يديه بذله لي .

(١) أي على عيب آخر في نفسه .

(٢) انظر إنجيل متى ٧ : ٣ - ٤ .

وما أَخَقَّ من أَحْصَيْتَ أَلْفَاظَهُ وَلَيْسَ مِنْ قَوْلٍ يَدْرُ مِنْهُ إِلَّا لَهُ بِهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ، وَمَنْ أَحْصَيْتَ عَلَيْهِ مَثْقِيلُ الدَّرِّ وَاسْتَشْهَدَ عَلَيْهِ جَلْدُهُ وَجَوَارِحُهُ - أَنْ يَضِيطَ لِسَانُهُ .

وقد جاء في بعض الآثار : مَنْ عَدَّ كَلَامَهُ مِنْ عَمَلِهِ قَلَّ كَلَامُهُ إِلَّا فِيهَا لَا يَنْعِيهِ .

وكلُّ امرئٍ غَلِيبٌ نَفْسِهِ ، غَيْرَ مَأْخُودٍ بِنَفْسِهِ ، وَهُوَ الْوَحِيدُ دُونَ الْأَهْلِ وَالْوَلَدِ وَالْقَرَابَةِ . وَقَالَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاهُ - وَقَوْلُهُ الْحَقُّ - ﴿ كُلُّ أَمْرٍ يُبَيَّنُّ كَتَبَ رَهِينٌ ﴾^(١) . وَقَالَ : ﴿ بَيِّنَاتٍ لِّلَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّى إِذَا أَتَقْتَدَیْتُمْ^(٢) ﴾ .

وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا مع السيف والسطوط .

وقال بعض الحكماء : شَيْئَانِ لَا صَلَاحَ لِأَحَدِهِمَا إِلَّا بِالْآخَرِ : اللِّسَانُ وَالسَّيْفُ .

وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ أَكْثَرَ مَا يَنْتَاجِي بِهِ الْمُتَصَدِّقُونَ وَجَدْتَ أَكْثَرَ السَّائِلِينَ يُسْأَلُ عَمَّا لَا يَنْبَغِيهِ ، وَيَكْتَرِثُ لِمَا لَا يَكُرُّهُ ، وَيُعْنَى بِمَا لَا يَنْفَعُهُ وَلَا يَضُرُّهُ ؛ وَأَكْثَرَ الْجَبِيلِينَ يُجِيبُ وَلَمْ يُسْأَلْ ، وَيَتَكَلَّفُ مَا لَا يَعْلَمُ ، وَلَوْ قَالَ لَهُ قَاتِلْ : مِنْ سَأَلِكَ لَا تَضْحَكْ ، وَلَوْ حَاجَّهُ فِيهَا ادَّعَى وَوَقَّفَهُ لَا تَقَطَّعْ . قَالَ اللَّهُ مَرْجُؤُا : ﴿ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ^(٣) ﴾ .

(١) الآية ٢١ من سورة الطور .

(٢) الآية ١٠٥ من سورة الأئمة .

(٣) الآية ٨٦ من سورة ص .

ومرّة هشامُ بن عبد الملك ببعض أهل السكفة والفضول ، وعليه حُلة دَبَّالَةٍ^(١) يسحبها في الثراب ، فقال له المتكلف : يا هذا ، إنك قد أفدت ثوبك . قال : وما يضرُّك من ذلك ؟ قال : ليتك ألقيتَه في النار . قال : وما ينفَعُك من ذلك ؟ فأخذه غاية الإلغام .

ولو تهتأ للتكلفين في كل وقتٍ مثلُ مرّاة هشام لا زدرج من به حياة منهم ، ولقلت الفضول والسكف والنيبة .

قالوا : وليس من أحد أذلّ من متتاب ؛ لأنّه يُخفى شخصه ، ويُطامن حِجّه ، ويغنى من صوته ؛ ولا يَرِيدُ^(٢) بما يناله من ذلك إلا بأن يرفع من قدر خصمه ويعظم من شأنه .

قال معاوية : أتدري من النبيل ؟ هو الذي إذا رأيتَه هبتَه ، وإذا غابَ علك اغتبتَه .

وهي لمصرى سبيلُ العظلاء عند العوام ، واللوك عند الرعيّة ، والسادة عند العبيد .

فلم يأخذ القتاب من اغتابه شيئاً بعضيته إِيّاهُ^(٣) إلا والذي أعطى من الهيبة عند حضوره أكثر منه .

ولو كان للقتاب لا يستتر من النيبة إلا بمن يخاف سطوته ، كان أعذر . ولكن الأوزم للتمكّن منه يحمله على اغتياب عبده وأمتَه ، فضلاً عن كفته ونظيره .

(١) الدبالة : الطويلة القبل .

(٢) في الأصل : « ولا يريد » .

(٣) الضبية : الإفك والهنان والسكف .

ويستأب الرجل عند عدوه وللشاحن له ، مساعدة له بالشفخ ، وتقربنا إليه بالهانة والضمف ، من غير أن يكون له عليه طول ، أو يلتبس منه على ما تقرب به إليه جزاء أو شكورا .

ثم لعله يتكفى إلى الذي اغتابه وقصبه^(١) من ساعته وبومه ، فيعطيه في عدوه الذي اغتابه عنده أيضاً مثل ذلك وأكثر منه ، لا لسلية أيضاً ولا صرفق ولا ربح أكثر من الذلة التي يمدّها في نفسه ، والضمف في مثته ، كما يعلم النني بغير غنم ، ويحضر الفقير بغير سبب ، فتى كوشيف أو عوتب لبيته ذلة أخرى من الكلفة بالماذير الكاذبة ، والاعتصام بالإيمان الفاجرة . ومن كانت هذه دريته فهو حري أن يطّلع على دجلة أمره ، فلا يقبل منه عذر ، ولا يصدّق في قول ولا حلف ، وقد تسربل الذلة ، وتدرّع الخضوع .

٦٢ ظ

وليس من شؤس النفس الكريمة الشبهة^(٢) ، أن تلقى الناس بخلاف ما يخلقون به^(٣) ما لم تأت ضرورة يحتاج فيها إلى كيد وغيلة ، أو مكر وحيلة ، ويثار بالنيبة فيها الرأي الأصيل من مكانه ، فيعمل ذلك الماقل فيما يحل له ويحسن به ، بعد أن تمييه الحيلة في استصلاح ذلك العدو بالرفق واللاينة .

وإنما قيل : « قل من اعتذر إلا كذب » ، لكثرة النطق في الناس^(٤) ،

(١) قصبه قصبا : شنه وعابه ووقع فيه .

(٢) الشؤس : الطبع ، والخلق ، والسجية .

(٣) في الأصل : « يخلقون به » .

(٤) النطق ، بالتحريك : التطلع بالعيب .

وضعف أنفسهم على الإقرار بالذنب ، فلا ذلة الضعف الثاني في الاعتذار
نهت عن كلفة الضعف الأول في الاعتياب ، ولا كلفة الضعف الأول صانت
عن ذلة الضعف الثاني .

وعلى أن أكثر من يعتذر إليه ليس بقابل للمعذر على حقيقة وإن أظهر
القبول ، لما جرب من سخاء الناس ^(١) بالأيثار ، وبعدم من الإقرار بالذنب
ما لم تأت حجة واضحة ، ودليل شاهد عدل .

وإذا كانت هذه سبيل المعتذر إليه فيحقق على المعتذر - إن كانت في نفسه
قيمة - أن لا يعتذر إلا إلى من يحب أن يمد له عنرا ، ولا يجعل إلى التثمين ^(٢)
وهو لا يمد للصحة مكانا .

وأكثر من يعتذر إليه إنما يفعل ذلك به خوفا من سقطته ،
وابقاء لسلطانه .

والتفتقرون بتأولون في الأيمان السلطانية ما يلحق بها عند السلطان التهمة ،
ويكفرهم الظنة ، سيما ^(٣) في الأمور التي في الإقرار بها إباحة الدم والمال ،
وهتك الشر .

ولا حسم لهذا الداء إلا بالحرّاع الفضول ، وسلامة اللسان من أن يلغ
في الأعراض ^(٤) ، ويستسر بالتضيعة والبهت .

(١) في الأصل : « النفس » .

(٢) للين : الكذب ، مان يمين . وفي الأصل : « المين » .

(٣) أصل الولوغ شرب الماء أو الدم . ومنه ولغ السج . وفي أساس البلاغة :
« ومن الجباز : فلان يأكل لحوم الناس ويلغ في دعائهم » . والمقل من باب نغ ،
ووعد ، وورث ، ووجل . وفي الأصل : « يلغ » .

(٤) كذا وردت بدون « لا » وأجزء بعض النسخة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « السليم من سلم السلون من لسانه ويده »^(١) . ومن لم يسلم الناس منه فليس سالماً من نفسه .
وقال القائل : احرس أخاك إلا من نفسه .
وقالوا : مقتل للرء بين فكَّيه .

وكتب على بعض أبواب السند بالسند^(٢) : احفظ رأسك .
وقال الأول : قد تصل النصال إلى الإخوان فتُستخرج ، وأمثال النصال من القول إذا وصلت إلى القلب لم تُستخرج أبداً .
وقال بهرام^(٣) ، وسيمع في الليل صوت طائر فتعدله بهم وهو لا يراه ، إلا أنه تنبع الصوت فصرعه ، فلما صار بين يديه قال : والطير أبصاً لو سكت كان خيراً له !

وقيل : ماشى . أحق بطول سجن من لسان^(٤) .
وقيل : يسأل اللسان الأعضاء في كل يوم فيقول : كيف أنتن ؟ فيقلن :
بخير إن تركتنا !

(١) حديث صحيح . أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٢٠٦ ، ٩٢٠٧ .
٩٢٠٨ . وانظر الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٠ .

(٢) في رواية عن كتاب المختار : « بالسند » ، أى بالحفظ للسند ، وهو خط حمير باليمن .

(٣) بهرام : اسم لعدة ملوك من الفرس ، أشهرهم بهرام جور بن بزدجرد ، ملك ثلاثاً وعشرين سنة ، ونشأ عند ملوك الحيرة وبني له الخوارج . قال للسودي في التنبية والإشراف ٨٨ : « وكان فصيحاً بالحرية ، وله بها شعر صالح » . وذكره الجاحظ في الحيوان ١ : ١٤٠ .

(٤) حديث موقوف روى الطبراني من كلام عبد الله بن مسعود . الترغيب والترهيب ٥ : ١٦٣ .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لثعاب بن جبيل : « وَهَلْ يَكْبُ النَّاسُ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ فِي النَّارِ إِلَّا حَصَائِدُ السَّحَابِ »^(١) .

وقال عيسى عليه السلام^(٢) : « أَصْحَابُ الْآبِرِ ثَلَاثَةٌ : الْمُنْطَقُ ، وَالنَّظَرُ ، وَالصَّمْتُ . فَمَنْ كَانَ مُنْطَقُهُ فِي غَيْرِ ذِكْرِ اللَّهِ فَقَدْ لَنَا ، وَمَنْ كَانَ نَظَرُهُ فِي غَيْرِ اعْتِبَارٍ فَقَدْ سَهَا ، وَمَنْ كَانَ صَمْتُهُ فِي غَيْرِ تَفَكُّرٍ فَقَدْ لَهَا » .

فانظر بأيُّ الأمرين قطعتَ عمرك ؟ أبا الحسكة أم بالأنو ؟ وانظر كيف وصف الله تعالى من أتى عليه بخير من عباده فقال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ النَّارِ مُتْرَعُونَ ﴾^(٣) ، وقال : ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا النَّارَ أَنْ عَرَضَ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ رَدُّوا عَلَيْهِمْ رَدًّا وَكَرِهُوا أَنْ يَسْمَعُوا فِيهَا أَنْصَارًا ﴾^(٤) . وقال : ﴿ وَإِذَا مَرُّوا بِالْأَنْوِ مَرُّوا كَرَامًا ﴾^(٥) . وصان عنه أسمع أهل الجنة وألصقهم فقال : ﴿ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْتِيَا إِلَّا قِيلًا سَلَامًا ﴾^(٦) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الْعِبَادَةُ عَشْرَةُ أَجْزَاءَ ، تَعَمُّ مِنْهَا فِي الصَّمْتِ » .

وقال علي بن أبي طالب : « أَفْضَلُ الْعِبَادَةِ الصَّبْرُ وَاتِّظَارُ الْفَرَجِ »^(٧) .

(١) في اللسان (حصد) : « أَى مَا قَالَتْهُ الْأَلْسَنَةُ ، وَهُوَ مَا يَقْتَضِيهِ مِنَ الْكَلَامِ الْقَدَى لِأَخِيرِهِ ، وَاحِدَتُهَا حَصِيدَةٌ ، تَشَبَّهُ بِمَا يَحْصَدُ مِنَ الزَّرْعِ إِذَا جَدَّ » . وتكلم عليه في الترهيب والترهيب ٥ : ١٦٥ - ١٦٦ .

(٢) انظر البيان ١ : ٢٩٧ .

(٣) الآية ٣ من سورة المؤمنون .

(٤) الآية ٥٥ من سورة القصص .

(٥) الآية ٨٢ من سورة الفرقان .

(٦) الآية ٢٥ ، ٢٦ من سورة الواقعة .

(٧) انظر البيان ١ : ٢٩٧ .

وقال بعض الحكماء : لو لم يكن للصَّمت في صحته إلا الكفاية لأن يتكلم بكلام ويحكى عنه محرِّفاً فيضطر إلى أن يقول : ليس هكذا قلتُ ، إننا قلتُ كذا وكذا . فيكون إنكاره إقراراً ، واعترافه بما سَكى عنه شاعداً لمن وشى به ، وإذعائه تحريف غير مقبول منه إلا أن يأتي بيينة له ^(١) .
لكن ذلك من أكثر فضائل الصَّمت .

وربما ذكر رجلٌ الله تبارك وتعالى ، فكان ذلك الذِّكر إنمأ له ، لأنه قد يدخله في باب تفضيع الذنب الحقير والإغراء والتحريض ، فيفسد الدم الحرام ، أو يعظم الجرح الصغير . بل ربنا ضحك وتبسّم ، فأغرى وخرّص ، وأثم وأوبق . قال بعض الشعراء ^(٢) :

فإن شئت أدلى فيكما غير واحدٍ بمجاهرة أو قال عندي في سرٍّ
فإن أنا لم أكره ولم أنه عنكما ضحكته حتى يلجّ ويمشري
وقالت العرب ^(٣) : « من كُفِّي شرٌّ لقلقه وذبدّيه وقبّيه فقد كُفِّي الشر » .

وهذا بابٌ لولا أن تشغل القارئ لهذا الكتاب بنير ما قصدنا إليه وعزّنا عليه لأتينا عليه . وهو كثير موجودٌ لمن طلبه ، وجملة واحدة فيها

(١) في الأصل : « بها » .

(٢) هو عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود . الميوان ١ : ١٤ - ١٥
ومجاليس نعلب ١٧ - ١٨ وأمالى الرضى ١ : ٣٩٨ والأغانى ٨ : ٩١ و١٣ : ١٠
وجمع الجواهر ٣ والمهر ٢٩٧ - ٢٩٨ .

(٣) هو حديث ضعيف ، أخرجه السيوطي في الجامع الصغير ٩٠٧٣ . وانظر
اليان ٣ : ٢٧٢ ومجاليس نعلب ٥٤٠ .

كفاية ؛ فإنما تختلف الألفاظ التي نجمل كسوة لتلك الماني . وإلا فإنك إذا نظرت إلى جميع شُرور الدنيا وجدت أولها كلمة غارت فجئت حرباً عواناً^(١) ، كحرب بكر وتغلب ابني وائل ، وعيس وذيان ابني بنيض ، والأوس والنخزرج ابني قَيْلَة ، والفجار الأول والثاني ، وعامة حروب العرب والمجم . وإذا تأملت أخبار الماضين لم تحصى عدد من قتلَهُ لسانهُ وكان هلاكهُ في كلمة بدرت منه .

وليس العجب من أفضى بسرّه إلى من ليس له بموضع ، ممن تقدّمت معرفته وزالت الشكوك عنه في أمره ؛ ولكن العجب عين العجب من استنام بسرّه إلى من لم تقدّم معرفته ومن أنس إليه عن اللقاء واللقاءتين^(٢) ، دون معرفة المين والاسم ، والتبّب والنسب ، فأنخدع في أول وهلة وغنّ عقله قبل أن يفنّ دينه وماله ، وتضاعفت عليه البلية بطول الحسرة ؛ فإنّ البلاء عارض ومكتب ، فكان العارض السماوي وما خوّفته الأقدار سرّاً بعد اجتهد صاحبه رأيه ، وحيّته في طلب الخير . وصواب تدييره فيه أسهل وأيسر على العاقل المتعاد للعصاوب ، وإن كان كل مكروه مرّاً بشعاً . وإنّما الكرب اللازم والداء التيا ، ما اجتمع على صاحبه مع الفجيعة والحاجة ، والتقصّ والقلّة ، غمّ الندامة والأسف على ما فرط منه ؛ إذ كان الجاني على نفسه بيده .

(١) الحرب العوان : التي قوتل فيها مرة بعد مرة . غارت : أفلتت وذُهِبت على وجهها . « غارت » ، تصحيف .

(٢) في الأصل : « اللقاء واللقاءين » . وفي ط : « عن اللقاء واللقاءين » ، والوجه ما أثبت . وانظر لكلمة « اللقاء » شرح الرضي للشافية ١ : ١٨٧ - ١٧٩ .

ولهذا الكلام نظرٌ نكره التطويلَ به ، والمعنى واحدٌ ، وإنّا نحتاج من هذا ومثله - متاقدماً ذكره في الكتاب - إلى حفظ السرّ ووزن القول . وإلى هذا أجرنا ، وله قصدنا .

ولو اقتصرنا في هذا الكتاب على حرفٍ مما فيه ، لكان بإذن الله كافياً ٦٤ لمن له لبٌّ وعقل ، لكنّ الاحتجاج أوكد ، والإيضاح أبلغ ، والخطُّ في هذا القول كله لمن عقله والآخِذ به ، أوفرُ [منه ^(١)] لمن قاله ولم يعمل بقوله ؛ لأنه إنما يحتج ثمرة الصواب ، ويختلِف برّقه ^(٢) من صدق قوله بفعله ؛ فإنّ الحكمة قول وعمل ، وإنّا حظُّ القاتل ما لم يستعمل علمه وقوله حظُّ الواصفين ؛ وحسن الصفة يزول بزوالها ، وينقطع باضطعاعها ؛ ومدتها - إلى أن يملاها القاتل والسامع - يسيرة .

والأفعال الحمودة متصلة الشرف والفضيلة في الحياة وبعد الوفاة ، ومذكور ^(٣) للأعقاب ، وحديثٌ جميلٌ ، ونشرٌ باقٍ على مرّ الجديدين . وأكثر من ذلك كله توفيقُ الله وتسيده ؛ فإنّ القلوبَ في يده ، والغبراتِ مقسوماتٌ من عنده . وحبنا الله ونم الوكيل .

• • •

(١) ليست في الأمل .

(٢) الاختلاف : الاستقاء . والرفق ، بالتحريك : الماء الصغير الرشاء السهل للطلب .

(٣) ط : « ومذكورة » ، خلافاً لما في الأمل .

تم كتاب كتابان السر من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله
ونأيده ، ومشيئته وتوفيقه . والله الموفق للصواب برحمته .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين
الطاهرين وسلامه .

٤

كِتَابُ

فَخْرُ السُّودَانِ عَلَى الْبَيْضَانِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الرابعة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« كتاب غر السودان على البيضاء »

ومن هذه الرسالة نسخ :

١ — نسخة الأصل . وهي نسخة مكتبة داماد ، في ضمن مجموعة رسائل الجاحظ .

٢ — نسخة ثان فلوطن للمشورة في لندن ١٩٠٣ ، ورمزها « ن » .

٣ — نسخة السلي ، ورمزها « س » .

وقد سبق التنبيه على أن هذه الرسالة في الأصل هي الرسالة الخامسة ، ولكن تكرار الرسالة الثانية يجعلها الرابعة في الأصل كانت سببا في تغيير أرقام الرسائل بالقص ، كما اضطررنا إلى أن نخطي أرقام الأصل في الرسالة المكررة ، وثبتت الأرقام التي بعدها على جوانب الصفحة ، فبدأ هذه الرسالة بصفحة (٧٨ ط) .

٧٨ ظ تولاك الله وحفظك ، وأسمدك بطاعته ، وجعلك من الفائزين برحمته .

ذكرت - أعاذك الله من النسيء - أنك قرأت كتابي في حُجَّاجَةِ^(١) الصُّرْحَاءِ ، ظَهْجَنَا ، وردَّ الهَجَنَاءِ ، وجواب أخوال الهَجَنَاءِ ، وأنى لم أذكر فيه شيئاً من مفاخر السودان^(٢) . فاعلمُ حِفْظُكَ اللهُ أَنَّى إِنَّمَا أَخَّرْتُ ذَلِكَ مَتَمِّدًا .

وذكرت أنك أحببت أن أكتب لك مفاخر السودان ، فقد كتبتُ لك ما حقَّرنى من مفاخرهم .

قال الأصمعي : قال الفِزْرُ عَبْدُ فِزَارَةٍ^(٣) وكانت في أذنه خُرْبَةٌ^(٤) :
إِنَّ الْوِثَامَ^(٥) يَسْتَرِّعُ فِي جَمِيعِ الطَّمَشِ^(٦) : لَا يَقْرُبُ الْمَنْزَ الْعَيْنَ مَا وَجَدَتْ

(١) في ن . س . : « حاككة » .

(٢) الكلام بعده إلى كلمة « السودان » التالية ما قبل من ن . س .

(٣) النص في الحيوان ٢ : ٣٤٠ - ٣٤١ مخرقاً . وفيه « الفرير عبد بني فزارة » .

(٤) الخربة بالباء : حبة شعرة الأذن ؛ يقال عبد أخرب وأمة خرباء . وفي قول

خدي الرمة :

كأنه حبشي يبتنى أنراً أو من معاشر في آذانها الحرب

وفي ن . س . : « خربة » ، والخربة بالباء ، تكون في الحديد من الناس والإبرة .

وانظر ما سيأتي في ص ١٩٨ .

(٥) في جميع الأصول : « الأوام » ، صوابه ما أثبت . وانظر ما سيأتي

من الكلام على الجزء التالي . والوثام : الوفاق .

(٦) الطمش : الناس ، يقال ما أدرى أى الطمش هو ، أى الناس . وقد =

للماعز^(١)، وتنفر الشاة من الخلب ولا تأنس بالخنف^(٢).
وأنشد أبو زيد النحوي:

• لولا الوثاق هلك الإنسان^(٣) •

وقال شداد الحارثي^(٤) - وكان خطيباً عالياً - : قلت لأمية سوداء بالبادية : لمن أنت يا سوداء ؟ قالت : لسيد الحقر يا أصلع . قال : قلت : أو لست سوداء ؟ قالت : أو لست أصلع ؟ قلت : ما أغضبك من الحق . قالت : الحق أغضبك ، لا تشتم حتى ترهب^(٥) ، ولأن تتركه أمثل .

وقال شداد : لقد كلمتها وأنا أظن أني أفي بأهل نجد^(٦) ، وما ترزعت عني إلا وأنا عند غسي لا أفي بأمتي .

وقال الأصمعي : قال عيسى بن عمر : قال ذو الرمة : قاتل الله أمة آل فلان السوداء ، ما كان أفصحها وأبلغها ! سألتها كيف كان الطر عندك ؟ قالت : غشنا ما شئنا^(٧) .

= عني بالطمش هاهنا الخلق من إنس ووحش . والتترع : التفرع . وفي الحيران : يسرع . وفي ن . س : « ينزع » .

(١) في الأصل : « ما وجبت » ، سواها من الحيوان ، وبذلك صححت في س . ن .

(٢) في الحيوان : « ولا تأنس » .

(٣) في الأصل : « الأوام » تحريف . سواها في المخصص ١٢ : ١٥١ والفريب للصف ٣٨٨ . وانتظر الفتى أساس البلاغة (وأم) وأمثال اليداني ٢ : ١١١ .

(٤) في الأصل : « وكان » ، سواها في البيان ٧١ : حيث الخبر .

(٥) في البيان : « لا تنجب » ، من الجب .

(٦) أي في القصاحة ، ويقال وفي به ، أي عادله ووازنه .

(٧) البيان ٢ : ٧١ ومجالس ثعلب ٣٤٨ .

مناقب السودان

أَنَّ لِقَمَانَ الْحَكِيمِ مِنْهُمْ ، وَهُوَ الَّذِي يَقُولُ : ثَلَاثَةٌ لَا تَعْرِفُهُمْ إِلَّا عِنْدَ ثَلَاثَةٍ : الْحَلِيمُ عِنْدَ النَّصَبِ ، وَالشُّجَاعُ عِنْدَ الْخُوفِ ، وَالْأَخُ عِنْدَ حَاجَتِكَ .
وَقَالَ لِابْنِهِ : إِذَا أَرَدْتَ أَنْ تَخَالِطَ رَجُلًا فَأَغْضِبْهُ قَبْلَ ذَلِكَ ، فَإِنَّ أَنْصَفَكَ وَإِلَّا فَاحْذَرِهِ .

وَلَمْ يَرَوْا ذَلِكَ عَنْهُ إِلَّا وَلَهُ أَشْيَاءُ كَثِيرَةٌ^(١) . وَكَثُرَ مِنْ هَذَا مَذْحُ اللَّهِ إِيَّاهُ وَتَسَمَّيْتُهُ الْحَكِيمَ ، وَمَا أَوْصَى بِهِ ابْنَهُ .

وَمِنْهُمْ : سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ^(٢) ، قَتَلَ الْحَبَّاجَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِسِتَّةِ أَشْهُرٍ وَهُوَ ابْنُ ثَمَرٍ وَأَرْبَعِينَ سَنَةً ، وَمَاتَ الْحَبَّاجُ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَخَمْسِينَ سَنَةً . وَكَانَ سَعِيدٌ أَوْزَعَ الْخَلْقِ وَأَنْتَهَمَ ، وَكَانَ أَكْثَرُ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ . وَأَصْحَابُ الْحَدِيثِ يَطْعَنُونَ فِي الَّذِي يَحْمِيهِ مِنْ قِتْلِ أَصْحَابِ ابْنِ عَبَّاسٍ حَتَّى يَنْجِيهِ . [مِنْ^(٣)] سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ . وَأَبُوهُ مَوْلَى بَنِي أَسَدٍ ، وَهُوَ مَوْلَى بَنِي أُمَيَّةَ ، وَقُتِلَ يَوْمَ قِتْلِ النَّاسِ يَقُولُونَ : كُلُّنَا نَحْتَاجُ إِلَيْهِ .

وَمِنْهُمْ : بِلَالُ بْنُ الْحَبَشِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، الَّذِي يَقُولُ فِيهِ عَمْرُ بْنُ الْمُطَّلَبِ

(١) انظر أقواله بتتبع فهارس البيان ، والحجوان ، وعيون الأخبار ، والتبيل والمحاضرة وغيرها .

(٢) كان من موالى والبة ، وهم بطن من أسد بن خزيمه ، ولقد يقال في نسبه : الأسدى الوالى ، وهى نسبة ولاد . قتل الحباج صبرا سنة ٩٥ . تهذيب التهذيب .

(٣) ليست في الأصل .

رضي الله عنه : إن أبا بكرٍ سَيِّدُنَا وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا^(١) ، وهو ثلث الإسلام .
 ومنهم : منجَع^(٢) ، وهو أوَّل قَتِيلٍ قُتِلَ بَيْنَ الصَّفَيْنِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .
 ومنهم : القَدَاد^(٣) ، وهو أوَّلُ مَنْ عَدَا بِهِ فِرْسُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ .
 ومنهم : وحش^(٤) قَاتِلُ مُسَيْلَةَ الْكَذَّابِ . وكان يقول : قَتَلْتُ خَيْرَ
 النَّاسِ - بِعَنِي حَزْرَةَ بَنَ عَبْدِ اللَّطَّلَبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - وَقَتَلْتُ شَرَّ النَّاسِ - بِعَنِي
 مُسَيْلَةَ الْكَذَّابِ .
 ومنهم : مكحولُ النِّقِيهِ^(٥) .

ومنهم : الحِقِيقُطَانُ الشَّامِرُ^(٦) ، الَّذِي كَانَ يُفَضِّلُ فِي رَأْيِهِ وَعَقْلِهِ وَهَمَّتِهِ .
 وهو الَّذِي يَقُولُ فِي الْإِخْوَانِ : لَا تَعْرِفُ الْأَخَّ حَتَّى تَرَافِقَهُ فِي الْحَضَرِ ، وَتُزَامِلَهُ
 فِي الشَّرِّ .

(١) الثَّانِيَةُ لِلجَّاحِظِ ٣٢ ، ١٨٠ .

(٢) فِي الْأَسْلِ : « عَلِيع » ، صَوَابُهُ فِي السَّيْرِ ٤٩٠ وَالْإِسَابَةُ ٨٢٥٥ وَمَحَاضِرَةُ
 الْأَوَائِلِ لِلسَّيْرُطِيِّ ٤٨ . وَهُوَ مَوْلَى عُمَرَ ، قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : « وَكَانَ أَوَّلَ قَتِيلٍ مِنَ
 الْمُسْلِمِينَ بَيْنَ الصَّفَيْنِ يَوْمَ يَوْمِ » .

(٣) الْقَدَادُ بْنُ الْأَسْوَدِ الْكِنْدِيُّ ، كَانَ أَبُوهُ عُمَرُو بْنُ ثَعْلَبَةَ حَلِيفًا لِسَكْدَةَ
 فَتَزَوَّجَ مِنْهُنَّ امْرَأَةً فَوَلَدَتْ لَهُ الْقَدَادَ ، فَلَمَّا كَبُرَ الْقَدَادَ وَقَعَ شَرِيئُهُ وَبَيْنَ أَبِي شَمْرِ
 الْكِنْدِيِّ لَضَرْبِ رَجُلِهِ بِالسَّيْفِ وَهَرَبَ إِلَى مَكَّةَ خَالِفَ الْأَسْوَدَ بْنَ عَبْدِ يَزِيدَ
 الزُّهْرِيَّ ، وَبَنَاتُهُ الْأَسْوَدَ فَرَفَّ بِهِ أَوْلَا ، فَلَمَّا نَزَلَتْ « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ » رَجَعَ إِلَى
 نَسَبِ قَتِيلِ الْقَدَادِ بْنِ عُمَرُو . تَوَفَّى فِي خِلَافَةِ عُثْمَانَ سَنَةَ ٣٣ . الْإِسَابَةُ ٨١٧٩ .

(٤) وَحْشِيُّ بْنُ حَرْبٍ الْحَبَشِيُّ ، مَوْلَى بَنِي نَوْفَلٍ .

(٥) يَدْعُو أَنَّهُ مِنْ سُودَانَ النَّوْبَةِ ، لَفِي تَهْذِيبِ التَّهْذِيبِ أَنَّهُ كَانَ لِرَجُلٍ مِنْ هَذِلٍ
 مِنْ أَهْلِ مِصْرَ فَأَعْتَقَهُ . وَيُقَالُ كَانَ مِنَ الْفَرَسِ ، وَاسْمُ أَبِيهِ سَهْرَابٌ . تَوَفَّى سَنَةَ ١١٢ .

(٦) ذَكَرَهُ فِي الْبَيَانِ ١ : ١٣٠ ، ٣٢٨ . قَالَ الْجَّاحِظُ : « وَكَانَ خَطِيئًا
 لَا يَأْرَى » . وَأَمَّا هُنَا الْحِقِيقُطَانُ طَائِرُ الدَّكْرَاجِ ، أَوْ الذِّكْرُ مِنْهُ .

ومنها : جُلَيْبٌ^(١) الذي تَعَدَّتْ الرِّوَاةُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَرَجَ فِي غَزَاةٍ فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ : هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ ؟ قَالُوا : نَفَقَدُ فُلَانًا وَفُلَانًا . ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ : هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ ؟ قَالُوا : نَفَقَدُ فُلَانًا وَفُلَانًا . ثُمَّ خَرَجَ فَقَالَ : هَلْ تَفْقِدُونَ مِنْ أَحَدٍ ؟ قَالُوا فِي الثَّلَاثَةِ : لَا . قَالَ : لَكُنِّي أَفْقَدُ جُلَيْبًا ، أَطْلُبُوهُ . فَطَلَبُوهُ فَوَجَدُوهُ بَيْنَ سَبْعَةٍ قَدْ قَتَلَهُمْ ثُمَّ قُتِلَ . فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « قَتَلَ سَبْعَةً ثُمَّ قَتَلُوهُ . هَذَا مِنِّي وَأَنَا مِنْهُ » . قَالَ : ثُمَّ حَمَلَهُ عَلَى سَاعِدَيْهِ حَتَّى حَفَرُوا لَهُ ، مَا لَهُ سَرِيرٌ غَيْرَ سَاعِدَيْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . قَالَ : وَلَمْ يَذْكُرُوا غَسَلًا .

ومنها : فَرَجُ الْحَبَّامِ^(٢) وَكَانَ مِنْ أَهْلِ الصَّدَاقَةِ ، وَالْقَدَمَيْنِ فِي الشَّهَادَةِ . ٧٨ ظ
أَعْضَهُ جَعْفَرُ بْنُ سُلَيْمَانَ ؛ وَذَلِكَ أَنَّهُ خَدَمَهُ دَهْرًا يُصْلِحُ شَارِبَهُ وَلِحْيَتَهُ وَيَهَيِّئُهُ ، فَلَمْ يَرَهُ أَخْطَأَ فِي قَوْلٍ وَلَا عَمَلٍ ، فَقَالَ : وَاقِفْ لَأَمْتَحِنَنَّ ، فَإِنْ كَانَ مَا أَرَى مِنْهُ عَنْ تَدْبِيرٍ وَفَصْدٍ لَأَعْضِيَنَّ وَلَأُزَوِّجَنَّ وَلَأُغْنِيَنَّ . وَإِنْ كَانَ عَلَى غَيْرِ ذَلِكَ عَرَفْتُ الشُّعْثَ فِيهِ . فَقَالَ لَهُ ذَاتَ يَوْمٍ وَهُوَ يَحْجِمُهُ : يَا غُلَامُ ، أَتَجْتَمِعُ ؟ قَالَ : نَعَمْ . قَالَ : وَمَتَى ؟ قَالَ : عِنْدَ الْحَاجَةِ . قَالَ : وَتَعْرِفُ ذَلِكَ ؟ قَالَ : أَعْرِفُ أَكْثَرَهُ وَرُبَّمَا غَلِطْتُ . قَالَ : فَأَيُّ شَيْءٍ تَأْكُلُ ؟ قَالَ : أَنَا فِي الشَّيْءِ

(١) تصغير جلباب . ذكر ابن حجر في الإصابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم زوجه أنصارية ، ونزل في قصته قوله تعالى : « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم » . الأحزاب ٣٦ . وكانت أمها أبت أن تزوجها من جلييب بعد خطبة الرسول إليها لجلييب . تفسير ابن كثير ٢ : ٢٨٩ - ٢٩٠ .

(٢) الخبر في الحيوان ٧ : ٣٦١ - ٣٦٢ .

فدا كبراه^(١) خاترة حلوة . وأما في الصيف فيكباجة حامضة عذبة^(٢) . فبلغ به جعفر بن سليمان ما قال . وهو الذي يقول فيه أبو فرعون^(٣) :

خسئوا الطريق زوجتي أماي أنا حمي فريج الحبحام^(٤)

قال : وبلغ من عدائه وبُله في نفسه وثوقه وورعه ، أن مواله من ولد جعفر وكبار أهل للربد ، كانوا لا يطمعون أن يشهوه إلا على أمر صحيح لا اختلاف فيه .

وأما الحليطان فقال قصيدة تحتج بها البمانية على فريش ومضر ، ويحتج بها الميم والحليش على العرب ، وكان جرير رآه يوم عيد في قيس أبيض وهو أسود ، قال :

(١) كذا . وفي الحيوان : « فديجبرجة » . وفي كتاب الطبيع للبغدادى ١٢ « ديكربكة » . قال : « ومنتم أن يقطع اللحم وسطاً ، ويترك في القدر ، ويلقى عليه يسير ملح وكف حمص مقصور ، وكفرة يابسة ورطبة ، وجل مقطع ، وكراث ، ويطرس عليه غمر ماء ويغل ، ثم تؤخذ رغوته ويلقى عليه خل خمر وري ، ويلقى فيه فلفل مسحوق ناعماً ويطبخ حتى يبين طعمه . ومن الناس من يحليه بقليل سكر » . وقد حققه داود الجلبى أن اسمه مأخوذ من الآرامية ومعناه الذيك للبارك .

(٢) السكاج ، ويقال له الحلية ، والمخطة ، والصنصافة . وهو لحم يباع بالخل والتوابل ونحوها ويضاف إليه أحياناً الزعفران والذباب . انظر صنعة في كتاب الطبيع للبغدادى ص ٩ - ١٠ ومحاضرات الراغب ١ : ٢٩٢ .

(٣) ذكره الجاحظ أيضاً في الحيوان ٦ : ٧٨ . وذكره ابن الدم في القهرست ٢٣٣ في جماعة من الشعراء اللقبين وقال « أبو فرعون الناسي . ثلاثون ورقة » يعني أن شعره في ثلاثين ورقة . وانظر بعض أخباره وشعره في طبقات الشعراء لابن المزي ٣٧٦ - ٣٧٩ .

(٤) في الأصل : « أنا حمام » . صوابه في الحيوان ٧ : ٢٦٢ .

كأنه لما بدا للناس أير حملي لُف في قرطاس^(١)
 فلما سمع بذلك المحيطان وكان باليمامة ، دخل الى منزله فقال هذا الشعر :
 لن كنتُ جَمَدَ الرأيس والجلدُ طام^(٢)
 فلأني لَتَبْتُ الكُفَّ والمرضى أزه^(٣)
 وإنَّ ———— اللون ليس بضائر
 إذا كنتُ يومَ الرُّوع باليف أخير^(٤)
 فلن كنتُ تبني الفخر في غير كنه
 فرحط النجاشي منك في الناس أنفر^(٥)
 تأتي الجَلْدَى وابنُ كرى وحارث^(٦)
 ومَوْدَةُ والتبلي والشيخ قيص^(٧)
 وفاز بها دونَ الملوك سادة^(٨)
 فدامَ له تلكُ النجى الوقر^(٩)
 ولتجان منهم وابنه وابنُ أمه^(١٠)
 وأبرهة تلك الذي ليس ينكر^(١١)
 غزاكم أبو بكر ———— وم في أم داركم^(١٢)
 وأنتم كقبيس الرميل أو هو أكثر^(١٣)

٨٠ و

(١) لم يرد البيت في ديوان جرير .

(٢) أزه : أبيض نقى . (٣) كنه النجى : حقيقته .

(٤) القبيس : العدد الكثير ، يقال : إنهم لفي قبس الحمى . وقال الكبي :

لكم سجدا لله الزوران والحمى لكم قيمة من بين أرى وأقرا

و الأصل : « فيض » ، تحريف .

وَأَنْتُمْ كَمَا بَرَّ لَنَا . تَنَا هَوَى لَهَا بِلَاقَةِ ، سَجُنُ الْمُخَالِبِ أَكْثَرُ^(١)
فَلَوْ كَانَ غَيْرُ اللَّهِ رَأَى دَفَاعَهُ عَلَتْ وَفَوَّ التَّجْرِبِ بِالنَّاسِ أَخْبَرُ^(٢)
وَمَا الْفَخْرُ إِلَّا أَنْ تَيْتُوا إِزَاهُ وَأَنْتُمْ قَرِيبٌ نَارِكُمْ تَسْرُ
وَيَدُلُّ مِنْكُمْ فَائِدُ ذُو حَنِيظَةٍ نُكَالُهُ طَوْرًا وَطُورًا يَدْرُ
فَأَمَّا الَّتِي قَلَمْتَ فَطَلَمْتَ نَبْوَءَ وَبِئْسَ بِكُمْ صَوْنُ الْحَرَامِ السَّيِّئِ^(٣)
وَقَلَمْتَ لَقَاحَ لَا تُوَدَّى إِتَاوَهُ فَأَعْطَاهُ أَرْبَابُ مِنَ الْفَقْرِ أَيْسَرُ^(٤)
وَلَوْ كَانَ فِيهَا رَغْبَةٌ لَتَوَجَّجَ إِذَا لَأَتَتْهَا بِالْمَقَاوِلِ حَمِيرُ^(٥)
وَلَيْسَ بِهَا مَشَقٌّ وَلَا مَتَعِيفٌ وَلَا كَبْجُؤَاتًا مَأْوَها يَضْجُرُ^(٦)

(١) سجن المخالب ، أى سجن محالب . وهـ الهـ بدل من الضمير والمجن : جمع أحجن ، وهو للرج . وفي الأصل : « حبر » تحريم .
(٢) أى هم قوم لا يستطيع أحد دفع غريم ومجدهم . فأتت لو حاولت هذا الدفاع علقت عاقبة ذلك .

(٣) أى صين البيت الحرام ذو السور . وصون : لثة فى صين ، وهى لثة بنى قيس وبنى دبر ، كافى قوله :

« لَيْتَ شَبَابًا بَوَّعَ فَاشْتَرَيْتَ »

وَقَلَمْتَ . لَهَا « نَلَمَ » .

(٤) الفخاح ، كسحاب : القوم لم يدينوا للدولك ولم يصيبهم فى الجاهلية سباء والأردين ، بالفتح : الحراج والإتاوة . كافى القيان (أرى) . وفى ن . س : « أربان » بالباء ، وليس بشئ . فإنه بمعنى العربون . وأراد : أيسر من الدر .

(٥) فى الأصل « لاتها » بهذا الإجمال . والمقاويل : جمع مقول ، بالكسر . وهو القيد للثك من ملوك حمير .

(٦) جؤاتا . ويقال جؤاتاء أيضا : حصن لعبد القيس بالبحرين .

ولا مرتعٌ لهمين أو متفنعٌ ولكنَّ تَجْمَرًا ، والتجارةُ تُحْمَرُ
أَبَتْ كُلِّيًّا وَأُمْتُكَ نَجَّةٌ لَكُمْ فِي سِمْانِ الصَّانِ عَارٌ وَمَنْعَرٌ
أَمَا قَوْلُهُ :

تَأْتِي الْجَلَنْدَى وَابْنُ كَسْرَى وَحَارِثٌ

وَهَوْدَةُ وَالتَّبَطَّى وَالشَّيْخُ قَبِيرٌ

فإنه يقول : كتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى بني الجَلَنْدَى ^(١) فلم يؤمنوا
وكذلك كسرى ، وكذلك الحارث بن أبي ثمر ، وكذلك هودّة بن علي الحنفي ،
وكذلك المقوقس عظيم القبط صاحب الإسكندرية ، وكذلك قيسر ملك الروم .
على أن بني الجَلَنْدَى قد أسلموا من بعد ذلك الكتاب ، ولكنَّ النَّجَاشِيَّ
أسلم قبل الفتح ، فدام له ملكه ونزع الله من هؤلاء النعمة . وقيسر إن كان
قد بقي من ملكه شيء فقد أخرجوه من كل مكان يبلّغه ظُلْفٌ أو حافر ،
وصار لا يصنع إلا بالخليج وبالغاب والمصون ^(٢) وبالشتاء والثلوج والأمطار .
ونظر بلقيان وابنه .

وَأَمَا قَوْلُهُ :

غَزَاكُمْ أَبُو يَكْسُومَ فِي أُمَّ دَارِكَمَ

وَأَنْتُمْ كَقَبِيسِ الرَّمْلِ أَوْ هُوَ أَكْثَرُ ^(٣)

(١) وكذا ورد في أصول الحيوان ١ : ٩٨ . والعروف أنهما ابنا الجَلَنْدَى ،
في السيرة ٩٧١ : « وبعث عمرو بن العاص السهمي إلى جيفر وعياذ ، ابني الجَلَنْدَى
الأردنيين ملكي عمان . ومثله في الإصابة ١٣٠٥ .

(٢) الغاب : جمع غبة وهي الجبل الطويل يمرض للطريق فيأخذ فيه .

(٣) في الأصل : « كقبيس الرمل » . ونظر ما سبق في حواشي ١٨٣ .

فإنه بنى صاحب النيل حين أتى مكة ليهدم الكعبة . يقول : كنتم في عدد الرَّمْل ، فلمْ فررتُمْ منه ولمْ يلقَ أحدٌ منكم حتى نُفِضَ إلى مكة ، ومكة أم القرى ، ودارُ العرب ، هي جزيرة العرب ، ومكة قرية من قرأها ، ولكن لما كانت أقدَمُها قَدَمًا ، وأعظَمُها خطرًا ، جُعِلَتْ لها أُنْثَى . ولقد قيل لفتح مكة : فَتَحُ الفُتُوح . وعلى منهل ذلك سُمِّيت فاتحة الكتاب : أم الكتاب .

والعرب قد تجعل الشيء أم ما لم يلد . من ذلك قوم : ضربه على أم رأسه ، وكذلك أم الهاوية^(١) . والضيف يسمى ربة منزله أم متواى .

وقال أعرابيٌ وقد أصابته برائحة عند اسماء كان نزل بها^(٢) :

يا أم متواى عِدِمْتُ وجيبيكَ أَغْدَى رَبُّ الفَلَا من معركِ

وقدِجِ بُرْغُوشٍ أراه مُهْلِكِي أَيْتُ لَيْلٍ دَائِبَةُ التَّحَكُّكِ^(٣)

• تحكك الأجرِب عند المبرك •

وقد أمان الله تعالى مكة والبيت حين قال : ﴿ إِنِّ أَوَّلَ نَبِيٍّ وَضِعَ لِثَنَيْنِ لِلَّذِي يَبْسُكَةُ مَبْلَرَكًا وَهْدَى لِقَتَالَيْنِ^(٤) ﴾ .

(١) كذا في الكتاب العزيز : « فَأَمَّ هَاوِيَةً » . وهاوية والهاوية اسم من أسماء جهنم . وقيل معنى فأمة هَاوِيَةٌ ، أى أم رأسه نهى في النار . قل ابن برى : لو كانت هَاوِيَةٌ اسمًا لكان لم يصرف .

(٢) الجزء الثاني في الحيوان • : ٣٩١ .

(٣) في الحيوان : « دَائِمُ التَّحَكُّكِ » .

(٤) الآية ٩٦ من سورة آل عمران .

يقول : فإذا غزيت - وهي أُمّ القرى وفيها البيت الحرام الذي هو
 شرفكم - فقد غزيت جميعكم^(١) .
 وأما قوله :

وأما التي قلتم فلكم نبوة^(٢) وليس بكم صون الحرام المنة^(٣)
 [وقلتم لقاح لا تؤذى إناوة^(٤) فاعطاء أريان من القرأيسر^(٥)]
 فلقاح : البلد الذي لا يؤذى إلى الملوك الأريين^(٦) . والأريان : هو
 الخراج ، وهو الإناوة . وفي ذلك يقول عبيد بن الأبرص :
 أبوا دين الملوك فحسم لقاح^(٧) إذا نذروا إلى حرب أجابوا
 قال : قلتم إنا لقاح^(٨) ولنا تؤذى الخراج والأريان .

و ٨١

قال : فاعطاء الخراج أهون من التفرار وإسلام الدار وأنتم مثل عدو من
 تهاجم الرار الكثرة .
 وأما قوله :

وليس بها مشق ولا متعصف ولا كجسواتا ماؤها بتعجر^(٩)
 يقول : ليس في الفلبة على مكة رغبة ، ولولا ذلك لفزأها أهل اليمن
 وغيرهم . وليس بها مشق ولا متعصف ؛ لأنهم يتبرءون بالطائف ويتدفون
 بمكة . وجواتا : عين بالبحرين . وليس بمكة شيء بداني ذلك .

(١) في الأصل : « غزا جميعكم » .

(٢) لم يرد هذا البيت في الأصل . والكلام الثاني ينطبق به .

(٣) انظر ما سبق في الحاشية الرابعة من ص ١٨٤ . والكلمة واضحة في الأصل
 بالياء للثناة .

وقال :

ولا سرتعُ لفتين أو متقنص ولكن تجرأ والتجارة تحقر
يقول : ليس بها متزّهات ، وصيدها حرام ، وإنسا بها تجار والشجار
يحقرّون . يقول : هم عند الناس في حدّ الضعف ولا يستجيز ملك أخذ الذي
به يتيسرون ، ولا يكون ما يؤخذ منهم يقوم بنواصب الملوك^(١) ، وهم قوم^(٢)
ليس عندهم استلح . ولعلك يقول الشاعر معاوية بن أوس ، وهو جاهلي :
ورزق سبأت لدى متجبر أسيود كالرجل الأسحم^(٣)
ضربت يفيبه على غمره وفأنة مكيد الأجدم
إلى التاجر العربي الشعر يح أو تحريذى النطف الطمطم^(٤)
أراد بهذا كله قريش^(٥) . يقول : هم تجار وقد اعتصموا بالبيت ، وإذا
خرجوا علقوا عليهم الثقل ولما الشجر^(٦) حتى يهرقوا فلا يقتلهم أحد .

(١) بنى حاجاتهم وعقائهم . وأصل التابة ما ينوب الإنسان أى ينزل به من
للهمات والحوادث .

(٢) هو معاوية بن أوس بن خلف القيسى ، وهو ابن أبي حارثة المزي . ترجم
له للزباني في مسنده ٣٩٢ وذكر له أياتا أخرى من هذه القصيدة .

(٣) وقع فى ن ، س : « ورزق » . تحريف . وإثاق : السقاء ، وهو أيضا
ما تنقل فيه الحمر . وسبا الحمر : اشتراها ، أو حملها من بلد إلى آخر .

(٤) التصحیح : البخل ، يعنى أنه يخالى فى ثمن الحمر . والنطف : بالتحريك جمع
نطفة . وهى القرط . قال الأعشى :

يسمى بها ذو زجاجات له نطف مقلص أصل السريال بمنحل
والطمطم : الأعجمى الذى لا يلمص .

(٥) فى الأصل ، ون . س : « قريش » .

(٦) أشير فى الأصل إلى أنها فى نسخة « السر » . هذا وليس فى نص الشعر
للتقدم ما يقتضى هذا التفسير من تعليق القل ولما ، الشجر .

وأما قوله :

أَلَيْتَ كَلْبِيًّا وَأَمُكْ نَجَّةٌ لَكُمْ فِي سَمَانِ الْعَنَانِ عَارِزٌ وَمُضَرٌّ
فَإِنَّ بَنِي كَلْبٍ يَرْتَمُونَ بِإِنْسَانِ الْعَنَانِ ، وَكَذَلِكَ بَنُو الْأَعْرَجِ ، وَسَلِيمٌ .
وَأَشْجَعُ تَرَى بِإِنْسَانِ التَّمْرِ .

وقال النجاشي :

وَلَوْ شِئْتَنِي مِنْ قُرَيْشٍ قَبِيلَةٌ سِوَى نَاكَةِ الْيَعْرَبِ سَلِيمٌ وَأَشْجَعُ
وقال الفرزدق :

وَلَسْتُ مَضْحَكِيًّا مَا دُمْتُ حَيًّا بِشَاءٍ مِنْ خَلْقِي أَعْرَجِي^(١)
فَمَا أَدْرَى إِذَا انْفَقْتُ مَالِي لِمَلِّ الشَّاءِ تَوَقَّرَ عَنْ صَبِي^(٢)
وقال الآخر :

إِذَا أَحْبَبْتُ أَنْ تُنْفِلِي أَتَانَا فَذُلُّ الدَّارِيِّ عَلَى شِرَاهَا
يُقْبَلُ ظَهْرَهَا وَبِكَادٍ لَوْلَا قُحُولُ الظَّهْرِ يَدْنُو مِنْ قَفَاهَا
وَوَدَّ الدَّارِيُّ لَوْ أَنَّ هَاهُ إِذَا نَالَ الْحَسَارَةَ نَالَ ظَاهَا^(٣)
وقال عبد بن رشيد :

قَبِيلَةٌ سِوَهُ خَيْرٌ مِنْ شَرِّهِمْ تَرَى مِنْهُمْ لِلْعَنَانِ غَلًّا وَرَاعِيَا
إِذَا جِلَّتْ فِيهِمْ عُرُوسٌ لِبَطْنِهَا تَرَى التَّمَجَّةَ الْبَهْمَاءَ أَبْكِي الْبَوَاكِيَا^(٤)

(١) البينان مالم يرو في ديوان الفرزدق .

(٢) تقرر : يشق بطنها . وفي الأصل : « تبر » .

(٣) في الأصل ، س « الحمار ينال » . وفي ن : « تنال ظاهها » . والوجه ما أثبت .

(٤) في الأصل : « عروسا » .

ولذلك قال الأخطل :

فَاتَّقِ بِضَانِكَ يَا جَرِيرُ فَإِنَّا مِتُّكَ نَفْسُكَ فِي الْخَلَاءِ ضَلَالًا^(١)

ولذلك قال الحقيقطان :

أَلَسَتْ كُلِّيًّا وَأَمَّاكَ نَجَّةٌ لَهَا فِي سَمَانِ الضَّانِ عِلٌّ وَمَغْزُ

أَمَّا الْعَارُ فَالَّذِي شَاعَ عَلَيْهِمْ مِنْ ذِكْرِ النَّعَاجِ . وَأَمَّا الْمَغْزُ يَقُولُ : إِذَا فَخَرُوا غَفَرُوا بِالْأَشْيَاءِ ، وَلَا يَلْتَنُونَ إِلَى حَدِّ الْإِبِلِ .

ومن مفاخر الشودان والزنج والحبش مع ما ذكرنا من قصيدة الحقيقطان ، أن جرير بن الخطمي لناهما بنى تنلَبَ^(٢) [قال :

لَا تَطْلُبُنْ خُوْلَةً فِي تَنَلَبٍ فَالزَّيْجُ أَكْرَمُ مِنْهُمْ أَخْوَالًا^(٣)

غَضِبَ سَنِيحُ بْنُ رِيَّاحٍ^(٤) سَارَ^(٥) ، فَهَجَا جَرِيرًا ، وَغَزَّ عَلَيْهِ بِالزَّيْجِ فَقَالَ :

مَا بَالُ كُلْبٍ مِنْ كُلْبٍ سَبْنَا أَنْ لَمْ يُوزَنْ حَاجِبًا وَعِيَالًا^(٦)

(١) ديوان الأخطل . ٥٠ وابن سلام ٤٢٩ واللسان (نق) . وفي الأصل « فَاتَّقِ » ، تحريف .

(٢) ليست في الأصل .

(٣) ديوان جرير ٤٥٣ والبيان ٤ : ٨٢ والكامل ٥١٤ .

(٤) في الكامل ٥١٤ : « رِيَّاحُ بْنُ سَنِيحٍ الزَّنْجِيُّ مَوْلَى بَنِي نَاجِيَةٍ » . ويقال أيضا

رِيَّاحُ بْنُ سَنِيحٍ ، وَسَنِيحُ بْنُ رِيَّاحٍ ، كَمَا فِي اللِّسَانِ (طول) . وَقَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ فِي الْكَامِلِ

٢ : ١٦١ فِي ذِكْرِ فَتَى الزَّيْجِ أَبَامَ مَعْصَبِ بْنِ الزَّيْرِ : « وَحَمَلُوا عَلَيْهِمْ رَجُلًا اسْمُهُ

رِيَّاحٌ . وَيُقَبَّلُ هَبْرَزَنْجِيٌّ . بِحَنَى أَسَدِ الزَّيْجِ » .

(٥) في الأصل « سَارَ » . وَإِهْجَامُهُ كَمَا سَبَّأَتْ . وَفِي الْخَبَرَانِ ١ : ٢٧٠ :

« السَّرَنْجِيُّ » . وَفِي ٧ : ٢٠٥ : « السَّرَارَنْجِيُّ » .

(٦) في الأصل : « تَوَازَنَ » ، صَوَابُهُ فِي الْكَامِلِ وَاللِّسَانِ . بِحَنَى جَرِيرًا =

إنَّ امرأَ جعلَ للرَّاقةَ وابناً
 والزَّيْجُ لو لاقيتهم في صفهم
 فلن ابن عمرو حين رامَ دماهم
 فمسا زيدا بابنه وتنازلوا
 وصرططين خيولهم بفئسانهم
 كان ابن نديَّة فيكم من نجلنا
 وابناً زبيدة : عتقَ وهراسةً
 سلَّ ابن جعفر حين رام بلادنا
 وسليك الأيَّ الهزبرُ إذا عدا
 هذا ابن خازم ابن عجلٍ منهم
 أبناه كلَّ نجيةً لتجبية
 فلننَّ أنجب من كليب غزوةً
 وبنو العجائب مطاعن ومطاعم
 مثل الفرزدق جاور قد قالا^(١)
 لاقيتَ نَمَّ جاججاً أبطلا
 أراى دماح الزَّيْج نَمَّ طولا
 لما دُعوا النَّزالُ نَمَّ زالا^(٢)
 وربطت حوكت شبيهاً وسخالا^(٣)
 وخفانُ التَّصعلُ الأثالا
 ما إن نرى فيكم لهم أشالا
 فرأى بفزوتهم عليه خبالا
 والقرمُ عباسٌ عوكُ فصالا
 غلبَ القبائلُ نبدةً ونوالا
 أشدَّ ترُيبَ عندها الأشبالا
 ولأنت الأُمُّ منهم أخوالا
 عند الشتاء إذا تهبَّ شبالا^(٤)

== وجاء في قول الأخطل (ديوانه ٥٠ وابن سلام ٢٢٩) مخاطباً لجرير :

منتك نفسك أن تكون كدارم أو أن توازن حاجياً وعقالا

وحاجب هو حاجب بن زرارة بن عدس بن زيد بن عبد الله بن دارم ، من رسل الفرزدق ، وكثيراً ما افتخر به . وأما عقالفو جد الفرزدق ، فإن اسمه همام ابن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقاف بن محمد بن سفيان بن جهام بن دارم .

(١) الراقة : الأتان ، وهو لقب لقبها به الفرزدق ، كما في القادوس . قال ،
 بالقاء : أخطأ رأيه وضعف . وفي الأصل : « قالا » تصريف .

(٢) زياد ، هو والد حمص بن زياد بن عمرو .

(٣) الشبه . كيد : جمع شاة . وفي الأصل : « اشأ » تحريف .

(٤) في الأصل : « الحنات » ، ولكن تحقير الجاحظ فيها بعد ، حين أنه

الحجاب .

أما ابن عمرو الذي ذَكَرَ ، فهو حُفص بن زياد بن عمرو التَّمَكِّي ،
كان خليفة أبيه على شُرطة الحجاج ، فقتلَ رباحَ شار الزُّنْجِي^(١)
على القُرَات ، فتوجّه إليه حفص بن زياد فقتله رباحَ وقتل أصحابه
واستباح عسكره .

وأما ابنُ جيفر فهو النُّعْمان بن جَيْفَر بن عُباد بن جَيْفَر بن الجَلْدِي .
كان غزاً بلادَ الزُّنْجِ قَتَلُوهُ وَغَنِمُوا عَسْكَرَهُ .

ثم ذكر أبناء الزُّنْجِيَّات حين نَزَعُوا إلى الزُّنْجِ في البَسَالَةِ والأَنَفَةِ^(٢) .
فذكر خُفَافَ بْنَ نَدْبَةَ ، وَعَبَّاسَ بْنَ مِرْدَاسَ ، وَابْنَ شَدَادَ : عنْدَةَ القَوَارِسِ
وأخاه مَرَّاسَةَ ، ومُؤَلِّكَ بْنَ الشُّكَّةِ . هؤلاء أَسَدُ الرِّجَالِ ، وَأَشَدُّهُمْ قُلُوبًا
وأشجعهم بَأْسًا ، وبهم يُقْرَبُ لِلتَّلِ .

ومنهم : عبد الله بن خازِمِ الشُّكِّي ، وبنو الحُجَابِ : عُيَيْرُ بْنُ الحُجَابِ وإِخْوَتُهُ^(٣) .
وكان أيضاً منهم : الجَحَافُ بْنُ حَكِيمٍ^(٤) .

ظ ٨٢

وهم أيضاً يفتخرون بِرَبَاحِ أَخِي بِلَالٍ وَحَالِهِ وَصَلَاتِهِ .
ويفتخرون بِمَاسِ بْنِ قَهِيرَةٍ^(٥) ، بِدَرِيٍّ اسْتَشْهَدَ يَوْمَ بَرْ مَثُونَةَ ، فَرَأَاهُ
النَّاسُ قَدْ رَفَعَهُ اللهُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَلَيْسَ لَهُ فِي الْأَرْضِ قَبْرٌ .

(١) انظر ما سبق في حواشي ص ١٩٠ .

(٢) في الأصل : « في الأَسَالَةِ والأَنَفَسِ » ، والوجه ما أثبت .

(٣) انظر الاختلاف ٣٠٨ ، ٣٣٩ ، وجمهرة ابن حزم ٣٦٤ ، ٣٠٥ .

(٤) الاختلاف ٣٠٨ ، وجمهرة ابن حزم ٢٦٤ .

(٥) كان مولى لأبي بكر الصديق ، ولما جاء في نسبه التيمس . انظر الإسماعية
٤٤٠٨ ، وقال ابن هشام : عامر بن فيرة مولى من موالى الأسد ، أسود ، اشتراه
أبو بكر رضي الله عنه . منهم . السيرة ١٦٤ . فسكانه أزدى وتيمس .

ومنها : آلُ ياسر^(١) .

قالوا : ومنا النَّدَافُ صاحبُ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ الْحُرِّ . لم يكنْ في الأرضِ أَشدُّ منه : كان يقطع على القافلةِ وحده بما فيها من الحنطة والخمرا .

وكتبويه صاحبُ الخيرةِ بنِ الفِزَرِ ، كان مثلاً في الشجاعة .

ويقولون : ومنا مَرَجُ الأشرم ، غلام أبي بحر القائد ، الذي كان قدِمَ من الشام أيامَ قُتَيْبَةَ بْنِ مَسْلَمٍ ، وكان لا يرَامُ لقاءه ، وأسمه مشهور .

قالوا : ومنا للفول وبَنُوهُ ، وهم من الخول ، ليس في الأرضِ أعرفُ^(٢) ولا أقف ولا أعلمُ بالبادية منهم .

قالوا : ومنا أفاح ، الذي قطع على القوافل بخراسان وحده عشرين سنة .

قالوا : وإنما قتله مالك بن الرِّيب ، لأنه وطئه في جوف الليل وهو سكرانُ خائر^(٣) . والشاهد على قولنا قولُ ابنه :

أَتَاكَ لَوْلَا الشُّكْرِ أَبْقَتْ أَنَّهُ

أَخُو الْوَرْدِ أَوْ يَرِي عَلَى الْأَسَدِ الْوَرْدِ^(٤)

قالوا : ونحن قد ملكنا بلادَ العرب من لَدُنْ الحَبْشَةِ إِلَى مَكَّةَ ،

(١) كان منهم حماد بن ياسر حليف بني مخزوم . وكانت أم حماد ، ولادة لهم يقال لها سمية . الإصابة ٥٩٩٩ .

(٢) في الأصل : « أشرف » .

(٣) يقال هو خائر النفس . أى تعيلها غير طيب ولا نشيط . وذلك من أثر الحمار . في الأصل وسائر النسخ : « حاسر » والوجه ما أثبت .

(٤) الورد : مالهونه الوردية بالفصح ، وهي حمرة تضرب إلى صفرة حسنة .

(١٣ - رسائل الجاسق)

وَجَرَتْ^(١) أَحْكَامُنَا فِي ذَلِكَ أَجْمَع . وَهَزَمْنَا ذَا نَوَاسٍ ، وَقَتَلْنَا أَقْيَالَ حَمِير .
وَأَتَمُّ لَمْ تَلْكَوْا بِلَادَنَا . وَقَدْ قَالَ شَاعِرُكُمْ :

وَحَرَّبَ عُغْدَانًا وَهَدَّمْ سَقَفَهُ

رِيَّاطًا بِأَجْنَادٍ وَصَوْنَةً مَقْصَرًا^(٢)

أُطْلِفَتْ بِهِ الْأَجْبُوشُ لِيَلَّا قَوَّضُوا

بِنَا شَذَّهَ الْأَقْيَالُ فِي سَالِفِ الدَّهْرِ^(٣)

يَجْمَعُ مِنَ الْيَكْسُومِ سُودَ كُنْهَمِ

أَسُودُ الشَّرِّى اجْتَابَتْ جِلْدًا مِنَ النَّخْرِ^(٤)

قَالُوا : وَمَنَا كِبَاجِلًا ، لَمْ يَصُدْ نَهْرُ سِلَاجٍ وَلَا قَاتِلٌ فِي الْمَخَارِجَاتِ^(٥) أَحَدٌ

قَطُّ يَشُبُّهُ .

(١) ن . س : « ومرت » .

(٢) رِيَّاط ، يَجْنِي بِهِ أَرِيَّاطُ الْحَبَشَى . وَفِي السِّيرَةِ ٢٦ : « وَيَنْوُنُ وَسُلَيْمِينَ
وَعُغْدَانٍ مِنْ حَصُونِ الْبَحْنِ الَّتِي هَدَمَ أَرِيَّاطُ ، وَلَمْ يَكُنْ فِي النَّاسِ مِثْلُهَا » . وَانْظُرِ الْإِكْلِيلَ
لِقَهْمَدَايَ ٨ : ٣٩٥ . وَفِي الْأَصْلِ وَسَاءَ النَّسِخُ : « رِيَّاط » ، تَحْرِيفٌ . وَفِي الْيَتِّ
إِنْوَاءٌ ظَاهِرٌ .

(٣) الْأَجْبُوشُ : الْحَبَشَى . وَابْنُ : مَقْصُورُ الْبَنَاءِ . وَفِي ن ، س : « بِنَا شَذَّهَ »
تَحْرِيفٌ .

(٤) الْيَكْسُومُ ، أَرَادَ بِهِمُ الْحَبَشَةَ . وَالْأَصْلُ فِي ذَلِكَ كِنْيَةُ أِبْرَهَةَ الْأَثَرَمِ . إِذْ
كَانَ يَكْنَى أَبَا يَكْسُومٍ ، وَيَكْسُومُ اسْمُ ابْنِهِ كَافٍ فِي التَّنْبِيهِ وَالْإِشْرَافِ مِ ٢٢٩ . وَالسِّيرَةُ
٤٢ . وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ لَيْدٌ ، وَهُوَ يَجْنِي أِبْرَهَةَ ، كَافٍ فِي السَّانِ (كَسَم) :

لَوْ كَانَ حَيٌّ فِي الْحَيَاةِ عِنْدَا فِي الدَّهْرِ الْقَدَمُ أَبُو يَكْسُومِ

(٥) يَجْنِي بِهَا الْمُبَارَزَاتِ . وَهُوَ أَنْ يُخْرِجَ كُلٌّ مِنَ الْفَارِسِينَ لِصَاحِبِهِ فَيُبَارِزُهُ .

قالوا : ومنا الأريمون الذين خرجوا بالقرات أيهم سوار بن عبد الله القاضي ، فاجلوا أهل القررات عن منازلهم ، وقتلوا من أهل الأبله مقتلة عظيمة .
قالوا : ومنا الذي ضرب عتق عيسى بن جعفر بستان ، بتجبل بحراني^(١) ، بعد أن لم يحضر عليه أحد .

قالوا : والناس يجمعون على أنه ليس في الأرض أمة السخاء فيها أعم ، وعليها أغلب من الزنج . وهاتان اخلتان لم توجدا قط إلا في كريم .

وهي أطبع الخلق على الرقص للوزون ، والضرب بالطليل على الإيقاع للوزون ، من غير تاديب ولا تعليم .

وليس في الأرض أحسن خلقاً منهم . وليس في الأرض لغة أخف على اللسان من لغتهم ، ولا في الأرض قوم أذرب ألسنة ، ولا أقل تمطيلاً منهم .

وليس في الأرض قوم إلا وأنت تصيب فيهم الأثر والثأف ، والعتي^(٢) ، ومن في لسانه حبة ، غيرهم .

والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس إلى غروبها ، فلا يستعين بالفتاة ولا بسكتة حتى يفرغ من كلامه .

وليس في الأرض أمة في شدة الأبدان وقوة الأسر أعم منهم فيها^(٣) . وإن الرجل كيرفع الحجر الثقيل الذي تميز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم . وهم شجاء أشداء الأبدان أسخياء . وهذه هي خصال الشرف .

(١) البحراني : نسبة إلى البحرين .

(٢) الأثر : الذي في لسانه عقدة وحبة ، يجعل في كلامه فلا يطاوعه لسانه .

(٣) في الأصل : « فيها » .

[ولزمني^(١)] مع حسن الخلق وقلة الأذى ، لا نراه أبدا إلا طيب النفس ، صَوَّكَ النَّسْ ، حَسَنَ الظَّن . وهذا هو اشرف .
وقد قال ناسٌ : إنهم صاروا أسخياء لضعف عقولهم ، ولتقصير رؤيتهم ، ولجهلهم بالمواقف .

فلنا لم : بنس ما أثبتهم على السخاء والأثرة ، وينبئ في هذا القياس أن يكون أوفر الناس عقلاً وأكثر الناس علماً أبجل الناس بخلًا وأقلهم خيرا .
وقد رأينا الصَّعَالَةَ أبجل من الرُّوم ، والرُّوم أبعد روبةً وأشدُّ عقولا .
وعلى قياس قولكم أن قد كان ينبغي أن تكون الصَّعَالَةُ أسخى أغنى وأسمح أكفأ منهم .

وقد رأينا النساء أضعف من الرجال عقولاً ، والصبيان أضعف عقولا منهم ، وهم أبجل من النساء ، والنساء أضعف عقولاً من الرجال . ولو كان العقل كلما كان أشد كان صاحبه أبجل ، كان ينبغي أن يكون الصبي أكرم الناس خصالاً^(٢) . ولا تعلم في الأرض شراً من صبي^(٣) : هو أكذب الناس وأنهم النايين ، وأشره النايين وأبجل الناس ، وأقل الناس خيراً وأقوى النايين قسوة .

وإنما يخرج الصبي من هذه الخلال أولاً فأولاً ، على قدر ما يزداد من العقل فيزداد من الأفعال الجليّة .

(١) ليست في الأصل .

(٢) ن : « خلا » خلافاً في الأصل .

(٣) انظر البيان ١ : ٤٤٧ والحيوان ٣ : ٤٧١ .

فكيف صار عقله العقل هو سبب سخاء الزنج ، وقد أقررتم لم بالسخاء .
ثم ادعيت ما لا يعرف . وقد وقفناكم على إدماض حجكم في ذلك بالقياس
الصحيح !

وهذا القول يوجب أن يكون الجبان أعقل من الشجاع ، والفادر أعقل
من الوفي . وينبغي أن يكون الجزوع أعقل من الصبور . فهذا ما لا حجة فيه
لكم ، بل ذلك هبة في الناس من الله . والعقل هبة ، وحسن الخلق هبة ،
والسخاء والشجاعة كذلك .

وقد قالت الزنج للعرب : من جعلكم أنكم رأيتونا لكم أكفاه
في الجاهلية في نائكم ، فلما جاء عدل الإسلام رأيتكم ذلك فاسداً ، و [ما^(١)]
بنا الرغبة عنكم^(٢) . مع أن البداية مثلاً ملأى^(٣) ثم قد تزوج ورأس وساد ،
ومتع القمار ، وكفكم من العدو .

قال : وقد ضربتم بنا الأمثال وعقلتم أمر ملوكنا ، وقد متموم في كثير
من المواضع على ملوككم . ولو لم تزوا الفضل لنا في ذلك عليكم لما فسلم .
وقال النضر بن تولب :

أني ملكه ما أني تبتما وأبرهمة الملك الأعظم^(٤)
فرقه على ملوك قومه .

(١) ليست في الأصل .

(٢) في ن : « وبنا الرغبة عنكم » ، وفي س : « وبنت الرغبة عنا »

(٣) في الأصل ون : « ملأ » ، والوجه ما أثبت مطابقتها لتصرف نائرس .

(٤) المبنى ١ : ٥٧٥ وشرح شواهد التنقيح للسيوطي ٧٦ والخزانة ٤ : ٤٣٨ .
وبروي : « فأدركه » .

وقال ليبد بن ربيعة :

لو كان حيٌّ في الحياة مَخْلُودًا في الدهر أدركه أبو بكرٍ^(١)
وهذا شيء من وصف الفضل لم يوصف أحد بمثله .

قالوا : وما^(٢) قدّمتم به ملوكنا على ملوككم قوله^(٣) :

وَأَبْرَهةُ أَرَبْهَة ُ الَّذِي أَتَيْتَهُ قَدْ كَانَ خَلْدٌ فَوْقَ غُرْفَةِ مُؤَكَّلٍ^(٤)
وَأَبْرَهةُ أَرَبْهَة ُ وَأَرَادَ النَّسْوَةَ^(٥) .

و ٨٤

قالوا : ومن اتَّخَذَتْهُ عُنْكَمُ الحَبَشَى^(٦) ، وكان أفصح من المَجَاج . وكان
علماء أهل الشام يأخذون عنه كما أخذ علماء أهل العراق من للتَّجَعِبِ بن تَهَّان .
وكان للتَّجَعِبِ سِنْدِيًّا في أذنه خُرْبَةٌ^(٧) ، وقع إلى البادية وهو صبيٌّ ، فخرج
أفصح من رؤْيَةٍ .

(١) أبو بكر : كنية أبرهة الأشرم الحبشي . انظر ما سبق في حواشي ص
١٩٤ ديوان ليبد ٨٣ . أدركه أي أدرك الخليفة .
(٢) في الأصل : « وما » .

(٣) يعني قول ليبد . انظر ديوانه والإكليل ٨ : ١٠٨ ، ٣١٦٠ والتيجان ٧٦ .
وفي الأصل : « فوالكم » ، تحريف

(٤) مؤكل ، كمرحب : مريض بالجن . كما في معجم البلدان . وانظر صفته في
الإكليل ٨ : ١٠٦ .

(٥) يعني النسوة بين العرب والعجم . وبعد البيت :

والخارث الحراب أَمْسَى قَطْنَا دَارًا أَقَامَ بِهَا وَلَمْ يَتَحَلَّلْ

(٦) انظر القاموس (عكم)

(٧) انظر ما سبق في ص ١٧٧

ولما^(١) قال حَكِيمُ بْنُ عَيَّاشٍ الْكَلْبِيُّ^(٢) :
 لَا تَفْخَرَنَّ بِجَالٍ مِنْ بَنَى أَسَدٍ فَإِنَّ أَكْرَمَ مِنْهَا الزَّمَجَ وَالثَوْبَ
 اعْتَرَضَ عَلَيْهِ^(٣) عُنْكَيمُ الْحَبَشِيُّ ، قَالَ :
 وَيَوْمَ عُثْمَانُ كُنَّا الْأَسَدَ قَدْ عَلِمُوا
 وَيَوْمَ يَنْزِبُ كُنَّا فِجْلَةَ الْعَرَبِ
 وَلِجْلَةَ الْفِيلِ إِذْ طَارَتْ قُلُوبُهُمْ
 وَكَلَّمَهُمْ هَارِبٌ مُسَوِّفٌ عَلَى قَتَبِ
 مَنَا النَّجَاشِيِّ وَذُو الْعُقَيْصِينَ مَهْرَكُمُ
 وَجَدُّ أَرْهَةِ الْحَلِيِّ أَبِي طَلَبٍ^(٤)
 هَبْنِي غَفَسَتْ لِدُنَانٍ تَهَكُّمُهُمْ
 قَتَا لِحَبِيرٍ وَالْقَوَالِ فِي التَّبِ
 حَمَزَةُ نَجْمَتْ مِنْ كُلِّ عَمْرِيَّةٍ
 بَجَعَ الثُّبَيْكَةُ نُونُ الزَّاخِرِ الْهَجَبِ^(٥)

(١) في الأصل : د ظا .

(٢) ترجم له ياقوت في معجمه ١٠ : ٢٤٧ وذكر أنه كان بينه وبين الكلبين
 ابن زيد الأسدي منافرة .

(٣) اعترض عليه . أى دخل معه في الشعر . ثمنا ماقده .

(٤) ذو القيسين . يعنى به الإسكندر القدوني الملقب ببنى القرنين . كان له في
 رأسه شبه قرنين . أى عقبتين . والنقص : ضرب من شعر الشعر . وكان الروم
 أصهارا هرب .

(٥) سيأتى في تفسير الجاحظ أن حمير كانت حمارة وعمره . كذا وردت في
 الأصل . وسأتى في ص ٢٠٢ برسم ه همزة ه والنون : السمك . واحده نونة .
 وهو الحوت أيضا

عُمدان : حصنٌ كان ينزله الملكُ الذي يكون على اليمَن ، وكان عجيباً ،
فدامسكت الحبشةُ اليمَنَ أخربتهُ إلّا بقايا هدمها عثمانُ بنُ عفَّانَ رضى الله عنه
فى الإسلام . وقال : « ينبغي لما أثر الجاهليةُ أن تُمَحَّى » . وكان فى الحصن
مصنعةٌ عليها قبةٌ من يَلْتَقُ ، وفيها يقول خلفُ الأحمر :

ومصنعةُ الطُّلقِ أودى بها عَوادى الأحايِش بالصَّيْدِ^(١)
وفىها يقول قدامةُ حكيمُ للشرق^(٢) ، وكان صاحبَ كسياه :

فأوقد فيها نارهَ ولو أنها أَظلمت كعمر الدهر لم تنصرم
لأنَّ الطُّلُقَ لو أوقِدَ عليه ألفَ عامٍ لم يسخن . وبه يتعلَّى السَّفاطون إذا
أرادوا الدُّخولَ فى النار .

٨٤ ظ

وقال لبيد :

أصاح ترى بُريقاً هبَّ وهما كيمباح الشَّيطة فى الدُّبَالِ
أريقَتْ له وأنجدَ بمدَّه وأصحابى على شَمبِ الرِّحالِ
بُضَى ربابه فى المزن حُبّاً قيلماً بالجُراب والإللالِ^(٣)

(١) المصنعة : شبه صهرج يتخذ لواء . والطلق : بالسكر وبالتح : حجر
يراق يقتضى صفائح إذا دق . والصيدين : الملك . قل رؤية :

إني إذا استعلق باب الصيدين لم أنه إذ قلت يوماً وصنى

(٢) فى الأصل ومأثر النسخ : « قدامة بن حكيم الشرق » ، وأثبت على الحيوان
ه : ٩٥ . وقد يكون قدامة هذا جد قدامة بن جعفر بن قدامة .

(٣) فى الأصل : « دبلوة » تحريف ، صوابه فى ديوان لبيد ١٢٤ . والرباب :
السحاب الذى تراه كأنه متدل ، كأنه أعناق النعام . والإلال : جمع آلة ، وهى
الحربة . وفى الأصل : « وبالآلى » ، صوابه فى الدير

وقال ذلك لبيدٌ لأنهم إذا أقبلوا بحراهم ورماحهم وقبيصهم وسبوحهم ،
ورياتهم ، وخيولهم وفيولهم ، مع سواد ألوانهم وضخم أبدانهم - رأيتَ هؤلاء
لم تُرَ منه ولم تسع به ، ولم تتوهمه .
وأنا قوله :

• ويوم يثرب كئنا فحللة العرب •

فإنَّ مُسَرَفَ بن عُقبة الرمي^(١)، حين كان أباحَ للدينة ، زعموا أنه قد كان
هناك أمر قبيح من السودان والجند ، وفي ذلك يقول شاعر من شعراء مضر :
فأنل مُسَرَفَ الرمي عنكم غداه أباح للجند التذاري^(٢)
فأزجكم على خنق زنوج وفز الشأم كالأسد الضواري^(٣)
وذافع وهريز والقرس عنكم ورأس الملبش يحكم في دمار^(٤)
فأفسد نلكم بسواد لونٍ وأير مثل غرمول الحمار

(١) مسرف لقب له ، لقب به لما كان من إسرائفه في سلك الدماء وانتهاك حرمة
الدينة وانتهابها في وقعة الحرة سنة ٦٣ حين بعث بجيش إلى المدينة يزيد بن معاوية
وأمره بهتك حرمتها . واسمه مسلم بن عقبة ، وبهذا الصورة ورد في البيان ٣ : ١٣١ .
وانظر الطبري ٥ : ٧ - ١٢ والنجوم الزاهرة ١ : ١٦٠ - ١٦٢ . توفي مسرف
أو مسلم سنة ٦٤ . وذكر القهي أنه أدرك النبي صلى الله عليه وسلم .
(٢) في النجوم الزاهرة أنه قد انقض في وقعة الحرة ألق عذراء . والتذاري
بكسر الراء ، كما يختصه الشعر ، وهي لغة في جمع عذراء . وذلها التذاري
بفتح الراء .

(٣) فز الرجل يمز فزارة وفزوزة : نوقة

(٤) وهريز : قائد فارسي أرسله كسرى أنو شروان مع سيف بن ذي يزن الجعري ،
منجدا له على الحبشة حين غلبت على اليمن . وذمار : كغفظام وسحاب : بلد باليمن
على مرحلتين من صنعاء .

فذكر إباحتهم الخبش اليمين كما ذكر إباحتهم مسرف المدينة .
وأما قوله :

حَمَارَةٌ جُمِعَتْ مِنْ كُلِّ مَحْزُوءَةٍ جَمْعُ الشُّبُكَةِ نَوْنُ الزَّائِرِ الْمَلْجَبِ (١)
فإنه ذهب إلى ما تقول الزوارة أن محير كانت حَمَارَةٌ .
وأما الشُّبُكَةُ فأراد الشبكة .

وقال الشردان : فهذا النضل فينا ، ولم يصل النبي صلى الله عليه وسلم قط
إلا على جنازة أو قبر ، إلا النجاشي فإنه صلى عليه وهو بالمدينة وقبر
النجاشي بالحِمْصَة .

قالوا : والنجاشي هو كان زَوْجَ أُمِّ حَبِيبَةَ بِنْتِ أَبِي سَفْيَانَ مِنَ النَّبِيِّ
صلى الله عليه وسلم ، ودعا خالد بن سعيد (٢) فجعله وليها ، وأصدق عن النبي
صلى الله عليه وسلم أربع مائة دينار (٣) .

٨٥ و

قالوا : وثلاثة أشياء جاءكم من قَبَلْنَا . منها الفالية ، وهي أطيب الطيب
وأغزره وأكرمته . ومنها النش وهو أسنن للنساء وأضون للحرَم . ومنها
للصحب ، وهو أوقى لما فيه وأحصن له ، وأبعى وأهيا .

(١) في الأصل : « حَمَارَةٌ » : وكذا في التفسير معه . وانظر ما سبق في
ص ١٩٩ .

(٢) هو خالد بن سعيد بن العاصي ، رابع السليين أو خامسهم . بعثه رسول الله
إلى مكة الحبيشة في رهط من قريش . السيرة ٢٠٩ والإصابة ٢٩٦٣ .

(٣) كانت أم حبيبة بنت أبي سفيان بن حرب - واسمها رمة - زوجة لعبد الله
ابن جعفي ، ولدت منه حبيبة وهاجرت معه إلى الحبيشة ، فتصر زوجها عبد الله =

قالوا : ونحن أهول في الصدور وأملأ للعيون ، كما أن السودة أهول في العيون وأملأ للصدور من البيضة^(١) ، وكأن الليل أهول من النهار .
قالوا : والسواد أبداً أهول . وإن العرب لتصف الإبل فضول : الصهب سرع ، والخمر غزر ، والشود بغي^(٢) . فهذا في الإبل .
قالوا : ودُم الخيل أبهى وأقوى ، ولتبر الشود أحسن وأبهى ، وجلودها أتمن وأنع وأقى . والخمر الشود أتمن وأحسن وأقوى . وسود الشاء أدسم ألباناً وأكثر زبدًا ، والذئب أغزر من الخمر^(٣) .
وكل جيل وكل حجر إذا كان أسود كان أصاب صلابة وأشد يوبة . والأشد الأسود لا يقوم له شيء .

وليس من الثمر شيء أحلى حلاوة من الأسود ، ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر . والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود المجذوع .

== وارتد عن الإسلام . فبث فيها رسول الله إلى التجاني عمرو بن أمية الضمري نطقها عليه التجاني . الإصابة ٤٣٢ من قسم النساء والجرة ١٤٤ ، ٨٨٣ .

(١) كان السواد شعار العباسيين السياسي . وقد بدأ الفريد في سنة ١٢٩ أي قبل قيام الدولة العباسية بثلاث سنوات . الطبري ٩ : ٨٢ وفي سنة ٢٠٢ جل الثامون على بن موسى بن جعفر ولي عهده وأمر جده وأصحابه بطرح السواد وليس الخضر في الأتية والقلانس والأعلام . الطبري ١٠ : ٣٤٣ . وكان هذا الأمر من أسباب الثورة على الثامون والانقسام في طوائف الموالين للعباسيين . وفي تلك السنة أيضاً وثب أخو أبي السرايا بالكوفة فيض . فبم البيضة . الطبري ١٠ : ٢٤٥ . وس البيضة أيضاً أصحاب القنع الكندي انظر صحاح الجوهري (فيض) .

(٢) انظر مثيل هذا القول لحيف الحانم . وكان من آيد الناس أي أحذقهم برعية الإبل . في اللسان (بها ١٠٧) .

(٣) الدبس : جمع أدبس ودبسا . وهو مالونه الحمبة : حمرة مشربة سوادا .

وجاء : « عليكم بالسواد الأعظم ^(١) » . وقال الأنصاري :

أدين وما دني على بمنـرـم

ولكن على الشم الطوال القسروج ^(٢)

على كل خـوـار كأن جنوعها

طـيـف بـقـار أو بدم ذبايح ^(٣)

قالوا : وأحسن ^(٤) الخضرة ما ضلع السواد . قال الله جل وعلا :

{ ومن ذنوبها جنتان ^(٥) } ، ثم قال لنا وصفها وشوق إليها :

{ مدحائتان ^(٦) } قال ابن عباس : خضراوان من الرسى سوداوان .

وليس في الأرض عود أحسن خشباً ولا أغلى ثمناً ، ولا أثقل وزناً

ولا أسلم من القوادح ^(٧) ، ولا أجدر أن ينسب فيه الخط من الآبنوس ^(٨) .

ولقد بلغ من اكتنازه والثناء وملوسه وشدة تداخله ، أنه يرطب في الماء

(١) في اللسان (سود ٢٦١) . « وفي الحديث : إذا رأيت الاختلاف لطيفكم

بالسواد الأعظم » .

(٢) وكذا في اللسان (خور) : وهو سويد بن الصامت الصحابي الجليل .

انظر الآتي ٣٦١ والافتصاب ٣٧٥ واللسان (قرح) والإصابة ٣٥٩٢ .

(٣) الشم : العاليت ، يعني النخل . والقراوح : جمع قرواح ، وهو الأجرد

الذي قد عذب كره .

(٤) في اللسان : « ونخلة حوارة : غزيرة الحل » . وروى : « أو بحمأة

مائع » .

(٥) في الأصل : « وحسن » .

(٦) الآية ٦٤ من سورة الرحمن . (٧) الآية ٦٤ من سورة الرحمن .

(٨) جمع قدح ، وهو أكل يقع في الشجرة أو تصدع .

(٩) الآبنوس . ضم الباء وكسرها : شجر ينبت في الحبشة والمند ، خشبه

أسود صلب . دخل انظر للمعجم الوسيط .

دونَ جميعِ العِبدانِ والغُشبِ . وتحدّ غلبَ بذلكَ بعضَ الحجارة ؛ إذ صارَ
يرسُبُ وذلكَ الحجرُ لا يرسُبُ .

والإنسانُ أحسنُ ما يكونُ في التّينِ مادامَ أسودَ الشعرِ . وكذلكَ
شعورُهم في البتّةِ .

٨٥ ظ

وأكرمُ ما في الإنسانِ حدّقه ؛ وهما سوداوان . وأكرمُ الأكلالِ
الإميدُ ، وهو أسود . ولذلك جاء أنَّهُ اللهُ يُدخلُ جميعَ المؤمنين البتّةَ جُرداً
مُردّاً مكحّلين .

وأضع ما في الإنسانِ له كبدُهُ التي بها تَعلجُ مَيدَنُهُ ، وينهضمُ طمانُهُ ،
وبصلاحِ ذكِّ ظَمَ بدَنُهُ ؛ والكبدُ سوداءُ .

وأغسُ ما في الإنسانِ وأعزُّه سَريدهُ قلبه ، وهى عَلقَةُ سوداءِ نَكُونُ
في جوفِ فؤاده ، تقومُ في القلبِ مقامَ الدِّماغِ من الرأسِ .

ومن أطيبِ ما في المرأةِ وأشبهُ شَفَتَها لِقْطِيلِ ، وأحسنُ ما يكونانِ
إذا حارعتا السَّوادَ .

وقال ذو الرُّمّةِ :

لَتَبَّاهُ فِي شَفَتَيْهَا حُوءٌ لَمَسَ فِي الثَّنَاتِ وَفِي أُنْيَاهَا شَنْبٌ^(١)
وأطيبُ الظِّلِّ وأبردُهُ ما كانَ أسودَ . وقال الرازي :

• سود غرايب كظلالِ الحجرِ •

(١) دوان ذى الرمة • والسان (شنب) .

وقال حميد بن ثور^(١) :

نَلَقْنَا إِلَى كَهْفٍ وَظَلَّتْ رَكَبُنَا

إِلَى مَسْكِنَاتٍ لَمَنْ غَرُوبُ

إِلَى شَجَرٍ أَمَى الظَّلَالِ كَأَنَّهُ

رَوَاهِبُ أَحْرَمَنْ الشَّرَابِ مُسَدَّوْبُ^(٢)

وجعل الله القليل سكناً وجماعاً ، والنهار للكسب والسكدة .

والقدي يدك على أن السواد في وجه آخر مقرون بالشدّة والصرامة ،
والتهيج والحركة ، انتشار الحيات والقارب وشدّة هجومها بالليل ، وهيج
التيّاع واستكلابها بالليل . وتحرك الأوجاع وظهور النيلان ، هذه
كلها بالليل .

قال : وأشبها القليل من هذا الوجه .

قالوا : وأبلغ ما تكون القائلة وأشفاهما النفس ، وأسرع لجيشها إذا
أردتها ، وأبطأ لدهابها إذا كرهتها ، ما كان منها في الظلمة ، عند إسبال
الستور وإغلاق الأبواب .

قالوا : وليس لون أرسخ في جوهره وأثبت في حسنه من سواد .

وقد جرى للثل في تبعيد الشيء : « لا ترى ذلك حتى يبيض القار ،
وحثي يشيب الغراب »^(٣) .

(١) في ديوانه ٥٧ واللسان (كفف . حرم . لا) والحيوان ٥ : ٥٩٤ .

(٢) عذوب : جمع غائب ، وهو القدي لا يأكل ولا يشرب .

(٣) الحيوان ٥ : ٥٢٨ .

وهو القرض التلاء^(١) عند الحكماء .

وأكرم العطر اليك والتميز ، وما أسودان .

وأصلب الأحجار سودها . وقال أبو دهل الجعفي يمدح الأزرق^{٨٦} و
الخزومي ، وهو عبد الله بن عبد شمس بن النيرة^(٢) :

فإن شكرك عندي لا اغضاه له مدام بالجزع من لبتان جلود
أنت اللدح والنفلى به غمنا إذ لا يعاتب صغر الجندل السود^(٣)

والعرب تغفر بسواد الآون . فإن قال : فعلام ذلك وهي تقول : فلان
هيجان ، وأزهر وأبيض ، وأغر ؟ قلنا : ليس تريد بهذا بياض الجلد ، إنما تريد
به كرم الجوهر وقائه . وقد غفرت خضر محارب بأنها سود ، والسود عند
العرب الغفر^(٤) . وقال الشماخ بن ضرار :

وراحت رزاحا من زردود فنازعت

زواله جلابا من الليل أخضر^(٥)

(١) في الأصل : ه للاء ه . صوابه من تصحيح ن . س .

(٢) في جمهرة ابن حزم ١٤٨ - ١٤٩ أنه عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد الله
ابن الوليد بن عبد شمس بن النيرة . ونحوه في الشعراء ٥٩٦ . وصحاح الأغانى ٦ : ١٥٧
ه ابن الأزرق ه . وهو عنه عبد الله بن عبد الرحمن بن الوليد بن عبد شمس بن النيرة .

(٣) كذا . وفي الأغانى ٦ : ١٥٨ : ه إذ لا تمدح صم الجندل ه .

(٤) الحيدان ٣ : ٢٤٧ .

(٥) ديوان النجاشي ٣١ والحيدان ٣ : ٢٤٦

وقال الرازي :

حَتَّى اتَّضَاءِ الشُّبْحِ مِنْ لَيْلِ خَفِرٍ
مَثَلُ اتَّضَاءِ الْبَطْلِ الْيَفِّ الذَّكَرِ^(١)

وَمِثْلُونِ الْحَدِيدِ أَخْضَرُ لِأَنَّهُ صُلْبٌ^(٢) ؛ لِأَنَّ الْأَخْضَرَ أَسْوَدُ^(٣) .

وقال الحارث بن حلزة :

إِذْ رَفَعْنَا الْجَنَالَ مِنْ سَفِّ الْبَحْرِ رَيْنِ سِرّاً حَتَّى نَهَاها الْخِصَاءُ
فَهَزَمْنَا جَمْعَ ابْنِ أُمِّ قَطَامٍ وَلَهُ فَارَسِيَّةٌ خَضِرَاءُ^(٤)

وقال النعماني وهو ينخر بأثته من الخضر :

فِي خُضْرٍ قَبِيصٍ نَمَانِي كُلُّ ذِي فَخْرٍ

صَمِيرٍ الْقِسَادَةِ أَبِي الضَّمِّ شَعَائِعٍ

وبنو النيرة خضر بنو مخزوم . قال عمر بن عبد الله بن أبي ربيعة بن النيرة

المخزومي - ويقال إنها للفضل بن العباس الأديبي^(٥) :

وَأَنَا الْأَخْضَرُ مَنْ يَمُرُّفِي أَخْضَرُ الْجِلْدَةِ فِي بَيْتِ الْعَرَبِ

مَنْ يَسَاجِلُنِي يُسَاجِلُ مَاجِداً يَمْلَأُ الدَّلْوَ إِلَى عَقْدِ الْكَرْبِ

(١) في الحيوان ٣ : ٢٤٦ : ٧ حتى اتضاء .

(٢) وجه الكلام . مع أنه صلب . وفي الحيوان ٣ : ٢٤٦ : ٧ وأصل الخضر
إنما هولون الريمان والبقول ، ثم جعلوا يدُ الحديد أخضر والسياء خضراء .

(٣) في الأصل : « لأنه » . والوجه ما أثبت .

(٤) في الأصل : « ابن أم قضياع » . وانظر المطلقات ٤٩٦ بشرح ابن الأنباري .

وإبن أم قطام هو حبر بن الحارث والد امرئ القيس

(٥) انظر الحيوان ٣ : ٢٤٧ .

وخضر غتان بنو جفنة للوك : قال النشائي :

إِنْ انْخَضَرَمَ الْخَضِرُ الَّذِينَ زَدُوا أَهْلَ الْبَرَيْسِ نَعَانِي مِنْهُمْ الْحَكَمُ^(١) ٨٦ ظ
وقد ذكر حسان أو غيره الخضر من بني عُكَيْم^(٢) حين قال :

وَلَسْتُ مِنْ بَنِي هَانِمٍ فِي بَيْتٍ مَكْرُمٍ
وَلَا بَنِي جَمَحٍ الْخَضِرِ الْجَلَالِ عَمِيدٍ^(٣)

قالوا : وكان وفد عبد الطالب القشرة الشاذة ذلك^(٤) ضُخْمًا^(٥) ، نظر إليهم
عامر بن القليل يطوفون كأنهم جمال جُونٍ ، فقال : بهؤلاء تمنع الشذاة .

وكان عبد الله بن عباس أديمَ ضُخْمًا . وآل أبي طالب أشرف الخلق ، وهم
سود وأديم ودلم .

(١) الخضارمة : جمع خضرم ، بكسر الخاء والراء ، وهو الصيد الجول
وفي الجيوان : ه الذين غدوا ه . والبريس : اسم نهر دمشق حيث ملك القاسنة .
وفي الجيوان : ه غان ه .

(٢) في القاموس (عك) : ه وكزير : اسم ه .

(٣) البيت من أبيات في ديوان حسان ١٢٣ - ١٣٧ هجر بهاء سابع بن عباس
النبسي ، أولها :

لو كنت من هانم أو من بني أسد أو عبد شمس أو أصحاب القوا الصيد
وصدرة فيه :

ه أو في السرارة من تيم رخصت بهم ه

(٤) اديم : جمع أديم ، وهو التشديد السود .

(٥) الضخم : جمع الأضخم . وفي اللسان : ه قل ابن سبده : وأما قول أهل
القة أضخم ، فالذي أنصروه في ذلك أنهم لم يتحروا بالمقابلة في هذا البيت فجوه
من باب أحمر . قال : وبذلك على المقابلة أنهم لم يحشوا به في بيت ولا مثل مجرداً
من اللام ، فبأعناء من مشهور أعمارهم على أن الذي حكاه أهل القة لا يتبع ه .

قالوا : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « بُعثت إلى الأحمر والأسود » .

وقد علت أنه لا يُقال للزنج والحبشة والثوبة بيض ولا أحر ، وليس لهم اسم إلا الشود .

وقد علمنا أن الله عز وجل بعث نبيّه [إلى الناس ^(١)] كافة ، وإلى العرب والمعجم جميعاً . فإذا قال : « بُعثت إلى الأحمر والأسود » ولنا عندهم حرّ ولا بيض ، فقد بُعث إلينا ؛ فإنما عنا ^(٢) بقوله « الأسود » . ولا يخرج الناس من هذين الاسمين ، فإن كانت العرب من الأحمر ، فقد دخلت في عداد الروم والعقابلة ، وفارس وخراسان . وإن كانت من الشود ، فقد اشتمت لما هذا الاسم من اسمنا . وإنما قيل لهم وهم آدم وسمّر سودّ ، حين دخلوا معنا في جملتنا ، كما يجعل العربُ الإناث من الذكور ذكورا .

وإذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يعلم أن الزنج والحبشة والثوبة ليسوا بحمر ولا بيض ، وأنهم سودّ ، وقد بعث الله تعالى إلى الأسود والأحمر ، فقد جَمَعْنَا والعرب سواء ، ونكون نحن الشودّ دونهم . فإن كان اسمُ أودّ وقع علينا ففحق الشودان الخُلص ، والعربُ أشباه الخُلص . فنحن المتقدّمون في الدعوة . وإذا كان اسمهم محمولا على اسمنا ؛ إذ كنّا وحدنا يقال لنا سودّ ، ولا يقال لهم سودّ إلا أن يكونوا معنا .

قالوا : وأتمّ ترون كثرة العدد مجدا ، ونحن أكثر الناس عدداً وولداً .

(١) رضع التكلفة يرضى في الأصل .

(٢) في الأصل : « عنا » . ووجه ما أدلت من ن . س .

قالوا : ونحن صيفان : الثمل والكلاب^(١) .

قالوا : ولو عدتكم بالثمل العرب كلها لأربت عليها ، فكيف إذا قرنت
إليها الكلاب ؟ ثم كيف إذا ضممت إليها الحبشة والنوبة وفزان ومرو
وزغاوة^(٢) وغير ذلك من أنواع السودان ؟

ولست فحطان من عدنان في شيء . ونحن بالحبشة أشبه ، وأرحامنا بهم
أسنى من عدنان بقطان . وإن ذكرتكم اختلاف اللغات ؛ فإن لغة عجم
هوازن^(٣) ، وقد تختلف اللغات والأصل واحد ، وقد تتفق والتجبر يختلف .
ومن دخل أوائل خراسان وأواخرها ، وأوائل الجبال وفارس وأواخرها ،
علم أن اللغات قد تختلف لاختلاف طبائع البلدان والأصل واحد .

قالوا : وأنت لم تتروا الزنج الذين هم الزنج قط ، وإنما رأيتم السبي يحيى
من سواحل قبلة^(٤) وغياضها وأوديتها ، ومن مهننا وسفلتنا وعبيدنا ، وليس
لأهل قبلة جمال ولا عقول . وقبلة : اسم للوضع الذي ترفون منه سفنكم
إلى ساحله . لأن الزنج ضربان : قبلة والتعوبة^(٥) ، كما أن للعرب ضربان :

(١) انظر الحيوان ٤ : ٣٥ والبيان ٣ : ٥١ .

(٢) في القاموس : « وزغاوة . بالضم : جنس من السودان » . وانظر التيه والإشراف ١٩١ .

(٣) في الكلام قسم ، ولعل تمت : « على خلاف لغة فصحاء الحباز » .
وانظر ما سبق في مناقب الترك ص ١٠ .

(٤) في التيه والإشراف ٥١ : « وغرب من جبل القمر هذا كثير من أحوال
الزنج وما كنهم ، إلى أن يصل ذلك بلاد سفلة الزنج وجزيرة فبلو . وأهلها
مسكون » .

(٥) انظر البيان ٣ : ٥١ .

فَعَطَّانٌ وَعَدَنَانٌ . وَأَنْتُمْ لَمْ تَزُوا مِنْ أَهْلِ لَنْجُوبَةٍ أَحَدًا قَطُّ ، لَامِنْ الشَّوَاهِلِ
وَلَا مِنْ أَهْلِ الْجُوفِ ^(١) ، وَلَوْ رَأَيْتُمْ نَسَبَهُ الْجَلالَ وَالْكَمالَ .

فَإِنْ قُلْتُمْ : وَكَيْفَ وَغَنِمَ لَمْ تَزِنْجِيًّا قَطُّ لَهُ عَقْلٌ صَبِيٌّ أَوْ امْرَأَةٌ ؟

قُلْنَا لَكُمْ : وَمَتَى رَأَيْتُمْ مِنْ سَبَى السُّنْدِ وَالْمَهْدِ قَوْمًا لَهُمْ عَقُولٌ وَعِلْمٌ وَأَدَبٌ
وَأَخْلَاقٌ حَتَّى تَطْلُبُوا ذَلِكَ فِيمَا سَقَطَ إِلَيْكُمْ مِنَ الزَّيْجِ . وَقَدْ تَطْلُونُ مَا فِي الْمَهْدِ
مِنَ الْحَسَبِ وَعِلْمَ النُّجُومِ وَأَسْرَارَ الطَّبِّ ، وَالنَّحْرُوطِ وَالنَّجَرِ ، وَالتَّصَاوِيرِ
وَالصَّنَاعَاتِ الْكَثِيرَةِ الْعَجِيبَةِ ، فَكَيْفَ لَمْ يَثْقِقْ لَكُمْ مَعَ كَثْرَةِ مَا سَبَيْتُمْ مِنْهُمْ
وَاحِدٌ عَلَى هَذِهِ الصَّفَةِ ، أَوْ يُشْرَ هَذِهِ الصَّفَةِ ؟

فَإِنْ قُلْتُمْ : أَهْلُ الشَّرَفِ وَالثَقَلِ وَالْعِلْمِ إِنَّمَا يَنْزِلُونَ الْوَاسِطَةَ ، وَجَرِبَ دَارُ
الْثَلَاثِ ، وَهَؤُلَاءِ حَاشِيَةٌ ^(٢) وَأَعْلَاجٌ وَأَكْرَةٌ ، وَنَزَالُ الشَّوَاهِلِ وَالْأَجَامِ
وَالْفَيُوضِ ^(٣) وَالْجَزَائِرِ ، مِنْ أَكْثَرِ وَمِنْ صَيَادِ .

قُلْنَا : وَذَلِكَ مَنْ رَأَيْتُمْ وَمَنْ لَمْ ^(٤) تَزُوا مِنَّا . وَجَوَابُنَا هُوَ جَوَابُكُمْ لَنَا .

ظَلَمُوا : وَلَوْ أَنَّ الزَّيْجِيَّ وَالزَّيْجِيَّةَ إِذَا تَنَاحَا بَقِيَتْ أَوْلَادُهُمَا بَعْدَ الْحَيْضِ
وَالْإِحْتِلَامِ بِبِلَادِ الْمَرَاقِ ، كَانُوا قَدْ غَلَبُوا عَلَى الدَّارِ بِالْمَدَدِ وَاتَّجَلَدَ ، وَالْعِلْمِ
وَالْتَدَبِيرِ ، وَاسْكَنَ وَلَدُ الْمَهْدِيِّ وَالْمَهْدِيَّةِ ، وَالرُّومِيُّ وَالرُّومِيَّةُ ، وَالْغُرَّاسَانِيَّ
وَالْغُرَّاسَانِيَّةُ ، يَمْتَقِنُونَ فِيكُمْ وَفِي بِلَادِكُمْ كَيْفَاءَ آبَائِهِمْ وَأُمَّهَاتِهِمْ ، وَلَا يَبْقَى وَلَدٌ

٨٧ ظ

(١) فِي الْأَمَلِ : « الْحُوفُ » . سَوَابُهُ بِالْجِيمِ كَمَا صَحَّحَ فِي ن . س .

(٢) فِي الْأَمَلِ : « حَاشِيَتُهُ » .

(٣) فِي الْأَمَلِ : « وَالْفَيُوضُ » .

(٤) فِي الْأَمَلِ : « وَمَلَمَ » .

الزنجيين بعد الخيض والاحتلام . على أن لا تُصَبُّ في عشرة آلاف ، واحدة يبلغ ما ذكرناه ، إلا أن يضرب الزنجي في غير الزنجيات ، والزنجية في غير الزنج . ولولا أن الزنجي والزنجية قليلا ما يردان^(١) من الغرائب والغرائب ، لسكننا على حال^(٢) . نرى لرجال الزنج نكاحا كثيرا . ولكن الزنجية لا تنكح . تنشط لغير الزنجي .

قالوا : وكذلك البيضاء منكم ، لا يكادون يشطون لطلب النسل من الزنجيات . والزنجية أيضا من الزنجي^(٣) أسرع لِقائهما منها من الأبيض .

قالوا : وأتم لا تنكحون تعدون ثمن ولده من صلبه مائة ولده إلا أن يكون خليفة^(٤) ، فيكون ذلك لكثرة الطروقة^(٥) ، ولا ينجون ذلك في سائرهم . والزنج لا تنكح هذا ولا تستعظه ؛ لكثرة في بلادهم ، لأن الزنجية تلد نحوًا من خمسين بطنًا في نحو من خمسين عاما ، في كل بطن اثنين ، فيكون ذلك أكثر من تسعين . لأنه يقال إن النساء لا يلدن إذا بانن السنين إلا ما يحكى عن نساء قريش خاصة .

والزنج أحرم من خلق الله على نسله ، ونسأله لهم كنكح ، وهن أطيب من غيرهن .

قالوا : فأتأملوا قولنا واحتجاجنا ؛ فإن قدر ربنا الأخبار وقُلنا الأشعار ، وعرفناكم وعرفنا الأم .

(١) حوت في ن ، س إلى : يلدان .

(٢) ن ، س : على كل حال .

(٣) في الأصل وسائر النسخ : من الزنج .

(٤) انظر جمهرة أنساب العرب لابن حزم ٤٠ : ٩٨ .

(٥) طروقة العمل : أثناء . والطروقة : الزوجة أيضا .

وقد كان الغرز قد أعلم الناس بالنساء ، وكان قد جرب الأجناس كلها فلم يجد مثلهن ، ولذلك تزوج أم مكتبة الزنجية وأقامَ عليها ، وترك النساء ، للذي وجدَ عندها . وفي ذلك يقول :

يَا رَبَّ خَوِّدْ مِنْ بَنَاتِ الزَّجَجِ تَشَى بِقُشُورِ شَدِيدِ الوَحَجِ
• أَخْتَمَ مِثْلَ الْقَدَحِ الْمَطْنَجِ •

وكانت دنائير بنت كعبية الزنبي عند أضي سليم ، وكانت شديدة السوداء ، فرآها يوما وقد خضبت يديها بالحناء ، واكتحل بالإناء ، فقال :
نخضب كفاً بكت من زندها فتغضب الإناء من سودها^(١)
كانها والكحل في مرودها^(٢) تكحل عينها ببعض جلدها
فلما سمعت ذلك قالت :

وَأَبْجُحْ مِنْ لَوْنِي سَوَادَ مَجَانِيهِ عَلَى بَشَرٍ كَالْقَلْبِ أَوْ هُوَ أَنْصَحُ^(٣)
فَسُوهُ أَسْوَدَ ، وَصَاحَ بِهِ الْعَبْيَانُ فَطَلَّقَهَا . وقد كان صبيحة غرسها قال :
• إِنَّ الدُّنَايِرَ تَكُونُ سُودًا^(٤) •

(١) ديوانه ١٤٣ والأغانى ١٩ : ٢١ .

(٢) نسب هذا الرجز في الأغانى ١٨ : ٣٦ إلى دعلج الخزاعي . وفي الأغانى :
• قطعت • بدل • بكت • . وكلامها بمعنى .

(٣) للرواد ، بتشديد الـ دال لثمة هو الرواد الذي يكحل به . وانظر لأمثال
هذا التشديد مجالى مطلب ٦٠٢ - ٦٠٤ .

(٤) البئر : جمع بئرة . وهو ظاهر الجلد . والقلب ، بالفتح : جدار البئر .

(٥) في ن . س . : « سودا » . ولكن هكذا ضبطت « سودا » في الأمن
بضم السين وبدون المعزة . وهو شطر من الأرجاز .

قالت :

بياض الرأس أبيض من سوادى وشيب الحاجبين هو القصور
فأسك عنها حيناً ثم عاودها ، فلما فضحت طلقها .

قالوا : وإن نظر البيضان إلى نساء السودان بغير عين الشهوة فكذلك
السودان في نساء البيضان . على أن الشهوات عادات وأكثرها تقليد . من
ذلك أن أهل البصرة أشهى النساء عندهم الهنديات وبنات الهنديات والأعوار .
والذين أشهى النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات . وأهل الشام أشهى
النساء عندهم الروميات وبنات الروميات . وكل قوم فإنما يشتهون جنسهم
وسببهم . إلا الشاذ ، وليس على الشاذ قياس .

قالوا : وأطيب^(١) الأفواه نكهة ، وأشدّها عذوبة ، وأكثرها ريقاً ،
أفواه الزنج . والكلاب من بين السباع أطيب أفواهها منها^(٢) .

قالوا : والسواد ملاوم^(٣) قمين^(٤) ، وإذا اعتلت خفيف عليها لم يكن لها
حذاء خير من القمود في الظلّة وفي يد صاحبها خرقة سوداء . فالسواد للإبصار ،
وغير ما في الإسمان البصر .

وقالوا : والسودان أكثر من البيضاء ، لأن أكثر ما يند البيطان
فارس والجبال وخراسان ، والروم والصقالبة وفرنجية^(٥) والأبر ، وشبّا

(١) سقطت الواو في كل من ن ، س . خلافاً لما في الأسن .

(٢) انظر الحيران ٣ : ١٥٤ ، ١٧٦ ، ٥ : ٣٣٧ .

(٣) كذا في أسدون . س . ويبدو أنه من اللغة للوحة التي شاعت قديماً .
وفي اللسان : « ومنه قولهم هذا طعام لا يلائمني . ولا تغل بلاومني »

(٤) انظر مروج الذهب ٢ : ٣٤ والنهرست ٣٠ ، ٣٤ والقاموس (فرنج) .

بعد ذلك قليلاً غير كثير . والشودان يقدون الزنج والحبشة ، وفزان وبربر ،
والقبط والثوبة ، وزغاوة ومرو ، والسند والمند ، والقار^(١) والدَّيْلَا^(٢) ،
والصين وماصين . والبحر أكثر من البر ، وجزائر البحر ما بين الصين
والزنج مملوءة سردانا ، كسرنديب ، وكَلَه^(٣) ، وأمل ، وزابج^(٤) وجزائرها
إلى الهند إلى الصين إلى كابل وتلك السواحل .

٨٨ ظ

قالوا : وكان الأعمى الاشقيام^(٥) يقول : الشودان أكثر من البيضان ،
والصخر أكثر من الوحل ، والرمل أكثر من التراب ، والماء اللامع أكثر
من العذب .

قالوا : ومنا العرب لا من البيضان ؛ لقرب ألوانهم من ألواننا . والهند
أسفر ألواناً من العرب ، وهم من الشودان . ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« بُشَّتْ إِلَى الْأَحْمَرِ وَالْأَسْوَدِ » . وقد علم الناس أن العرب ليست بمحركا
ذكرنا قبل هذا^(٦) .

(١) قار بفتح القاف وكسرهما : موضع بالهند ينسب إليه العود القهري .

(٢) القدي في ياقوت « ديل » بفتح الدال وضم الباء ، وقال : « مدينة مشهورة
على ساحل بحر الهند » . وانظر التنيه والإشراف للسعدي ٣٩ ، ٣٠ ، ٤٩ .

(٣) في الأصل ون . س : « سودان » .

(٤) في معجم البلدان : « كله : فرسة بالهند ، وهي متصف بالطريق بين عمان
والصين ، وسميها من العمورة في طرف خط الاستواء » .

(٥) زابج قال فيها ياقوت : « وقيل هي بلاد الزنج ، وبها سكان شبه الآدميين
إلا أن أخلاقهم بالوحش أشبه » . وفي الأصل : « وزنج » . وانظر ماسياني .
والباء تفتح وتكسر .

(٦) الاشقيام : رئيس الركاب ، كما في اللسان (شتم) .

(٧) انظر ص ٢١٠ .

قال : فهذا التَّغَرُّ لَنَا ولِلْعَرَبِ عَلَى جَمِيعِ الْبَيْضَانِ إِنْ أَحْبَبْتَ ذَلِكَ الْعَرَبُ ؛ وَإِنْ كَرِهْتَهُ فَإِنَّ لِلْعَرَبِ لَنَا بِالْقَدْرِ ذِكْرُنَا عَلَى الْجَمْعِ .

قالوا : ولو لم نَكُفِّرْكُمْ إِلَّا بِالزَّاجِ وَحَدِّهَا لَفَضَّلْنَاكُمْ بِهِمْ فَضْلاً مَبِيناً ؛ وَذَلِكَ أَنَّ مَلِكَ الزَّاجِ إِنْ غَضِبَ عَلَى أَهْلِ مَمْلَكَةٍ وَلَمْ يَتَّقَوْهُ بِالْخَرَجِ بِمِثْلِ أَلْفِ سُنْبُوقَةٍ^(١) فِي كُلِّ سُنْبُوقَةٍ أَلْفُ رَجُلٍ عَلَى أَنْ [لَا^(٢)] يَحْلِدُوهُمْ وَلَا يَفْتَلُوهُمْ ، وَلَكِنْ يَأْمُرُهُمْ أَنْ يَقِيمُوا أَبَداً فِيهِمْ حَتَّى يَتَّقَوْهُم بِالْخَرَجِ ، فَيَكُونُ مَا بَأْكَوْنُ وَيَشْرَوْنَ وَيُنْذَرُونَ وَيَلْبَسُونَ ، أَضَرُّ عَلَيْهِمْ مِنْ مَقْدَارِ الْخَرَجِ الْمَرَارَةِ الْكَثِيرَةِ . فَإِنْ انْقَوَمَ بِالْخَرَجِ وَإِلَّا أَرْسَلَ إِلَيْهِمْ أَلْفَ سُنْبُوقَةٍ أُخْرَى ، فَلَا يَجِدُ ذَلِكَ الْمَلِكُ بَدْءاً مِنْ أَنْ يَتَّقِيَهُ بِكُلِّ مَا طَلَبَ ، وَلَا يَأْمَنُ أَنْ يَنْضَبَّ فَيَأْتِيَهُ عَلَيْهِ وَعَلَى أَهْلِ مَمْلَكَتِهِ .

قالوا : وَقَدْ نَزَلَ مَلِكَ الزَّاجِ عَلَى خَلِيجِ مَرَّةٍ وَالْخَلِيجُ فَرَاخٌ فِي فَرَاخِ ، فَيَنَاهِرُ عَلَى مَائِدَتِهِ وَفِي سُرَادِقِهِ عَلَى شَاطِئِ الْخَلِيجِ ، إِذْ سَمِعَ صَارِخَةً قَالَتْ : مَا هَذَا ؟ وَقَطَعَ الْأَكْلَ^(٣) . قَالُوا : امْرَأَةٌ سَقَطَ ابْنُهَا فِي هَذَا الْخَلِيجِ فَأَكَلَهُ التَّمَسَاحُ . قَالَ : وَفِي مَكَانٍ أَنَا فِيهِ شَيْءٌ يَشَارِكُنِي فِي قَتْلِ النَّاسِ ! ثُمَّ وَثَبَ فَإِذَا هُوَ فِي الْخَلِيجِ . فَلَمَّا رَأَوْهُ النَّاسُ سَقَطُوا عَنْ آخِرِهِمْ ، غَضَضُوهُ^(٤) وَهُوَ فَرَاخٌ فِي فَرَاخِ ، حَتَّى أَخْفَوْا كُلَّ تَمَسَاحٍ فِيهِ أَخَذَ يَدَ .

(١) القدي في القادوس « السبوق » ، وقال : « السبوق كصبور :

ذو رِقْ صَغِيرٌ » .

(٢) تشكيلة يستقيم بها الكلام .

(٣) في الأصل : « وقع الأكل » .

(٤) خَضَضَ لَمْ يَلَمْ ، وَنَحْوَهُ : حَرَكَةٌ . وَفِي الْأَصْلِ : « خَضَضُوهُ » .

فيقال : إن أهل الزاب وأغاب^(١) أكثر من شطر أهل الأرض .

قالوا : وآخر العمران كله سودان^(٢) ، وما استدار من أقاصي العمران
 ٨٩ و أكثر من أهل الوسطة ، كطوق الرّحى الذي يلي الهواء ، الذي هو أوسع
 وأكثر ذرعاً مما قصر عنه من فلك الرّحى^(٣) ولتعتبر ذلك بالجناح الطيف ،
 لا يرى أحد ذرعته مع قلّة عرضه ، ونجد أكثر ذرعاً من نفس الدار .

وليس خلف الزاب بيضان^(٤) ، وكذلك جميع بلاد السودان الساكنة
 في الأطراف وفي آخر أطواق العمران .

قالوا : هذا دليل على أن أكثر ، وإذا كنا أكثر كنا أغر . وقد
 قال شاعرهم^(٥) :

ولست بالأكثر منه حتى وإنما الميزّة لكثير^(٦)
 قالوا : والقيط جنس من السودان وقد طلب منهم خليل الرحمن
 [الولد^(٧)] فولد له منهم نبيّ عظيم الشأن ، وهو أبو العرب إسماعيل عليه
 السلام . وطلب النبيّ صلى الله عليه وسلم منهم الولد ، وولد له إبراهيم ،
 وكنّاه به جبريل .

(١) الكلمة . محطة القط في الأصل . والأغاب : جمع غب ، بالضم . وهو
 التماس من الأرض قال :

كأبها في الثب ذى النيطان ذئب دجن دائم النتان

(٢) فلك الرّحى . دارها . وفي الأصل ون . س : ذاك الرّحى .

(٣) هو الأعنى . ديوانه ١٠٦ .

(٤) يخاطب علقمة بن علاثة ، مخلصاً من بين الطفيل عليه . والرواية المشدودة :

منهم حتى .

(٥) ليست بالأصل . والكلام ينقضها .

قالوا : والحجر الأسود من الجنة . والنحاس إذا اشتد سواده كان آمن وأجود . فمن استنكر لون السواد فإني فريجة^(١) والرؤم والمقابلة من إفراط سبوطه الشعر والزفة والفتوبة ، والخرة في شعر الرأس واللعبة ، وبياض الحواجب والأشعار ، أبيض وأصح . وليس في السودان مقرب^(٢) ، ليس المغرب إلا فيكم . ولا سوا من لم تنضجه الأرحام وما جازت به حد النمام .

قالوا : ولنا بعد معرفة بالتلف^(٣) والنظر ، ونحن أنقض الناس . ولنا في الأسرار حجة . ونحن نقول : إن الله تعالى لم يحملنا سودا تشوبها بخافتا ، ولكن البلد فلذلك بنا . والحجة في ذلك أن في العرب قبائل سودا كبنى سليم بن منصور . وكل من نزل الخرة من غير بنى سليم كلهم سود . وإيهم ليتخذون للمالك الرعى والسقاء ، والهنه والخدعة ، من الأشبايين^(٤) ومن الرؤم ناسهم ، فإسرا دون ثلاثة أبطن حتى تغلم الحرّة إلى ألوان بنى سليم^(٥) . ولقد بلغ من أسرتك الحرّة أن غلبها ونعامتها ، وهوائها وذبابها ، وثعالبها وشامها وحميرها ، وخيلها ، وطيرها كلها سود . والسود والبياض إنما هما من قبيل خلقه البلدة ، وما طبع الله عليه الماء .

(١) انظر ما سبق في ص ٢١٥

(٢) العرب ، بنو الرأ : الأبيض أشعار العين .

(٣) لعل هذا من أدم التصور التي ورد فيها لفظ التلغف . وفي القبان : الفلسفة . الحكمة ، أجهى . وهو الفيلسوف . وقد تلفت .

(٤) في الأصل : « الاشبايين » بهذا الإجمال .

(٥) انظر الجبران ٤ : ٧١ و ٥ : ٢٧٠

والثربة ، ومن قبل قرب الشمس وبعدها ، وشدة حرّها ولينها . وليس ذلك من قبل مسخ ولا حقوة ، ولا تشويه ولا تقصير ^(١) .

على أن بلاد بنى سليم تجرى بحرى بلاد الترك . ومن رأى إناهم ودوابهم وكل شيء لهم تركىّ رآه شيئاً واحداً . وكل شيء لهم تركىّ لشغلهم وربما رأى الفزاة دون المواسم أخلاط غمّ الرّوم فلا يخفى عليهم غمّ الرّوم من غمّ الشام ، والرّومية التي يرونها فيها .

وقد نرى الناس أبناء الأعراب والأعرابيات الذين وقموا إلى خراسان فلا نشك أنهم علوج القرى . وهذا موجود في كل شيء . وقد نرى جرّاد ^(٢) البتل والريحان وديدتهما خضراً ^(٣) ، ونرى قمل رأس الشاب سوداً ، ونراها إذا ابيض رأسه بيضاً ، ونراها إذا خضبت حمراً .

فليس سوادنا ، معشر الرّحج ، إلا كسواد بنى سليم ومن عددنا عليكم من قبائل العرب في صدر هذا الكلام .

وما إفراط سواد من اسودّ من الناس إلا ^(٤) كإفراط بياض من ابيض من الناس . وكذلك الشجرة التوّدة من بينهما ، وكذلك الزّيتى والمهينات ، وكذلك الصناعات ، وكذلك الطاعم والشّهوات .

(١) في جميع النسخ : « ولا تقصير » .

(٢) في الأصل : « جراز » ، سوابه في الحيران ٤ : ٧١ . وقد صحح بذلك في نوس .

(٣) في الأصل : « خضر » .

(٤) في الأصل : « ولا » .

وقد ذكر الشاعر، حين مدح أسيلم بن الأحنف الأسدئ، سواد
البيانية فقال^(١) :

أسيلمُ ذاك لا خفا بمكانه
لمبت تدامى أو لأذني نَسَمَ^(٢)
من الثفر الثمُّ الذين إذا انتسوا
وهبَ الرجالُ حَلَقَةَ البلب فمقموا
جلاً الأذفرُ الأحوى من لك فرقه
وطيبُ الدهانِ رأسه وهو أنزع^(٣)
إذا الثفرُ السود البانونَ حاولوا
له حوكَ بُرديه أرفؤا وأوسموا
وقد علبَ بعضُ البيضاءِ عبدَ بنى جَمْدَةَ بلونه ، فقال :
قد علبَ لوني أقولمُ قلتُ لم
ماعلبَ لوني إلا مُفْرِطُ الخُفَى
إنْ كانَ لوني فيه دُعْجَةٌ كَلَفَ^(٤)
حَزَنُ الإهلبِ فإني أبيضُ الخُفَى

(١) الأبيات في الحيوان : ٤٨٦ : ١ والبيان : ٣٩٦ : ٣ و ٣٠٥ : ٣ والبيحلاء .

٢٩٣ والقند : ٣٤٣ .

(٢) في معظم المراجع : لعين ترجى .

(٣) في الأصل : جري الأذفر . . . فوقه . . . صوابه من البيان والحيوان والبيحلاء . والأذفر : التشديد سطوح الراحة . والأنزع : الذي تحمر الشعر عن جاني بهنه .

أرضي الصديق وأجبي الظمن معترضاً
 صدر القصة وأكفى كنه الشرق^(١)
 وكانت امرأة عمرو بن شاس تجفو عيرار^(٢) بن عمرو ، وكان ابن
 سودا ، قال عمرو بن شاس في ذلك ، وفي صفه أبناء الحبشيات والزنجيات :
 ألم ينتها أني مصوت وأنني
 تخشمت حتى ما أطرم من عسرم
 وأطرق إطراق الشجاع ، ولو برى
 ساعاً لتاييه الشجاع لقد أزم^(٣)
 أرايت عيراراً بالمسوان ومن يرد
 عيراراً لمرى بالمسوان قد ظنم
 وإن عيراراً إن يكن غير واضح
 فإني أحب العيون ذا النكب القمم^(٤)
 فإن كنت مني أو تعين شيمتي
 فكوني له كالسمن ربت له الأدم^(٥)

(١) كذا ورد عبر هذا البيت .

(٢) في الأصل : « عزار » أو « غراز » ، صوابه من الحماة ٢٨٠ - ٢٨٢

يسرح للرزوق وما ثبت في حواشيها من الرابع ، والأغاني ١٠ - ٥٩ - ٦٠ .

(٣) أزم : عصى شديداً . وفي الأصل : « أزم » ، صوابه في الأغاني .

(٤) في الأصل : « لم يكن » ، صوابه من المراجع القديمة . والعم : الطويل
 الثام من كل نوع .

(٥) في الأصل : « كالسمن » تحريف . قال للرزوق : والسمن إذا راب نحوه
 لم يتغير . يريد فلا تتغيري أنت أيضاً . والأدم : جمع آدم ، وهو الجلد .

والأفيقي مثل ما مان راكب

تزود رخصاً ليس في سيره أتم^(١)

وأما الهند فوجدناهم يقدمون في النجوم والحب ، ولم اخلط الهندى خاصة ، يقدمون في الحب ، ولم أسرار الحب وعلاج فاحش الأدوية . خاصة . ولم شرط التماثيل ونعت الصور بالأصباغ تتخذ في المحارب^(٢) وأشباه ذلك . ولم الشطرنج ، وهي أشرف لعبة وأكثرها تديراً وفضة . ولم السيوف الثمانية^(٣) ، وهم ألقب الناس بها وأحفظهم^(٤) ضرباً بها . ولم الرقى النافذة في السموم وفي الأوجاع . ولم غنا معجب . ولم الكنكة^(٥) ، وهي وتر واحد يمد^(٦) على قربة فيقوم مقدم أوتار الدود والصنج . ولم ضروب الرقص والخفة ، ولم الثقافة عند النفاة خاصة ، ولم معرفة الناصفة ، ولم الشعر والتدخين والدمازكية^(٧) . ولم خف جامع^(٨) لحروف اللغات ، وخطوط أيضاً كثيرة ، ولم شعر كثير وخطب طوال ، وطلب في القلعة

(١) الأتم : الإبطاء .

(٢) في الأصل : « مجد من المحارب » .

(٣) القلبية : نسبة إلى القلعة ، وهي قلعة عظيمة بيده نسي « كه » ، وهي أول بلاد الهند من جهة الصين ، وفيها ضرب السيوف القلبية . انظر معجم البلدان والمحيوان ٣ : ١٤٣ .

(٤) ن . س : « واحفظها » .

(٥) انظر نوادر المخطوطات ٢ : ٣٢٤ .

(٦) في الأصل ون . س : « يمر » . صوابه ما أثبت .

(٧) كذا ولله « الرماذكية » . وهو ضرب من القوق الطي ، كاف معجم استيعباس ١٣٩٥ .

والأدب . وعندهم أخذ كتاب كليفة ودمعة . ولهم رأى ونجدة ، وليس لأحد من أهل الصبر ما لهم . ولهم من الرئى^(١) الحسن والأخلاق المحمودة مثل الأختة والقرن والسؤلك^(٢) والاحتباء ، والفرق والخصاب . وفيهم جمال وولع^(٣) واعتدال وطيب عرق . وإلى ناسهم يضرب الأمثال . ومن عندهم جواهر الملوك بالعمود المندى الذى لا يتبدله عود . ومن عندهم خرج علم الفكر ، وما إذا تكلم به على السم لم يضر . وأصل حساب النجوم من عندهم أخذه الناس خاصة . وآدم عليه السلام إنما جبط من الجنة فعزل ببلادهم^(٤) .

٩٠ ظ

قالوا : ومن مفاخر الزنج حسن الخلق ، وجودة الصوت . وإنك لتجد ذلك فى القيان إذا كن من بنات السند .

وخصة أخرى : أنه لا يوجد فى الميد أطبخ من السدى ، هو أطبع على طيب الطبخ كله^(٥) .

ومن مفاخرهم أن الصيارفة لا يوثقون أكبتهم وبيوت مروهم إلا السند وأولاد السند ؛ لأنهم وجدوم أنفذ فى أمور الصرف ، وأحفظ وآمن . ولا يكاد أحد أن يجد صاحب كيبس صيرفى ومفانيجه ابن رومى ولا ابن خراسانى

(١) فى الأصل : « الرأى » .

(٢) للبحر . بالكسر : اللوحة

(٣) فى تفسير أبى حيان ١ : ١٦٣ عند الكلام على جبط آدم : « وآدم بالهند . وقبل برتدب بجبل يقال له واسم » .

(٤) فى الأصل : « هو أطبخ على طيب الطابع كله » .

ولقد بلغ من تيزك التجار بهم أن صَيَّرَ البصرة وبغدادة البريهارات^(١) ،
ثُمَّ رَأَوْا مَا كَسَبَ فَرَجٌ أَبُو رَوْحٍ السُّنْدِيُّ لِمَوْلَاهُ^(٢) مِنَ اللَّيْلِ وَالْأَرْضَيْنِ
اشْتَرَى كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ غَلَامًا سُنْدِيًّا ، طَمَعًا فِيَا كَسَبَ أَبُو رَوْحٍ لِمَوْلَاهُ .

قال : وكان عبد الملك بن مروان يقول : « الأُدغم سَيِّدُ أَهْلِ الشَّرْقِ »^(٣) .
يعنى عبيد الله بن أبي بكر . وكان أشدَّ الشُّودان سواداً . وإِيَّاهُ يعنى
عبد الله بن خازم^(٤) حيث يقول :

• حَبَشِيٌّ حَبَشْتُهُ حَبَشَةٌ •

فهذا جملة ما حَصَرْنَا مِنْ مَغَاخِرِ الشُّودَانِ . وقد قلنا قَبْلَ هَذَا فِي مَغَاخِرِ
قُحْطَانٍ ، وَسَقُولٍ فِي غَزْرِ عِدْنَانَ عَلَى قُحْطَانٍ فِي كَثِيرٍ مِمَّا قَالُوا إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

• • •

(١) البنادرة : جمع بندر ، ضم الباء ، وهم التجار الذين يلزمون المعادن ،
أو الذين يَحْزَنُونَ البضائع للغلاء . والبريهار : الأدوية التي تجلب من الهند من الحشيش
والغافير ، والقلوس وغيرها ، يقول البحرية وأهل البصرة لها : البريهار . أنساب
السماعى ٧١ . وقال الأَبُ أنْتَسَى مَارِي : المراد بها تَوَابِلُ بِرِ الْهِنْدِ . حواشي
الحيدان ٣ : ٤٣٥ .

(٢) اسم مَوْلَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ الْكَنْ ، كما فِي الْحَيْدَانِ ٣ : ٤٣٥ .

(٣) فِي الْمَتَرَفِ ١٢٦ : « سَيِّدُ أَهْلِ الشَّرْقِ » . وفيه : وَيَقَالُ الْأُدْغَمُ الْهَابَةُ
الْبَرْجِ ، شَبَّ بِهِ .

(٤) هُوَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ خَازِمٍ بْنُ أَمْعَاءِ السُّلَمِيِّ الْبَصْرِيُّ ، أَمِيرُ خُرَاسَانَ . وَلِيَّ إِسْرَمَتِهَا
لَيْثُ أُمِيَّةٍ ، فَلَمَّا ظَهَرَ ابْنُ الزَّيْرِ كَتَبَ إِلَيْهِ ابْنُ خَازِمٍ بِطَاعَتِهِ فَأَقْرَعَهُ عَلَى خُرَاسَانَ ، ثُمَّ
ثَارَ بِهِ أَهْلُ خُرَاسَانَ قَتْلَوْهُ وَأَرْسَلُوا رَأْسَهُ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ سَنَةَ ٧٢ . انْظُرِ الطَّبْرِيَّ
فِي حَوَادِثِ هَذِهِ السَّنَةِ ، وَتَهْذِيبَ التَّهْذِيبِ وَالْإِسَابَةِ ٤٦٣٢ .

تم كتاب نثر السودان على البيضان

٩١ و

من تأليف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، بعون الله تعالى وتوفيقه ،
 ومشيئته وتأييده . بتلوه إن شاء تعالى رسالة له أيضاً إلى محمد بن عبد الملك
 في الجدل والمزلة . والله للوفق للصواب .

والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه الطيبين
 الطاهرين وسلامه .

٥

رِسَالَةٌ

فِي الْمَجْدِ وَالْمِزْلِ

من تصنيف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

إلى محمد بن عبد الملك الزيات

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الخاصة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة في الجسد والمزحل »

من تصنيف أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ إلى محمد بن عبد الملك الزيات

ومن هذه الرسالة نسخ :

١ — نسخة الأصل ، وهي نسخة مكتبة داماد ، في ضمن مجموعة رسائل الجاحظ .

٢ — مختارات فصول الجاحظ ، وهي نسخة التحف البريطاني للودعة صورتها في مكتبة جامعة القاهرة ، ورمزها « م » .

٣ — نسخة يول كراوس وطه الحاجري ، وهي مقابلة على نسخة داماد ، والتحف البريطاني ، ورمزها « ط » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جُعِلَتْ فِدَاكَ . ليس من أجل^(١) اختيارى النخل على الزرع^(٢) ٩٢ ظ
أُغْمِئَنِي ، ولا على ميل إلى الصدقة دون إعطائي الخراج عاقبتني ، ولا لُبُغْضِي
دفعَ الإتاوة والرضا بالجزية حرمتني .

ولست أدري لم كرهتُ قُرْبِي وهَوَيْتُ بُعْدِي ، واستثقلتُ رَوْحِي وَنَفْسِي
واستطلتُ عُمرِي وأَيَّامَ مَقَامِي . ولمَّ سَرَّتْكَ سِتْنِي ومِيعَتِي وسَاءَتْكَ حَسَنَتِي
وسَلَامَتِي ، حتَّى ساءَكَ نَجْوَى بَقْدَرِ مَاسَرَّتِكَ جَزَعِي وتَضَجَّرِي ، وحقَّ تَحْنِيتُ
أَنْ أَخْطِيْ عَلَيْكَ فتَجَمَّلَ خَطْبِي حَبَّةً لَكَ فِي إِبْهَادِي ، وكَرِهْتَ صَوَابِي فَبِكَ
خَوْفًا مِنْ أَنْ تَجْعَلَ ذَرِيعَةً لَكَ إِلَى تَقْرِيبي .

[فَإِنْ كَانَ ذَلِكَ هُوَ الَّذِي أَغْضَبَكَ ، وَكَانَ هُوَ السَّبَبُ لِمَوْجِدَتِكَ^(٣)] فليس
- جُعِلَتْ فِدَاكَ - هذا الحقُّدُ في طبقة هذا الذُّب ، ولا هذه اللطافة من شكل
هذه الجريمة .

(١) هذه الكلمة سائطة من ٢

(٢) ألب الجاحظ كتاب : (الزرع والنخل) لإبراهيم بن العباس الصولي
التوفي سنة ٢٤٣ . فتمه خنة آلاف دينار . كما ألف كتاب : (الحيوان)
لمحمد بن عبد الملك الزيات فتمه مثله ، وكتاب : (البيان) للقاضي أحمد بن أبي دواد
فتمه كذلك . معجم الأدباء ١٦ : ١٠٦ . وجاء في الحيوان ١ : ٤ نظير هذا النص
موجها إلى محمد بن عبد الملك الزيات : « وعني بكتاب الزرع والنخل والزيتون
والأعناب » .

(٣) الشكلة من ٢ .

ولو كان إذ لم يكن في وزنه وقع قريباً ، وإذ لم يكن عدله وقع مُشبهاً
 كان أهونَ في موضع الضرر ، وأسهل في مخرج السماع .
 فأى شيء بقيت للملوك المكاشف والمناقض^(١) اللالطف ، وللمعتمد المصير^(٢)
 وللقادر المدبر .

ومن عاقب على الصغير بعقوبة الكبير ، وعلى المفوضة بعقوبة الإصرار ،
 وعلى المخطأ بعقوبة العمد ، وعلى معصية المستر^(٣) بعقوبة معصية المعلن^(٤) ،
 ومن لم يفرق بين الأعلى والأسفل ، وبين الأمام والأدنى ، عاقب على الزنى
 بعقوبة السرقة^(٥) ، وعلى القتل بعقوبة القذف . ومن خرج إلى ذلك في باب
 العقاب خرج إلى مثله في باب الثواب . ومن خرج من جميع الأوزان وخالف
 جميع التعديل ، كان بنهاية العقاب أحق ، وبه أولى^(٦) .
 والدليل على شدة غيظك وغليان صدرك قوة حركتك وإبطاء فترتك ،
 وبُعد الغاية في احتيالك . ومن البرهان على ثبات النفس ، وعلى كظم الذنب^(٧)
 تحسُّن الحقد ورسوخ النفيظ ، وبُعد الوثبة وشدة العتولة .

وهذا البرهان صحيح ما صحح النظم ، وقام التعديل ، واستوت الأسباب .
 ولا أعلم نارا أبلغ في إحراق أهلها من نار النفيظ ، ولا حركة أفض

(١) م : « والموافق » .

(٢) في الأصل : « المستر » ، وأثبت ما في م . وفي ط نقلا عن ب : « السر » .

(٣) في الأصل : « للعائد » سواء في م ، ب .

(٤) السرقة كسب وكشف : السرقة . وفي م : « السرقة » .

(٥) في الأصل : « أحق به وأولى » ، وما أثبت من م أشبه بأسلوب الجاحظ .

(٦) م : « عظم الذنب » .

قوة الأبدان من طلب الطوائف^(١) مع قلة الهدوء والجبل بمنافع التجام^(٢) ،
وإعطاء الحالات أقسامها من التدبير .

٩٣ و

ولا أعلم تجارة أكثر خسرانا ولا أخف ميزانا من عداوة العاقل
[العالم]^(٣) ، وإطلاقي لسان المجلس المداخل ، والشعار دون الدثار^(٤) ،
والخاص دون العام .

والطالب - جملت فذاك - بمرض ظفر ما لم يخرج الطلوب ، وإليه
الخيار ما لم تقع المنازلة . ومن الحزم ألا تخرج إلى العدو إلا ومطك من القوى
ما ينصر^(٥) الفضلة التي ينتجها له الإخراج . ولا بد أيضا من حزم يحذر
مصارع البنى ، ويخونك ناصر الطلوب^(٦) .

وبعد - أبقاك الله - فأت على يقين من موضع ألم النيف من نفسك ،
والنيف عذاب . ولربما زاد التشنج في النيف ولم يغص منه . ولست على يقين
من نفوذ سهمك في صيدك^(٧) [كما أجت بموضع النيف من صدرك] .

(١) الطوائف : جمع طائفة ، وهي الور والبلح ، يقال : طلب بنى فلان بطائفة ،
أى يوز كان له فيهم .

(٢) التجام : كسحاب : الراحة : م « الحمام » تصفيف .

(٣) التسكة من م .

(٤) الشعار : ما ولى شعر جسد الإنسان دون ما سواه من أثياب . والدثار :
ما كان من الثياب فوق الشعار . وفي لئل : « هم الشعار دون الدثار » ، يصفهم
بالوردة والقرب . وفي حديث الأنصار : « أنتم الشعار والناس الدثار » .

(٥) في الأصل : « ما لا ينصر » ، صوابه من م .

(٦) أى من نطبه . وفي الأصل : « وبمرك ناصر للظلوم » ، صوابه في م .

(٧) في الأصل : « صدك » ، صوابه من م رواية عن ب والتسكة جمع من ب .

والحازم لا يلتبس شفاء غيظه باجتلاب ضميمه ، ولا بطنى نار غضبه تأخر عقوبة من أغضبه ، ولا بسدد سهمه إلا والفرص ممكن ، والغاية قريبة ، ولا يهرب إلا والمهرب معجزة .

إن سلطان النفيظ غشوم ، وإن حكم النضب جائر ، وأضعف ما يكون المزم عن التصرف أضعف ما يكون المزم . والنضب في طباع شيطان ، والهوى بتصوّر في صورة امرأة ، فلا يبصر مساقط العيب ومواقع الشرف إلا كل متدلّ الطباع ، ومعتدل الأخلاط مستوى الأسباب .

والله قد كنت أكره لك سرف الرضا مخافة جواذبه إلى سرف الهوى . فاعظك بسرف النضب ، وبغلبة النفيظ ، ولا سيما ممن قد تمودّ إهمال النفس ولم يموّدها الصبر ، ولم يبرئها موضع الخطّ في تجرّع سرارة العفو ، وأن للراد من الأمور عواقبها لا عواجلها^(١) .

وقد كنت أشفق عليك من إفراط الشرور فاعظك بإفراط النفيظ . وقد قال بعض الناس : لا خير في طول الراحة إذا كان يُورث الغفلة ، ولا في السكافية إذا كان يؤدّي إلى المعجزة ، ولا في كثرة النفي إذا كان يخرج إلى البلدة^(٢) .

جملتُ فداك . إن داء الحزن وإن كان قاتلاً فإنه داء ممّا طل ، وسقمه سقم مطاوي ، ومعه من التمثّل بقدر قسمة من أناة اليرّة السوداء . وداء

(١) في الأصل : « عواجلها » . صوابه في م .

(٢) في الأصل : « كثرة النفي » . صوابه في م . والبلدة . بالفتح وبالضم أيضاً : البلدة . ضد النفاذ والقدكا . والقضاء في الأمور .

النيظ سفية طيَّاش ، وعَجولٌ فحَّاش ، يُسجلُ عن التوبة ، ويقطع دون الوصية ، ومعه من الخُرْق بقدر قسطه من التهاب البيرة الحمراء . [والمجول ٩٣ ظ يخطئ وإن ظفر ، فكيف به إذا أخفق . هل أن إخفاقه يزيد في حقيقة خطئه كما أن ظفره لا ينتقص من مقدار زله ^(١)] . وأنت روحٌ كأنت وحشٌ من قرنك إلى قدمك . وعمل الآفة في الذقاق والعتاق أسرع ، وحدها عن الغلاظ البجعة أكلٌ ؛ فذلك اشتدَّ جزعى لك من سلطان النيظ وعَلَّته .

والله لو كنتُ ابتلعتُ مزار بابك ، وأبطلت سر الباطل ^(٢) ، ووردت ^(٣) القطناع كلها ، ونقضت الشروط بأسرها ، وأفسدت نتاجك ، وقتلت كلَّ شيطرنجي لك ، ورفضتُ من الدنيا فراحة الخليل ، وجعلتُ للروح كلها حَيٍّ ، وكنتُ صدائى للرادين ^(٤) ، ویرسام الأولاد ، ومسختُ جميع الجوارى في صورة أبى رسة ^(٥) ورددتُ شیطاط خَفَّك إلى جُمودة أبى حنة ^(٦) وكنتُ أول من سنَّ بيع الرجال في النخاسين ، وفتحَ باب الظلم لأصحاب اللطام ، وحوَّلت إليك عقل أبى دينار ، وطُبعت على بيان مائتويه ، وأعنت على موت المتعم ، وغضبت لمصرع الأفتين ^(٧) ، واستجبت للديك الأبيض

(١) السكة من ب .

(٢) كذا وردت العبارة .

(٣) في الأصل : « وردت » .

(٤) كذا . وجعلت في ط : « جذم للردان » .

(٥) لم أجده ذكرآ في كتب الجاحظ ، كما لم أجده ذلك لأبى حنة التالى .

(٦) الشطاط ، كسحاب وكتاب : الطول وحسن القوام . والجُمودة : القصر .

(٧) الأفتين ، بفتح الميمزة وكسرهما ، كإلى وفیات الأعيان ٤ : ٩٥ . واسمه =

الأفرق^(١) وأحببت صالح بن حنين^(٢) ، وأحوجتكم إلى حاتم الريش^(٣) ،
وكان أبو الشَّامِخِ صديقي ، والفارسي من شيمتي - لكان ما تركتني به سرفاً ،
ولكنني في هذا الكتاب^(٤) متديلاً .

جُعلتُ فداك ، لا تتعرض لعداوة عقلاء الرِّوَاة ، ولضئيفة حُفَافِ
المثالب ، وللسان من قد عُرِفَ بالصَّدْقِ والتَّوْحَى ، وبِقَدْرِ الخَطْلِ والتَّكْثِبِ^(٥) ،
ما وجدتَ عن ذلك مندوحة ، ووجدت المذهبَ عنه واسعاً . ولا تعاقبُ
واذاً وإن اضطرَّك الرِّوَاة ، ولا تجعل طَوْلَ الصُّعْبَةِ سبباً للتَّضَجُّرِ ، واصبرْ
على خَلْقِهِ فَإِنَّ خَلْقَهُ خَيْرٌ من جديد غيره . وصداقة المتعزِّف غُرُور^(٦) ،

== خيذر بن كلوس ، وكان مقدم قواد المتصم ، ثم غضب عليه المتصم فصلبه هو
وبابك ومازروار في سنة ٢٢٦ .

(١) الأفرق : للفروق العرف . وفي الأصل : « للدين » صوابه في ب كما في
حواشي ط . وكلمة « الأبيض » ساقطة من ب كما أن كلمة « الأفرق » ساقطة من
الأصل وثابتة في ت . وكان العامة في زمن الجاحظ يتركون بالديك الأبيض الأفرق
يزعمون أنه يطرد الشيطان من البيت . الحيوان ٢ : ٢٠٧ ، ٢٥٩ ولكنهم أيضاً
كانوا يقضون على من كان في داره ديك أبيض أفرق بالزندقة . الحيوان ٣ : ٢٠٧ .

(٢) يبدو أنه كان أحد البضاء القلاء ، ذكره أيضاً في البخلاء ٦ . قال الجاحظ :
« ولو ولد نادرة حارة في نفسها ، لميعة في معناها ، ثم أضافها إلى صالح بن حنين
وإلى ابن التواء وإلى بعض البضاء ، لعادت باردة ، ولصارت قارة » .

(٣) كان حاتم هذا من ندماء صالح بن هارون الرشيد . قرنا لأبي الواسع ،
وقتيبة ، وحسين بن الضحاك . الأغانى ٦ : ١٠٤ . وصماه أبو الفرج في ٦ : ١٩٥
« حاتم الريش القراط » .

(٤) ط : « القباب » خلافاً لما في الأصل .

(٥) التكب ، أراد به الدُّوَل عن الصواب والحق وفي الأصل : « التكسب »

(٦) جعلت في ط : « غرر » بمعنى الخطر .

وملاحة الصديق أفن ، والعلم بأقدار^(١) الذنوب غامض ، وحدودُ الذنوب في العقاب خفية . ولن يعرف العقاب من يحمل قدر الذنب . والأجرام كثيرة الأشكال ، ومتفاوتة في الأقدار^(٢) . وإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك من مقدار عقابك عليه فانظر في عاقبته وسببه ، وإلى معدنه الذي منه نَجَم ، وعُثُّ الذي منه دَرَج ، ومغْرِسه الذي منه نبت ، وإلى جهة صاحبه في التَّأْبُع والتَّنَزُّع^(٣) ، وفي النزوع والثبات ، وإلى قِصَّته عند التفرُّع ، وإلى حيائه عند التمرُّض ، وإلى فِطنته عند الرشق والتورية^(٤) ؛ فإِنَّ فَصْلَ

القطنة ربَّما دلَّ على فرط الاكتراث ، وعلى قدر الاكتراث يكون الإقدام والإحجام . فكلُّ ذنبٍ كان سببه الدَّهْلُ وضيَّق صدره وغلظ طباع وحَدَّ مِرَارٍ ، من جهة تأويل أو من جهة غلط في التادير ، أو من طريق [فرط^(٥)] الأخفة وغلبة طباع الحية من بعض الجفوة أو لبعث الأثرة ، أو من جهة استعفافه عند نفسه وفيما زَيَّن له من عمله ، وأَنَّهُ مَقْصَرٌ به مؤخَّر عن مرتبته ، أو كان مبلِّغاً عنه أو مكذوباً عليه ، وكان ذلك جائزاً عليه غير ممتنع فيه .

(١) في الأصل : « ما قرار » .

(٢) في الأصل : « الأقدام » .

(٣) التابع في الشيء : التفات فيه والإسراع إليه . والتنزع : التسرع إلى الشيء . وفي الأصل : « التابع والتبرع » والوجه ما أثبت .

(٤) المراد بالرشق الإصابة بالقليل من الكلام . والتورية : السكابة التي لا يهيمها إلا الظن . ومنه التورية البلاغية التي يراد باللفظ فيها غير التبادر من معناه . وفي الحديث : أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سراً وري بشيره ، أيسره وكفى عنه وأومأ أنه يريد غيره . وفي الأصل : « التوبة » تحريف .

(٥) السكابة من ب .

فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل وعلى هذه الأسباب ، وفي هذه المجارى ،
فليس يقف عليها كريم ، [ولا يلتفت لها حليم ^(١)] .

ولست أسميه بكثرة معروفيه كريماً حتى يكون عقله غامراً لعلمه ، وعلمه
غالباً لطبعه ، وحتى يكون عالماً بما ترك ، وعارفاً بما أخذ . واسم الحليم جامع
للكظم ، والقدرة ، والفهم .

فإذا وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلا البفظة فلم ترض لصاحبه
بمقابٍ دون قفر جهنم لمدرك كثيرٍ من العقلاء ، ولصوب رأيك عالمٍ
من الأشراف .

ومتى كانت علته طيبة البداء ^(٢) ، وخلقه الشرارة والتسرّع ^(٣) ، فأتى
قتل المقارب ، واضمته دمع رموس الحيات .

وإذا كان ممن لا يسى ، فيك القول ، ولا يرصدك بالسكروه إلا لتعطيه
على الخوف ، وتنع عرضك من جهة التقية فامنحه جميل رفدك ، واحتل
في منحه من قبل غيرك ؛ فإنك إن أعطيته على هذه الشريطة ، وأعطيته
من هذه الحكومة فقد شاركته في سب نفسك ، واستدعيت الألسنة
البذيئة إلى عرضك ، وكنت عوناً لهم عليك .

وكيف تعاقبه على ذنب لك شطره ، وأنت فيه قسيمه ^(٤) ، إلا أن عليك
غرمة ولك غنمه .

(١) التسككة من ب .

(٢) في الأصل : « البداء » ، والوجه ما أثبت . وقد قرئت في ط :
« البداء » خطأ .

(٣) الشرارة : مصدر شر شرأ وشرارة ، بضم شين للضارع وكسر ها .

(٤) في الأصل : « قسمة » .

ومن العدل المحض والإنصاف الصحيح أن نَحْطَ عن الحدود نصفَ عقابه ، وأن نتنصر على [بعض^(١)] مقداره ، لأن ألم حديه لك قد كفأك مؤونة شَطَرِ يحفظك عليه .

وأما الوادُّ فلا تعرض له البتة ، [ولا تلخِثْ لِفَتَه^(٢)] ، ولو أتى على الحرث والنسل ، وحتى على الرُّوح والقلب . ولا تغتر بقوله إني وادُّ ، ولا تحمك له بدعواه بأنى جدّ وامق . وانظر أنت في حديثه وإلى مخارج لفظه ، وإلى لحن قوله ، وإلى طريقته وطبيعته ، وإلى خلقه وخليقته ، وإلى نصرته وتصميمه^(٣) ، وإلى تَوَاقُّه وتهوُّره . وتأملْ مقدارَ جزعه من قلة أكرثائه ، وانظر إلى غضب فيك ولك ، وإلى انصرافه عن انصرف عنك وميله إلى من مال إليك ، وإلى تسله من الشر وتعرضه له ، وإلى مُداهنته وكشف قناعه . بل لا تغفِرْ^(٤) له بجماع ذلك ما كان ذلك في أيام دولتك ومع إقبال من أمرك ، وإن طالَّت الأيام وكثُرَت الشهور ، حتى تنظّم الحالاتُ ، وتسوى فيه الأزمان .

نعم ، نعم لا تحمك له بذلك حتى تكون حاله مقصورة على محبتك ، ومحنوة على نصيحتك ، بالملل التي توجب الأفعال . والأسباب التي تسخر القلوب للمودات ، كالعامل الثابتة في الصنعة ، والأسباب للوجود مع مولى

(١) ليست في الأصل .

(٢) التكة من ب .

(٣) التصميم : الضمى في الأمر بعد إرادته . وفي الأصل : « تصمي » .

(٤) في الأصل : « لا يغفر » .

المتأفة ! فإنّ عليها خلافٌ عِلل مولى الكَلالة^(١) ، وخلاف عِلل الصديق الذي لم يزل يرى أنّه مثلك ، وأنه يستوجب منك استيعابك ، ولا سيما إذا كانت الصنعة أنت اجتدتها ، وأنت أبو غدرتها .

فإنّ أنت لم تحكم له بالنّاية مع اجتاع هذه العِلل فيه ، ومع توافيها إليه ، ولم تقضي له بأنقص النّاية مع ترادف هذه الأسباب وتكامل هذه الدلائل ، وتماون هذه البرهانات ، فكل خبر يفتنه زور ، وكلّ دلالة فلسفة . وقد قال الأول : « دلائل الأمور أشدّ تبييناً من شهادات الرجال » . إلّا أن يكون في الخبر دليل ، ومع الشّهادة برهان ؛ لأنّ الدليل لا يكذب ولا ينافي ولا يزيد ولا يبدل ، وشهادة الإنسان لا تمتنع من ذلك ، وليس معها أمانٌ من فساد ما كان الإمكان قائماً .

وبعد متى صار اختيار التخل على الزرع يُحمد الإخوان ، ومتى صار تفضيل العَبّ وتخریط الثمر يورث الهجران ، ومتى تميزوا هذا التميز^(٢) وتهاكوا هذا التهاك ؟ ومتى صار تقديم الصّلة ملة ، وتفضيل السبلة نحلة^(٣) ؟ ومتى صار الحكم للتمجة نبأً وللكرامة صبراً ، ومتى^(٤) تكون فيها ديانة وتستعكم فيها بصيرة ، ويحدث عنها حجة .

(١) الكَلالة من القرابة : ما خلا الوالد والولد .

(٢) في الأصل : « التميز » .

(٣) في الأصل : « منحة » .

(٤) في الأصل : « وحى » .

وقد كنا نعجب من حرب البسوس في نزع ناب^(١) ، ومن حرب
بعلث في تحرف تتر^(٢) ، ومن حرب غطفان في سيق داية^(٣) . فحفتنا أنت
بنوع من العجب أبطل كل عجب ، وآتينا بكل غريب ، وحسن عندنا
كل قبيح ، وقرب عندنا كل بعيد .

فإن جهلت - أعزك الله - غضبك فتلى جهل مالا علة له ، وإن عجزت
عن احتمال عقابك فتلى ضج مما لا يطبق حله . ولا عار على جازع إلا فيها يمكن
في مثله الصبر ، ولا لوم على جاهل فيها لا ينجح في مثله النكر .

وليس هذا أول شركك نصبت ، ولا أول كيد أرفقت ، ولا هي بأول
زبنة غطيتها وسترتها ، وحيلة أكتبتها ورعيتها .

وقد كانت التفتة والاقتصاد أسلم ، بل كانت القفو أرحم ،
والتناقل أكرم .

(١) كانت لبسوس بنت منقذ القيمة . خلعة جاس بن مرة . ناقة يقال لها
« سراب » . فرمى كليب ضرع تلك الناقة يسهم وقد رآها غرية في إبله . فاستنات
البسوس بخالها جاس . فطمع جاس كلياً فقتل . فوقع السر بينهما لذلك . القد
٢١٣ : ٥ وما بعدها .

(٢) الحرف بكسر الهم : زين منير يحترف فيه أطايب الرطب . وينقصها :
الحفاظ من التخل . وانظر لحرب بنات الأغانى ١٥ : ١٥٤ - ١٥٨ وكامل
ابن الأثير ١ : ٢١٧ ووفاء الوفاء ١ : ٢١٥ حيث تتضح لك إشارة الجاحظ إلى
الحرف بفتح الهم وكسرها معاً .

(٣) السبق . بالتحريك : الذي يوضع بين أهل الباق ، فمن سبق أخذه .
يشير بذلك إلى حرب داحس والغبراء . حين صد أنبلع حمل بن بدر صاحب الفرس
التي تسمى الغبراء . فرس قيس بن زهير وكان يسمى « داحس » . فثار الحرب
بين عيس وذيان ابني بني من ريث بن غطفان أربعين سنة . القد ٥ : ١٥٠ =
(٦٦ - رسائل الجاحظ)

ولا خير في عقوبة تسمت المدوّ المتقادماً^(١)، وينادى بها المدوّ الحادث .
والأناة أبلغ في الحزم ، وأبعد من التّم ، وأحد مَنبّة وأبعد من خرق المجلّة .
وقد قال الأول : « عليك بالأناة ؛ فإنك على إيقاع ما أنت موقّعه أقدر منك
على ردّ ما قد أوقعته » . فقد أخطأ من قال^(٢) :

قد يدرك الثّاني بمنّ حاجته وقد يكون مع التّسجّل الزّلالُ

بل لو قال : ولثّاني يدرك حاجاته أحقّ ، والتّسجّل بقوّ حاجته
أخلّق ، لكان قد وُقّي المعنى حقّه ، وأعطى اللفظ حقّه ، و [إن^(٣)] كان
القول الأوّل موزوناً والثّاني منشوراً^(٤) . ولولا أنه اشتقّ التّسجّل من
المجلّة لما قرّنه بالثّاني . ويضئ أن يكون الذي غاظه قولهم : « ربّ
مجلّة تهبّ ربّياً » . فجعل الكلام الذي خرج جواباً عند ما يمرض من
السّبب ، كالكلام الذي خرج ارتجالاً ، وجعله صاحبه مثلاً علماً .
فإذا سمّيت العمل مجلّة وربّياً فاقض على الرّيث بكثرة القوّ ، وبقدر ذلك من
المجزّ ، وعلى المجلّة بقّة التّججّ ، وبقدر ذلك من الخرق .

والرّيثُ والأناة في بلوغ الأمل وإدراك النّعمة كاستهاز الفرصة واعتبال

= والأغاني ٧ : ٣٤٣ وكامل ابن الأثير ١ : ٣٤٣ . وجمهرة أنساب العرب

٢٥٠ . ٢٥١ .

(١) في الأصل : « القادم » . والتّقديم : التّقديم .

(٢) هو القطامي . ديوانه ص ٢ ونوادر المخطوطات ١ : ١٦٧ . وانظر مجاليس
مطب ٤٣٧ والحاسن البقي ٢ : ١٣٣ .

(٣) ليست في الأصل .

(٤) في الأصل : « مبتورا » .

النيّة . والأناة وإن طالت [فليست من جنس الريث ^(١)] ، وانتهاز الفرصة وإن كان في غاية الشرعة فليس من جنس المجتلة .

وربت كلمة لا توضع إلا على معناها الذي جعلت حفظه ، وصارت هي حقّه والدلالة عليه دون غيره ، كاللزم والعلم ، والحلم والرفق ، والأناة واللدارة ، والتعبد والمدل والاهتبال ، وكاليأس والأتمل ^(٢) ، وكأنفرك والتجفلة ، والمداعنة والفسرّع ، والفنوة والتضمير .

وربت كلمة تدور مع خلفتها ، وتتقارب مع جاراتها ^(٣) ، وإزاء صاحبها ^(٤) ، وعلى قدر ما تقابل من الحالات ، وتلاقى من الأسباب ، كالحب والبغض ، والغضب والرضا ، والعزم والإرادة ، والإقبال والإدبار ، والجدة والفتور ^(٥) ؛ لأن هذا الباب الأخير يكون في الخير والشر ، ويكون محموداً ويكون مذموماً .

وصاحب التعجّلة - أعزك الله - صاحب تغرير ومخاطرة ، إن ظفر لم يحمله طام ، وإن لم يظفر قطعته لللاوم . والريث أخو التمعّزة ، ومفرون بالحسرة ، وعلى مفرجة اللائمة . وصاحب الأناة إن ظفر نفع غيره بالنعم ، ونفع نفسه بشرة العلم ، وأطاب ذكره دوام شكره ^(٦) ، وحفظ فيه ولده . وإن حُرِم

(١) هذه الكلمة مساوية لأسلوب الجاحظ ، وهي من مقترحات ناشر ط .

(٢) في الأصل : « اليأس والأذن » . وفي م : « اليأس والأمن » .

(٣) في الأصل : « جاراتها » ، وأثبت ما في م .

(٤) في الأصل و م : « وإراعاة صاحبها » . وما أثبت أشبه بأسلوب الجاحظ .

(٥) في الأصل : « والفنوة » ، صوابه في || .

(٦) م : « وطاب ذكره . ودوام شكره » .

فبسط عذره ، ومصوب رأيه مع انتفاعه بعلمه وما يجد من عز حرمه ونيل صوابه^(١) ، ومع علمه بالذي له عند العقلاء ، وبغيره عند الأولياء والأعداء .

وما عندي لك إلا ما قال الدهقان^(٢) لأسد بن عبد الله^(٣) وهو على خراسان ، حين مرّ به وهو يدق في حبيبه^(٤) :

إن كنت تعطى من ترحم فارحم من تظلم^(٥) . إن السموات تنفرج لدعوة المظلوم ، فاحذر من ليس له ناصر إلا الله ، ولا جنة إلا الثقة بنزول النير^(٦) ، ولا سلاح إلا الابتهال إلى مولى لا يُجزه شيء .

وأسد ، إن البغي يصرع أهله ، وإن الظلم مرتبه وخيم ، فلا تنتر بإبطاء العقاب^(٧) من ناصر متى شاء أن ينيث أغث . وقد أملى لقوم كي يزدادوا

(١) في الأصل : « وقبل صوابه » ، صوابه في م .

(٢) الدهقان ، بالكسر : زعيم فلاحى البجم ، فارسى معرب .

(٣) هو أسد بن عبد الله القسرى ، أخو خالد بن عبد الله ، كان خالدا على العراق وما يليه من الأهواز وفارس والجلال ، وأخوه أسد على خراسان . وكان بدء ولايتهما في سنة ١٠٦ وعزلا سنة ١٢٠ . تاريخ الطبرى .

(٤) الدهق : التعذيب بالدهق ، وهو بالتحريك : خشبَان يُمز بهما الساق ، وهو بالفارسية « أشكنجه » . وفي الأصل : « في حبه » تحريف . وفي القند ٢ : ١٦١ : « ومر أسد بن عبد الله القسرى ، وهو والى خراسان ، بدار من دور الاستخراج ، ودهقان يعذب في حبسه ، وحول أسد ، ساكين يستجدونه ، فأمر لهم بدراهم تقسم فيهم ، فقال الدهقان ... » .

(٥) في القند : « إن كنت تعطى من برحم فارحم من يظلم » ، « النعلان » برحم ، و « يظلم » بالبناء للمفعول .

(٦) النير : اسم بمعنى نير الحال . وفي الأصل : « التنير » .

(٧) في القند : « النيات » .

إِنَّمَا^(١) . وجميعُ أهل السَّعادة إِنَّمَا سَالِمٌ من ذنب ، وإِنَّمَا تَارَكَ لإصرار^(٢) .
ومن رغب عن المتأذى فقد نال أحد الفئتين ، ومن خرج من السَّعادة فلا غايةَ
له إِلا دار الندوة^(٣) . وسواءٌ - جعلت فداك - ظَلَمْتَ بالبَطش والنَّشْم ،
أو ظَلَمْتَ بالمدْحس والدَّس^(٤) . فتأوَّزْ ثَبْك ، وتأوَّزْ حَزْمَك ، وَقِفْ قَبْلَ
الوَبَةِ ، واحذر زَلَّةَ العالم .

وقد قال صاحبكم : من استشار لثلاثة وَقَدْ طَبِيعَتَهُ الاستِطْرَافَ ، وجعل
الخطرة ذنباً^(٥) ، والذنب ذنباً ، ومقدار الطُّرفة إِصراراً ، والمغشَّيرَ كبيراً ،
والقليلَ كثيراً ، عاقَب^(٦) على المَفْرُوكِ الَّذِي لَا يُنْبَأُ بِهِ ، وَيَبْلُغُ بالبَطش إِلى حيث
لَا بَقِيَّةَ معه^(٧) ، ورأى أَن القُطَيْمَةِ التي لَا صلةَ معها ، والتَّخْلِيَجِ الَّذِي لَا تَجُثِلُ
معه ، الحَزْمُ المحمود ؛ وَأَنَّ الاعتِرَافَ في كُلِّ موضعٍ هو الرأى الأصيل .

وقال أيضاً : من كانت طَبِيعَتُهُ مَنُونَةً عَلَيْهِ عند نفسه ، وكان هَوَاهُ رائده
الَّذِي لَا يَكْذِبُهُ ، والتَّأَثُّرُ عَلَيْهِ دون عقله ، ولم يَتَوَكَّلْ لِمَا لَا يَهْوَاهُ عَلَى

(١) إِلى هُنَا يَتَعْنَى نَصَ الْعَقْدِ . وَفِيهِ : « وَتَدَاوَى الْقُرْمُ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا .
فَأَمْرٌ أَسَدٌ بِالْكَفِّ عَنْهُ » .

(٢) فِي الْأَصْلِ : « الْإِصْرَارُ » .

(٣) كَذَا فِي الْأَصْلِ ، وَجُعِلَتْ فِي ط : « الشَّقْوَةُ » .

(٤) الْحَسَنُ : التَّحْمِيسُ لِلْأُمُورِ تَسْبِطُهَا وَتَطْلُبُهَا أَخْفَى مَا تَقْدِرُ عَلَيْهِ .

(٥) الْخَطَرَةُ : مَا يَقَعُ بِالْبَالِ وَالْوَم .

(٦) فِي الْأَصْلِ : « وَعَاقَبَ » ، وَالْوَلَوُ نَقْصَةُ .

(٧) الْبَقِيَّةُ : الْإِجَاءُ وَهَدْمُ الْبَاقِيَةِ فِي الْإِضَاد .

ما يهواه^(١) ، ولم ينصر تلك الإخوان على الطارف ، ولم ينصف الملول للبد من السطرف القرب ، ولم يخف أن تجتذبه العادة ، وتتصمك عليه الطبيعة ، فليس سم حُببتهما ، ويصور صورهما ، في كتاب مفرد أو لفظ مسموع ، ثم يمرضهما على جباذة العاني وأطباء أدواء العقول ، على ألا يختار إلا من لا يدري أي النوعين يبنى ، وعلى أيهما يحاي ، وأيها دوائه وأيها دالؤه . فإن لم يستعمل ذلك بما فصل له من سكر سوء العادة ، لم يزل متورطاً في الخطاء مضوراً بالذم^(٢) .

سمعتك وأنت تريدني وكأنك تريد غيري ، وكأنك تنير علي من غير أن تنصني . وتقول : إني لأعجب ممن ترك دقار علمه متفرقة مبثوثة ، وكراريس دريه غير مجموعة ولا منظومة ، كيف يمرضها للتجزم^(٣) ، وكيف لا يمنحها من التفرق^(٤) . وعلى أن الدقار إذا انقطعت حزمته^(٥) ، وانحل شداذه ، ونخرمت ربطه ، ولم يكن دونه وقاية ولا جنة ، تفرق ورقه ؛ وإذا تفرق ورقه اشتد جفه ، وعسر نظمه ، وامتنع تأليفه ، وربما ضاع أكثره . والذقان اجمع ، وحَمُّ الجلود إليها أضون ، والحزم^(٦) لها أصلح . وينبغي للأشكال أن تُنظم وللأشياء أن تؤلف ؛ فإن التأليف يزيد الأجزاء الحسنة حسناً ، والاجتماع

(١) في الأصل : « ولم ينكر لنا يهواه » قطع ، وأثبت نص م .

(٢) م : « بالذم » .

(٣) التجزم ، من الجرم وهو القطع . وفي م : « للتجزم » من الحرم .

(٤) م : « التفرق » .

(٥) الحزمة والحزام : اسم لما شده به .

(٦) الأصل : « والحزم » ، صوابه من م .

يحدث للتساوي^(١) في الضيف قوة . فإذا فعلت ذلك صرت متى وجدت بمفها فقد وجدت كلها ، ومتى رأيت أدناها فقد رأيت أئصاها ؛ فإن نشطت لقراءة جميعها مضيت فيها .

وإذا كانت منظومة ، ومعروفة الواضع معلومة ، لم نحتاج إلى تقليب القهاطر على كثرتها ، ولا تفتيش الصناديق مع تفاوت مواضعها ، وخفت عليك مؤوتها وقلت فكرتك فيها ، وصرفت تلك العناية إلى بعض أمرك ، وادخرت تلك القوة لتواب غلك .

وعلى أن ذلك أدل على حبك للعلم ، وامتناعك للكتب ، وعلى حسن السياسة ، والتقدم في إحكام الصناعة .

وقلت : لأمر ما جمعوا أسباع القرآن^(٢) وسوره في مصحف ، ولم يدعوا ما فيه مفرقا في الصدور ، ولا مبددا في الدفائر ، ومفرقا في القهاطر . على ذلك أجمع المسلمون ، والسابقون الأولون ، والأئمة الرشيدة ، والجماعة المحموده فوارته خلف من سلف ، وتايح عن سابق ، وصنير عن كبير ، وحديث عن قديم .

ولم أشك في أنها نعيحة حازم ، ومشورة وامي ، أو رأي خضر أو حكمة

(١) في الأصل : ه للتساوي ه ، وأثبت ما في م .

(٢) تسكل أبو الباس احمد بن يحيى تطلب قدما في أساليه ٦٣ — ٧٠ بيان ضنى القرآن وأئلاه وأرباعه وأخاسه وأمداسه وأسباعه وأئمانه وأئساعه وأعشاره . رواية عن حميد الأهرج . وكذا فعل السجستاني بعده في الصالح ١٢٥ — ١٣٠ رواية عن حميد أيضا .

نَبَتْ ، أو صدرٌ جاش فلم يَلَلْتُ ، أو علمٌ فاض فلم يَرُدْ ، استعمله من استعمله ، وتركه من تركه .

فلما أخذتُ بقولك ، وصرتُ إلى مشورتك وأكثرتُ حمدَ الله على إفادتك من العلم وحِطَّ عنايتك من النقل^(١) ، وجمعتُ البعض إلى البعض^(٢) ، والشكل إلى الشكل ، وتقدمتُ في استعادة الجلود ، وفي تمييز الصناعات ، وفي تمييز البياعات^(٣) ، وغرمتُ المال ، وشغلتُ اليال ، وجعلتها مصحفًا مصحفًا ، وأجبتها صنفًا صنفًا ؛ ورأيتُ أني قد أحكتُ شأني ، وجمعتُ إلى أقطاري ، رأيتُ أن أنظر فيها وأنا مستاقٍ ولا أنظر فيها وأنا متعصبٌ ، استظهرتُ على تَسبِ البدن ؛ إذ كانتِ الأسافل مُثقلةً بالأعلى ، وإذا كان الانتصاب يُسرّع في إدخال الوهن على الأصلاب ؛ ولأنَّ ذلك أبقى على نور البصر ، وأصبحَ لقوّة الناظر ؛ إذ كُلُّ واحدٍ من هذه للصاحف قد أعجزَ يدي بِثَقَلِ جِرمه ، وضيقِ صدري بِجفاءِ حجبهِ . وإذا نُقِلَ أنسكا الصدر ، وأوهنَ العظم .

(١) في الأصل : « وحطّ عنايتي » .

(٢) هذا من شواهد استعمال « جف » مقرونةً بأل في قديم الآثار . وإن كان الأصمعي قد أنكره أحد الإنكار حين سئل عن قول ابن القفيع : « العلم كثير ولكن أخذ البعض خير من ترك الكل » . وأنكره أبو حاتم أيضًا . قال : « ولا قول العرب الكل ولا البعض ، وقد استعمله الناس حتى سيويه والأخفش في كتبهما قلّة عليهما بهذا النحو ، فاجتنب ذلك فإنه ليس من كلام العرب » . وقال الأزهري : « الصوريون أجازوا الألف واللام في جف وكل وإن أباه الأصمعي » . اللسان (جف) .

(٣) في الأصل : « الساعات » ، وليس لها وجه ، والوجه ما أثبت . والبياعات : الأحياء التي يتبايع بها في التجارة . وانظر الحيوان ٤ : ٣٦٩ . وفي اللسان : « والبياعة : السلة » .

وإذا أنا نظرت فيها وأنا جالسٌ سَدَرْتُ عَيْنِي^(١) ، ونَقَوْتُ ظَهْرِي ،
واجتمع الدمُّ في وجهي ، وأَكْرَهْتُ بَصَرِي على غير جهته ، وأَجْرَيْتُ شِعَاعَ
ناظِرِي في غير مجراه .

٩٧ و

وقد عِلَّتْ - أَجْكَ لَهْ - مع خَيْرَتِكَ بِجَنَاحِ الْأُمُور ، ومَوَاقِعِ لِلنَّافِعِ
وَالضَّارِّ ، ثم بِمَصَالِحِ الْمَبَادِ وَالْبِلَادِ ، أَنْ مَنْ كَانَ عَلَى مَقْطَعِ جَبَلٍ ، أَوْ عَلَى
شُرْفَاتِ قَصْرِ ، فَأَرَادَ رُؤْيَا السَّمَاءِ عَلَى بُعْدِهَا ، وَجَدَ ذَلِكَ عَلَى الْعَيْنِ سَهْلًا
خَفِيفًا ، وَإِنْ أَرَادَ أَنْ يَرَى الْأَرْضَ عَلَى قُرْبِهَا ، وَجَدَ ذَلِكَ عَلَى الْعَيْنِ عِثًّا
ثَقِيلًا . فَإِنْ بَدَأَ أَنْ يُقَابِلَ عَيْنِي بِهِ الْمَبْدُ ، أَوْ تُوَاجِهَنِي بِهِ الْأَمَّةُ ، كَلَفْتُ
أَخْرَقَ النَّاسَ كُفًّا ، وَأَقْلَهَمَ رَفَقًا^(٢) ، وَأَكْثَرَهُمُ الْفَنَاءَ ، وَأَحْضَرَهُمُ نَمَاسًا ،
وَأَقْلَهَمَ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ تَبَانًا ، وَأَجْهَلَهُمْ بِتَقْدَارِ الْمَوَاقِفَةِ ، وَلِقَادِيرِ الْقَابِلَةِ ،
وَبَحْطِ الْيَدِ وَرَفْعِهَا ، وَإِمَالَتِهَا وَنَصْبِهَا . ثُمَّ رَأَيْتُ فِي تَضَجُّرِهِمْ وَتَكْرِهِهِمْ
وَفِرَارِهِمْ مِنْهُ ، مَا صَبَّرَ تَجَشَّى لثَقَلِ وَزَنِهِ ، وَمُقَاسَاةَ لِفَنَاءِ حَبْخَبِهِ ، أَهْوَنَ عَلَى
يَدِي ، وَأَخَفَ عَلَى قَلْبِي . فَإِنْ تَعَامَلَيْتُهُ عِنْدَ ذَلِكَ بِنَفْسِي فَشَقَاءٌ حَاضِرٌ ،
وَإِنْ أَلْزَمْتُهُ غَيْرِي فَفَيْضٌ قَاتِلٌ . وَحَتَّى صَارَتْ إِخَالُ فِيهَا دَاعِيَةً إِلَى تَرْكِ دَرَسِهَا
وَالْمَعَاوِدَةِ لِقِرَائَتِهَا ، مَعَ مَا كَانَ فِيهَا مِنَ الْفَائِدَةِ الْحَسَنَةِ ، وَالنَّافِعِ الْجَامِعَةِ ، وَمِنْ
حَسَنَةِ الطَّبِيعَةِ ، وَتَحْكِيمِ حُسْنِ الْعَادَةِ .

ولو لم يكن في ذلك إِلَّا الشُّغْلُ عَنْ خَوْضِ الْفُلَافِظِينَ ، وَالْبُعْدُ عَنْ هَوَى
الْأَلَاهِينَ ، وَمِنْ النِّيَّةِ لِلنَّاسِ وَالْهَمِّ لِمَا فِي أَيْدِيهِمْ ، لَقَدْ كَانَ نَفْعٌ ذَلِكَ كَثِيرًا ،
وَمَوْقِفَةٌ مِنَ الدِّينِ وَالْفَرَضِ عَظِيمًا .

(١) سَدَرَ بَصَرَهُ سَدْرًا : نَجَّهَ قَلَمَ بَصَرِهِ . (٢) الْوَفْقُ : بِالْفَتْحِ : الْمَوَاقِفَةُ .

ومنى ثقل المدرس تناقلت النفس ، وتفاعست الطبيعة . ومنى دام
الاستفقال أحدثت الهجران . وإذا تطاول الكدر رشح الزهد . وفى ترك
النظر عى البصر ، وفى إهمال الطبيعة كلال حد الطبيعة . وعلى قدر الحاجات
تكون الخواطر ، كما أنه على قدر غريزة العقل تصح الخواطر^(١) وتسم ،
وعلى قدر كثرة الحاجة تتحرك الجارحة ويتصرف اللسان ، ومع قلة الحركة
وبعد المهد بالتصرف يحدث الي وبظهر العجز ويبطئ الخاطر . ومع ذهاب
البان^(٢) يفسد البرهان ، وفى فساد البرهان هلاك الدنيا وفساد الدين .

٩٧ ظ قد بلغت ما أردت ، ونيت ما حاولت . لحبك الآن من شج من
ياسوك ، ومن قتل من يقتل فيك .

جئت فذاك . إنه ليس يومى منك بواجد ، وأنا على عقابك أوجد .
وليس ينجى منك معقل وعيل « ولا مفاضة سح ، ولا قمر بحر ، ولا رأس
طود ، ولا دغل ولا دحل^(٣) » ، ولا نق ولا مفارة ولا مطبورة . وليس
ينجى منك إلا مفاضة للهب^(٤) . فإن أعرتى قلبه وعلتنى حيكه ،
وأمكننى من سكينه . وإلا فانا أول من ابتلته تلك الحية . ولا والله إنى

(١) فى الأصل : « الجوانح » . والجوانح : الضلوع ، أو القصار منها . والوجه
الآتيت . وانظر ما قبله وما بعده .

(٢) بهذا مصححنا ناسخه . وفى الأصل : « البرهان » .

(٣) الدغل بالتحريك : الشجر الكثير للنف . والدحل ، بالفتح : هوة تكون
فى الأرض وفى أسافل الأدب يكون فى رأسها ضيق ثم يتسع أسفلها . وفى الأصل :
« دحل » تصحيف .

(٤) كذا فى الأصل .

قوة على الشيطان^(١)، فكيف التَّين . أعني من حية الهلب ثم اتخلى أى
تقو شفت .

إن احترستُ منك ألقيت لنفسي كدًّا شديدًا ، وغمًّا طويلاً ، وطال
اغترابي واغتراقُ الألفى ، ونعرتُ للعدوِّ ، ونحرشتُ بالسباع . فلئن
استرسلتُ إليك لم تر أن تفتني إلا شرَّ قطفٍ وآلها ، ولم تعدني إلا بأشدَّ
الأنعم وأطولها . ولو أردتَ ذبني لاخترتَ الكلبل على الشرف ، والتطويل
على التدفيف^(٢) ، حتى كأني علمت عليك : « شاه مات^(٣) » ، أو أكلت
سبعةً وأطعمتكَ واحدة .

ولقد تقدّمت في السكر واستظهرت على في الكيد ، حتى توليت ذلك
في صفار كنتي وفيما لا تحمّل به من دوام أمرى ، وعلمت أن الدرس ليل
وأن الا^(٤) . « فنهار » وأن الكتاب لا يقرأ إلا ليلاً والتَّينانُ
زاهية ، والصاييح مُتربة . وعلمت أن كل من ضف بعمره وكل نظره ،
فإنه أبداً أقرب مصباحاً وأعظم تاراً . وأن^(٥) المحرور المحترق ، والممرور
اللتهب ، والبانس التهافت ، إذا كان صاحب كنب ودوس ، أنه لا يجد

(١) أى ما بي قوة عليه .

(٢) التدفيف بالذال للعجمة : الإسراع في القتل .

(٣) أى لحقك من النيط ما يلحق اللاعب بالشرطي من قول صاحبه له :
« شاه مات » .

(٤) يابض في الأصل . وإزاءه في هاش النسخة « حراويه » .

(٥) في الأصل : « فإن » .

بدأ من العبر على ما يُحرّقه ويُعميه ، أو الترك للقراءة فيها والتعرض لها .
تقريباً بين العي والجبل . وما فيها حظٌ مختار .

وقلت : إذا سَخُنَ ^(١) بدنه سُجِنَ بوله ، وإذا سُجِنَ بوله جَرَحَ مثانته
وأحرق كُليته ، وطَبَخَ فضول غِذائه ، وَجَفَّ ما فضل عن استمراره فأحاله
حصى قانلاً وصغراً جامداً ، وهو دقيق القضيبي ضيق الإحليل ، فإذا
حصاه بورنه الأشر ^(٢) ، وفي ذلك الأسر تافُ النفس أو غاية التعذيب .

وقلت : فإن اجليت بطول عمره أقام فينا مشغولاً بنفسه ، وإن ذهب
عنا فقد كفانا مؤونة الحيلة في أمره .

جملتُ فِدَاكَ ، ما هذا الاستعفاء وما هذا البلاء ؟ ! وما هذا التثنع
لنواميس السألة ، والتعرض لدقائق المنكروه ؟ ! وما هذا التخلل في كل
شيء يُحتمل ذكرى ؟ ! وما هذا الترقى إلى كل ما يحط من قهري ؟ !

وما عليك أن تكون كتي كلها من الورق العيني ، ومن الكاغد
الخُرَاساني ؟ !

قل لي : لِمَ زَيْفَتَ النسخ في الجلود ، ولمَ حشفت على الأدم ، وأنت
تلم أن الجلود جافية الحجم ، ثقيلة الوزن ، إن أصابها الماء بطلت ، وإن كان
يؤمّ لَدَنِي استرخت . ولو لم يكن فيها إلا أنها تهبس إلى أربابها نزول النيث ،
وتسكروا إلى مالكيها الخيا ، لكان في ذلك ما كنّ ومنع منها .

(١) في الأصل : « سجن » .

(٢) الأسر ، بالضم : احتباس البول . في الأصل : « فأرى حله » .

قد علمت أن الورق لا يخط في تلك الأيام سطراً ، ولا يقطع فيها
جلداً . وإن نديت - فضلاً على أن تخط ، فضلاً على أن تفرق - استرلت
فامتدت . ومتى جفت لم تمد إلى حالها إلا مع تقبض شديد ، وتشج قبيح .
وهي أنثى ريماء وأكثر ثمناً ، وأحمل للفن : ينشئ الكوفي بالواسطي ،
والواسطي بالبصري ، وتعتق لكي يذهب ريماء وينجاب شعرها^(١) . وهي
أكثر عقداً وعَجراً ، وأكثر خياطاً وأسقاطاً ، والصفرة إليها أسرع ،
وسُرعة انسحاق الخط فيها أهم . ولو أراد صاحب علم أن يحمل منها قدر
ما يكفيه في سفره لما كفاه حمل بعير . ولو أراد مثل ذلك من القطن^(٢)
لكفاه ما يحمل مع زاده .

وقلت لي : عليك بها فإنها أحمل لكك والتنخير ، وأبقى^(٣) على تعاود
العارية وعلى تغليب الأبدى ، ولترديدها ثمن ، ولطرسها مرجوع ، وللماد
منها ينوب عن الجُد . وليس للفاخر القطن أثمان في السوق وإن كان
فيها كل حديث طريف ، ولطف مليح ، وعلم نفيس . ولو عرضت عليهم
عذلها في عدد الورق جلواً ثم كان فيها كل شيء بارد وكل حديث غث ،
لكانت أتمن ، ولكانوا عليها أسرع .

وقلت : وعلى الجلود يعتمد في حساب البواوين ، وفي الصكك
والمهود ، وفي الشروط وصور المقارنات . وفيها تكون نموذجات النقوش ،

(١) في الأصل : « شعره » .

(٢) أى للسنة من القطن .

(٣) في الأصل : « وإبقاء » .

ومنها تكون خرائط البرد^(١). ومن أصلح للجرب وله ناص الجربة وسداد القارورة. وزعمت أن الأرض إلى الكاغد أسرع، وأنكرت أن تكون القارة إلى الجلود أسرع، بل زعمت أنها إلى الكاغد أسرع وله أفد، فكنت سبب الضرر في اتخاذ الجلود والاستبدال بالكاغد، وكنت سبب البلية في تحويل الدثار الغفاف في التحمل، إلى اللصاحف التي تنقل الأبدى وتحطم الصدور، وتقوس الظهور، وتسمى الأبعاد.

وقد كان في الواجب أن يدع الناس اسم المصحف للشيء الذي جمع القرآن دون كل مجلد^(٢)، والآن يروموا جمع شيء من أبواب التعلم بين الدفتين، فيلحقوا بما جعله السلف للقرآن غير ذلك من العلوم.

دع عنك كل شيء. ما كان عليك أن يكون لي وله يحيى ذكرى ويحوى ميراثي، ولا أخرج من الدنيا بحرقى، ولا يأكله مرء يرصدني، وابن عمي يحذني، ولا يرنع فيه المدلون في زمان السوء^(٣)، ولا تعطنع فيه الرجال، ويقضى به الثمام. فقد رأيت صنيمهم في مال المفقود والناسخة^(٤) والوارث الضعيف، ومن مات بغير وصية.

(١) الخريطة: هنة مثل الكيس تكون من الحرق أو الأدم تخرج على ما فيها. والبرد: جمع بربد.

(٢) الجاحظ استعمل كلمة «المصحف» للدلالة على المجلد في نهاية كل جزء من أجزاء الحيوان. انظر مقدمة الحيوان ص ٢٨.

(٣) المدلون: الذين يقيمون الأحكام.

(٤) الناسخ والناسخة في البراث: موت وورثة بعد ورثة وأصل البراث قائم لم يقسم.

جُمِلتُ فذاك ، إن النفوس لا تجود لمولى السَّلالة^(١) بما تجود به لأولاد الأصلاب وما سرّ تلك الأصلاب ؛ لأنّ الرحم للسَّنة والقراية للمتصقة ، واللحمة للمتصّحة ، وإن أثلت التركة ونازعت إلى الورث ، ففما ما يطررها ويثنيها ، ويحزنها ويكيها ، ويحرك دما ويستنز دمتها . وقد شفع لولده إلى أبيه حالّ آية كانت من أبيه .

وإنّ العلم الذي ليس بالبعد فيجُتكَ من جسده ، وليس بالقرب المحتو على رَحِمِهِ ، وسببه الجاذب^(٢) له إلى تمّنى مماتى أمتن من سببه إلى تمّنى بقاى ، وهو إلى الحال الموجبة لقسوة والظلة أقرب منه إلى الحال الموجبة لفرقة والمعلف . وليس بنصره إذا نصرَكَ ولا يعمى عليك لقرايته منك ، ولكن لعله بأنّه متى خذلك حلّ به ضعفك ، واجترأ بعد ضعفك عليه عدوّه . فهو يريد بنصره من لا يجب عليه شكره ، ويقوى ضعف غيره بدفع الضعف ٩٩ و عن نفسه .

جمِلتُ فذاك . ما كان عليك من بُنى صغير يكون لى ، ولا سينا ولست عندك ممن يدوك كسبه أو تُبلّغ نصرته ، أو يُمارن بزه أو يؤمّل إمتاعه . وما كان عليك مع كثير سقى وُضع ركنى ، أن يكون لى ربحانة أئمتها ونمرة أئمتها ، وأن أجد إلى الأمانى به سينا ، وإلى التاعى سدا ، وأن تكثر لى من جنس سرور الحالم ، ويقدر ما يمتنع به راجى السُّراب اللامع ، حتّى حَبِيتَ قِصر عمرى إلى ولئى ، وشوّفته إلى ابن عمى ؛ وحتّى زدت فيها عنده

(١) السَّلالة من القراية : ما عدا الوالد والولد .

(٢) فى الأصل : « وسبب الجاذب » .

مع كثرة ما عنده ، وحتى صيرني حبه لوفى إلى حب موته ، وتأميل مالى
[إلى (١)] تأميلي قمره ؛ وحتى شغلتني عن كان يشغل عدوى عنى .

وسواء أُميتَ على ألا يكون لى ولد قبل أن يكون ، أو عبتَ على
ألا يكون بمسد أن كان . وإنما يمدب الله على النية والقصد ، وعلى
التوخي والمد .

وكأ أنه سواء أن تخال في ألا يكون لى مال قبل أن أملكه ، أو احتلت
فى ألا يكون بعد أن ملكته .

وكنت لا أدري ما كان وجه حبك لإعنائى ، والقشيد بذكر ترانى ،
والتتويه باسى ، ولا لم زهدتني في طلب الولد ، ورغبتني في سيرة الرهبان .

فإذا أنت لم ترفع ذكرى في الأغنياء ، إلا لتعرض ذنبى للفقراء ، ولم تكثر
مالى إلا لتضوى الله في قلى ، فيالها مكيدة ما أبد غورها ، وبالمأخرة
ما أبد قمرها . لقد جمع هذا التدبير لطافة الشخص ودقة السلك .
وبعد الناية .

والله لو دبرها الإسكندر على دارا بن دارا ، أو استخرجها الهلب على
سفيان بن الأبرد ، وفُتحت على هرثمة في مكيدة خازم بن خزيمه ، ولو دبرها
لقيم بن لقمان على لقمان بن عاد (٢) ، ولو أراغها (٣) قيس بن زهير على جهم
ابن حذيفة ، ولو توجهت لكثبان بنى أسد على دهاة قريش - لقد كان ذلك

(١) ليست في الأصل .

(٢) انظر البيان ١ : ١٨٤ - ١٨٥ .

(٣) أراغها : أرادها وطلبها . وفي الأصل : « أذاعها » ، تحريف .

من تديرهم نادراً [بديهة^(١)] ، ولكن في مكابدهم شاذاً غريباً . وإنها
لترتفع عن قعير في كيد الزبنا ، وعن جذيمة في مشاورة قصير . وما إخالها
إلا ستدق على ابن العاص ، وتنفض على ابن هند^(٢) ، ويكل عنها
أخو ثقيف^(٣) ، ويسلم لها ابن شيمية^(٤) .

هذا والله التدبير لا تخاريق القراءف ، وتزاوي الكاهن ، وتهاويل
الحلوى^(٥) ، ولا ما ينتحلها صاحب الرئي^(٦) ! بل نضل فيها رقى الهند ، وتقر
بها سكرة بابل .

فلو كنت إذ أردت ما أردت ، وحاولت ما حاولت ، رفمت قبل كل شيء ،
للزانية ، ثم أيت اللواكلة ، ثم قطعت اليد^(٧) ، ثم أذنت مع العائنة ،
ثم أعلت الحرمان ، ثم صرحت بالجفوة ، ثم أمرت بالحجاب ، ثم صرمت
الحبل ، ثم عادت وخصدت ، ثم من بعد ذلك كله أسرفت واعتديت ، لكنت

(١) التسكعة من ب .

(٢) هو عمرو بن هند .

(٣) جنى الحجاج بن يوسف .

(٤) جنى زياد بن أبيه .

(٥) انظر الحيوان ٤ : ٣٧٠ .

(٦) الرئي : جنى يعرض الرجل بربه كهانة وطبا . يقال مع فلان رئي .
وقد أراى الرجل ، إذا صار له رقى من الجن . في الأصل : « صاحب الرى »
وفي ب : « ينتجها صاحب الدين » ، والصواب ما أثبت . انظر الحيوان ٤ : ٣٧٠ .
٦ : ٣٠٣ .

(٧) في الأصل : « السر » .

واحداً ممن يصبر أو يجرع ، فقلْتُ كنت أعيش بالرفق^(١) ، وأنبأني بخشاة النفس ، وأعلل نفسي بالطعم الكاذب . ولكن لجاءت الحوادث وبَنَاتُ البلاء لا يقوم لها الحجر القاسي ، ولا الجبل الراسي . فلم تدع غاية في صرف ما بين طبقات التذويب إلَّا أثبت عايبها ، ولا فضول ما بين قواصم الظهور إلَّا بانفتها . قد مِتُّ الآن فع من تعيش ؟ [بل قد قتلتي قس الآن ناعشر^(٢)] ، كما قال دجوت الغني لكسرى حين أتمر بقتله لِقَتْلَهُ تليذه بلهيد^(٣) : قتلْتُ أنا بلهيد ، وقتلاني ، فمن يطربك ؟ قال : خلوا سيده ؛ فإن لذي بقي من عمره هو الذي أنطقه بهذه الحجّة .

ولكني أقول : قد قتلتي فع من تعيش ؟ أتع الشطرنجيين ؟ ! قد قال جالينوس : إنيّاك والاستمتاع بشيء لا يمّ ثمة^(٤) .

إنّ الكلام إنما صار أفضل من الصمت ؛ لأنّ نفع الصمت لا يكاد يمدو الصّامت ، ونفع الكلام يمدّ القائل والسامع ، والفائب والشاهد ، والراهن والغابر .

وقالوا : ومما يدك من فضل الكلام على الصمت ، أنّك بالكلام تخبر عن الصمت وقضه ، ولا تخبر بالصمت عن فضل الكلام . ولو كان

(١) الرفق ، بالتحريك : الله اللال . ولعل صوابها « الرقيق » .

(٢) التكملة من ب .

(٣) في الأصل « بلهيد » في هذا الرّوض ونأله .

(٤) الكلام يمدّ إلى قوله « من سلم » يبدو أنه دخيل من رسالة أخرى ، كما تنبّه لذلك ناعشر ط .

العتى أفضل لكات الرسالة صمتاً ، ولكان عدم القرآن أفضل من القرآن .

وقد فرّق بينهما رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، وفصل وميّز وحصل ، حيث قال : « رحم الله امرأ قال خيراً فنتم ، أو سكتَ فسلم » . فجعل حظّ الكوت السلامة وحدها ، وجعل حظّ القول الجمع بين النية والسلامة . وقد سلم من لا يهتم ، ولا يهتم إلا من سلم .

فأما اللوابُ فمن يضع المركب الكريم إلى الصاحب الكريم ؟ ومن يبدل إمتاع بهيمة بإمتاع أديب .

قالت ابنة الثمان : لم ترفيا جرّبنا من جميع الأصناف أبلغ في خير وشر ؟
من صاحب .

ولما عزم ابن زياد على الخفّة بعد أن كان تَفَحُّشها قال له حارثة بن بدر :
ما أجيد أولى بتولى ذلك من الطيب . قال عُبيد الله : كلا ، فإنّ الصاحب .
والله أن لو تُسجّت في كلّ عام ألف شُبْدِيز^(١) ، وأُحبلت^(٢) في كلّ ليلة
أربعة آلاف ربرب ، وصار لك كلّ نهر للبارك^(٣) بدلاً من بعض بابك^(٤) .

(١) الشبديز : ضرب من الخيل قائم اللون أصداً ، ولفظه فارسي . معجم
استنباس ٧٣١ . وفي الأصل : « سدين » ، صوابه في ب .

(٢) في الأصل : « وفرت » وأثبت ما في ب .

(٣) اسم نهر بالبصرة احفره خالد بن عبد الله القسري لمشام بن عبد الملك .
وفي الأصل : « البرك » .

(٤) بابك ، بفتح الباء الثانية : نهر في بغداد منسوب إلى بابك بن بهرام بن بابك .
معجم البلدان (نهر الطابق) .

وأكلت رأس الجنيد بن حاق الأشم^(١)، وأحبلت ابن ألفز^(٢) من إفراط الشبق، لما كان يبنى لك أن تعاملنا بهذه المعاملة، ولا كان يبنى أن تقتلنا هذه القطة، ولو انتصرت من العقوبة على شيء دون شيء، لكان أعدل، ولو عفوت البتة لكان أمثل.

إن الاعتزام على قليل العقاب يدعو إلى كثيره، ومبتدئ العقاب برض لجأج. وليس بعقاب إلا غضبان.

والنضب ينطب الزم على قدر ما سكتن، ويحير القلب بقدر ما سلط.

والنضب بصور لصاحبه مثل ما يصور الشكر لأهله.

والنضبان يشمله النضب، ويبنى به النبط، وتضرغه الحركة، ويمتل بدنه رعدة، وتزابل أخلاطه، وتتحل عقده، ولا يعتربه من الخواطر إلا ما يزيد في دائه، ولا يسمع من جليبه إلا ما يكون مادة لغاده. وعلى أنه ربما استفرغ حتى لا يسمع، واحترق حتى لا يفهم.

ولولا أن الشيطان يريد ألا يخلو من عمله، ولا يقصر في عادته، لما وسوس إلى النضبان ولا زين له، ولما أغراء ولا فتح عليه؛ إذ كان قد كفاه، وبلغ أقصى مناه.

وليس يصارع النضب أيام شبابه وغروب نايه شيء، إلا سرعه، ولا يئازعه قبل انتهائه وإدباره شيء، إلا قهره. وإنما يحتال له قبل هيجه،

(١) كذا ورد هذا الملم.

(٢) ابن ألفز: رجل من إباد يزعمون أنه كان أعظم الناس عضواً وأشدهم نكاحاً. نمار القلوب ١١١ - ١١٢ وأمثال اليداني ٢: ٢٧٣ في قولهم (انكح من ابن ألفز) والسان (لفز). وفي الأصل: « واحملت بين ألفز »، صوابه في ب.

ويُتَوَقَّع منه قبل حركته ، ويُضْمَدُ في حَسْمِ أسبابه وفي قطع عله . فإِذَا إِذَا
تَمَكَّنَ واستفعل ، وأَذْكِي ناره واشتعل ، ثُمَّ لَاقَى ذَلِكَ من صاحبه قُدْرَةً ،
ومن أَعْوَاهِ سَمًا ومَلَاعَةً ، فَلَوْ سَطَعَتْهُ بِالتَّوَرَانِ ، وَوَجَّرَتْهُ بِالْإِنْجِيلِ ، وَلَدَدَّتْهُ
بِالزُّبُرِ^(١) ، وَأَفْرَغَتْ عَلَى رَأْسِهِ الْقُرْآنَ إِفْرَاقًا ، وَأَتَيْتَهُ بِآدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ شَفِيقًا
لَمَّا فَعَّرَ دُونَ أَفْصَى قَوْصِهِ ، وَلَهْمَى أَنْ يُهَارَ أَضْعَافَ قُدْرَتِهِ .

وقد جاء في الأثر : أن أقرب ما يكون العبدُ من غضب الله إذا غضب . ١٠٠ ظ
قَالَ قَتَادَةُ : لَيْسَ يُسْكِنُ الْغَضَبَ إِلَّا ذِكْرُ غَضَبِ الرَّحْمَنِ عَزَّ وَجَلَّ .
وقال عمرو بن عبيد : ذَكَرَ غَضَبَ الرَّبِّ يَنْتَعِ مِنَ الْغَضَبِ . إِلَّا أَنْ يُرِيدَ
الذِّكْرَ بِاللَّسَانِ^(٢) .

وَيَسْتَأْذِنُ لِلتَّوَجُّدِ غَضَبَانِ ، وَالذِّكْرُ حَقٌّ دُونَ .

فَلَا تَقِفْ - حَفَظَكَ اللَّهُ - بَعْدَ مَضْيَكِ فِي عِقَابِ التَّمَنَّا لِلْعَفْوِ عَنِّي ،
وَلَا تَقْصُرْ عَنِ إِفْرَاطِكَ مِنْ طَرِيقِ الرَّحْمَةِ لِي ؛ وَلَكِنْ قِفْ وَقْفَةً مِنْ يَتَهَمُ
الْغَضَبَ عَلَى عَقْلِهِ ، وَالشَّيْطَانُ عَلَى دِينِهِ ؛ وَيَعْلَمُ أَنَّ الْقَتْلَ خُصْمُونَا ،
وَالْكَرَمَ أَعْدَا .

وَإِنْ مِنَ النُّعْصِ أَنْ تَنْتَصِفَ لِمَقْلُوكٍ مِنْ خَصْمِهِ ، وَتَنْتَصِفَ لِكَرِيمِكَ مِنْ
عَدُوِّهِ ، وَتُسَكِّ إِسْمَكَ مِنْ لَا يَبْزِي نَفْسَهُ مِنَ الْهَوَى ، وَلَا يَبْزِي الْهَوَى
مِنْ الْخَطَا .

(١) سَطَعَهُ الدَّوَاءُ : أَدْخَلَهُ فِي أَعْنَى بِالْمِصْطِ . وَأَوْجَرَهُ الدَّوَاءُ : أَدْخَلَهُ فِي لَه
بِالْجَبْرِ . وَلَهُ بِاللُّدُودِ : مِثْلُ بِالْمِصْطِ فِي أَحَدٍ شَقِيَ النَّفْسُ
(٢) أَيْ إِنْ ذَكَرَ غَضَبَ الرَّحْمَنِ بِاللَّسَانِ لَا يَصْنَعُ شَيْئًا ، وَإِنَّمَا مَرَادُهُ ذِكْرُ الْغَضَبِ
بِالْقَلْبِ وَالْهَكْرِ .

ولا تُنكر لنفسك أن تزلّ ، ولعلّك أن يهفؤ ؛ فقد زلّ آدم عليه السلام
وهنا ، وعصى ربّه ونهى ، وغرّه عدوّه وخدعه خصمه ، وعيب باختلال
عزمه وسكون قلبه إلى خلاف تقته ^(١) . هذا وقد خلقه الله بيده ، وأسكنه
في دار آمنه ، وأسجد له ملائكته ، ورفع فوق العالمين درجته ، وعلمه جميع
الاسماء بجميع اللغات . ولا يجوز أن يسلّم الاسم ويدع للمنى « ويعلم الدلالة
ولا يضع له للدلول عليه . والاسم بلا معنى لغو ، كالظرف الخالي . والاسماء ^(٢)
في معنى الأبدان والماني في معنى الأرواح . اللفظ للمنى بدنّ ، والمنى للفظ
روح . ولو أعطاه الاسماء بلا معاني لكان كمن وهب شيئاً جامداً لا حركة له ،
وشئناً لا حس فيه ، وشئناً لا منفعة عنده .

ولا يكون اللفظ اسماً إلا وهو مضنّ بمعنى ، وقد يكون للمنى
ولا اسم له ، ولا يكون اسم إلا وله معنى .

في قوله جلّ ذكره : ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ^(٣) ﴾ إخباراً أنه قد علّمه
الماني كلّها . ولنا منى معاني تراكيب الألوان والطعوم والأرايسح ،
وتضاعيف الأعداد التي لا تنتهى ولا تقاها . وليس لما فضل عن مقدار
الصلحة ونهاية الرسم اسم إلا أن تدخله في باب العلم فتقول : شىء ، ومعنى .

الاسماء التي تدور بين الناس إنشأ وضعت علاماتاً لخصائص الحالات ،

(١) في الأصل : « نته » . وأثبت ماني ب

(٢) في الأصل : « والاسم » .

(٣) الآية ٣١ من سورة البقرة .

لا لتأنيج التركيبات . وكذلك خاص الغائص لا اسم له إلا أن تجعل الإشارة
المقرونة باللفظ اسماً .

وإنما تقع الأسماء على العلوم المقصورة ، ولعمري إنها لتُحيط بها وتُشتمل .
فأما العلوم المبسوطة فلإنها تبلغ مبالغ الحاجات ثم تنهى .

١٠١ و

فلذا زعمت أن الله تبارك وتعالى علم آدم الأسماء كلها بجمانيها ، فلئنا
نعنى نهاية الصلحة لا غير ذلك . هذا وآدم هو الشجرة وأنت نمرة ، وهو
سحاي وأنت أرضى ، وهو الأصل وأنت الفرع ، والأصل أحق بالقوة
والفرع أولى بالضعف .

فلست أسألك أن تمسك إلا ربنا نكنُ إليك غشك ، ويرتدُ إليك
ذهنك ، وحتى توازن بين شفاء الغيظ والانتفاع بثواب الغفر ، وترى الحلم
وما تجلب من السلامة وطيب الأعدوة ، وترى تضرُّم النضب^(١) وما يفضي
لأهله من فضل القوة .

على أن العقل إذا غلب من سُكر النضب أصابه ما يُصيب المحسور
إذا خرج من سكر شرابه ، والنهزم إذا عاد إلى أهله ، والنهزم إذا أفاق
من برسامه^(٢) .

وما أشك أن العقل حين يطاق من إسهاره كالقيد حين يترك من قيوده ؛
يمشي كالزيف ، ويعجل كالغراب . فلذا وجب عليك أن تحذر على عقوك
مُخاطرة داء النضب بمد تخلّصه ، وأن تتمسّده بالعلاج بمد مهابته له وتخلّصه

(١) في الأصل : « المرض » .

(٢) البرسام : ذات الجنب ، وهو الهاب في الشتاء المحيط بالرتة . المعجم الوسيط .

من يده ، فإظنك به وهو أسيرٌ في ملكه ، وصريح تحت كلِّك له ، وقد غطه في بحره ، وغمره بفضل قوته .

وقد زعموا أن الحسنَ حضر أميراً قد أفرطَ في عقوبة بعض الثُغنيين ، فكلَّه فلم يحفل بكلامه ، وخوفه فلم يتمظ بزجره ، فقال : إنك إنما تضرب نفسك ، فإن شئتَ الآن فأقتلْ ، وإن شئتَ فأكثر .

ومآذ الله أن أقول لك كما قال الحسنُ لذلك الظالم المتدنى ، والصَّميم الناسي ، ولكني أقول : اعلم أنك تضرب من قد جعلتَ من قتله في حِلٍّ . وإن كان القتلَ يحلُّ بإحلال القتول ، ويسقط عنه عقابه بهبة الظالم ؛ ولو أمكن في الدين تواهبُ قصاص الآخرة في الدنيا ؛ وإن كان ذلك مما تجود به النفس يوم الحاجة إلى الثواب وإلى رفع العقاب ، وكان الوفاء مضموناً - لكنتُ أوَّل من أسهمتُ بذلك^(١) نفسه ، وانشرح به صدره .

١٠١ ظ

جئت فذاك ، إني قد أحصيتُ جميع أسباب التماذى ، وحصلت جميع علل التضامن ، إلاَّ علَّةُ عداوة الشيطان للإنسان ؛ فإني لا أعرف إلاَّ مجازها في الجملة ولا أحقَّ خاصتها على التحصيل . وعلى حال^(٢) قد عرفتُها من طريق الجملة وإن جهلتها من طريق التفصيل . فأما هذا التجنى فلم أعرفه في خاصٍّ ولا عامٍّ .

فإن أسباب المداوات تنافس الجيران والقرابات ، وتخاذل الأشكال في الصناعات . ومن أمتن أسبابهم إلى الشرِّ وأسرعها إلى الروء والقل ،

(١) في الأصل : « ذلك » . أسهمت : أطاعت واتقادت .

(٢) كذا في الأصل وب . وإخالما من لغة الجاحظ ، وليس ما يدهر إلى أن تجعل

« وعلى كل حال » .

وأندحها في العريض وأعطيتها على الدين^(١) ، التشاح على الموارث ، والتنازع في تخوم الأرضين . فإن اتفق أن يكون بين المتشاككين في القرابة كان السبب أقوى ، والله أدرى . وعلى حساب ذلك إن جمعت هذه الخصومة مع الجوار والقرابة واستواء الخط في الصناعة . ولقد كنت كتب عمر رضى الله عنه إلى قضائه : أن ردوا القرابات عن حراً القضاء^(٢) . فإن ذلك يورث التضامن . ولم أعجب من دوام ظلمك ، وثباتك على غضبك ، وغلظ قلبك ، ودورنا بالعسكر متجاورة ، ومنزلنا بمدينة السلام متقابلة ، ونحن ننظر في علم واحد ، ونرجع في الفعلة إلى مذهب واحد ؛ ولكن اشتد عجبى منك اليوم وأنا بفراغنة وأنت بالأندلس^(٣) ، وأنا صاحب كلام وأنت صاحب إنتاج ، وصناعتك جودة الخط وصناعتي جودة الحو^(٤) ، وأنت كاتب وأنا أمي ، وأنت خراحي وأنا عسري ، وأنت زرع وأنا نخلي . فلو كنت إذ كنت من بكر كنت من نعيم ، كان ذلك^(٥) إلى المدواة سبباً ، وإلى اللقطة سداً .

أنت أبقاك الله شاعر وأنا راوية ، وأنت طويل وأنا قصير ، وأنت أصم وأنا أزع ، وأنت صاحب برازير وأنا صاحب حير ، وأنت ركين وأنا عجول ، وأنت تدبر لنفسك وتقيم أودعيرك ، ونفع لجميع الرعية ، وتبلغ

(١) الخطب : الجمع للعيد والردى ، والمراد الإفاد .

(٢) الحرا : الساحة والتاحية . وفي الأصل : « حر القضاء » ، مع ضبط الحاء بالفتح .

(٣) فراغنة ، بالفتح : مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر ، متاخمة لتركستان .

(٤) كذا في ب وفي الأصل : « النجوم » .

(٥) في الأصل : « كان لك » .

بتدبيرك أقصى الأمة ، وأنا أعجز عن نفسى وعن تدبير أمتى وعبدى .
 وأنت منعم وأنا شاكر ، وأنت ملك وأنا سوقة ، وأنت مصطنع وأنا
 صنيع ، وأنت تفعل وأنا أصيف ، وأنت مقدم وأنا تابع ، وأنت إذا نازعت
 الرجال وناعتت الأكتفاء لم تقل بعد فراغك وانقطاع كلامك : لو كنت
 قلت كذا كان أجود ، ولو تركت قول كذا لكان أحسن : وأمنيت
 الأمور على حقائقها ، ولست إنيها أفساها على مقادير حقوقها ؛ فلم تندم بعد
 قول ، ولم تأسف بعد سكوت . وأنا إن تكلمت ^(١) ندمت ، [وإن جازيت
 أبدعت ^(٢)] ورأيي كله ذبرى . وأنت تمدد في الشطرنج زرب ، وأنا في
 الشطرنج لا أحد ^(٣) .

١٠٢ و

وما أعرف ما هنا اجتماعاً على مشكلة إلا في الإيثار بخبز الخشكار
 على الصوّارى ^(٤) ، والباقي على الجوزينج ^(٥) ، وأنا جيماً ندعى الهندسة .

(١) م : « حلت » .

(٢) التكة من م وفيها : « جازيت » ، وفي ب : « وإن جازيت هربت » .

أجمع ، ببناء للجهول والمعلوم أيضاً : كمت راحته أو عطيت .

(٣) ب : « لا جد » .

(٤) في الألفاظ الفارسية « ه » : والخشكر : ما خشن من الطعن ، فارسيته خشكر .

وهو القصرى « . وانظر اسينجاس ٤٠٢ والبخل ٨٤ . والقصرى : كبشرى :

ما يبق في النخل بعد الانتخال ، أو القشرة العليا من الحبة . والمخوارى ضم الحاء

وتشدّد الواو وفتح الراء : الفتيق الأبيض ، وهو لباب الفتيق وأجوده وأخلصه .

(٥) الباقي : بشدّد اللام مقصورة ، ومثله الباقلاء بتخفيف اللام مع اللد :

الحب للعروف بالنول والجرجر ، وهو الباقلاء البنية . أما الباقلاء للصرية

فهي الترمس . اللسان ، وتذكره داود . والجوزينج : ضرب من الحلوى يصنع

من الجوز . ويقال له جوزنيق أيضاً . فارسيته « كوزينه » . الألفاظ الفارسية ٤٨ .

فقد بلغ الآن من جرمي في مساواتك في خبز الشُّكَّار ، وإيثاري الباقلي ،
والعرفة بتقدير اللدن وإجراء القنى ، أن أنق من جميع الأرض ، وأن تعمل
في دمي الجمائل ^(١) ؛ فإنني قد هجرت الخبز البتة إلى مواصلة الثمر ، وزلت
الورر بدلاً من اللذر .

دعنا الآن فإنك فارغ . إن الله يعلم - وكفى به علياً ، وكفى به شهيداً ،
وكفى به حفيظاً ووكيلاً ، وكفى بحمارة من يعلمه مالا يعلم جرأة وتعرضاً ،
وكفى بحاله عند الله بضعاً ومقتاً - لقد أردت أن أفديك بنفسى في بعض كتفى ،
وكنت عند نفسى في عداد الموتى وفي حيز المهلكى ، قرأبت أن من النهاية
لك ومن التوهم في مملكتك ، أن أفديك بنفسى ميتة ، وأن أريك أنى قد
جدت لك بأنفسى علقى والعلق ممدوم . ليس أن من قد فذلك قد جعل
فذلك ، ولكننها نهاية من نهايات التظيم ، ودليل من دلائل الاجتهاد .
ومن أعلن الاجتهاد لك واستقر خلاف ذلك فقد نافق وخان ، ونفس
والآم ^(٢) . وأخلاق بمن أخل بهذه ألا يرعى حقاً ، ولا يرجع إلى صحة
ولا إلى حقيقة .

ثم أنت لا تشفيك منى السم الجعيز ، ولا السم السارى ؛ فإنه أبعد غاية
في التطويل وأبلغ في التمديب . لا ولا ألعاب الأفاعى وداهية الدواهي ، فإنه
بمعجز الرقى وبموت ذرع الأطباء . لا ولا نار الدنيا ، بل لا تشفيك من نار
الآخرة إلا الجعيم ، ولا تشفيك من الجعيم إلا أن أرى في سوانه ^(٣) وفى

(١) الجمائل : جمع جمالة . ومعى بثلاث الجيم ما يجعل في مقابل العمل .

(٢) الآم : آى بما يلام عليه .

(٣) سوانه : السوى . وسطه .

أصقنة ناره^(١) ، وفي معظم حريقه ، وفي موضع الضمير من طيبة . بل لا تكفى بذلك دون القدرك الأسفل ، بل لا يرضيك شيء سوى الماوية ، بل لا ترضى إلا بذاب آل فرعون ، أشد العذاب ، بل لا يرضيك إلا عذاب إبليس الذي زين القدر للمباد ، وبث في البلاد ، والذي خطأ الرب وعامده ورد قوله ، وغير عليه تدييره ، ولم يزد إلا شكاً ولجاجة ، ونمادياً^(٢) وإصراراً . ثم لم يرض من الجدة في مخالفة أمره ، وخلع العذار في شدة الخلاف عليه إلا بأن يحلف على شدة اجتهاده في ذلك بمنزته ، فجعل العزة الثالثة من إسقاطه سبيلاً إلى إسقاطه ، والقسم الحاجز دون إغضابه وسيلة إلى إغضابه ، حيث قال : ﴿ فبمركك لأغوينهم أجمعين ﴾^(٣) .

١٠٢ ظ

فليك عافاك الله يا إبليس إن كنت لله تنضب ، أو عليك بالأذكفاء إن كنت لنفسك تقش .

لا ولكنك استغفرتني واستضعفتني ، وجعلتني فرج الرقا^(٤) ، وتريد أن تتعلم في مقابلة الأعداء . فإن كنت إلى هذا تذهب فجفر بن معروف أضعف مني ، وعبد الله بن عيسى أسوأ خيراً مني .

سبحان الله ، بسم عليك حيدر الأفشين^(٥) ، وبهك عليك عمرو الجاحظ ،

(١) الأسمطة والأسمطة : الوسط والمجتمع .

(٢) في الأصل : « تباينا » . صوابه في ب .

(٣) الآية ٨٠ من سورة ص .

(٤) الفروج ، لعل المراد به الدجاجة ، وهي كبة التزل .

(٥) يذكر ابن خلكان ٢ : ٦٥ أنه بفتح الحاء المعجمة وسكون الياء للتثنية من تمها . قال : « وإنما قيدته لأنه يصف على كثير من الناس بحيدر بالحاء المهملة » واسم أبيه كلوس ، كما في الأغاني ٧ : ١٤٧ ، ١٢٠ : ٦٤ .

ويسعد^(١) بك أبددُ البداء، ويشقى بك أقرب القرباء . وتتناقل عن مثل
الجال التماساً للعلم وحجاً للسلامة ، وتتناقلُ إلى المحترات طلباً للتمريض
وحجاً للشر .

ومتى قدرتَ على عدوك فلم تجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه ، ومتى
لم تتناقل عنه تكرماً أو تدفعه احتقاراً ، ومتى اكرمت لكبير وضاق
صدرك عن شيء عظيم فهأنذا بين يديك ، فكُنْني بخلاً وخرول ! فوالله
إنك لتأكله غثاً غير مرى ، وخيئناً غير شعى .

لا والله ، لكأنك وقعتَ على مطمورة ، وغفرت برأس خافن . كنت
أظن أن الرشاقة والحلم لا يجتمعان ، وأن ظُرف الإنسان وأصالة الرأي
لا يفرقان^(٢) ، وأن التزق والخلفة مقرونان بحقة البدن ، وأن الركاثة والأناة
مجموعان لصاحب السمن ، حتى رأيتك فاعتدت بك خلاف ذلك الرأي ،
واستبدلت فيك ضد ذلك الظن . فتركتني حتى إذا نازعت الرجال ، وتعرضت
للشجى ، وشغلت نفسي بطلب الخصاص^(٣) ، واضطعتُ إلى أصحاب القمود ،
وجعلتُ عدواني^(٤) في تقديم القيصاف^(٥) ، وطال لسانى ، وأظهرت الاستبصار
في فضلك ، وجعلتُ مزاج أخلاطك هو الحجة ، واعتدلتُ هو النهاية ، وطبيعتك ١٠٣ و

(١) في الأصل : « ويسود » .

(٢) في الأصل : « وإطالة الرأي لا يفرقان » .

(٣) لعل صوابها : « القصار » .

(٤) العدواني : الشغل . وفي الأصل : « عدواني » .

(٥) جمع خفيف . وهو المتبوق الجسم .

هي النسكة^(١)؛ وزعت أن منظره ينفي عن مخبرك، وأن أولئك ينبغي من آخرك - شددت على شدة النهر الأرين، وتسرعت إلى تسرع الغير التزقي، وألححت [على^(٢)] إلحاح الأعوج الحين. كأنك لم تعمل بما يشيع لك من اسم التسرع، وبما تضاف إليه من سُخف المتترع^(٣)، بعد أن تكذب قولي وتنفذ خبري^(٤).

وقد تقدمت التجربة أن الخدي لا يكون حقوداً^(٥)، وأن الصنم لا يكون للصنعة حاسداً، فقصدت على رأس^(٦) إلى القياس للمتحن فأفسدته، وإلى العلبات للمتدلة فتفغتها، وإلى القضايا الصحيحة فرددتها.

وقالوا بأجمعهم: حالان لا تقبلان الحسد، ولا يحلوان من الرشد: حال الصنعة لمصطنعها^(٧)، وحال المولى لمتمته. فكيف إذا كان الصنعة صديقاً، وكان للخاصة محتملاً.

وإنما صارت - أجهلك الله - أجزاء النفس وأعضاء الجسد مع كثرة عددها، واختلاف أخلاطها، وتباعد أماكنها، شتاً واحدة وجسداً واحداً،

(١) النسكة، بالضم: القوة، والقول. وفي الأصل: «النسكة».

(٢) النسكة من ب.

(٣) الترع: التمرير المسارع إلى ما لا ينبغي له. وفي الأصل: «التربع».

(٤) التفيد: التكذيب. وفي الأصل: «وتفد».

(٥) الحديد: ذو الحدة، وهي التضب والنشاط والسرعة في الأمور. ولكن

الحجاج بن يوسف كان يقول: «أنا حديد حقود». الحيزان ٣: ٤٧-٥ / ٤٩٢: ٥ والبيان ٣: ٢٥٥.

(٦) في الأصل «على رأس».

(٧) يقال فلان صنعة فلان، إذا مصطنعه وأدبه وخرجه ورباه.

لاستواء الخواطر ، ولا تفاها على الإرادة . فأنت وصديقك اللواقح ، وخليتك ذو الشكل الطابق ، مستويان في التجارب ، متفقان في الهوى ، متشاكلان في الشهوة ؛ وتماونكما كتماون جوارح أحدهما ، وتساكما كفسالم المتفق من طباثكما . فإذا بان منك صديقك فقد بان منك شعرك ، وإذا اعتل خليلك فقد اعتل نصفك ، بل النفوس المصنعة كاللغز اللبنة ، فذهاب بعضها هو ذهب جميعها . فتوى هو موت صديقي ، وحياتي هي حياة صديقي . فلا تبهذه من قلبك بعدد بدنه من بدنك ؛ فقد يقرب البغيض وبنأى الحبيب . ولعل بعض طباثك الخاطل لروحك ، أن يكون أعدى من كل عدو ، وأقطع من كل سيف ، وأخوف عليك من الأسد الضاري ، ومن السم الساري .

نم اعلم أن الوثوق بمودته قليل ، وقد صار اليوم المتخذ عليه في صحة الفطنة ، وفي كرم النيب والمشرة ، عتقا مغرب^(١) . ولا أعلم الكبريت الأحمر إلا أوجد منه . وإني لأظن القناعة أكثر منه . وما أكثر من جمل انقطاع سبب موضع طمعه لا يقطع سببه قناعة .

١٠٣ ظ

وقيل ليحيى بن خالد : أى شئ أقل ؟ قال : قناعة ذى المنة البعيدة بالعيش الدون ، وصديق قليل الآفات كثير الإمتاع ، شكور النفس ، يصيب مواضع التدح^(٢) .

(١) عتقا مغرب . بالوصف . وبالإضافة أيضا ، مثل القدرة أو لما لا يكون ، قال في القاموس : « طائر معروف الاسم لا الجسم . أو طائر عظيم يعد في طيراته ، أو من الأنماط الدالة على غير معنى » .

(٢) جلت في له . الترح .

لا والله إن تعرف^(١) على ظهرها موضعاً حسراً ، ولا مكاناً لشكوى ،
ولا روحاً تأنس بها ، ولا غشاً نكث إليها . ولو أردت أن تعرفني من
جميع السالمين رجلاً لآ قدرت على أحديّ يحتمل الفنى . ويحتمل الفقر قليل ،
ويحتمل الفنى عديم .

إن الخير — أباك الله — في أيام كثرته كان قليلاً فاطنك به في أيام
قلته ، وإن الشر في أيام قلته كان كثيراً فاطنك به في أيام كثرته ، وأنت
غريب في الصطينين . وأنا غريب في الصنائع ، والغريب للغريب نسب ،
ونسب للشاكلة وقرباة الطبيعة الواقة ، أقرب من نسب الرحيم ؛ لأن
الأرحام مولى بالتعاضد ، لهجة بالتقاطع ، وأن التعاب على طبع الشاكلة .
والتلاق على وقاي من الطبيعة ، أبعد من التعاضد ، وأبعد من التعاضد .
وسبب التعاضد عرض في طبائع النربا ، وجوهر في طبائع الأقربا .

واعلم أنك لا تزال في وحشة إلى وحشة ، وفي غربة إلى غربة ، وفي
تسكّر البيش ونحطّ الحال ، حتى تجد من تشكو إليه بكك ، وتفيض إليه بذات
نفسك . ومتى رأيت عجبا لم تضحكك رؤيتك له بقدر ما يضحكك إخبارك
إياه . فمن أغلب عليك فمن كانت هذه حاله منك ، وموقعه من نفسك .

ولو أن شيبتي التي بها استمطقتك ، وكبرة ستي التي بها استرحنتك ،
للثان لم يجدنا على إلا وأنا في ذراك ، ولم يعلاني إلا وأنا في ظلك ، لكان
في شفاعة الكبرة ، واسترحام الضعف والوهنة ، ما يردعك عن أشدّ الردع ،

(١) جمعت في ط : « لن تعرف » .

ويؤثر في طبعك أئين الأثر . فكيف وقد أكرمتني جديداً ، ثم تريد أن تهينني خلقاً ، وقويت عظمي أغلظ ما كان ، ثم تريد أن توهنه أرق ما كان . وهل هزمت إلفان طاعتك ، وهل أخلفتني إلامانة خدمتك ! .

قال علي بن أبي طالب : رأى الشيخ الضعيف أحب إلينا من جلد الشاب القوي^(١) .

وأنا أقول كما قال أخو تقيف^(٢) : مودة الأخ التاله وإن أخلق خيراً من من مودة الطارف وإن ظهرت بشاشته ، وراعتك جدته .

وقال عبد الملك بن مروان : رأى الشيخ أحب إلينا من مشهد الغلام . وقال بعضهم : ليس بغائب من شهد رأيه^(٣) ، وليس بقادر من جنى أثره .

وما كسل العقل ولا^(٤) وقرة التجربة شيء كتنقصان البدن ، وكأخذ الأتيام من قوى الأعضاء .

وقال آخر : ما يتبع الرجال شيء كالوكمال ، ولا أفسد الكريم شيء كحب الاستطراف . وخيرُ الناس من أتبع الغضب مواقع الذنوب ، وأتبع الغائب مواقع الغضب ، ولم يتبع الغضب مواقع الهوى .

(١) البيان ٢ : ١٤ . وفي أمثال الميداني ١ : ٢٦٧ : رأى الشيخ خير من مشهد الغلام . وأشار الميداني إلى أن علياً قالها في بعض حروبه .

(٢) يعني الحجاج بن يوسف .

(٣) شهد : كان شاهداً ، أى حاضراً . وقوم يهود أى حضور .

(٤) في الأصل : لا .

ولقد منعك جلد شبابي كسلا ، وغرّب نشاطي مقبلا ، وكان لك
سهناء^(١) ، وثمرة قواه^(٢) ، واحتملت دونك غرامته وغرّبه^(٣) ، وكان لك
غنمه وعلى غرمه ، وأعطيتك عند إدار بدني قوّة رأبي ، وعند تكامل سمرقي
نتيجة تجربتي ، واحتملت دونك وهن الكبر وإسقام الهرم .

وخير شركائك من أعطاك ما صفا ، وأخذ لنفسه ما كدر . وأفضل
خاطباتك من كنك مؤنثته ، وأحضرَك ممونته ، وكان كلاله عليه ،
ونشاطه لك . وأكرم دخلاتك وأشكر مؤثليك من لا يظن أنك نسي
جزيل ما تحمل في بذلك ومواساتك مؤونة ، ولا تتابع إحسانك إليه
نسة ، بل يرى أن نمة الشاكر فوق نمة الواهب ، ونعمة الواذ الخالص
فوق نمة الجواد النقي ؛ وأنه لا يبلغ في إعطاء المجهود من نفسه في خلق
جميع ماله إلى مؤثليه والتعزمين به ، حسن نية الشاكر الوامق ، وحق
تمنى الواذ العارف .

ولو اقتضيت جميع حقوقك عليّ ، وانكرت جميع حقوق عليك ،
أو جعلت حقّي عليك حقا لك ، ثم زعمت أن حقك لا يؤدي إلى شكره ،
وأن حقّي لا يلزم حكمه ، وأن إحساني إساءة ، وأن الصغير من ذنوبي كبير ،
وأن اللّهم مني إصرار ، وأن خطائي عمد ، وأن عمدي كله كفر ، وأن

١٠٤ ظ

(١) أى مهناه . ولطها : « مجناه » .

(٢) في الأصل : « قوله » صوابه في م .

(٣) في الأصل وم : « غرامه » والوجه ما أثبت . وفي الأصل : « وعنده »

صوابه في م . والدرام : بضم الدالين : الشدة والقرب : الحدة .

كفرى يوجب القمع^(١) وينع من الزرع لِمَا كَانَ عندك . وما اتع
قولى لأكثر من هذا العقاب ، ولا أشد من هذا النصب . وما ينهى أن
يكون هذا القدر من النعم إلا لبارئ النعم في دار البقاء ، لا في دار الفناء .
[و] الذى يجوز بين المباد إنما هو تزيير أو حد ، أو قود أو قصاص ،
أو حبس أو تنريب ، أو إغرام^(٢) أو إسقاط عدالة ، أو إلزام اسم العداوة ،
أو عقاب يجمع الألم والتقويم والتنكيل ، فيكون تَضَعُ الألم جزاء له^(٣)
ومدلاً لأسبابه .

وربما قمر الإيقاع على السخط وجاوز حدَّ النصب . وربما كان
مقصوداً على مقدارها ، ومحسوساً على نهاية حالها .

وليس كلُّ عقاب نتيجة سخط ، وقد لا يسى ذلك التوقيع والمعاقب
واجباً كما يسى سخطاً ، ولا يسى عاقباً كما يسى غضبان ، فيخرج كما ترى
من أن يسى سخطاً أو موجدةً وغضباً ، كما خرج عقاب آدم عليه السلام
من هاتين الصفتين ، ومن جميع القسمين . وعلى أنه كان إخراجاً من دار
الجلل والكرامة إلى دار الابتلاء والخنة ؛ ومع ما في ذلك من إغراء الجدل ،
والقسمة بالظلم ، مع الوصف له بضعف العزم ، والاعتزاز بيمين النعم .

والعجب أنك تضجر من طول سألنا لمفوك مع حاجتنا إلى عاجل
عفوك ، ولا تضجر بطول تشاغلك بظلم صديقك مع استغنائك عن ظلم
صديقك . فلو كنت إنما تفعل ذلك لأنك تلهى ضرب السياط ورضى العظام ،

(١) في الأصل : « الطمع » .

(٢) الإغرام : التزيم . وهو التقوية المالية .

(٣) في الأصل : « أجراه » .

فَجَنَّبَ « دَنْزَن » أَحْلَ ، وَالشُّوْطَ فِي ظَهْرِ قَائِمٍ أَحْسَنَ ، وَأَبْدَانَهَا تَحْتَ
الْطَّيَاطِ أَنْتَبَ ، وَإِنْ أَرَوَّاحَهَا أَبْقَى ، وَهِيَ بِأَرْوَاحِ الْكَلَابِ أَشْبَهَ ، وَإِلَى
طَبَائِعِ الضُّبَابِ أَقْرَبَ ، وَأَرْحَامِهِمْ بِالْخَيْرِ أَمْسَى ، وَمَنْ يُشِيرُ فِيهِمْ بِذَلِكَ
أَكْثَرُ ، وَالْأَجْرُ فِي ضَرْبِهِمْ أَعْظَمُ . فَاسْتَدْرِمَ اللَّذَّةَ بِطَرِيقِ اللَّذَّةِ ، وَضَعُ
الْأُمُورَ فِي مَوَاضِعِهَا يَبْلُغُ سُرُورُكَ بِهَا .

إِنِّ عَتَقْتُ الْخَيْلَ وَأَحْرَارَ الطَّيْرِ أَذْنُ حَيْثَ ، وَأَشَدُّ اكْتِرَاءًا .
وَالْكُوَادِ وَالْفَلَاطِ وَالْهَامِرُ الْفُخَالُ^(١) ، أَكَلْتُ حَيْثَ وَأَقْلُ اكْتِرَاءًا .
وَلَيْسَ الْعَبْرُ بِالصَّمْتِ وَالْكُوتِ ، وَلَا بَقْلَةُ الصِّيَاحِ وَالضُّسُوزُ^(٢) . وَقَدْ يَصِيحُ
تَحْتَ الشُّوْطِ مَنْ لَا يَقْرَأُ عَلَى صَاحِبِهِ ، وَلَا يَنْدُلُ عَلَى عَوْدَةِ نَفْسِهِ . وَالْكَلْبُ
لِلضُّرُوبِ يَجْمَعُ الصِّيَاحَ وَالْهَرْبَ ، وَالْفَرَسُ الْعَتِيقُ يَنْدُو وَلَا يَصِيحُ ، وَالْخَافِرُ
كُلُّهُ كَقُلُومٍ ضَامِرٍ^(٣) ، وَالْخَلْبُ كُلُّهُ ضَجُورٌ صَيَّاحٌ ، وَالضُّجْرُ فِي الْخُفِّ عَامٌ ،
وَالْبَيْتَانِيُّ أَضَجْرُ . فِيمَنْ الْغُلَافُ عَامٌ ، وَهُوَ فِي الْغَنَائِزِ أَخْفَى ، وَكُلُّ مَضْرُوبٍ
هَارِبٍ صَيَّاحٌ ، وَمِنْهَا مَا يَجْمَعُ الْخِلَالَ كَالْكَلْبِ وَالْبَعِيرِ . وَالْهَرْبُ مِنْ
الْمَكْرُوهِ مَحْمُودٌ ، وَالْقَامُ عَلَيْهِ مَذْمُومٌ ؛ كَالَّذِي يَمْتَرِي الْمِيرَ السَّقِيمَ^(٤) وَتَجِدُهُ
فِي الْفَرَسِ الْكَرِيمِ ، مِنْ قِلَّةِ الْكَتَرَاتِ وَشِدَّتِهِ .

(١) الهامر : جمع عمر ، يقال فرس عمر . أى لثيم يشبه الجارح في
جريه من بطة . ويغال للفرس المسكين عمر أيضاً . فارسيته « بالاني » . والجمع
للهامر والهامير .

(٢) الضسوز : بالزاي : الكوت . وفي الأصل : « الضسوز » . تصغير .

(٣) في الأصل : « ضامن » . وانظر الحاشية السابقة .

(٤) في الأصل : « عين السم » وانظر ٢٧٨ س ٧ .

وصبرُ البدن غير صبر النفس . وليس بقاء الأرواح النسيئة تحت الضرب الشديد من اعتزام النفس ، ولا يدلُّ على الكرم .

وفي اللث : « مارُوح فلانٍ إلأَروح كلب » . وتقول العرب : « الضَّبُّ أطول شيءَ ذمًّا »^(١) . والكلب لئيم ، والضَّبُّ غير كريم .

والبازي أكرم من الصَّقر وأشدُّ وأكثَرُ ثَمًّا ، وأجلُّ جلالاً ، وأعنى صيداً^(٢) ، وأنبِلُ نبلاً ؛ إن قبضَ عليه قتله ، وإن لم يَنْجُ كُنْدُرته عن قربه أوهنَ نفسه^(٣) . ثم بلغ من رقة طبع^(٤) البازي وحضه أنه ينقطع برَدِّ البازيلار^(٥) إلى سَقَطه من يده . والصَّقر يمتلئ ببييقه^(٦) من رجل حمل بدروع^(٧) فيضطرب منكئاً إلى الصَّبح ، ثم تجده وكأنه لم يزل على كُنْدُرته وعلى سَقَطه الذي يوثق له .

(١) للمعجم ، كصاحب : بقية الروح في الذبوح . وانظر الحيوان ٢ . ١٧٥ و ٥٠٨ : ٥ و ٢٥٦ : ٦ و ٥٤ : ٦٤ و ١٣٧ : ٧ و ٢٥٤ .

(٢) من قولهم : عفا الشيء يهفو ، إذا كثر .

(٣) الكندرة . يضم الكلف والندال كما في اللسان ، وينتهيما كما في القاموس . هي عجم البازي الذي يربأ له من خشب أو مدر . قال في اللسان : « وهو دخيل ليس يربي » . وأوهق نفسه : جعلها في الوهق . وهو جبل مفار يربي ، فيه أنشودة ، فتؤخذ به الهابة والإنسان . وفي الأصل : « أرهق » .

(٤) في الأصل : « طمع » .

(٥) في الأصل : « برده البازيلاره » . والبازيلار ويقال له « البازدار » أيضاً لفظان فارسيان ، معناهما واحد ، وهو القائم بأمر البازي ويحرب فيقال له « البازدار » . انظر الحيوان ٤ : ٤٣٠ و ٦ : ٤٧٨ .

(٦) السباقان : قيدان في رجل الجارح من الطير . من سير أو غيره . وفي ط : « بساقه » ، خلافاً لما في الأصل .

(٧) كذا في الأصل .

فليس بدني من أبدان الاحتمال فأمتحك بطول ثباته لك ، ولا أثبت لك ثبات التير الكليل الحسن ، ولا أجعل الصياح دليلا على الإقرار ، فيكون ذلك أحدا ما تتمتع به ، وتذكر به حاجات نفسك .

وقد دلتك على ناسي يحسمون لك انحصال التي فيها دوام لذتك ، وتنام شهوتك ؛ فإن زعمت أن الذي ثبت روح دندن في بدنه ، وروح القاسم في جسده ، سرورهما بما قد احتجنا من كنوز الخلافة وأموال الرعية ، وليس ذلك من رسوخ أرواحهما في أبدانهما ، ومن شدة الاحتجاج وقوة الاكتزاز ، ١٠٠ ظ ففرق بينهما وبين تلك الأموال التي تمسك أرواحهما بالليل اللطيفة ، والتدبير النافذ ، وبأن تمضى فيهما حكم الكتاب والثقة ؛ فإنه سيحل عقد أرواحهما عقداً عقداً ، فيعظم أجرك ، وبطيب ذكرك ، وتطيع الخليفة ، وتحنّب به إلى الأمة ؛ فتكون قد أحسنت في صرف الضرب إلى أهله ، وأرحت منه غير أهله . والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

• • •

نمت الرسالة بمون الله ومنه وتوفيقه ، والله الموفق للصواب برحمته ، والحمد لله أولا وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله الطيبين الطاهرين وسلامه .

٦

رِسَالَةٌ

إِلَى أَبِي الْوَلِيدِ مُحَمَّدَ بْنَ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي دُرَادٍ

فِي

تَفْهِيمِ التَّشْيِيعِ

بسم الله الرحمن الرحيم

وهذه هي الرسالة السادسة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة إلى أبي الوليد محمد بن أحمد بن أبي دواد ، في نفي التشيه »

وأبو الوليد هذا هو قاضي بغداد في خلافة التوكل ، ولاء القضاء بعد أن فليح
أبوه أحمد بن أبي دواد ، ثم عزله للتوكل ومات في حياة أبي أحمد في ذي الحجة سنة ٢٣٩ .
وترجم له الخطيب في تاريخ بغداد ٩ : ٢٩٧ - ٣٠١ .

وليس لهذه الرسالة إلا نسخة مكتبة داملاد ، وعليها اعتمادنا في إخراج
هذه الرسالة .

وقد كتبها الجاحظ في أيام الخليفة المنصور ، كما نص على ذلك في أواخرها .

أطال الله بقاءك وحفظك ، وأتم نعمته عليك ، وكرامته لك .

قد عرفت - أكرمك الله - ما كان الناس فيه من القول بالتشبيه والتعاون عليه والمعاداة فيه ، وما كان في ذلك من الإثم الكبير والفرية الفاحشة ، وما كان لأهل من الجماعات الكثيرة والقوة الظاهرة ، وال سلطان للكين ، مع تقليد المروء وميل السفلة والطعام .

وليست للخاصة قوة بالعامة ، ولا للعلية قوة على الأراذل ! فقد قالت الأوائل فيهم ، وفي الاستعاذة بالله منهم :

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : نموذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يملكوا ، وإذا تفرقوا لم يعرفوا .

وقال واصل بن عطاء : « ما اجتمعوا إلا ضروا ، ولا تفرقوا إلا نضوا »
 قيل له : قد عرفنا مضرة الاجتماع ، فما منفعة الاقتراق ؟ قال : يرجع الشيطان إلى نطيطته ، والحائك إلى حياكته ، واللأح إلى ملاحته ، والصانع إلى صياغته ، وكل إنسان إلى صناعته . وكل ذلك مرفق للسليين ، ومثونة للمحتاجين .

وكان عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إذا نظر إلى الطعام والحشو قال : « قبح الله هذه الوجوة ، لا تعرف إلا عند الشر » .

وقال الخُرَيْمِيُّ^(١) عِنْدَ ذِكْرِ إِيَّاهُمْ ، فِي شِعْرِهِ ، بِالتَّعْلَافِ مَعَ الْخُلُوعِ^(٢) :
 مِنَ الْبَوَادِي تَرَاهَا وَمِنْ الدَّخُولِ إِذَا اسْتَلَأْتُمْ مَنَافِرُهَا^(٣)
 لَا الرِّزْقَ تَبْنِي وَلَا الْمَطَاءَ وَلَا يَحْشُرُهَا بِالْفَيْقَاءِ حَاشِرُهَا^(٤)
 وَقَالَ شَيْبِ بْنِ شَيْبَةَ : قَارِبُوا هَذِهِ السُّفْلَةَ وَبَاعِدُوهَا ، وَكُونُوا مِمَّا
 وَشَرُّهَا ، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْفَلَةَ لَمْ كَانَتْ مَعَهُ ، وَأَنَّ الْقَهْوَرَ مِنْ صَارَتْ عَلَيْهِ .
 وَقَدْ وَصَفَهُمْ بِمَنْزِلَةِ الْعُلَمَاءِ فَقَالَ : يَحْتَمُونَ مِنْ حَيْثُ يَفْقَرُونَ ، وَيَفْقَرُونَ
 مِنْ حَيْثُ يَحْتَمُونَ ، لَا يُقَلِّ غَرِبَهُمْ إِذَا صَالُوا ، وَلَا تَنْجِعُ فِيهِمُ الْحِيلَةُ
 إِذَا هَاجُوا .

وَالْعَوَالِمُ - أَبْجَالُ اللَّهِ - إِذَا كَانَتْ نَشْرًا^(٥) فَأَمْرُهَا أَيْسَرُ ، وَمُدَّةُ حَيَاتِهَا
 أَقْصَرُ . فَلِذَا كَانَ لَهَا رَيْسٌ حَازِقٌ وَمُطَاعٌ مَدْبَرٌ ، وَإِمَامٌ مَقْلُودٌ ، فَتَنْدُبُ ذَلِكَ

(١) هُوَ إِسْحَاقُ بْنُ حَسَّانَ بْنِ قُوَيْسٍ . قَالَ الْخَطِيبُ : « وَأَسْلَمَهُ مِنْ خُرَاسَانَ
 مِنْ بِلَادِ السُّنْدِ . وَكَانَ مُتَصِلًا بِخُرَيْمِ بْنِ نَاعِمٍ الْمُرِّيِّ وَآلِهِ ، فَسَبَّ إِلَيْهِ . وَقِيلَ : كَانَ
 اتِّصَالَهُ بِبَنِي خُرَيْمٍ . وَأَبُوهُ خُرَيْمُ الرُّصَافِيُّ بِالنَّاعِمِ » . تَارِيخُ بَنْدَادٍ ٣٣٦٩ .

(٢) تَعْلَافُوا مَعَهُ : اجْتَمَعُوا . وَالْخُلُوعُ هُوَ الْخَلِيفَةُ الْأَمِينُ أَخُو الْأَمُونِ . وَضَبْدَةٌ
 خُرَيْمٍ رَوَاهَا الطَّبْرِيُّ فِي تَارِيخِهِ ١٠ : ١٧٦ - ١٨١ فِي حَوَادِثَ سَنَةِ ١٩٧ وَبَعْضُ
 آيَاتِهَا فِي الْحَيَوَانِ ١ : ٢٢٥ .

(٣) الْبَوَادِي : الْحَصَرُ لِلْفُجُوجِ . وَاحِدُهُ بَوْدِي وَبَوْرِيَّةٌ ، وَبَلَرِي وَبَلَرِيَّةٌ .
 وَالتَّرَاسُ : جَمْعُ تَرَسٍ . اسْتَلَأْتُمْ : ابْتَدَأْتُمْ . وَهِيَ الدَّرَجُ . وَالْمَنَافِرُ :
 جَمْعُ مَنَفَرٍ ، وَهِيَ زُرْدٌ يَلْبَسُ تَحْتَ الْقُلُوسَةِ . وَالْبَيْتُ وَتَالِيهِ وَبَيْنَهُمَا ثَلَاثٌ فِي الطَّبْرِيِّ
 ١٠ : ١٧٨ .

(٤) فِي الطَّبْرِيِّ : « وَلَا يَحْشُرُهَا لِقَاءُ حَاشِرِهَا » .

(٥) النَّشْرُ بِالتَّحْرِيكِ : الْقَوْمُ الْمُتَفَرِّقُونَ لَا يَجْمَعُهُمْ رَيْسٌ

ينقطع القطع ، ويموت الحق ويقتل المحق . فلو أن لهم متكلمين ، وقصاصاً متفقين ، وقوماً قد باينوم في المعرفة بعض المباني ، لم ياحقوا بالخاصة ، ولا بأهل المعرفة الثابتة . ولكننا كما نخافهم نرجوهم ، وكما نشفق منهم نطمح فيهم .

نم قد علت ما كنا فيه من إسقاط شهادات الموحدين وإخافة علماء التكلمين . ولولا الكلام لم يقيم الله دين ، ولم تبين من اللعدين ، ولم يكن بين الباطل والحق فرق ، ولا بين النبي والتثني فصل ، ولا بانث الحجة من الحيلة ، والدليل من الشبهة .

نم لصناعة الكلام مع ذلك فضيلة على كل صناعة ، ومزية على كل أدب . وقلبك جعلوا الكلام عياراً على كل نظر ، وزماناً على كل قياس . وإنما جعلوا له الأمور وخصوه^(١) بالفضيلة لحاجة كل عالم إليه ، و [عدم^(٢)] استغنائه عنه .

فلم يزل - أكرمك الله - كذلك حتى وضع الله من عزهم ، وعصر من قوتهم . وليس لأمر الله مرد ، ولا لقضائه مدفع . وحتى تحول إلينا رجال من كادتهم ومن أعلامهم ، والباطلين فيهم ، وارتاب قوم وناق آخرون . وحتى تحولت الحنة عليهم ، والتفتة فيهم . وذلك كله على يد شيخك وشيخنا بمدك - أعزه الله - بما يبذل من جهده ، وعرض من نفسه ، وتفرّد بمكروهه ، وغرغر مراره ، صابراً على جسيهه ؛ يرى الكثير في ذلك قليلاً ، والإغراق

(١) في الأصل : « وخصوا » .

(٢) نكته ينتفر إليها الكلام .

تقصيرا ، وبذل النفس يسرا . على حين غار^(١) كل بطل ، وحاذ كل مُقدم ، وعزّد كل رئيس ، وأضاف كل متبعير^(٢) ، وطاح كل نقاج ، واستغنى كل مُراء . وحتى صاروا هم الذين يُشِرون عليه باللأينة ، ويحسّون عنده المقاربة ، ويخوفونه العاقبة ، ويزعمون أنّ لكلّ زمانَ تدبيراً ومصلحة ، وأنّ إيلادهم أقر^(٣) لطبايئهم ، وإن إطلاقهم أجمع فيها يراد منهم . وحتى سُموا المداهنة مداراة ، وإعطاء الرضا تقية ، والشدة عند الفرصة خرقاً ، والانعياز مع صواب الإقدام رفقا ، وموالاته الخالف مخالفة ، والمصافاة معاشرة ، والمهانة حلما ، والضعف في الدين احتمالا . كما سُمي قومُ الفرار انعيازاً ، والبخل اقتصاداً ، والجائر مستغنيا ، والبلاء عارضا ، والخلل بلاغة . فكذلك كانوا وكان . وعلى هذا افترق أمرهم ؛ وذلك مشهور عنهم .

ظ ١٠٧

ثم يصول أحدهم على من شتمه ، ويسالم من شتمه ، وينصّب على من شتمه أباه بعبده ، ولا ينضب على من شتمه الله بخلقه ، وزعم أنّ [في^(٤)] أحاديث الشبهة تأويلاً ومجازاً ومخارج^(٥) ، وأنها حقٌ وصديق . فإذا قيس^(٦) طلب لهذا المجاز ظلم ، وقال ما يليق بلفظ الحديث ،

(١) غار : ضعف . وفي الأصل : « خان » .

(٢) أضاف : : أخفق وحذر . وفي الأصل : « أصاب » .

(٣) كذا في الأصل .

(٤) ليست في الأصل .

(٥) في الأصل : « ومخارجا » .

(٦) يباين في الأصل بمقدار كثيرين .

فيكون بشهادته^(١) لصحة أحاديثهم مُقَرَّراً ، فيعبر فيما يدعى من خلاف تأويلهم مدعى . ولو كانت هذه الأحاديث كلها حقا كان قول النبي صلى الله عليه وسلم : « سيفشوا الكذب بدمي » ، فما جاءكم من الحديث « عرضوه على كتاب الله » باطلاً .

وهذا اللذهب لمن ينتحل طريقتنا ، ويدلك بزعمه سيلنا ، جورٌ شديد ، ومذاهبٌ قبيحة ، وتقرب^(٢) فاحش .

وليس ينبغي لديان أن يولد من حادث الله ورسوله ، ولو كانوا آباهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم .

ففي إذن تروى التفتية ، ويحب إظهار الحق والنصرة للدين ، والنبابة للضعافين ؟ ! أحين يموت الخصم ويبدؤ أثره وبهيك عقبه ويقل ناصره ، ويحول جميع الخوف ويكون على يقين من السلامة . وكيف يكون القائم حينئذ بالحق معلماً ، والله معظماً ؟ !

قد سقطت الحجة وزالت البلوى والشقة . وهل للعصبة إلا ما مزجه الهوى والشهوة ، وهل الطاعة إلا ما شابه الكروء والكلفة^(٣) ، وكيف يتكلف مالا مؤونة فيه ، وكيف يحمّد مالا مرزئة عليه . وكيف يكون شجاعاً من أقدم في الأمن ، وتكثّر في الخوف . أو ليست النار مخوفة بالشهوات ، أو ليست الجنة مخوفة بالكاره . وكيف صاروا في باطلهم أيام قدرتهم أقوى منا في حقنا أيام قدرتنا .

(١) في الأصل : « سنده » .

(٢) كذا في الأصل .

(٣) شابه ، من الشوب بمعنى الخلط والمزج .

وقد علمت - أرشد الله أسرك - أن الفشيبه وإن كان أهله مفسوعين
ومُهانين وممتحنين، فإن عدد الجاحم على حاله، وضمير أكثرهم على ما كان
عليه، والذين ماتوا قليلٌ من كثير. ونحن لا ننتفع بالتناقض، ولا نستعين
بالمرتاب، ولا نتق الجاحم، وإن كانت المبادأ قد شغقت فإن القلوب
أفد ما كانت.

١٠٨ و

وقد كانوا يتكلمون على السلطان والقدرة، وعلى العدد والثروة،
وعلى طاعة الرعايا والثقل؛ فقد صاروا اليوم إلى المنازعة^(١) أميل،
وبها أكلف؛ لأنهم حينئذ يسوا^(٢) من القهر بالعشوة والثقل، وبالبيعة،
وبالولاية الفسقة، وقلوبهم ممتلئة ونفوسهم هائجة. ولا بد لمن كانت هذه صفته،
وهذا نفعه، من أن يستعمل الحيلة والحجة، إذ أعجزه البطش والصولة.
وكل من كان غيظاً يفضل عن حلمه، وحاجته تفضل عن قناعته، فواجب
أن ينكشف قناعه، ويظهر سره، ويدعو مكثونه.

وقد أطمعني فيهم مناظرتهم لنا، ومقايستهم لأصحابنا. وقد صاروا
بعد السب يحفون^(٣)، وبعد تحريم الكلام يحالسون، وبعد الصام^(٤)
يستمعون، وبعد التجليح يدارون^(٥)؛ والعامة لا تظن لتأويل كثفها،
ولا تعرف مقاربتها. فقد مالت إلينا على قدر ما ظهر من ميلها، وأصفت
لما ترى من استماعها.

(١) في الأصل: «على المنازعة».

(٢) في الأصل: «سوا».

(٣) حقه يحفه: مدحه. وفي المثل: «من حفا أورفا فليقتصد» يقول:
من مدحنا فلا يخلون في ذلك ولكن يتكلم بالحق منه.

(٤) التجليح: المسكلة في الكلام.

وقد كتبت - مد الله في عمرك - في الرد على المشبهة كتاباً لا يرتفع عنه الخافق المشتق ، ولا يرتفع عن الرُّبُص المبتدئ . وأكثر ما يستمد عليه العامة ودعاهم أهل التشبيه من هذه الأمور ويشتمل عليه الفضل من حُشوة الناس^(١) ، ويُتَدَمَّع به المحدثون من الجمهور الأعظم ، تحريف آبي كثيرة إلى غير تأويلها ، وزوايا كثيرة إلى غير معانيها . وقد بينت ذلك بالوجوه القوية ، والدلالات المختصرة ، وبالأشعار الصحيحة والأمثال السائرة ، واستشهدت الكلام المعروف ، والقياس على الوجود .

وهو مع ذلك كله كتاب قَصْدٌ ، ومقدار عدلٌ ، لم يَفُضِّلْ عن الحاجة ، ولم يَتَصَرَّ عن مقدار البنية . على أن الكلام لا يبنى أن يكثر وإن كان حسناً كله ، إذا كان السامع لا يَشْتَطُّهُ ، وجاز قدر احتماله ؛ لأن غاية التشكُّم انتفاع السامع . وقد قال الأولون : « قليل الوعظ مع نشاط الموعوظ ، خير من كثير وافق من الاستماع »^(٢) نبوة ، ومن القوي ملالة .^(٣) قال بكر بن عبد الله المزني^(٤) : ليس الواعظ من جهل أقدار السامعين ، وإنابة المرتدين ، وملالة المستطرفين .

وقال علي بن أبي طالب ، رضوان الله عليه : « إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان ، فابتغوا لها طرَف الحكمة » .

(١) الفضل : الزيادة . والحشوة : بالضم : رفال الناس

(٢) في الأصل : « الاستماع » .

(٣) هو أبو عبد الله ، نسبته إلى مزينة ، ثقة جليل توفي سنة ١٠٦ هـ تهذيب التهذيب وملة الصفوة ٣ : ١٧١ .

وقد كان يقال : إنَّ للقلوب شهوة وإقبالاً ، وفترة وإدباراً ؛ فأثروها من حيث شهوتها وإقبالها .

وكان يقال : إذا أُكْرِهَ القلبُ عَمِيَ .

وقال واصل بن عطاء : طول التحديق يُسَكِّئُ الناظر ، وناظر القلب أضعف منه .

وزعم عمران بن حدير^(١) قال : قال قسامة بن زهير^(٢) : رؤُحوها هذه القلوب نِعَمَ اللّٰهِ كَرَّ^(٣) .

وقال عبد الملك بن قُريب : قال أبو الدرداء : إني لأستجِمُّ نَفْسِي بيمضٍ الباطل كرامة أن أحلَّ عليها من الحقِّ فأكلها^(٤) .

وكتب عمر بن الخطاب إلى سعد بن أبي وقاص ، رضى الله عنها ، وهو بالقادسية : أن جئتهم حديث الجاهلية ؛ فإنه يذكر الأختاد . وعظمهم بأبْأَمِ الله ما نشطوا الاستماع .

وقالوا : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخولنا بالوعظة^(٥) .

ولذلك أمروا بالجلِثم^(٦) وزيارة القَبِّ .

(١) من رواية قسامة . تهذيب التهذيب ٨ : ١٢٥ ، ٣٧٨ . في الأصل : « عمر بن أبي حننه »

(٢) قسامة بن زهير اللاتفي ، له إدراك . وكان ممن انتزع الأبله مع غيبة ابن غزوان ، وكان رأساً في تلك الحروب . مات بهد الخانين . الإصابة - ٧٢٨ . وتهذيب التهذيب

(٣) في الأصل : « يحيى من الذكر » . صوابه من البيان ١ : ٣٢٧ .

(٤) في الحيوان ٣ : ٧ : « من الحق ما يتلها » .

(٥) يتخولنا : يعمدنا ، وذلك عمارة السآمة علينا .

(٦) الجلم ، كسحاب : الراحة

وروا أن شرَّ السير المحققة^(١) .

ولأن ينقص الكتاب عن مقدار الحاجة أحبَّ إلى من أن يفضل عن مقدار القوة ؛ لأنَّ للالة تنقص [في] الجميع ، وترهق في الكل .

فأنا أسألك - أكرمك الله - أن ترى هذا الكتاب وتقرأ ماخف عليك منه . فإن يصلح الكلام [و] كان كما وصفتُ وكما تميمت ، حثت على قراءته وعلى اتخاذه ، وعلى تحليده وعلى تدوينه ، وأمرت من يحتاج إلى اللادة ، وإلى حسن المعونة من الواقفين والإخوان الصالحين ، أن ينظروا فيه ، وأن يثبتوه ويشيعوه .

وقد كنتُ أنا على ذلك قادراً ، وبه مستوصياً ؛ ولكن الرجل الرفيع إذا رفع الشيء ارتفع ، كما أنه إذا وضع الشيء انضع .

وإن كنتُ فيه غليظاً^(٢) أو لعنته مستكثرًا ، كان لك بحسن بيتك وصلاح مذهبك ، والذي رجوتُ عنده من للنفعة وصلاح قلوب العائنة ، الأجر الكبير ، والثواب العظيم ، مع ما تنقص بذلك من ذمام انتحرم بك ، والمتعلّي من بيتك ؛ ومع اليد البيضاء والصنيع الشكور .

و ١٠٩

وحرامٌ على كل متكلمٍ عالم ، وفقهٍ مطاع ، وخطيب مفوّه إن كان^(٣)

(١) المحققة : شدة السير . وهو في حديث عبد الله بن مطرف بن الشخير حين تعبد فلم يقصد ، فقال له أبوه : « يا عبد الله ، الدُّمُّ أفضلُ العمل ، والحسنة بين البيتين ، وخير الأمور أوساطها ، وشر السير المحققة » . أمثال اليداني ١ : ٣٢٧ واللسان (حق) والبيان : ٣٥٤ .

(٢) التلق : الضجر . وفي الأصل : « غلطا » .

(٣) في الأصل : « كان » .

عنده من الأمر شي . ، ألا أن يأتيكم به ، ويدرككم بما عنده ، قل ذلك أو أكثر ،
وصادف منكم شغلاً أو فراغاً ، لأن ذلك من عندكم أنفق ، والناس إليه أسرع ،
والقلوب إليه أسكن ، وهو في الميوز أعظم ، إنا جعل الله عندكم من حسن
الاختيار ، والعلم بمنافع العباد ، ومصالح البلاد ؛ إذ كنتم للتفرع والمنفع ،
والأثمة والمنزع . ولولا ما قلدهم من أمر الجماعة ، والقيام بشأن الخاصة والعامة ،
وأن الشغل برعاية حقها والدفاع عنها ، لم يبق في قواكم فضلاً لادعاء
والنازعة ، ولوضع الكتب بالجواب والسئلة - لبدأ بكم القرض ، ولكتم
أحق بهذا الأمر .

على أننا لم نتطرق إلا بالتحكم ، ولم نحتد إلا على مثالك ، ولم نقو
إلا بما أعرمونا من فضل قوتكم . وعلى الرثوة من الأدياء ، وعلى أهل
الأسن من الخطباء ، معاونتكم ومكافتكم ، والجلوس بين أيديهم والاستماع
منكم ، وعلى أن يطعموا أمركم ، وأن يتفنوا لطاعتكم ، وأن يخلصوا في الدعاء ،
وأن يمتصوا النصيحة ، وأن يضربوا غاية المحبة ، وأن يملوا في كفى^(١)
الزل والحسد ، وأن لا يرضوا من أنفسهم بالتفاني ، وأن يملوا أن الحسد
لا يقع إلا بين الأشكال ، وأن التنافس لا يكون إلا مع تقارب الحال .

وقد كان يقال : لا يزال الناس بخير ما تفاوتوا ، فإذا تقاربوا هلكوا .
وكان يقال : ثلاثة توجب الضنن وتكثر من الزل : المجاورة في المنزل ،
والاستواء في النسب ، والشاكلة في الصناعة .

ولذلك قال شبيب بن شبة لرجل ادعى محبته ونصيحته : « وكيف

(١) في الأصل : « كفى » .

لا يكون كما وصفت وكما ذكرت ، ولست بخطيب ، ولا جاري قريب ، ولا ابن عم نيب .

وقال بعض الحكماء : لو لم تعرفوا من لؤم الحسد إلا أنه موكل بالأدنى فالأدنى . وليس يقع ذلك بين التباينين ، ولا يجوز في المتعارفين .

ولا يكون الطلب إلا بالطمع ، ولا يكون الطمع إلا بالسب . فإذا انتظم السب انتظم الطمع ، وفي عدم الطمع [عدم] الطلب . وكيف يشكّل الطيّبان من لا جناح له ، وكيف يرجو صلاح أمر الدائمة وترتيب الخاصة من عجز عن تدبير بيته ، وقصر عن تدبير عهده ؟ ! وإنصاف الإنسان قليل ، وإنصاف القلب أقل منه .

ونحن نرغب إلى الله في صلاحهم ؛ فإن في صلاحهم صلاح قلوبنا لهم . وقد جعل الله الشكر موصولاً بالزبد ، ومن الشكر على نعمة الله علينا بكم أن ننظم ما عظم الله من أمركم . ومن صغر ما عظم الله فقد عظم ما صغر الله . ولا يفعل ذلك إلا الصغير القدر ، والناحل الذكر ، والجاهل بالأمر .

وكيف لا تكونون^(١) على ما خيّرتم وكما وصفت ، وقد أغنيتم من القيلة ، وآنتم من الوحشة ، وجمتم الشمل ، وأعدتم الألفة ، ورددتم الظلّامة ، وأحييتم الشئنة ، وأبرزتم التوحيد بعد اكتلامه ، وأظهرتموه بعد استغفائه ، واحتملتم عداوة الجميع ، ووترتم للطاعين في تقويتنا .

ونحن لا نطالب ما كنتم قياماً ، ولا نذكر ما كنتم شهوداً . ونحن مع قلّة علمنا لا نجد أبداً علمنا إلا مقصراً عن علمنا . وأتم مع اتساع قلوبكم ،

أعمالكم وفق علومكم ؛ لأن كل من بذل كل مجهوده ، وخاطر بجميع
نعبته ، وكانت الواحدة من نيته كالجبع من نيمه غيره ، مع خذلان للوافق
ونكوص للوازر ، ثم لم تزد الشدائد إلا شدة ، والوحدة [إلا] أنسة -
حقيق بالفضل والتعظيم ، والإجابة له بالتقديم .

ولعل قائل أن يقول : أدخله في جملة صفات أبيه ، وجملة مشيخته
وأقربيه . حيث خصهم بالتقديم ، وأبانهم بالتعظيم . بل كيف يقدم من
صغرت سنه وقلت تجربته على من تقاربت سنه وكثرت تجربته . وكيف
تمكن الطاعة الكثيرة في الأيام القصيرة والشهور البسيرة ؟ وهل يقول
ذلك صاحب تعصيل ومقايبة ، والبيد من اللق والمخادعة .

وما قلت ذلك - حفظك الله - ولا انتعلته ، إلا وبرهاني حاضر ، وشاهدي
شاهد . وذلك أن للشيب ^(١) سكرة وطاحاً ، وقراءاً وصولة . وللهزم
داخل على جميع الأعضاء ، وآخذ بقسطه من جميع الأجزاء . ألا ترى كيف
بكل ناظره وسامه ، وذائقه وشائه ، وهاشمه وعامله ؛ وكيف تنقص
على مرور الأيام قوته ، وكذلك قلبه وكل ما بطن من أمره ، على قدر
ما قصر من قوى جسمه وتنقص من قوى شهوته . [و] يخف عليه
مخالفة هواه ، ومحاربة نوازيه ^(٢) . ومن حمل ^(٣) على نفسه في كمال شبابه
وأيم سكرته ، وفي سلطان حديثه وكمال قوته ، فظلفها مرة ^(٤) وكبها

١١٠ و

(١) في الأصل : « لشارب » .

(٢) في الأصل : « وادعه » .

(٣) في الأصل : « ابن جود » .

(٤) ظلف نفسه : منها هراها

أخرى ، وعين تلك التشكليف ، وغالب تلك الرميح كان أجراً طاعة ! إذ كان أحل للشقة .

وعلى قدر الشقة تكون الثوبة ، وتمظم عند الله الثروة ، وتضع له في قلوب الناس المحبة . وقلبك قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لسعد ابن أبي وقاص ، حين وجهه إلى العراق : « يا سعد بن وهيب ^(١) ، إن الله إذا أحب عبداً حبَّبه إلى خلقه . فاعتبر منزلتك من الله بمنزلتك من الناس ، واعلم أن مالك عند الله مثل ما لله عندك ^(٢) . ونحن نعتبر حالك عند الله بما نرى تجددك في قلوب عباده . وقد ملك الله بعض الناس أبداناً بعض ، ولم يملك القلوب أحداً غيره . »

وأما قولهم : إن الغزاة مقرونة بالحدائث ، والحنكة موصولة بطول التعرُّبة ، فإنَّ الذهن الحديد والطبع الصحيح ، والإرادة الزاهرة ، ينال في الأبنام البسيرة ، ويدرك في الأذهان القصيرة ، ما لا تدركه المقول المندوجة ^(٣) ، ولا الطباع للدخولة ، والإرادة الناقصة ، في الألبام السكتيرة ، والأذهان الطويلة .

(١) هم بنو وهيب بن عبد مناف بن زهرة . وهو سعد بن أبي وقاص بن وهيب . واسم أبي وقاص مالك . جمهرة أنساب العرب ١٣٩ والإصابة ٢١٨٩ وفي البيان ١ : ٢٦١ : « يا سعد ، سعد بن أهيب » . وأهيب ووهيب لثان .

(٢) إلى ينتهي الخبر في البيان والتبيين .

(٣) المندوجة : الناقصة . من قولهم : خدجت الناقة : ألفت ولدها قبل أوانه لتغير تمام . ويقال خدجت الرأه ولدها وأخذته بمعنى واحد .

وربما صادف القائل مع ذكائه وكثرة قراءته^(١) وجودة اعتباره ، زماناً أكثر هجياً ، وأكثر معتبراً ، وإن كانت شهرته أقل ، وأبانه أقصر ، فينال مع قلة الأيام مالا ينال سواء مع كثرتها ، ولا سيما إذا أُعِين بِحِفْظٍ ، وأحسن من نفسه بفضْلِ بيان . ١١٠ ظ

وليس من تَنَزَّرَ في العلم على الرغبة والشهوة له كن نظر فيه حل للكسبة به والمهرب إليه ؛ لأنَّ النفس لا تُسَبِّح بكلِّ قواها إلاَّ مع النشاط والشهوة ، وهي في ذلك لنفسها مستكرهة ولها مكاييدة . والسَّامة إلى من كانت هذه صفته أقرب ، وله الأزم . ولولا ذلك لما ولى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ الْهِنِّيَّ ، وجعل^(٢) إليه قَبَضَ الْعُدَدَاتِ ، ومحاسبة الثَّمَالِ ، وقتله الأحكامَ وتعليم^(٣) الناس الإسلام ، وهو ابن ثمانٍ عشرة سنة . ولا يدقِّع ذلك صاحبَ خَيْرٍ ولا حاملُ أثر .

وعلى مثل ذلك عَقَّدَ لَأَسَامَةَ بْنَ زَيْدٍ الْإِمْرَةَ ، وأبَّاهُ بِالْتَقْدِيمَةِ عَلَى جِلَّةِ الْأَنْصَارِ وَكِبَارِ الْهَاجِرِينَ ، وخيار السَّائِفِ الْمُتَقَدِّمِينَ .

وعلى مثل ذلك ولى عَتَّابَ بْنَ أُبَيْدٍ^(٤) مَكَّةَ ، وبها عظماء قريش وكبراء العرب وذوؤ الأخطار من كل قبيلة ، وذوؤ الأسنان من كل جيل .

(١) في الأصل : « جوابه » بالإجمال

(٢) في الأصل : « وحمل » .

(٣) في الأصل : « ويعلم » .

(٤) بفتح الميمزة ، كما في الإصابة ٥٣٨٣ وقد أسلم عتاب يوم الفتح . واستعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكة لما سار إلى حنين .

ومكة فتح القنوج ، وألم القرى ، وخاتمة الهجرة وقبلة العرب ، وموضع الحرم والموسم الأعظم والحج الأكبر ، والأصل وللتخبر .

وقد رأيت ما يبلغ بحالد بن يزيد في السؤدد والحجة ، وقود الجيوش والهيبة ، وهو ابن خمس عشرة سنة . وقد ذكر ذلك الكيت بن زيد فقال :
 قاد الجيوش لخمس عشرة حجة ولدائه عن ذلك في أشغال^(١)
 قدت بهم محاتهم وسما به هم النوك وسورة الأبطال^(٢)
 فلما ابن يعضي^(٣) فقال :

بلغت لشير نعت من يند لك ما يبلغ السيد الأشيب
 ضحك فيها جاسم الأمور ومم لادتك أن يلعبوا

(١) البيت في فتح البلدان ٦١٩ برواية ساس الرحال سبع عشرة .
 وفي الأصل هنا : « بخمس عشرة » ، تحريف .

(٢) في الأصل : « قدت بهم محاتهم » . وعند البلاذري أن الشعر مقول في عهد بن القاسم .

(٣) ابن يعض ، بكسر الباء ، وهو حمزة بن يعض الحنفي شاعر إسلامي من شعراء الدولة الأموية ، كوفي خليف ماجن كان منقضا إلى اللهب بن أبي صبرة وولده ، ثم إلى أبيان بن الوليد ، وبلال بن أبي بردة ، واكتسب بشعره ما لا يبلغ ألف ألف درهم . ولم يدرك الدولة العباسية . الألفاظ ١٥ : ١٤ - ٢٥ ولؤلؤف ١٠٠ وحواشي الجيران ٥ : ٢٥٤ - ٤٥٥ . وفي عيون الأخبار ١ : ٢٢٩ أن حمزة ابن يعض قتل البتين لخلد بن يزيد بن اللهب .

وعلى مثل ذلك قال الفرزدق في يزيد بن المهلب :

ما زال منذ خفدت بداه إزاره ودنا وكان غمة الأخبار^(١)

وإذا الرجال رأوا يزيد رأيتهم خضع الرقاب نواكس الأبحار^(٢) ١١١ و

وعلى هذا الجري مدح الشاعر من مدح فقال :

ما زلت في عقل الكبير وأنت في سن الصغير

وقد رأيت ما بلغ محمد بن القاسم^(٣) من الفتوح العظام والأيام الجسام ،
والقهر للأعداء ، وبنو الخبة في الأولياء ، وهو ابن خمس عشرة سنة . وقد
ذكر ذلك زياد الأنجمي فقال :

ما إن سمعت ولا رأيت بحية كمحمد بن القاسم بن محمد^(٤)

قاد الجيوش بخمس عشرة حبة^(٥) ما قرب ذلك سودا من مولد^(٦)

(١) ديوان الفرزدق ٣٧٨ والحزنة ١ : ١٠٣ . والرواية في الديوان : « دنا
فأدرك خمة الأخبار » . وفي الحزنة : « وما فأدرك خمة الأخبار » .

(٢) هو محمد بن القاسم بن محمد بن الحكم بن أبي عفيف ، أحد ولاة الحجاج .
غزا السند ونصحا في أواخر أيام الحجاج : فتوح البلدان للبلاذري ٦١٢ - ٦١٩ .

(٣) في فتوح البلدان ٦١٩ وعيون الأخبار ١ : ٢٢٩ :

إن الروعة والجاهة والندى لمحمد بن القاسم بن محمد

(٤) في الأصل : « بخمس عشرة » والوجه ما أثبت . لكن في فتوح البلدان
« ساس الجيوش لسبع عشرة حبة » ، وفي عيون الأخبار : « قاد الجيوش
لسبع عشرة » .

وقال الآخر^(١) :

إذا لمره أعيته المروءة ناشئاً فطلبها كهلأ عليه عير^(٢)

وقال آخر^(٣) :

إذا ما ترعرعَ فينا السلام فليس يقال له من هـو^(٤)

إذا لم يندُ قبلَ شدِّ الإزار فذلك فينا الذي لا هـو

ولى صاحبٌ من بنى الشيصبان فطوراً أقول وطورا هـو^(٥)

وزعموا أن عمرو بن سعيد^(٦) قال له معاوية - وذلك قبل أن يبلغ

ويعظم - إلى من أوصى بك أبوك ؟ قال : إنَّ أبى أوصى إلى ولم يوصِ بى .

قال : فهم أوصاك ؟ قال : أوصانى ألاَّ يفتقد إخوانه منه إلا وجهه^(٧) .

(١) هو الملوط بن بلد القريش ، كما فى التنبية على الحماسة لابن جنى .
وعيون الأخبار ٣ : ١٨٩ . وفى الحماسة بشرح الرزوق ١١٤٨ : « وقد رُجل
من بنى قريش » .

(٢) فى الأصل : « كهل » ، صوابه فى المراجع المتقدمة . وأما « عير »
فالرواية فيها : « شديد » ؛ فإن البيت من مقطوعة دالية فى الحماسة .

(٣) هو حسان بن ثابت ، كما فى ديوانه ٤٢٢ واللسان : (شصب) ونحو
القلوب ٥٥ . وللأبيات قصة فى الديوان واللسان . ورويت فى الخيران ٦ : ٢٣١
بدون نسبة .

(٤) فى الديوان واللسان : « فلما إن يقال له »

(٥) الشيصبان ، بفتح الشين والصاد : أبو حى من الجبن ، زعموا .

(٦) هو أبو أديّة عمرو بن سعيد بن العاصى بن سعيد بن العاصى بن أمية .
المعروف بالأشعث جبهة أنساب العرب ٨١ ونهذيب التهذيب وناريخ الطبرى ٧ :
١٧٨ - ١٨١ وحوانى البيان ٣ : ٣١٤ .

(٧) فى البيان ٣ : ٣١٦ : « إلا شخصه » . والخبر فى عيون الأخبار ١ : ٢٣٥
وأمالى الرضى ١ : ٢٧٧ .

فهذا كله دليل واضح ، وبرهان بين .

ولعل قائل أن يقول : إننا الفضل في خشونة اللبس ؛ وليس ذلك لمن مدحت ، ولا هذه صفة من وصفت .

وهذا باب - أبقاك الله - قد ينط في المائل مالم يكن بارعاً ، والفقير مالم يكن ثاقباً ، والأرب مالم يكن كاملاً . ولو كان الفضل والرياسة والقدر والنباهة على قدر قسّف الجلدة وبذاذة الهيئة ، وكثرة الصوم ، وإيثار الوحشة والسياسة - لكان عثمان بن مظعون متقدماً لأبي بكر الصديق رضوان الله عليهما ، ولكان بلال بن رباح غامراً لعثمان بن عفان رضي الله عنهما .

وقد قال ابن شهاب الزهري : ليس الناسك^(١) إلا من غلب الحرام صبره ، والحلال شكره .

فهذا ما حضرنا من القول ، وأمكنا من الاحتجاج . وما أشك أن من خير أمرك أكثر من اختبأ كان عنده أكثر من عسى . وعلى أن منظر ك - أسطك الله - ينش عن الخبر ، والقراسة فيك تكفي مؤونة التجربة ١١٢ و لك . وقد تقبلت بحمد الله أخلاق شيخك^(٢) ، واحتذيت على مثله كما احتذى على مثال من كان قبله . ولولم بتعقبوا أمرك ، ويتصنعوا سيرتك في نفسك ثم في خاصتك وعامتك ، لكان في صدق القراسة وظهور الغيبة ما تقضى به النفوس ، ويستدل به المجرب . وظن المائل كيقين غيره .

(١) في الأصل : « ليس الناسك » . وفي البيان ٤ : ٩٨٧ : « ويد له أيضاً : ما الزهد في الدنيا : قل : ألا يظلم الحرام صبرك ، ولا الحلال شكرك » .
(٢) نفيه : تشبه به .

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : إنك لن تنفخ بعقله حتى ننتفع بعقله .
وقال أوس بن حجر :

الأمى الذى يظن لك الظأ بن كلب قد رأى وقد سمعا^(١)

وقال وهو يمدح ابن كلدة بصدق الحسن ، وصواب الخدس ، وجودة
الظن :

أريب أديب أخو مازقي نصاباً يخبر بالفتاب^(٢)
وقال آخر^(٣) يمدح بمثل ذلك عبد الملك بن مروان :

رأيت أبا الوليد عدة جمع به شيب وما فقد الشباب^(٤)

ولكن تحت ذلك الشيب حزم إذا ما ظن أمرض أو أصاب^(٥)

وقال الله تبارك وتعالى : ﴿ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه ﴾^(٦) .

وقال : ﴿ إن بمنزلة الظن إنهم ﴾^(٧) . وفى ذكره البعض دليل على أن سائر
ذلك صواب وطاعة .

(١) ديوان أوس بن حجر ٣ ، والكامل ٧٣١ والحيران ٣ : ٩٥ والبيان ٤ :

٦٨ برئ به فضالة بن كلدة . وروى : « يظن بك الظن »

(٢) ديوان أوس ١٢ والحيران ٣ : ٦٠ . والقباب الرجل العالم بالأشياء البحت

عنها للظن التشديد الدخول فيها . وقد وردت « قبابه فى الأصل » منصوبة . وروى :
« قباب » .

(٣) هو كثير . كما فى الحيران ٣ : ٦٠ والبيان ٤ : ٦٧ .

(٤) جمع ، بالفتح ، هو المزدلفة .

(٥) أمرض : قرب الصواب فى رأى وإن لم يجب كل الصواب . وفى الأمر :

« أمرض » ، صوابه من الحيران والبيان واللسان (مرض) .

(٦) الآية ٤٠ من سورة سبأ .

(٧) الآية ١٢ من سورة الحجرات .

وكان من أسباب دفعي إليك هذا الكتاب - أياك الله - دون
 أبي عبد الله^(١) أكرمه الله ، أنسكا قد تجريان في بعض الأمور مجرى واحد ،
 ولأنك وإن كنت كثير الشغل فهو أقل فراغاً منك على كثرة شغلك ، وفرد
 عنايتك بما استكفأك واسترعاك . وإن جعلت لي قسماً من وقت فراغك ،
 ونصيباً من ساعة نشاطك . رجوت أن يصير إلى ما أثنائه عندك من الإنعام
 علي ، والاسترمان لشكري ؛ فإن العرب لم تنظم شيئاً قط كتمظيمها موقع
 الإنعام والشكر والأحدوة الحسنة ، والذكر والتميز ، والاستمداد للنعيم ،
 والكفر حائل بين التمدد والجد .

١١٢ ظ

قال عنترة :

نبيت بشراً غير شاكرٍ نمتي والكفر محبةٌ لنفسٍ النميم^(٢)
 وقال السدي :

فلم أجز بالحنى وعادت مشاربي بلائعٍ يبروها الحسام النفرير
 تبدلت بالإحسان سوءاً وربما تنكر المعروف من كان يكفر

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد نقاضي . والله من كتب إليه الجاحظ :
 هذه الرسالة . وأبو دؤاد اسمه كنيته ، وقيل اسمه « دعي » وقيل « طلحة » .
 ولى أحمد القضاء المعتصم ثم قوائق ، وكان موصوفاً بالجود والسخاء وحسن الخلق
 ووفور الأدب ، وهو صاحب محنة القول بخلق القرآن في أيام المعتصم والواثق .
 ولد سنة ١٦٠ بالبصرة وتوفي سنة ٢٤٠ في بغداد . تاريخ بغداد ٤ : ١٤١ - ١٥٦
 ووفيات الأعيان ١ : ٢٢ - ٢٦ .

(٢) البيت من معلقة عنترة . والرواية : « نبت عمرًا » . انظر شرح
 قصائد السبع الطوائف لابن الأنباري ٣٥٥ .

وبدل على حبهم للنساء وجيل الله كقول الأسدئ :
فإني أحب الخلد لو أستطيعه وكان الخلد عندى أن أموت ولم أَلَمْ^(١)
وقال :

فأنتوا علينا لا أبا لأبيكم بمسأنا إن النساء هو الخلد^(٢)
وقال الفنوي :

فلذا باتم أهلكم بخصدئوا إن الحديث مهالك^(٣) وخلود^(٤)
فجسوا الله كرجل مثل الخلود في التميم .
وعلى هذا المعنى قال في ذلك الشاعر :

فقتلاً بتقتيل وعقراً كعقركم جزاء المطاس لا يموت من أنار^(٥)
وقال حكيم الفرس حين بلغه موت الإسكندر ، وهو قاتل دارا بن ديرا :
ما خلفت أن قاتل دارا يموت !

وهذا القول هو أمدح منه لقائه . ولم أسمع للمعجم كلمة قطع أمدح منها .
فإنما العرب قد أصبت لم من هذا الضرب كلاماً كثيراً .

(١) الحيوان ٣ : ٤٧٥ والبيان ٣ : ٣٢٠ .

(٢) الحيوان ٣ : ٤٧٥ والبيان ٣ : ٣٢٠ . والرواية فيها « بإحسانا » .

(٣) في بعض نسخ الحيوان : « بلستم أرضكم » و « متالف وخلود » . انظر

الحيوان ٤ : ٤٧٥ .

(٤) هو مهلهل . كما في البيان ٣ : ٣٢٠ . وهو بدون نسبة في الحيوان

٣ : ٤٧٥ . تحريف . وفي الأصل : « وعفوا كعقوكم » تحريف . والعقر : القتل

والإهلاك . جزاء المطاس ، هو تشبعت المطاس والدعاء له بالخير : أى خيل يملك

كقدر ما بين المطاس والنشبت . وانظر اللسان (عقب ١١٠ جزى ١٥٩) .

لا يموت من أنار ، أى لا يموت ذكره . أنار : أدرك نأره .

ومما يفتل على قدر عظم الشكر عند الشاكر والشكور له من العرب ،
قول أوس بن حجر في حليمة^(١) :

سجزيك أو يجزيك عنا [مثنوب]

وحبك أن يفتى عليك ونعمدي^(٢)

وقال بعض الشعراء^(٣) :

فلم أجزه إلا الشكر جاهداً وحبك متى أن أقول فأحدا^(٤) ١١٤ و

وكانوا يرون للذنب مالا يراه غيرهم . وقال امرؤ القيس بن خبجر :

• وجرح اللسان كجرح اليد^(٥) •

(١) هي حليمة بنت فضالة بن كلفة . وكانت قد أسدت إليه دنيها حين جالت به ناقة فصرعت ، في قصة رواها أبو الفرج في الأغاني ١٠ : ٧ .

(٢) المثنوب : المجازى . يقال أثابه وأثوبه وثوبه . وفي الكتاب العزيز : « هل ثوب الكفار ما كانوا يعملون » . وموضع الكلمة يابض في الأصل ، وإثابها من ديوان أوس ١٧ والحيوان ٣ : ٧١ والبيان ٣ : ٣٢٠ . وروى : « عن مثنوب » وروى : « وقصرك » بدل « وحبك » ! وهما بمعنى .

(٣) هو أبو يعقوب الأعور ، كافي الحيوان ٣ : ٧٢ .

(٤) في الحيوان :

فلم أجزه إلا السودة جاهداً وحبك متى أن أود وأجرها
وفي بعض نسخ الحيوان : « أن أود وأحدا » .

(٥) صدره في ديوان امرئ القيس ١٨٥ والبيان ١ : ١٥٦ :

• ولو عن ثنا غيره جادى •

وقال جرير :

• وَلَئَيْفَ أَشَوَى وَفَقَةً مِنْ لِسَانِيَا ^(١) •

في أشعار كثيرة .

ولست أُمْتُ إِلَيْكَ — أكرمك الله — بعد التوحيد ونفى التشبيه ،
ونصرقي للذين ، بأمر أنا به أوثق من رغبتك في شُكْرِ الكرام والأحدونة
الحسنة . قال الله عز وجل : ﴿ وَرَقَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ^(٢) ﴾ وقال : ﴿ وَإِنَّهُ
لَذِكْرٌ لَكَ وَقَوْمِكَ ^(٣) ﴾ . فلو كان حبُّ الذكر خطيئةً لما رَغِبَهم فيه ،
ولا عُذُّ في نيَمته .

ولعل قائلًا أن يقول : وكيف لم تذكر أمير المؤمنين ، والعنصر
رب العالمين ، الذي حقق الله به الدين وسدَّد به الثغور ، وردَّ به المظالم ،
وحسَم به عِرق البُنى ونواجم اللغظة ؛ الذي لم يزل الله يزيد في كلِّ حُرْفَةٍ
حُجَّةً ، ومع كلِّ عَجْةٍ هَيِّبَةً ، ومع كلِّ نِيْمَةٍ شُكْرًا ، ومع كلِّ شُكْرٍ فَضْلًا .
وهو المبتدئ بهذا الأمر والقائم به ، والقطب الذي عليه تدور الرِّسَى ، وعلى
مثاله احتذى من احتذى ، ولسانه نطق ، وعن رأيه صدر . ويؤمن بقيته
ظهور ، وبفضل قوته نهس . وهو أوَّل هذا الأمر ووسطه ، به يتم
إن شاء الله تعالى .

(١) صدره في ديوان جرير ٦٠٦ والبيان ١ : ١٦٧ :

• وليس لساني في النظام بقية •

أي هو بكسر الغمَام وينجاوزه لا ينبغي فيه أشوى . من الشوى ، وهو
إخطاء القتل . يعني أن لسانه أشد فتكا من سيفه . على ما في سيفه من قوة وفك .

(٢) الآية ٥ من سورة الأنعام .

(٣) الآية ٢٤ من سورة الزخرف .

قلنا : إن عقل الرسول يدرك على مرسله ، واعتدال القناعة يدرك على جذق اللثف ، ومدىحك الوزير راجع إلى من اختاره ، وإن تصويب ظنّ التفرس فيه ومدىحنه له غير راجع إلى وزيره والمحتذى على مثاله ، بل قد علم الناس أن الحفظ الأكبر للأمير دون الطبع ، وللعلم دون القائل ، ولأن السبب في عداله^(١) وعند النظر والتحصيل ، أفضل من السبب ، والصور خير من النتائج . ألا ترى أن من مدح الأنصار فهو النبي صلى الله عليه وسلم وللمهاجرين أمدح ، وإن لم يظهر ذكرهم في الوصف .

قال جرير :

• فلكم قرشي والأنصار أنصاري^(٢) •

وقال رؤبة :

• ومن على النبر لي والينبر •

وربما كانت الكناية أبلغ في التعظيم ، وأدعى إلى التقديم ، من الإفصاح والشرح . وربما أتى من الكوت بما يسجّر القول عنه وقد بلغ أقصى حاجته وغاية أمنيته بالإيما ، والإشارة ، حتى يكون تكلف القول فضلاً ، والكلام خطلاً .

وما عسى أن أقول فيمن قد قوى عقله بطبيعته ، وانصف عزته من شهوته ، وكان عمله وفق عمله ، وعمله غامراً لخاصه .

(١) يباس في الأصل بمقدار كتين .

(٢) صدره في ديوان جرير ٣١١ :

• إن الدين اجترأ مجدا ومكرمة •

وفي الأصل : • نبهم قرشي والأنصار الصابرين • .

وقد يجري للثب على عرق صالح ومنشأ سوء ، فيندح ذلك في عرقه وإن لم يتأصله ، وقد يكون له عرق صالح ومنشأ صديق ، وتكون أداته تامة ويكون مؤثراً لهواه ، فيكون في الاسم وفي ظاهر الحكم كن قد عرفه وخبث منشؤه .

وقد جمع الله لأمر المؤمنين^(١) مع كرم العروق وصلاح المنشأ ، البُهد من إشار الموى . وهل رأيت أفعالاً أشبه بأخلاق ، ولا أخلاقاً أشبه بأعراق من أفعاله بأخلاقه ، وأخلاقه بأعراقه .

فسأل الله الذي أسدنا بخلافته ، أن يمن علينا بطول بقاءه ، وأن يخصنا بحسن نظره كما خصنا بمعرفة حقه ، والاحتجاج لملكه ، والذب عن سلطانه .

ولربما كان اللسان أخذ من السنن ، وأقطع من الشيف الميمان .
أطال الله بقاءك وحفظك ، وأتم نمته عليك ، وكرامته لك .

• • •

تمت الرسالة بمون الله تعالى ومنه وتوفيقه وتأيدده . والحمد لله أولاً وآخراً
وصلواته على سيدنا محمد نبيه ، وآله وصحبه ، وسلامه .

٧
رِسَالَةٌ

إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دُواد
مُخَبَّرُهُ فِيهَا بَكْتَابُ

الْفُيُتَا

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة السابعة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها :

« رسالة إلى أبي عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإباضي . من كلام أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتبها إليه يخبره فيها بكتاب القيا » .

أما أبو عبد الله أحمد بن أبي دؤاد الإباضي فقد سبق ترجمته في أثناء الرسالة السابقة فأغنى ذلك عن إعادتها .

وقد أجرى الجاحظ ذكر كتاب القيا في الحيوان ١ : ٩ قال : « وعبث كتابي في القول في أصول القيا والأحكام » .

وما هذه الرسالة إلا تقديم وعجالة لإهداء لكتاب القيا ، وليست هي كتاب القيا بحد ذاته .

ولم أجد لهذه الرسالة أصلاً في غير مجموعة «كنة داماد» ، وعليها اعتماد في إخراج هذه الرسالة .

أطاع الله بقاءك وأعزك ، وأصلح على يدك .

١١٥ ظ

كان يقال : السلطان سوق ، وإنما يجلب إلى كل سوق ما يتفق فيها .
وأنت أيها العالم مسلم الخير وطالبه ، والداعي إليه ، وحامل الناس عليه .
من موضع السلطان بأرفع المكان ؛ لأن من جعل الله إليه مظالم العباد ،
ومصلح البلاد ، وجعله متصفاً على القضاة^(١) ، وعتاداً على الولاة ، ثم جعله
الله موزع الملاء ، وموزع الضعفاء ، ومستراح الحكمة ، فقد وصته بأرفع
النازل ، وأسمى للراتب .

وقد قال أهل العلم ، وأهل التجربة والفهم : « كما يَزَعُ الله بالسلطان
أكثر مما يَزَعُ بالقرآن^(٢) » .

وقد كان يقال : شيطان متباينان ، إن صَاحَ أحدهما صَاحَ الآخر : الشيطان
والرعية .

قد صَاحَ السلطان ، وعلى الله تمام النعمة في صلاح الرعية ، حتى يحقق
الأثر ، وتصدق الشهادة في الخير .

(١) إشارة إلى أنه كان قاضي القضاة .

(٢) في اللسان (وزع) : « وفي الحديث : من يزع السلطان أكثر ممن
يزع القرآن » . قل : منه أن من يكف عن ارتكاب المظالم بحماة السلطان
ممن تكفه بحماة القرآن والله تعالى . فمن يكفه السلطان عن الماصي أكثر ممن
يكفه القرآن بالأمر والنهي والإنذار

فنسأل الذي منعك حسن الرعاية أن يمنعنا حسن الطاعة .

وقد نظرت في التجارة التي اخترتها ، والشوق التي أفتتها ، فلم أر فيها شيئاً
يُنْفِقُ إِلَّا العلم والبيان عنه ، وإِلَّا الصلِّ الصالح والدُّعَاءُ إليه ، وإِلَّا التَّماوُن
على مصلحة العباد ، ونفى الفساد عن البلاد .

وأنا - مَدَّ اللهُ في عرك - رجلٌ من أهل النَّظَرِ ، ومن حَالِ الأثر ،
ولا أَكُتِلُ لَكُلِّ ذلك ولا أُنِي ؛ إِلَّا أَنِّي في سبيلِ أهله وعلى منهاج أصحابه .
والله مع مَنْ أَحَبَّ ، وله ما اكْتَسَبَ .

وعندي - أَبْقَاكَ اللهُ - كتابٌ جامعٌ لاختلاف الناس في أصول الفتن ،
التي عليها اختلفت الفروع وتضادَّت الأحكام ، وقد جمعتُ فيه جميعَ الدُّعَاوى
مع جميع العلل . وليس يكون الكتابُ ثأناً ، ولحاجة الناس إليه جامعاً ، حتَّى
تُتَمَتَّعَ لِكُلِّ قولٍ بما لا يَصَابُ عند صاحبه ، ولا يُلْفَظُ أَهله ؛ وَحَتَّى لا تَرْضَى
بِكُشْفِ قناع الباطل دون تجريدِهِ ، ولا بِتَوْهِينِهِ دون إبطالِهِ . وقد قال رسولُ
ربِّ العالمين وخاتمُ النَّبِيِّينَ ، مُحَمَّدٌ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : « تَهَادَوْا تَحَابُّوا » .

فَحَثَّ عَلَى المَدِينَةِ وَإِنْ كَانَ كَرَامًا وَشَيْئًا يَسِيرًا . وَإِذَا دَقَّا إِلَى البَيْرِ الْحَقِيرِ
فَهُوَ إِلَى الثَّمِينِ الْمَطْلُوبِ أَدْعَى ، وَبِهِ أَرْضَى .

١١٦ و

ولا أعلم شيئاً أَدْعَى إِلَى التَّعَابُ ، وَأَوْجِبَ فِي التَّهَادَى ، وَأَعْلَى مَرَّةٍ
وَأَشْرَفَ مَرْتَبَةٍ ، مِنْ العلمِ الَّذِي جَعَلَ اللهُ السَّلَ لَهُ تَيْمَنًا ، وَالْجَنَّةَ لَهُ نَوَامًا .

ولا غُدْرَ لِمَنْ كَتَبَ كِتَابًا وَقَدْ غَابَ عَنْهُ خَصْمُهُ ، وَقَدْ تَكْفَّلَ بِالْإِخْبَارِ
عَنْهُ ، فِي تَرْكِ المِطِيعَةِ لَهُ ، وَالْقِيَامِ بِكُلِّ مَا احْتَمَلَهُ قَوْلُهُ . كَمَا أَنَّهُ لَا غُدْرَ لَهُ
فِي التَّقْصِيرِ عَنْ فَسادِ كُلِّ قولٍ خالفَ عليه ، وضادَّ مذهبَهُ ، عِنْدَ مَنْ قَرَأَ كِتَابَهُ

ونفهم أدغاله^(١) ، لأن أقل ما يُزيل^(٢) عذره ويُرزع عِقله ، أن قول خصمه قد استهدف نخصه^(٣) وأحصرَ لسانه^(٤) ومكَّنه من نفسه ، وسلَّطه على إظهار عورته . فإذا استراحَ واضحُ الكتاب من شغب خصمه ومداراة جابسه ، ظلَّ يبقَى إلَّا أن يفتوى على كسر الباطل أو يمجِّزَ عنه^(٥) .

ومن شُكر المعرفة بمتأوى الناس وتراشدهم ، ومضارهم ومنافعهم ، أن تحتمل قتل مؤوتهم في تعريفهم^(٦) ، وأن تتوخى إرشادهم ، وإن جهلوا فضل ما يُبدى إليهم .

ولم يُصنِّ العلمُ بمثل بذله ، ولم يُستَدَقْ بمثل نشره . على أن قراءة الكتب أبلغُ في إرشادهم من تلاقيهم ، إذ كان مع التلاقي يكثر الضلالُ ، وتفرط النصرة ، وتشتد الحيلة . وعند المواجهة يفرط حبُّ الغلبة ، وشهوةُ المباحة والرئاسة ، مع الاستعياء من الرجوع ، والأنفة من الخضوع . وعن^(٧) جميع ذلك تحدث الضَّالُّان ، ويُفْطِرُ التَّباين . وإذا كانت القلوبُ على هذه الصفة وهذه الحيلة ، استنعت من المعرفة^(٨) ، وعجيت عن الدلالة .

(١) الأدخال : جمع دخل بالتحريك ، وهو الغيب والفساد .

(٢) في الأصل : « يزيد » .

(٣) أحصر : ظهر وبرز .

(٤) الكلام جده إلى « وقفات سوق العلم والبيان » في ص ٢١٧ نجدد مع

خلاف سير في الحيوان ١ : ٨٤ - ٨٧

(٥) في الحيوان : « في تقويمهم » .

(٦) في الأصل « وعند » . ووجه من الحيوان .

(٧) في الأصل : « الفرقة » . وفي الحيوان : « التعرف » .

ولست في الكتب علة تمنع من درك البنية ، وإصابة الحجة : لأن التوحد بقرائنها ، والتفرد بفهم معانيها ، لا يباهى نفعه ، ولا يبالغ عقله .
والكتاب قد فضل صاحبه ، ويرجع على واضعه بأمور :

منها أنه يوجِّد^(١) مع كل زمانٍ على تفاوت الأعصار ، ويُبَدِّءُ بين الأمصار . وذلك أمرٌ يستحيل في واضع الكتاب ، والتنازع بالسألة والجواب .
وقد يذهب العالم وتبقى كتبه ، ويفتقِ القُلبُ^(٢) ويبقى أثره . ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها ، وخلدت من مجيب حِكْمَها ، ودَوَّنت من أنواع سِيرَها ؛ حتى شاعدا بها ما غلبَ عنا ، وفحصنا بها استغفلق علينا ، فجتنا إلى قلبنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم ندركه إلا بهم . قد غَسَّ حظنا في الحكمة ، واقطع سبيلنا من المعرفة ، وقصُرَت الهِنة ، وضفت النِّية ، فاعتقم الرأى وماتت الخطوط ، ونبأ العقل^(٣) .

ظ ١١٦

وأكثر من كتبهم نفعاً ، وأحسن ما تكلموا به موقفاً ، كتبُ الله التي فيها الهدى والرحمة ، والإخبار عن كلِّ عِبرة ، وتعريفُ كلِّ سِئْةٍ وحسنة .
فينبى أن يكون سبيلنا فيمن بعدنا كسبيل من قبلنا فينا . على أننا قد وجدنا من العبرة أكثر مما وجدوا ، كما أن من بعدنا يُعِدُّ من العبرة أكثر مما وجدنا .

فما ينتظر العالمُ بإظهار ما عنده ، والنَّاسِرُ^(٤) للعق من القيام بما يلزمه .

(١) في الأصل : « يوحذ » .

(٢) في الأصل : « القُلب » . وفي الحيوان « العقل » .

(٣) في الحيوان : « وتبدد العقل » .

(٤) في الحيوان : « والناسر » .

فقد أمكن القول وصَلَحَ الدهر ، وخَوَى نِجْمَ النَّيَّةِ ^(١) ، وهُبَّت رِيحُ الطَّاءِ ،
وكَسَدَ الجَملُ والمَيَّ ^(٢) ، وقامت سوقُ العلمِ والبيانِ ^(٣) .

وهذا الكتاب - أرشدك الله - وإن حَسُنَ في عيني ، وحَلَّ في صدري ،
فلستُ آمَنُ أن يَتَرَبَّيَ فيه من الفلِطِ ما يَستَري الأبُّ في ابنه ، والشَّاعِرُ
في قريضه .

والذي دعاني إلى رَضِهِ مع إشفاقٍ منه ، وهيبتي لتصفحك له ، أتى حين
علتُ أن الغالبَ على إرادتك ، والمتولَّى على مذهبك ، تقرب العالم وإقصاء
الجاهل ، وأنتَ متى قرأتَ كتاباً أو سمعتَ كلاماً ، كنتَ من وراء ما فيه
من نعيمٍ أو فضلٍ ، باتِّساعِ الفهم ، وصحةِ العلم ؛ وأنتَ متى رأيتَ زللاً غفرتَه
وقوَّمتَ صاحبه ، ولم تُقرِّعْهُ به ، ولم تُخْرِشْهُ له . ومتى رأيتَ صواباً أعانتَه
ورعيته ، فدعوتُ إليه وأثبَّتَ عليه . ولأني حين أمنتُ عقابَ الإساءة ،
[و] توقفتُ بشوَابِ الإحسان ، كان ذلك موجباً لوضعه ، ولم أستكره نفسي
عليه ، وصار ذلك موجباً لتنظيمه وموحيثاً للتثريب به . والسَّببُ أحقُّ بالتمنُّيلِ ١١٧
من السَّبِّ ؛ لأنَّ الفعلَ محمولٌ على سبِّه « ومضافٌ إليه ، وعِيالٌ عليه ،
ومضثن به .

وإحسانى - مدَّ الله في عمرك - في كتابي هذا إن كنتَ محسناً ، صغيراً

(١) خوى : اختفى وذهب .

(٢) في الأصل : « والعمل » ، صوابه من الحيوان .

(٣) في الحيوان : « سوق البيان والعلم » . وإلى هنا ينتهى النص للقارب

نص الحيوان ، الذى أشرتُ إليه في ص ٢١٥ .

في جنب إحسانك ، إذ كنتَ للثيرة له من مَرَاقِبِهِ ، والباعثَ له من مراقده .
فذلك صارَ أوفرَ التصيِّبِ لكَ ، وأمتنَ السببِ مضافاً إليك . وإن كنتَ
قد قصرتَ عن الغاية ، فأنا المصِّبُ دونك . وإن كنتَ قد باشتها ففضلُك أظهر
وحظُّك أوفر . لأنَّ لم أنشط له إلَّا بك ، ولا اعتمدت فيه إلَّا عليك .

ولولا سوقُك التي لا يتفق فيها إلَّا إقامة السنة ، وإمالة البدعة ، ودفع
الظُّلُمَةِ ، والنظر في صلاح الأُمَّة — لكانت هذه السَّاعة بائرة ، وهذا الجَلْبُ
مدفوعاً ، وهذا الملقى خيباً .

فالحمد لله الذي عمَّر الدنيا بك ، وأخذ لظلمتها على يدك ، وأيدَ هذا
المُلكَ بيمينك ، وصَدَّقَ فِرَاسةَ الإمام فيك .

وأيةَ منزلةٍ أرفعُ وأيةَ حالةٍ أحمَدُ ، ممَّن ليس على ظهرها عالمٌ إلَّا وهو
يَحْيِي إليه ، أو قد رحل إليه ، أو قد صار إلى كنفِهِ وتحت جناحه . وليس على
ظهرها ظالمٌ إلَّا وهو يَتَّقِيهِ ، ولا مظلومٌ إلَّا وهو يستمديه .

ومن يَقِفُ على قفْرِ ثوبٍ مَن هذا قدرُهُ ، وهذه حالُهُ ؟ !

وعندي — مدَّافهُ في عمرك — كتبٌ سوى هذا الكتاب ، وليس
يتمنى مِن أن أهدبها إليك ممَّا إلَّا ما أعرفه من كثرة شُغْلِكَ ، وكثرة ما يُلْزِمُكَ
من التدبير في ليالك ونهارك . والعلم وإن كان حياةَ العقل ، كما أنَّ العقلَ حياةَ
الروح ، والروح حياةَ البدن ، فإنَّ حكمته حكمُ الماء ، وجميعِ الغذاء ، الذي إذا
فضل عن مقدار الحاجة عاد ذلك ضرراً . وإنَّا يسوغُ الشُّرابَ ويُسْتَمْرَأُ
الطعامُ الأوَّلُ فالأوَّل . فكذلك العلمُ يجرى مجراه ، ويذهب مذهبه .

ومن شأنِ الثُّغُوسِ الملائةِ لِيَا طالَّ عليها ، وكثُرَ عندها . فليس لنا
أن نكون من الأعوان على ذلك ، ومن الجاهلين بما عليه طبائع البشر ؛

فَإِنَّ أَقْوَامَ ضَعِيفٌ ، وَأَنْشَطَهُمْ سَوْدُومٌ ؛ وَإِنْ كَانَتْ حَالُهُمْ مُتَفَاوِتَةً فَإِنَّ الضَّعْفَ لَمْ يَحُلْ ، وَعَلَيْهِمْ غَالِبٌ .

فَإِذَا قُرِئَ عَلَيْكَ - أَبْدَكَ اللَّهُ - هَذَا الْكِتَابُ التَّمَنَّا أَوْغَلَتْ الْجَلَامُ^(١) وَسَاعَاتِ الْفَرَاغِ ، بِقَدْرِ مَا يُسَكِّنُ مِنْ ذَلِكَ وَبَشِيرًا . وَاللَّهُ لِلْمَوْفِقِ لَذَّةٌ ، وَلِلْمُهَيِّئِ لَهُ . ثُمَّ أَنْبَغْنَا كُلَّ كِتَابٍ بِنَايَاهِ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .

وَلَيْسَتْ بِحَمْدِ اللَّهِ مِنْ بَابِ الطُّفْرَةِ وَالْمُدَاخَلَةِ^(٢) ، وَلَا مِنْ بَابِ الْجَوْهَرِ وَالْقَرَضِ ، بَلْ كُلُّهَا فِي الْكِتَابِ وَالشُّنَّةِ ، وَبِمَجْمَعِ الْأُمَّةِ إِلَيْهَا أَعْظَمُ الْحَاجَةِ . ثُمَّ نَسَأُ الَّذِي عَرَفْنَا فَضْلَكَ ، أَنْ بَعَلَ حِكْمَنَا بِحَبْلِكَ ، وَأَنْ يَجْمَعَنَا مِنْ صَالِحِي أَعْوَانِكَ بِالْمُسْتَعِينِ مِنْكَ ، وَالتَّائِيهِ بِكَ ؛ وَأَنْ يُحَسِّنَ فِي عَيْنِكَ وَبِزَيْنٍ فِي سَمْعِكَ ، مَا تَقَرَّبْنَا بِهِ إِلَيْكَ ، وَالتَّمَنَّا الدُّنْوَى مِنْكَ ، إِنَّهُ قَرِيبٌ جَبِيبٌ ، فَقَلَّلْ لَنَا بَرِيدٌ .

أَطْلَلُ اللَّهَ بِجَانِكَ ، وَأَتَمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ ، وَكَرَامَتَهُ لَكَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

• • •

تَمَّتِ الرِّسَالَةُ بِمَوْنِ اللَّهِ تَعَالَى وَمُنَّةِ وَتَوْفِيقِهِ . وَاللَّهُ لِلْمَوْفِقِ لِلْعُرُوبِ .
وَالْحَمْدُ لِلَّهِ أَوَّلًا وَآخِرًا ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ الطَّيِّبِينَ
الطَّاهِرِينَ وَسَلَامُهُ .

(١) الْجَلَامُ ، كَحَبْلٍ : الرَّاحَةُ .

(٢) انْظُرِ لِلطُّفْرَةِ وَالْمُدَاخَلَةِ حَوَائِصَ الْحَيَوَانِ ٤ : ٣٠٨ .

٨

رِسَالَةٌ

إِلَى أَبِي الْفَرَجِ بْنِ نِجَاحٍ الْكَاتِبِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة الثامنة من رسائل الجاحظ ، انقردت بها نسخة مكتبة دلماد وعنوانها :

« رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتب بها إلى أبي الفرج بن نجیح الکاتب » .

وهي غير الرسالة التي كتب بها إليه في « المودة والخلطة » ، فهذه لم تُرد في مجموعة داماد ، وإنما وردت في الفصول المختارة لميبد الله بن حسان ، وكذا في مختارات فصول الجاحظ نسخة المتحف البريطاني ، وقد نشرها السندوي كذلك في رسائل الجاحظ .

وسأقوم بتحقيقها ونشرها إن شاء الله بعد التراخ من هذه المجموعة : مجموعة داماد . وأبو الفرج هذا هو محمد بن نجیح بن سلفة ، كما في جمع الجواهر المصرية ١٢١ . وأبوه نجیح بن سلفة كان على ديوان التوقيع في خلافة المتوكل وقتله سنة ٢٤٥ ووجه إلى ابنه أبي الفرج وأبي محمد ، فأخذ أبو الفرج وهرب أبو محمد ، كما ذكر الطبري في حوادث تلك السنة .

والملحوظ في هذه الرسالة أن الجاحظ قد عني فيها بجمع أسماء من كنيته « أبو عثمان » التي هي كنيته أيضاً ، كما أنها قد سجلت للجاحظ قصيدة من شعره .

جَدَّاتُ فِدَاكَ ، وَأَطَالَ اللَّهُ بِقَاكَ ، وَأَعَزَّكَ وَأَكْرَمَكَ ، وَأَتَمَّ نَمَتَهُ
عَلَيْكَ وَأَبْدَكَ .

قد نسخت لك - أعزك الله - في صدر هذا الكتاب قصيدةً قيلت في
أبي الفرج أدام الله عزه ، ذكرُوا أن فائلاً رجلاً يكنى أبا عثمان ، ولا أدري
أهو أبو عثمان هشام بن النيرة^(١) ، أم أبو عثمان عَفَّان بن أبي العاص^(٢) .

ولا أدري أهو أبو عثمان عتبنة بن أبي سفيان ، أم أبو عثمان سعيد
ابن عثمان^(٣) ، ولا أدري أهو أبو عثمان التُّهْدِي عبد الرحمن بن مِلَّ^(٤) ،
أم أبو عثمان ربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن^(٥) .

(١) جمهرة أنساب العرب ١٤٥ . وهو والده أبي جهل .

(٢) جمهرة أنساب العرب ٨٣ وهو والده عثمان .

(٣) جمهرة أنساب العرب ١١١ وهو سعيد بن عثمان بن عفان .

(٤) في الأصل : « مليل » . صحابه من الجاهلية ٢٢٧ وتهذيب التهذيب
٦ : ٣١٧ وغريب التهذيب . وهو عبد الرحمن بن مل - بتثنية اللام -
بن عمرو بن عدي بن وهب بن ربيعة بن سعد بن جذيمة بن كعب بن رفاعة بن مالك
ابن نهد .

(٥) هو ربيعة الرأي بن أبي عبد الرحمن فروخ التميمي . أدرك بعض الصحابة
والأكابر من التابعين . وكان صاحب الفتوى بالمدينة . توفي سنة ١٣٩ . تهذيب
التهذيب والمعارف ٢١٧ وصفة الصفوة ٢ : ٨٣ - ٨٦ .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن خالد بن أسيد^(١) ، أم أبو عثمان إسحاق بن الأشعث بن قيس .

ولا أدرى أهو أبو عثمان النضر بن الزبير بن العوام^(٢) ، أم أبو عثمان عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك^(٣) .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن خالد بن أسيد^(٤) ، أم أبو عثمان أبو العاص بن [بشر بن^(٥)] عبد دهمان ، وهو اسمه .

ولا أدرى أهو أبو عثمان عبد الله بن عبد الرحمن بن سبرة بن حبيب ابن عبد شمس^(٦) ، أم أبو عثمان عبد الله بن عامر بن سكرية^(٧) .

ولا أدرى أهو أبو عثمان سعيد بن أسعد بن إمام المسجد الجامع الأعظم ، أم أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب^(٨) .

(١) جمهرة أنساب العرب ١١٣ .

(٢) جمهرة أنساب العرب ١٢٣ .

(٣) جمهرة أنساب العرب ٩٠ - ٩١ .

(٤) جمهرة أنساب العرب ١١٣ .

(٥) التنكة من جمهرة أنساب العرب ٣٦٦ .

(٦) جمهرة أنساب العرب ٧٤ . وفي الأصل : « بن جندب بن عبد شمس » . صوابه : من الجمهرة والإصابة ٣٤٦٩ .

(٧) الجمهرة ٧٤ ، ٧٥ ، ٣١١ .

(٨) عمرو بن عبيد بن باب : شيخ من شيوخ الفترة ، واحد الزهاد المشهورين . توفي بمران سنة ١٤٤ وورثاه النصور . قالوا : ولم يسمع بحليفة رقى من دونه سواه . تاريخ بغداد ٦٦٥٢ والمعارف ٣١٢ .

ولا أدري أهو أبو عثمان فيروز حُصَيْنِ المنبري^(١) ، أم أبو عثمان
ابن عمر بن أبي عثمان الثمري^(٢) .

ولا أدري أهو أبو عثمان خالد بن الحارث بن سليمان الهبثي^(٣) ،
أم أبو عثمان أبو الماص بن عبد الوهاب الثقفي^(٤) .

(١) في الأصل : « فيروز بن حصن » ، صوابه ما أثبت من البيان ٢ : ٤٣
وجمهرة أنساب العرب ٢٠٩ . وهو مولى حصين بن مالك بن الحشغاش المنبري .
قال ابن قتية في المعارف ١٤٧ : « ومن موالى آل الحشغاش فيروز ، أعظم مولى
بال عراق قدراً . وقد ولي الولايات وخرج مع ابن الأشعث ، فقال الحجاج : من
جاءني برأس فيروز فله عشرة آلاف درهم ! فقال فيروز : من جاءني برأس الحجاج
فله مائة ألف درهم ! فلما هزم ابن الأشعث هرب إلى خراسان فأخذه يزيد بن المهلب
فحبس به إلى الحجاج » . وقد نسل به الحجاج تسكيلا وقتله .

(٢) في الأصل : « السري » ، صوابه من البيان ١ : ١٦ حيث ذكر أبو
« أبو حصن عمر بن أبي عثمان الثمري » .

(٣) هو خالد بن الحارث بن عبيد بن سليمان الميموني البصري ، كان من
عقلاء الناس ودهاتهم . وكان يقال له « خالد الصدق » . ولد سنة ١٢٠ وتوفي
سنة ١٨٦ . ذكره في البيان ٢ : ٢٢١ .

(٤) هو صاحب الرسالة التي رواها الجاحظ في البخلاء ١٤١ - ١٥٣ وعقب
عليها بذكر رد ابن التوام عليها . وانظر أخبار أبي نواس لابن منظور ١٨٤
حيث ذكر أباه وإخوته ، ومنهم عبد الحميد الثقفي صاحب ابن مناذر الذي
رثاه بقوله :

إن عبد الحميد يوم نولى هـد ركنًا ما كان بالهدود

ولا أدري أهو أبو عثمان سميد بن وهب الشاعر^(١) ، أم أبو عثمان عمرو الأعور الخاركي^(٢) .

ولا أدري أهو أبو عثمان الحكم بن صخر الثقفي^(٣) ، أم أبو عثمان عمرو بن بكر اللزني .

ولا أدري أهو أبو عثمان الأعور النحوي^(٤) ، أم أبو عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ .

والذي لا أشك فيه أنه لم يقرضها أبو عثمان عمرو بن خزيمة ، ولا أبو عثمان عمرو المخلخل ، ولا أبو عثمان إبراهيم بن يزيد التغلبي ، ولا أبو عثمان سعيد بن حيان البرازي .

وقد بلغني عن أبي عثمان هذا المجهول موصفه ، المنصور نسبة ، أنه قال :
ماراكب الأسد الأسود ، والبحر الأخضر ، وللعبور على الشيف الحسام^(٥) ،

(١) ذكره الجاحظ في البيان ٣ : ١٦٢ - ١٦٣ وترجم له ابن اللعز في طبقات الشعراء ٢٥٧ - ٢٦١ ، وكان شاعراً ماجناً ، وله خبر مع هارون الرشيد . وانظر الأغاني ٢١ : ١٠٤ وتاريخ بغداد ٩ : ٧٣ .

(٢) ترجم له الرزباني في معجمه ٢١٩ وقال : « أزدى بصري أصله من خارك : قرية بفارس على البحر ، ماجن خبيث ، كان على عهد المخلخل الوراق . وخارك ، بفتح الراء ، كما في معجم البلدان ، قال ياقوت : « منهم الخاركي الشاعر ، في أيام المؤمنين أو ما يقاربها .

(٣) ذكره أبو الفرج في الأغاني ١٧ : ١٢١ في رواية للعتبي عنه . والعتبي ، هو محمد بن عبد الله العتيبي الأخباري المتوفى سنة ٢٢٨ .

(٤) ذكره الجاحظ في البخلا ١٨٠ .

(٥) صبر على القتل صبراً : حبس حتى يقتل .

بأحقّ بجهد البلاء وشامة الأعداء ، ممن تعرض للتصنّعين^(١) ، وتحكّمك
بالتباين ، وحكّم في عرض الحسدة للفتاين .

فإن سليم فيحسن التّية ، ولأنه مدح كريماً ، ووصف حليماً . والكريم
صفوح ، والحليم متناقل . وإن ابتلي فذنب ، وما عفا الله عنه أكبر .

وقال : اللهم اجعل هذا القول حسناً في عينه ، خفيفاً على سمعه ، وألّيه
حسن الظنّ به ، وبسط المذر له ، إنك سميع الدعاء ، رحيم بالضعفاء .

والقصيدة هي قوله :

أقام بدار الخفض راضٍ بحفظه

وفد الحرس يسرى حين لا أحد يرى

ينقن الرضا بالقسم شبيهاً مهرناً

ودون الرضا كاساً أمراً من الصبر

جزعت فلم أعتبه فلو كفت ذاك حجتاً

لقننت غسى بالقليـل من الوفر

أظن غي القوم أرغد عيشة

وأجذل في حال البشارة والعسر

تمرّ به الأحـمدك ترعد مرّة

وتبرق أخرى بالخطوب وما يدرى

سواء على الألام صاحب حنكـة

وآخر كاب لا يريش ولا يـبرى

(١) التصنع : التأمّل المتعريف .

فلو شاء ربِّي لم أكن ذا حفيظةٍ
 طَلوباً لِنِصَابَاتِ الْكَارِمِ وَالْفَقْرِ
 خَضَعْتُ لِبَعْضِ الْقَوْمِ أَرْجُو نَوَالَهُ
 وَقَدْ كُنْتُ لَا أُعْطِي الدَّيْثَةَ بِالْقَسْرِ
 فَلَمَّا رَأَيْتُ الْمَرْءَ يَسْأَلُ بِشَرِّهِ
 وَيَجْعَلُ حُسْنَ الْبَشْرِ وَاقِئَةً التَّعْبِيرِ^(١)
 رَبَّيْتُ عَلَى ظُلْمِي وَرَاجَعْتُ مَسْزِلِي
 فَمِزْتُ حَلِيفًا لِلدِّرَاسَةِ وَالْفِكْرِ^(٢)
 وَشَاوَرْتُ إِخْوَانِي قَالِ حَكِيمِهِمْ
 عَلَيْكَ الْقِسْيُ الرَّئِيُّ ذَا الْخَلْقِ الْقَسْرِ
 فَتَى لَمْ يَقْفِرْ فِي الدَّهْرِ مَوْقِفَ ظَنِّيَّةٍ
 فَيَحْتَاجُ فِيهِ لِلتَّنَبُّطِ وَالْعَذْرِ
 أَعْيَيْتُكَ بِالرَّحْنِ مِنْ قَوْلٍ شَامِتٍ
 أَبُو الْقَسْرِجِ لِلْأَمُولِ يَزْهَدُ فِي عَمْرٍو
 وَلَوْ كَانَ فِيهِ رَاضِعًا لِرَأْيَتِهِ
 كَمَا كَانَ دَهْرًا فِي الرِّخَاءِ وَفِي الْبُشْرِ
 أَتَرْنِي - فَدُنْتُكَ الْيَوْمَ نَفْسِي وَأَسْرَتِي -
 بِأَخِيرِ أَرْزَاقِي وَأَنْتَ تَلِي أَمْرِي

١١٩ ط

(١) أي يجعل بشره بدلًا من بذله وعطائه .

(٢) ربيع على ظلمه : توفيق وانتظار . والظلم : بالفتح : المراج أو شيء به .

أَلَا يَأْتِي الْكِتَابَ وَالْمَكْرَ الَّذِي تَنْزِرَ بِالْحَسَنِ وَأُبْدُ بِالنَّصْرِ
 أَخَافُ عَلَيْكَ الْعَيْنَ أَوْ نَفْسَ وَامْنِي وَذُو الْوُدِّ مَنْخُوبُ الْفَوَادِ مِنَ الدُّعَى
 وَعَهْدِي بِهِ وَاللَّهُ يَرْشِدُ أَمْرَهُ وَحَفْظُهُ فِي الْقَاطِعِينَ وَفِي الشُّفَى
 مُطْلَأٌ عَلَى التَّنْدِيرِ مَا يَسْتَفْزُهُ مَكَايِدُ عَحَالٍ عَقَارُهُ تَسْرِي
 بَرَأِي يُزِيلُ الطُّودَ مِنْ مَسْفَرِهِ وَأَوْضَحَ عِنْدَ الْمَعْمَمِ مَنْ وَضَحَ الْفَجْرِ
 وَعَزَمَ كَعْرَبَ الْمَشْرِقِ مَصْنِي وَقَلْبٍ رِبِيضَ الْجَأَشِ مَتَلَجِ الْعَصْرِ
 فَيَا ابْنَ نَجَاحٍ أَجْبَحَ اللَّهُ حِكْمَكَ وَأَبْدَكُمْ بِالنَّصْرِ وَالْمَدَدِ الدُّنَى^(١)
 قَدَمْتُ فَلَمْ أَطْلُبْ وَجَلْتُ فَلَمْ أَصِبْ خَلِيلًا يُوَاسِينِي وَيَرْغَبُ فِي شُكْرِي
 وَإِنْ أَخَفَقْتُ كَفَى وَقَدْ عَلَّقْتُكُمْ قَدْ قَدَّرَ لِي وَإِيَّاسْتَمْتُ إِلَى شِعْرِي^(٢)
 أَعْيَيْتُكَ بِالرَّحْمَنِ أَنْ تُشِيتَ الْيَدَى فَلَقَفْتُ خَيْرَ مَنْ شَمَانَةٍ ذِي الْغَدْرِ^(٣)
 فَإِنْ تَرَعَّ وَدَّى بِالْقَبُولِ فَأَهْلُهُ وَلَا يَعْرِفُ الْأَقْدَارَ غَيْرَ ذَوِي الْقَدْرِ
 وَحَبْلِكَ بِي إِنْ شِئْتَ وَدَّاءَ وَخَلَّةَ وَحَبْلِكَ بِي يَوْمَ النَّزَاةِ وَالْعُثْرِ
 أَلَا رَبُّ شُكْرٍ دَائِرَ الرَّسْمِ دَارِي وَشُكْرٍ كَنْقَشِ الْحَبِيرَةِ فِي الْعَصْرِ
 قَالَ أَبُو عَمَّانٍ الْمَجْهُولُ : إِذَا كَانَ الْمُدَّوْحُ ظَاهِرَ الْحَاسَنِ كَثِيرَ الْمُنَاقِبِ
 فَلَمْ يَجِدِ الشَّاعِرَ كَانَ الْوَمَ .

(١) الدُّنَى : الكثير .

(٢) اسْتَمْتُ إِلَيْهِ : أَنَسَ بِهِ وَاطْمَأَنَّ إِلَيْهِ . وَفِي الْأَصْلِ : « وَاسْتَمْتُ »
 وَإِذَا هِيَ فِي هَامِشِ الْأَصْلِ الْحَرْفُ « ظ » وَتَحْتَ الْحَرْفِ « ن » مِنْهُ الظَّاهِرُ
 أَيْهَا « اسْتَمْتُ » .

(٣) النَصْرُ بِالْمَكْرِ وَبِالتَّحْرِيكِ أَيْضًا : الْحَفْدُ وَالتَّحْدُ .

ونمود بالله أن يكون فيكم ما يستدعي الألفاظ الشريفة والمأني النفية ،
ويكون التصير متى .

وكيفما تصرفتم في الحال فإني لم أخرج من جهد المجتهدين الراغبين
المخلصين . فإن وقتت هذه التصيدة والتي قد منّا قبلها بالواقعة فالجدة . وإن
خالفتم فستنفر الله . وإن شيعتم ضحكها بقوة كرمكم^(١) ، وقومتم أودعها
بفضل حكمكم ، كان في ذلك بلاغ لما أمئنا . والله للوفق .

• • •

تمت الرسالة بعون الله وتوفيقه ، والله للوفق للصواب برحمته
والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله الطيبين الطاهرين
وسلامه .

(١) شيعه تشيعاً : قواه .

٩

كِتَابُ

فَصِّل مَابَيْنَ الْعَدَاوَةِ وَالْحَسَدِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة التاسعة من رسائل الجاحظ ، ومحتواها :

« فصل ما بين العداوة والحسد » ، أى فرق ما بينهما .

وقد سجل الجاحظ في صدر هذه الرسالة أن هذه الرسالة مبروفة بكتاب فضل الوعد ، وأن فضل الوعد مسبوق بكتاب أخلاق الوزراء .

أما الأول منهما فقد أشار إليه الجاحظ في مقدمة الخيران ١ : ٩ . وأما الثانى منهما فلم أجده ذكرآ .

ويبدو أنه ألف هذه الرسالة لأبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان . وزير للتوكل ثم للعتيد ، كما يدل عليه أواخر هذه الرسالة في شعر الجاحظ وتعليقه على شعره ذلك .

وانظر لترجمة عبيد الله هذا تاريخ الطبرى ١١ : ٤٤ . ومروج الذهب ٤ : ١١٩ والتبى والإشراف للسعودى ٣١٤ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ١٥٩ - ١٦٢ والوزراء والكتاب للجهمياري ٢٥٤ والقصرى لابن طباطبا ٢١٦ - ٢٢٨ .

وقد اعتمدت في إخراج هذه الرسالة على نسخة الأصل في مجموعة مكتبة دلماد ، وهي النسخة الوحيدة التى نشر عنها الأستاذان الدكتور طه الحاجرى ، ولشترق باول كراوس نسختهما التى أشرت إليها بالرمز « ط » .

ومما يجدر ذكره أن للجاحظ رسالة أخرى في موضوع مماثل لهذا ، هي « رسالة الحسد والحسد » . وليست في مجموعتنا هذه ، فوجدتها في النشر والتعقيق بعد الفراغ من نشر هذه المجموعة بحول الله ونوفيقه إن شاء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) أَحَبَّ اللَّهُ مَذَنَكَ السَّادَةَ وَالثَّلَاةَ ، وَفَرَنَهَا بِالْمَافِيَةِ وَالشُّرُورَ ، ١٢٠ ظ
وَوَصَلَهَا بِالنِّعْمَةِ الَّتِي لَا تَزُولُ ، وَالسَّكْرَامَةَ الَّتِي لَا تَحُولُ .

هَذَا كِتَابٌ - أَطَالَ اللَّهُ بِقَامِكَ - نَبِيلٌ أَرْعَ ، فَصِّلَ فِيهِ بَيْنَ الْحَدِّ
وَالْعِدَاوَةِ ، وَلَمْ يَسْقُئْنِي إِلَيْهِ أَحَدٌ وَلَا إِلَى كِتَابِ فَضْلِ الْوَعْدِ الَّذِي تَقْدَمُ هَذَا
الْكِتَابُ ، وَلَا إِلَى كِتَابِ أَخْلَاقِ الْوُزَرَاءِ ، الَّذِي تَقْدَمُ كِتَابُ فَضْلِ الْوَعْدِ .

وإِنَّمَا نُهَلَّتْ هَذِهِ الْكُتُبُ وَحَسُنَتْ وَتَرَعَتْ ، وَبَذَّتْ غَيْرَهَا ؛ لِشَأْنِهَا
شَرَفَ الْأَشْرَافِ ، بِمَا فِيهَا مِنَ الْأَخْبَارِ الْأَنِيقَةِ الْغَرِيبَةِ ، وَالْأَثَارِ الْحَسَنَةِ اللَّطِيفَةِ ،
وَالْأَحَادِيثِ الْبَاعِثَةِ عَلَى الْأَخْلَاقِ الْمَحْمُودَةِ ، وَاللِّكَاثِمِ الْبَاقِيَةِ لِلتَّائُودَةِ ، مَعَ
مَا تَضَمَّنَتْهُ (٢) مِنْ سَيَرِ الْمُلُوكِ وَاتِّخْلَافِ وَوُزَرَاءِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ ، وَمَا جَرَتْ
عَلَيْهِ أَحْوَالُهُمْ .

فَأَنَا أَسْأَلُكَ بِسَاطِعِ كَرَمِكَ وَنَاصِعِ فَضْلِكَ ، لَنَا (٣) امْتَنَنْتَ عَلَيَّ بِعَرَفِ
عَنَابَتِكَ إِلَى قِرَائَتِهَا . فَبَلِّغْ لِي بِمَكْنَتِكَ تَبَحُّرَهَا وَالتَّضَمُّنَ كُلِّهَا ، لِلْأَشْخَالِ الَّتِي

(١) صدرت هذه الرسالة جريدة ليست من أسلوب الجاحظ ، ونصها :
« الحمد لله رب العالمين كما هو أهله ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين كما أمر به ،
وعلى آل محمد كما سمى محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم كثيراً » .

(٢) في الأصل : « ما تضمنتها » .

(٣) ل. أ. هـ ، هنا ، بمعنى إلا ، كما في التنزيل العزيز : « إن كل نفس لها عليها
حافظ » .

تَمْرُوك ، فحسبك^(١) أن تقف على حدودها ، وتشرّف معاني أبرابها بتصفّح أوائلها ؛ فإنّ ملك قلباً به من اليقظة والذكاء ، والتوقّد والحفظ ، ما يكفي معه النّظر الخاطف^(٢) .

إنّه لم يخلُ زمنٌ من الأزمان فيما مضى من الفنون الفاهية إلّا وفيه علماء يحقّقون ، قد قرءوا كتب من تقدّمهم ، ودارسوا أهلها ، ومارسوا [الموافقين^(٣)] لهم ، وعانوا^(٤) المخالفين عليهم ، قد خضوا الحكمة ومجسّداتها ، ووضّوا على حدود العلوم ، لحفظوا الأسماء والأصول ، وعرفوا الشرائع والفروع ، ففرّقوا ما بين الأشياء والنظائر ، وصاقبوا بين الأشكال والأجناس ، ووصلوا بين التجاور والتوازي^(٥) ، واستنبطوا الغامض الباطن بالظاهر البين ، واستظهروا على الخفيّ الشكل بالكشوف المروّف ، وعُرفوا بالنهم الثاقب والعلم الناصع ۝ وقضت لهم اليحنة بالذكاء والنفطنة ، فوضعوا الكتب في ضروب العلوم وفنون الآداب لأهل زمانهم ، والأخلاف من بعدهم . يزددون بذلك إلى الممتنّ عليهم بفضل المعرفة التي ركبها الله فيهم ، وأبانهم من غيرهم ، وفضلهم عليهم ، ويباهون به الأمم المخالفة لهم ، ويتبارون بذلك فيما بينهم . ولهم حُدادٌ معارضون من أهل زمانهم في تلك العلوم والكتب ،

و ١٢١

(١) في الأصل : « وينسك » .

(٢) في الأصل : « نظر الخاطف » .

(٣) موضعها يانص في الأصل .

(٤) من اللعانة . وفي الأصل : « وعابوا » .

(٥) في الأصل : « بين للتجاوز والتوازي » .

منتحلة يدعون مثل دعاويهم ، قد وسموا أنفسهم بـ «بيات الباطل»^(١) ،
 وسموا^(٢) بأسماء العلم على الجواز من غير حقيقة ، ولبسوا لبس الزور
 متزخرين متشبعين بما لا محصول له^(٣) . يحذون أمثلة الحقين في زهم
 وهديهم ، ويقتفون آثارهم في ألقاظهم وألحاظهم ، وحركاتهم وإشاراتهم ،
 لينسبوا إليهم ويحلوا محلهم ، فاستأثروا بهذه الحيلة قلوب ضعفاء العامة ،
 وجهلاء الملوك ، واتخذهم^(٤) للمأذون لعلاء الحقين عُدَّة يستظهرون بهم
 عند العامة . وحمل الذئبة لعم الزور الحسد على يهت العلماء الحقين ،
 وعرضهم والطعن عليهم^(٥) ، وجرائم على ذلك مارأوا من صنو صفة
 القلوب وإذلة الناس إليهم^(٦) ، وميل جهلاء الملوك معهم عليهم ، وأثلوا
 أن ينالوا بذلك بشاشة العامة ، واستوى لهم الرئاسة على طنم الناس
 ورعاعهم ، ويستخولوا رعاتهم^(٧) وقومهم = فهمروا وحذروا^(٨) وتوردوا

(١) أي بيات غير حقيقة .

(٢) في الأصل : « وسموا » .

(٣) تشيع : تزين بما ليس عنده . وفي الحديث : « التشيع بما لا يملك كلابس
 قوبى زور » .

(٤) في الأصل : « واتخذهم » .

(٥) الصن : أن يقول فيه ما لم يكن ؛ إفسك وبنانا .

(٦) الصنو : النيل . وفي الأصل : « منه رأوا من صنو » .

(٧) في الأصل : « رعاعهم » .

(٨) الممر : الممدمة بشتب . وجعلت في ط : « فهمزوا » .

على أهل العلم ببنائهم^(١) ، وكشفوا أغطية الجهل عن أنفسهم ، وهتكوا
سترًا كان مُدَلًّا عليهم بالصَّت . فقد قيل : « الصَّت زَيْن العالم ، ويتر
الجاهل » ؛ طمعًا في الرياسة وحُبًّا لها . وقد قيل :

حُبُّ الرياسة داءٌ لا دواءَ له وَقَلْبًا تَجِدُ الرَّاغِبِينَ بِالْقَسَمِ
ولم يَحُلْ زَمَنٌ مِنَ الْأَزْمَةِ مِنْ هَذِهِ الطَّبَقَةِ وَلَا يَحُلُّ . وهلاك من هلك
من الأمم فيما سلف بحُبِّ الرياسة . وكذلك من يَهْلِكُ إلى انقضاء الدهر
فحبُّ الرياسة .

وقد قيل : هلاك الناس منذ كانوا إلى أن تأتي الساعة بحُبِّ الأمر
والنهي ، وحُبِّ السَّمْعِ والطاعة .

فأشكَل على العامة أمرُ العالم الحقيقي والدَّعَى الجارِي للتعَلُّ الزُّور
والباطل ؛ ثم ترادفَ عليهم من هذه العلل التي يسمي لها السبيل الواضح
والطَّرِيقَ لِلنَّشْأَةِ^(٢) ، على الجاهل المتضعف ؛ وذِي النَّبَأِ الْمُسْتَرْهَفِ^(٣) .

ولست آمَنُ - جعلني الله فداك - أن تكون هذه الكتب التي أَعَيَّ
بتأليفها ، وأُتَانِقُ في ترصيفها ، يتولَّى عرضها عليك من قد ليس لبسَ
الزُّور في انتحال وضع مثلها ، ونسبَ نفسه إلى القوة على نظائرها ، والفرقة
بما يقاربها ، إن لم يكن أخاها قَابِنَ عَمِّهَا ، ونَشَبَ بما لم يُطْعَمه الله منها .

(١) من قولهم : توردت الحيل البلدة . إذا دخلتها قليلا قليلا فطمة فطمة .
وفي الأصل : « توددوا » .

(٢) في الأصل : « النشأ » .

(٣) من الرهيف ، وهو الرقيق اللطيف . وفي الأصل : « وذى النشا » ،
ووجه ما أثبت .

ولعلَّ بعضَ من حَوَّلَه^(١) ، أو بعض من يهزل به ، ورتج في عقله
وبلهو بآله ، ويضعه على طباطبة اللَّمب^(٢) ، وفي أرجوحة العيث ، يوحه^(٣)
الحسدَ له على ما يدعى من ذلك ، ويتقدَّم إلى آخرين في إيهاهم إياه ذلك ،
فيزيده فعلهم ضرراً بادِّعاء ما ليس معه وهو منه عارٍ . فإذا رجع إلى الحقائق
علم أنَّ مثله كما قد قيل :

ومن يَسْكُنَ الْبَحْرَيْنِ بِعَظْمٍ طِيعَالِه

وَيُغْبَطُ بِمَا فِي الْبَطْنِ وَالْبَطْنُ جَائِعٌ^(٤)

وقد قيل : « الذئب يُغْبَطُ وهو جائع » . فيلتوى في قراءتها ، ويقبض
لسانه عن بَسَطِ ما يحتاج أن ينشره منها ، ويقبض في تفضي حروفها
ولا يعلِّق منه .

بل لا آمن أن يتجاوز ذلك إلى الظنِّ عليها بقول أو إشارة ، فيوم
فساد معانيها ويؤى إلى سقوط ألفاظها ، من غير أن يظهر الماداة لها ، والحسدُ
لؤلؤها ، والحل عليها بقول يكون دليلاً على ما يضر ، وهو أبلغ ما يكون
من قلب السمع وأنجمه فيه^(٥) ، فيقع ذلك بخَلْدِه . وقد قيل :

« مَنْ يَسْمَعُ يَخْلُدُ » .

(١) في الأصل : « ما حوله » .

(٢) الطباطبة : خشبة عريضة يلبس بها بالكرة . وفي الأصل : « طباطب » .

(٣) في الأصل : « فيوحه » .

(٤) البيت في الميراث ٤ : ١٣٩ والشعر والتمرا ٧٣١ وأمثال الليداي ١ : ٢٥٥ .

(٥) في الأصل : « وأخفه » .

وليس يقابله أحدٌ برَدٍّ^(١) ، ولا يوازيه بنزاع ، فيزداد نشاطاً
عندما يرى من خلا الأمر . وقد قيل : « كلُّ مُجَرِّدٍ في الخلاء يُسَرُّ »^(٢)
وكلُّ مناظر متفرِّدٍ بالنظر مسرور ، وإنما يُعرَفُ جرَى الخيل عند السابقة ،
وبراعة النظر عند الخامسة .

وقال لي بشرُّ الريسى^(٣) : عُرض كتابي على الأُمون في تحليل التَّيْبِذ ،
وعحضته محمد بن أبي العباس الطُّوسى ، فأنبرى للطُّعن عليه والمعارضة للحُجج
التي فيه ، وأسهبَ في ذلك وخَطَبَ ، وأكثَرَ وأطنَّبَ ، فقلقَ الأُمونُ
واحتدم « وهاج واضطرم ! لاحتقار الطُّوسى »^(٤) وخلاهُ المجلس له ، وكان

١٢٢ و

(١) في الأصل : « يود » .

(٢) في الأصل : « يسبق » ، صوابه من الحيوان ١ : ٨٨ و ٢٠٧ : ١ والبدائي
٣ : ٧٣ وأمالى القالى ٢ : ٨٩ . وروى أيضاً « مسر » كما في البيان ١ : ٢٠٣ .
وأصله أن الرجل يجري فرسه في المكان لا سابق له فيه ، فهو مسرور بما يرى
من فرسه . يضرب للرجل تكون فيه الحيلة بمحمد ما من نفسه ولا يشعر بما في الناس
من الفضائل .

(٣) هو أبو عبد الرحمن بشر بن غياث بن أبي كريمة الريسى ، نسبة إلى مريس
أو مريسة . ومريس : قرية بمصر ، اختلف في ضبطها بفتح الميم وكسر الراء مخففة
أو مثقفة . أما مريسة فقد ضبطها صاحب القاموس ككسبية بكسر الميم وبثنيدي الراء .
كان أحد دعاة الجهمية ، وأبوه كان يهودياً قصاراً صابغاً . وإليه تأسب فرقة الريسية .
توفي سنة ٢١٨ . تاريخ بغداد ٣٥١٩ والسماوي ٥٢٣ ولسان الميزان ٢ :
٢٩ - ٣١ .

(٤) الاستعقار : الاحقار والاستعقار .

يحب أن يرّعه وازع بكفه بحجة نكته ، فلما لم ير أحداً يحضره يذبح
عن كتابي قال مثلاً :

مالك من قسيرة بمصر خلا لك الجو فيضي واصفري
ونقري ما شئت أن تنقري^(١)

فأكان إلا ربّ فراغه من التمثيل بهذه الأبيات حتى استؤذن لي
فدخلت عليه ، قال : بأبا عبد الرحمن ، ما تقول في التبيذ ؟ قلت : حيلٌ يطلق
بأمير المؤمنين . فقال : ما تقول فيها أسكر كثيره ؟ قلت : لمن الله قليله
إذا لم يسكر [إلا^(٢)] كثيره . ثم قال : إن عمداً يخالفك . فأقبلت على
ابن أبي العباس فقلت له : ما تقول فيها قال أمير المؤمنين ؟ قال : لا خلافة
بينى وبينك . كلاماً يرم به أهل المجلس ، حباً للتسلّم متى والتخاضع من
مناظرتي ، لا على حقيقة التحليل له . فاستغنيت ذلك منه وقلت له : فما لي
لا أرى أثر فؤاده في عقلك ؟ فضحك المأمون ، فقال رأيت ضحكك أطببت
في معنى تحليل التبيذ ، وابن أبي العباس ساكت لا ينطق ، وكان قبل دخولي
ناطقاً لا يسكت . فلما رأى المأمون سكوته عند حضوري مع كثرة كلامه
في ثلث كتابي وعييه - كان - قبل دخولي ، قال مثلاً :

مالك لا تنبح بأكلب النائم قد كنت تباحا فمالك اليوم^(٣)

(١) الرجز لطرفة ، قاله وهو منبر يصطاد القبر ، وهو ضرب من الطير .
وقال ابن بري : هو اسكليب بن ربيعة التلبي وليس لطرفة . اللسان (قبر) .
وذكر ابن تينة في الشراء ١٤٠ أنه أول شعر قاله طرفة . وانظر الحيوان ٣ : ٢٦
و ٢٣٧ : ٥

(٢) ليست بالأصل .

(٣) أنشده في الحيوان ١١ : ٧٥ .

ثم نظرَ إلى قتال : إنَّ الكتبَ عقولُ قومٍ وراءها عديمٌ حججٌ لها ،
فما ينبغي أن يُقضى على كتابٍ إلا إذا كان له دافع عنه ، وخَصْمٌ يبين عَما فيه ؛
فإنَّ أبناءَ النعمِ وأولادَ الأعداءِ محسودون .

ثم قال : يا أبا عبد الرحمن ، يلزأ كل حاسد راعن .
وقد قيل في مثلي من الأمثال : « الحسن »^(١) محسود . وفي مثل
آخر : « لن تعدم الحسناء ذاتا »^(٢) . وقال الأخنف بن قيس :

ولن تصادف مرعى ممرعا أبداً إلا وجدت به آثار ما كولي^(٣)
يقول : بعلث^(٤) في كل^(٥) [مرعى^(٦)] حسنٍ ويؤكل منه ، فيسيبه ذلك .
وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « ما أحدث الله بهدي نعمة
إلا وجدت له عليها حاسداً . ولو أن امرأ كان أقوم من القذح لوجدت
له غامراً »^(٧) .

(١) في الأصل : « الحسد » .

(٢) القدام ، بتخفيف اليم : العيب . ومثله القديم . وضبطت في ط بقندبد
للهم سهواً .

(٣) وكذا في أصل عمرون الأخبار ٤ : ٩ . لكن في أدب الدنيا والدين ١٣٥
« آثار متجمع » . والبيت فيه بدون نسبة .

(٤) في الأصل : « يقال يعاب » .

(٥) نكبة يقتضها القول .

(٦) القدح ، بالكسر : السهم .

وقال عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه : الحاسد لا يملك إلا عنان حسه ؛ لأنه مغلوب على نفسه .

وقال الخطيب بن نعيم السدي : الحاسد مجنون ؛ لأنه يحسد الحسن والقيبح .

وقال الهلب بن أبي صفرة : الحسد شهاب لا يبالي من أصاب ، وعلى من وقع .

والعداوة لها عقل نوس به نفسا فينبجهم قرنها ، وتبدى صفحتها في أوقات الهجر . ولأقبتها كاسنة تنهز أزمنة الفرس . والحسد مغلوب للمقول بإزاء الضمير في كل حين وزمان ووقت .

ومن لزم الحسد أنه موكل بالأدنى فالأدنى ، والأخصر فالأخسر . والعداوة وإن كانت تقبح الحسن فهي حون الحسد ؛ لأن العدو اللبائن قد يحول وليا منافقا ، كما يحول الموالي المنافق عدوا مبائنا .

والحسد لا يزول عن طريقته إلا بزوال المحسود عليه عنده . والعداوة تحدث لعل^(١) ، فإذا زالت اللة زالت معها . والحسد تركيب لعله يحسد عليه^(٢) فهو لا يزول إلا بزواله . ومن هذا قال معاوية رحمه الله : يمكنني أن أَرْضَى الناس كلهم إلا حاسدا نسة ، فإنه لا يرضيه منها إلا زوالها .

وأعداء النعمة إذا شوركوا فيها ونالوا منها ترحزحوا عن عداوتها ، وكانوا من أهلها المحامين عنها ، والدافعين عن حملها .

(١) في الأصل : « اللة » .

(٢) كذا في الأصل .

ومن هذا قال النيرة بن شعبة : النعمة التي يُملأ فيها نعمة محروسة ليس عليها ثائر ينتالها ، ولا ذو حسد يحتال في غيرها .

و قال قتيبة بن مسلم : خير الخبز وأحصنه خير عيش فيه . وكل خير كان برُضَخ^(١) بذلاً كان من التالف ممنوعاً ، ومن النير آمنة .

وحُساد النعمة إن أعطوا منها وتَبَجَّحُوا فيها ، ازدادوا عليها غَيْظًا وبها إغراء .

والعداوة تُخْلِقُ وتُكَلِّمُ ، والحسد غَضَبٌ جديد ، حُرِمَ أو أُعْطِيَ^(٢) ، لا يبيد . فكل حاسدٍ عدوٌّ ، وليس كل عدوٍّ حاسد . وإنما حل اليهود على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم — وهم يبرفونه كما يبرفون أبناءهم أنه نبي صادق ورسول مُحَقِّقٌ ، يقرمون بعثه في توراتهم ، ويتدارسونه في بيت مدراسهم^(٣) — الحسد ، وحجز بين علمائهم والإيمان به ، ثم نتج لهم الحسدُ عدلوتَه .

ومن الدليل على أَنَّ الحسدَ آلم وآذَى وأوجعُ وأَوْضَعُ من العداوة ، أنه مُغرَى بفعل الله عز وجل ، والعداوة طارية من ذلك لا تتصل إلا إذا اتصلت إلاً بأفعال العباد . ولا يُمَادَى على فعل الله تباركت أسماؤه . ألا ترى أنك لم تسمع أحداً عاды أحداً لأنه حسن الصورة جميلُ المحاسن ، فصيح

(١) رَضِخَ له من ماله رضا : أعطاه . والبذل : السخاء . وفي الأصل : « يرضخ بدلا » .

(٢) في الأصل : « إذا عطى » .

(٣) المدراس : الموضع الذي يدرس فيه . وفي الأصل : « مدارسهم » .

اللسان حسن البيان . وقد رأيت حاسداً هذه الطبقة وسمعت به ، وهم كثير تعرفهم بالخبر والشاهدة .

فهذا دليل على أن الحسد لا يكون إلا عن فساد الطبع ، واضطراب التركيب ، واضطراب الشئوس^(١) .

والحسد أخو الكذب ، يحريان في مضمار واحد ! فها أليفان لا يفترقان ، وضجيمان لا يقبايتان . والمداوة قد تخلو من الكذب : ألا ترى أن أولياء الله قد عاذوا أعداء الله إذ لم يستحلوا أن يكذبوا عليهم ؟ ! والحسد لا يبرأ من البهت ، وكيف يبرأ منه وهو عوده الذي عليه يعتمد ، وأساسه الذي به البناء يُعقد . وأنشد :

كفّر أثر الحسناء قلن لوجهها كذباً وزوراً إنه لدميم^(٢)
والحسد نازق وقوده الروح ، لا تبوُّخ أبداً أو يفتنى الوقود^(٣) . والحسد لا يبلى إلا ببلى المحسود أو الحاسد . والمداوة جمر يُوقده الغضب ، ويطفئه الرضا ، فهو مؤمل الرجوع مرجو الإنابة^(٤) . والحسد جوهر والمداوة اكساب .

وغال بعضهم : الحسد أذى ، لأنه ذليل ! والمداوة ذكرٌ فحل ، ١٢٣ .
لأنها عزيزة .

(١) الشئوس ، بالضم : الطبع ، والخلق ، والسجية .

(٢) البيت لأبي الأسود الدؤلي . انظر حواشي اليان ٤ : ٦٣ . وفي اليان :

« حسا وبيا » . والضرائر : جمع ضرة ، بالفتح وهي امرأة الزوج ، جمع نادر .

(٣) في الأصل : « ويغنى الوقود » .

(٤) الإنابة : الرجوع ، وفي التنزيل العزيز : « متبين إليه » .

والحسد وإن كان موثلاً بالأذى فالأذى فإنه لم يمر منه الأبد فالأبد .
 قد رأينا وشاهدنا من كان يكن المراق ويتحلل العلم والأدب ، انتهى إليه
 خبرٌ مشاركٌ له في الصناعة من أهل خراسان وجنبة بلخ^(١) من أساق الرياسة
 في بلده ، وجبل حاله ونبيله محله عند أهل مصره ، وطاعة العانة له ،
 وتراؤف الناس عليه ، فطار قلبه قرصاً ، وأخذته الأرباب^(٢) ، وتنفس الصعداء
 وانتفضر انتفاض الفئس المظور^(٣) ، فقال لي رجلٌ من إخواني كان
 عن يميني ، حين رأى ما رأى منه : بحق قال من قال : « لم يرَ ظالم أشبه
 بظلول من حاصد نعمة ؛ فإن نفسه متصل ، وكربة دائم ، وفكرته
 لا تنام » .

وهو في أهل العلم أكثر ، وعليهم أغلب ، وبهم أشدُّ لصوقاً منه
 بنيرهم من اللوك والثوق . وكان من ناله التقصير في صناعة العلم عن غايته
 القصوى^(٤) قد استشر حدَّ كلِّ ما يردُّ عليه من طريف أدب ، أو أنيق
 كلام ، أو بديع معنى . بل قد وقع بخلفه لضعفه « وقر في روعه غلغلة »^(٥) ،
 أنه لا ينال أحدٌ منهم رياسة في صناعة ، ولا يتهيأ له سياسة أهلها ، إلا بالظمن

(١) في الأصل : « وحه » ، بدون قط . والجنبة : الناحية . وانظر الحيوان

٤ : ٤٩ .

(٢) الأرباب : جمع ربو ، وهو البهر والتهيج ونوار النفس .

(٣) هذا عكس ما أنشده في الحيوان ٣ : ٢٢٨ :

وحسنت فيهم كمطور يلدته فسر أن جمع الأوطاف وللطرا
 وفي الأصل : « اللطس » تحريف .

(٤) في الأصل : « عن غاية القصوى » .

(٥) الحساسة : الحجة والندانة . وفي الأصل : « غلغلة » .

على نواصبهم^(١)، والعيب يُلجأتهم، والتعنيف لحقوقهم.

قال لي مسلم بن الوليد الأنصاري الشاعر، الذي يُعرف بصريح
النواني^(٢) : خيّل إلى نوَكّي الثُمراء أنهم لا يُقضى لهم بمجودة الشر
إلا بهجائي والظن في شمرى، ولسان يهيجني به عرَضى، لا أغفك سُبها^(٣)
من غير جُرم، إلا ما سبق إلى قلوبهم من وساوس الظنون والخواطر التي
أومتهم إنا لا يسجل لم بمجودة الشر إلا إذا استمنوا في ما خيّل إليهم.

وأخبرني أشياخنا من أهل خراسان أن أبا الصلت الهروي كان عند
الفضل بن سهل ذي الرياستين بمرّو، قرأ عليه كتاباً ألفه النضر بن شميل،
فطن أبو الصلت فيه، وكان الفضل عارفاً بالنضر الشُّمليّ، واتّفاً بطله،
ماتلاً إليه، فأقبل على أبي الصلت وقال له : إن يعجبني بن خالد قال يوماً :
إن كسبي لتمرّض على من يفلظ فيه عن معرفتها، ويحسّو ذهنه عنها،
ولا يبلغ أقصى علمه ما فيها^(٤) — يمرض^(٥) إسماعيل بن صبيح^(٦) —
فيظن فيها ولا يدري ما بقرأ عليه منها. إلا أن نار الحسد تلجّبه فيهنّى

(١) النواصي : جمع ناصية، وهم الرؤساء والأشراف.

(٢) توفي مسلم بن الوليد سنة ٢٠٨، كما في النجوم الزاهرة. ٢ : ١٨٦.
وكان قد اتصل بذي الرياستين الفضل بن سهل، فولاه برید جرجان، وبها مات.
معجم الرزبانى ٣٧٢.

(٣) في الأصل : «سبها».

(٤) في الأصل : «وأمانيها».

(٥) في الأصل : «يمرض».

(٦) كان إسماعيل بن صبيح كاتباً ليعي بن خالد البرمكي. الجهشبارى ١٤٠.
وقد هه إبراهيم الحراي ديوان زمان الشام وما إليها. الجهشبارى ١٦٨.

هَذَانِ لِلرَّيْضِ ، وَبِهِ زُ هَزَاتِ النَّيْزِ ^(١) ، نَم لَا يَرْضَى أَنْ يَقِفَ عِنْدَ أَوَّلِ
الطَّمَنِ وَيَجِيلَ عَنْهُ حَتَّى يَسْتَقِمَّ عَلَى نَفْسِهِ إِنْ ظَهَرَ جِهْلُهُ عِنْدَ أَهْلِ الْمَرْفَةِ ،
بِاسْتِغَاثَةِ الطَّمَنِ عَلَى مَا لَمْ يَبْلُغْ دِرَافَتَهُ ، وَلَمْ يُحِطْ بِهِ عِلْمُهُ ، ثُمَّ بِنَفْسِهِ جِهْلُهُ
الطَّمَنِ الَّذِي تَقَدَّمَ مِنْهُ فِيهَا ، وَتَحَمَّلَهُ نَوَكُهُ عَلَى اسْتِمَالِ مَعَانِيهَا وَأَلْفَافِهَا ،
فِي كِتَابِهِ إِلَى إِخْوَانِهِ وَأَعْوَانِهِ الَّذِينَ شَهِدُوهُ فِي أَوَانٍ طَعَنَهُ عَلَيْهَا ، وَحِينَ
تُذْبِهُ لَهَا .

وَقَدْ عَرَفْتُ حَقِيقَةَ مَا قَالَ يَحْيَى بْنُ خَالِدٍ بِالتَّجَرُّبَةِ وَالْإِبْلَاءِ . وَإِنِّي رَبَّمَا
أَقَفْتُ الْكِتَابَ الْحَكْمَ لِلتَّقَنِّ فِي الدِّينِ وَالْفَقْهِ ، وَالرَّسَائِلِ وَالسُّيُورِ ،
وَالْمُطَلَبِ وَالْمُخْرَاجِ وَالْأَحْكَامِ ، وَسَائِرِ فُنُونِ الْحِكْمَةِ ، وَأَنْسَبُ إِلَى نَفْسِي ،
فِي تَوَاضُعٍ عَلَى الطَّمَنِ فِيهِ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ ، بِالْحَسَدِ الْمُرْتَبِّ فِيهِمْ ، وَمَنْ
يَعْرِفُونَ بَرَاعَتَهُ وَنَصَاعَتَهُ . وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ هَذَا مِنْهُمْ إِذَا كَانَ الْكِتَابُ
مُؤَلَّفًا لِمَلِكٍ مَعَ الْقُدْرَةِ عَلَى التَّقْدِيمِ وَالتَّأْخِيرِ ، وَالْحَطِّ وَالرَّفْعِ ، [وَالتَّرْغِيبِ ^(٢)]
وَالتَّرْهيبِ ، فَإِنَّهُمْ يَهْتَاجُونَ عِنْدَ ذَلِكَ اهْتِيَاجَ الْإِبْلِ لِلْمُنْتَلَةِ ، فَلَمَّا أَمَكَّنْتَهُمْ
حِيلَةً فِي إِسْقَاطِ ذَلِكَ الْكِتَابِ عِنْدَ السَّيِّدِ الَّذِي أُلْفَ لَهُ فَهُوَ الَّذِي قَصَدُوهُ
وَأَرَادُوهُ ، وَإِنْ كَانَ السَّيِّدُ الْمُؤَلَّفُ فِيهِ الْكِتَابُ تَحْرِيراً نِقَاباً ، وَتَقْرِيباً
بَلِيغاً ، وَحَادِثاً فَطَنًا ، وَاعْجَازَةً لِحِيلَةٍ ، سَرَقُوا مَعَانِيَ ذَلِكَ الْكِتَابِ وَأَلْفَوْا
مِنْ أَعْرَاضِهِ وَحَوَاشِيهِ كِتَابًا ، وَأَهْدَوْهُ إِلَى مَلِكٍ آخَرَ ، وَمَتَّوْا إِلَيْهِ بِهِ ^(٣) ، وَمَنْ
قَدْ ذَمُّوهُ وَتَلَبَّوْهُ لَمَّا رَأَوْهُ مَنْسُوبًا إِلَيْهِ ، وَمَوْسُومًا بِي .

(١) الهمز : العيب . والمهاز : العيب . وفي الأصل : ه هزان ، تحريف .

(٢) ليست في الأصل .

(٣) أى توسلوا به إليه . والمث : التوسل بحمرة أو قرابة .

وربما ألقت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم
غيري ، وأحيله على من تقدمني عصره مثل ابن القفّح والغليل ، وسلم صاحب
بيت الحكمة^(١) ، ويحيى بن خالد ، والقناني ، ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي
الكتب ، فيأبني أولئك القوم بأعيانهم الطلاءنون على الكتاب الذي كان
أحكم من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته على ، ويكتبونه
بخطوطهم ، ويصيّرون إماما يقتلون به ، ويتدارسونه بينهم ، ويتأذّبون
به ، ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم ، وروونه عن
لغيرهم من طلاب ذلك الجنس فثبت لهم به رياسة ، [و] يأتم بهم قوم فيه ؛
لأنه لم يترجم باسمي ، ولم ينسب إلى تالفي .

ولربما خرج الكتاب من تحت يدي مُحَصَّفًا كأنه متن حجري أسمى ،
بمعاني لطيفة محكمة ، وألفاظ شريفة فصيحة ، فأخاف عليه طعن الحاسدين
إن أنا نسبته إلى نفسي ، وأحد عليه من أمم^(٢) بنجته إليه لجودة نظامه
وحسن كلامه ، فأظهره مُبَهَّمًا غفلاً في أعراض أصول الكتب التي لا يُعرف
وُضَاعُها ، فينهالون عليه^(٣) انهيار الرَّمْل ، ويسفيقون إلى قراءته سباق
الليل يوم الحُلْبَةِ إلى غايتها .

وحسدُ الجاهلِ أهونُ شوكةٍ وأذلُّ عِمْنًا ، من حسدِ العارفِ القَطِينِ ؛
لأن الحاسدَ الجاهلَ يتندر إلى الطُّمن على الكتاب في أول وهلة يُقرأ عليه ، من

(١) ذكره ابن التميمي في القهرست ١٧٤ قرينا لسهل بن هارون صاحب
خزانة الحكمة ، وسعيد بن هارون شريك سهل بن هارون في بيت الحكمة .

(٢) ط : « أهنم » ، خلافاً لـ « في الأصل » .

(٣) في الأصل : « عليها » .

قبل استتمام قراءته ورقة واحدة : ثم لا يرضى بأيسر الطمن وأخفّه حتى يبلغ منه إلى أشده وأغلظه ، من قبل أن يقف على فصوله وحدوده ^(١) . وليس ثلّبه مفسراً مفصلاً ، ولكنه يُجمل ذلك ويقول : هذا خطأ من أوّله إلى آخره ، وباطل من ابتدائه إلى انقضائه ، ويجب أنّه كلّ ازداد إغراقاً ^(٢) وطعناً وإطناً في الخلل على واضح الكتاب ^(٣) ، كان ذلك أقرب إلى القبول منه . وهو لا يعلم أنّ السمع إليه إذا ظهر منه على هذه اللزّة استخفّ به ، وبكته بالجهل ، وعلم أنّه قد حكم من غير استبصار ، وقضى بنير روية ، فخطأ عنه وبطل .

و ١٢٥

والخاسد العارف الذي فيه تقية ومعه سكة ، وبه طمّ أو حياء ^(٤) ، إذا أراد أن ينتال الكتاب ويحتال في إسقاطه ، تصفح أوراقه ووقف على حدوده ومفاصله ، وردّد فيه بهرّه وراجع فكره ، وأظهر عند السيد الذي هو بحضرته وجلسته ، من التثبت والتأني جبالاً يقتنص بها قلوبهم ، وسبباً يستدعى به ألبابهم ^(٥) ، وسُلماً يرتقى به إلى مرادهم منهم ، وبساطاً يفرش عليه معارِعَ الخلد . فيوم به القصّد إلى الحق والاجتباء له . فربما استدعى ^(٦) بهذه المخائل والخلد قلب السيد الخازم .

فن أعظم البلايا وأكبر المصائب على مؤلّفي الكتب إذا كان العارض

(١) في الأصل : « وحروفه » . وانظر ص ١١ .

(٢) في الأصل : « غرقاً » .

(٣) في الأصل : « وضع الكتاب » .

(٤) الطعم : العقل . وفي الأصل : « طعمة » .

(٥) في الأصل : « يستدعى » .

(٦) في الأصل : « استدعا » .

لها على السيد الذي منه تُرعى أئمتنا ، وعنده تنفق بضائع أهلها ، على هذه الصفة التي وصفتها من الحسد والحقد بأسبابه ، والفرقة بالوجوه التي تنلم الحسود وتهذه ، وتضع منه ومن كتبه . لاسيما إن كان مع استيطان الحسد واستعمال الدهاء والذكاء جلياً لازماً ، وتاباً لا يفارق ، ومحدثاً لا يريم ، وليست له رعة^(١) تعجزه عن الباطل ، ولا معه حذر يمتنع على الفكر في العواقب ؛ فإن هذاربنا وافق فترة السيد بطول تردد الكلام ، وكثرة تكراره عليه ، من تأكيد خطائه^(٢) ، ونصرتة قوله ، وزياده عنه ، واحتجاجة فيه ، فيؤثر في قلبه ، ويضعج رأيه^(٣) . فليس للسيد الذي يحب أن يصير إليه الأمور على حقائقها ، وتصور له الأشياء على هيئتها ، حيلة في ذلك إلا حسم مادة هذا من أهل الحسد ، بالإعراض عنهم ، والاحتجاز دونهم .

وربما بلغ من الحاسد جهد الحسد إذا لم يستل بشهوته ، ولم تنفذ سهام لظأنه ، أن يقر على نفسه بالخطأ ، ويعترف أن الظن الذي كان منه في ١٢٥ ظ الكتاب عن سهو وغفلة ، وأنه لم يكن بلغ منه في الاستقصاء ما أراد ، وكان مشغول الفكر بمضمّن الذهن ، فلما فرغ له ذهنه وانقرد له هه راجع ما كان^(٤) بدر منه ، لتظن به الرعة ، ويقال إنه لم يرجع عن قوله واعترف بالخطأ إلا من عقل وازع ، ودين خالص . وإنما ذلك حيلة منه ودهاء

(١) الرعة: التقي والتخرج ، يقال ريع ريع ويورع رعة ويورعا ، وورع يورع وورعا ووراعة . وفي الأصل : « رعة » تحريف .

(٢) الخطأ ، كسحاب : الخطأ . وجعلت في ذ « خطابه » سهواً .

(٣) التضعج : التوهين .

(٤) في الأصل : « وكان » .

قدّمه أمام ما يريد أن يؤكد لنفسه ويوطّد لها ، من قبول القول في سائر ما تريد عليه من الكتب عن غير موافقة على مواضع ، ويجعل ما قد تقدّم له من الرجوع عن قوله عند ما تبين له^(١) خلاف ما قال ، أو توقّ أسباب عدائه ، وأحكم عرى نصفته .

وكان يقال : من طيف ما يستدعي به الصدق إظهار الشك في الغلب الذي [لا^(٢)] يشك فيه .

وكان يقال : من غامض الرياء أن ترى بأنك لا ترائي . ومن أبلغ الطعن على ما تريد العطن عليه أن تطعن ثم تستغفر الله ، ثم تمهل فترة^(٣) ، ثم تمود^(٤) لطعن هو أعظم منه وأطم من الأول ؛ ليوثق بك فيه ، ويقال : إن هذا لو كان عن حديث ما رجّح عن الطعن الأول .

وقد قيل : ذو النية للشهور بها النسوب إليها يقل ضرره ، ويضغف كيده ، لما شاع له في الناس وانتشر منه ؛ فكان عندهم غلبتاً متهماً ، ومطبوعاً عليها ، يستمعون منه على قضاء ذمام المجالسة والتلذّذ به ، من غير قبول^(٥) ولا اصطفاء له .

وإنما البلية في غيبة حذائق اللغزائين الذين يسمعون ، فيضحكون ولا يتكلمون . وأخذ منهم الذين يستمعون ويُسكتون القائل ويدعون الله

(١) في الأصل : « عند التبين له » .

(٢) ليست في الأصل .

(٣) في الأصل : « ثم تمهل فترة » .

(٤) في الأصل : « قول » .

بالصلاح المقول فيه ، فهم قد أسكتوا القائل المقتاب ودعوا المقول فيه ،
وأؤكدوا قول القائل^(١) : لأنه لو حل عندهم محل البراءة مما قيل له لجبه
القائل وردع عن قوله .

ومظهر الثوق قلبه عند المانة كثير . والنورّد التصحيم لا تكاد العامة
تقبل منه .

وقد قال بعض العلماء : إن غيب الله^(٢) بن عبد الله بن عتبة بن مسعود
كان من نبله للفتاين وحذاهم حيث يقول :

مَسَارَبَ الْأَرْضِ ، مِنْهُ خَلِقَتَا وَفِيهَا لِلْعَادُ وَالْمَصِيرُ إِلَى الْحَشِيرِ
وَلَا تَعْبَا أَنْ تُؤْتِيَا وَتَعْظُمَا فَاحْشِيَ الْإِنْسَانُ شَرًّا مِنَ الْكَبِيرِ^(٣)
فَوَشَّتْ أَدَى فَيْكَا غَيْرَ وَاحِدٍ عِلَانِيَةً أَوْ قَالَ ذَلِكَ فِي سِرِّ^(٤)
فَهِنْ أَنَا لَمْ أَمَرْ وَلَمْ أَتْ عَنْكَ ضَحِكْتُ لَهُ حَتَّى يُلَاحِظَ فَيَسْتَشْرِى
وَمِنْ هَذَا سَرَقَ النَّبِيُّ^(٥) الْمَنَى حَيْثُ يَقُولُ :

إِنْ كُنْتَ لَا تَحْذَرُ شَقِي لِمَا تَعْرِفُ مِنْ صَفِي عَنِ الْجَاهِلِ

(١) قال وكده تركدا ، وأوكده ، وآكده إكادا .

(٢) في الأصل : « عبد الله » . صوابه من البيان ١ : ٣٥٦ وانظر العيون
١٤ : ١ .

(٣) في الخبر ٢٩٧ : « لا تعبيا أن تؤتيا وتكعبا » . وفي البيان والعيون :
« ولا تأتيا أن ترجعا فلتسا » .

(٤) في الأصل : « أدى فيكبا » ، صوابه من الراجح السابقة .

(٥) هو كلثوم بن عمرو الثاني ، من شعراء الدولة العبّاسية ، كان منقطعا إلى
البرامكة فوصلوه الرشيد ووصلوه به ، فبلغ عنده كل مبلغ . الأغاني ١٢ : ٢ - ٩
وتاريخ بغداد ١٩٦١ ومعجم الأدباء ١٧ : ٢٦ . على أن الأبيات نسبت في الخزائن
١٢ : ٤ إلى كعب بن زهير .

فاخترَ سكوتى سامعاً ضاحكاً فيك لشنوع من القائل
مقالة الشؤء إلى أهلها أسرع من منحدر سائل
وسن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل
وسئل القاسم بن ممن عن ابن أبي ليلى ، فقاب كفيه^(١) وقال :

من الناس من يَنقَى أبوه وجدّه وجدُّ أبي ليلى لكالبدر ظاهر
فلم تثبت عليه به حجة في ذم له ولا مدح . وقد بلغ ما أراد .

وسئل يوماً عن علمه فقال : أوعوه وطبّا ، فإن كان محصاً أو شوباً
أظهره الوطب وما خُصوه^(٢) .

فإن قَدَحَ - جعلنى الله فداك - بالحد قَدَحَ فيها أولته من كتابي لك ،
وسبقَ إلى وهمك شكّ فيه ، أعطيتى التُسكَةَ التى قَدَحَ فيها ، ثم قابله
بحوايى ، فإنى أرجو ألاّ تحتاج إلى حاكم عند نجاتي القولين بين يديك ،
لعل الحق على الباطل ، ودموغه إيّاه .

١٣ ظ

والحد أذلّ نفاً من أن يُجائى أحداً ، والعداوة إننا قدّمت عليه لأنها
عزيرة منيعة .

ويقال : الحد لا يبدو إلّا فى العين وعلى اللسان المقصور عند أهله
للتؤلفين على . . .^(٣) والعداوة تبدو وتنجم قُرُونها وينبسط لسانها عند
المواقفين له والمخالفين عليه .

(١) فى الأصل : ه كفه .

(٢) أى : من يخشون الوطب .

(٣) يائس فى الأصل بمقدار كلمة .

وسئل خالد بن صفوان عن شبيب بن شيبة فقال : ذلك امرؤ سيّط بالحسد وجبيل عليه ، فليس له أخ في السر ولا عدو في العلانية^(١) .

وسئل الثّاني عن أهل بنداڊ فقال : حُتّاد ، إخوان العلانية ، وأعداء الشريرة ، يملطونك الكل^(٢) ويمنونك القل .

ومما يدلّك على أنّ الحسد أخس وأغبر من العداوة ، أنّ المدلّ كلّها ذمّته وعابته . ولا نعلم أنّ شاذّا من الشوائب ، وشاردّا من الشرّاد ، فضلاً عن جيل من الأجيال ، أمر بالحسد ؛ كما قيل : « عادٍ من عادلك ، وقارِعٍ بالعداوة أهلها » . ثم عظم شأن العداوة عندهم ، وجلّ قدرها لديهم ، حتّى اختلفوا في وجوه العمل فيها ؛ فمنهم من أمر بها على الحزم والعقل .

وقال الشعبي لبشر بن مروان : لو وُجّهت إلى عمرو بن محمد بن عقيل مولى آل الزبير - وكان شتمه - من باتيك به سحياً وجراً ! فقال بشر : إنّي مستعمل في عدوى قول القاتل :

وعادٍ إذا عاديت بالحزم والنهي تنل ظفراً ممن تريد وتغلب

فكان بهذا من يرى المداواة بالحزم ، وينتالها بالعقل والثأني .

وكان عروة بن النخيرة يقول : شرّ العداوة ما شتر بالمداواة ، وأشقها للأفس ما قرع بمثلها بادياً . وكان ينشد :

(١) انظر البيان ١ : ٤٧ . ٣٤٠ . والمصنوع ٥ : ٥٩٢ وعيون الأخبار

(٢) انظر ما سبق في ص ٢٤٨ . ٢٩٨ .

لا أتق حَسَك الصَّغَانِ بِالزُّنُقِ فِعْلَ الدَّلِيلِ وَلَوْ بَقِيَتْ وَحِيداً^(١)
 لَكِنْ أَعِدُّ لَهَا ضِفَاناً مِثْلَهَا حَتَّى أَدَاوَى بِالْحَقُودِ حُجُوداً
 كَأَنْتُمْ خَيْرُ دَوَانِهَا مِنْهَا بِهَا تَشْفِي السَّقِيمَ وَتُبْرِئُ النَّجُودَ^(٢)
 فَاتَّبَعِي قَوْلَهُ إِلَى ابْنِ شُبْرَةَ فَقَالَ : « اللَّهُ دَرْعُ عُرْوَةٍ ، هَذِهِ أَنْفُسُ
 الْعَرَبِ ! » .

١٢٧ و

فَهَؤُلَاءِ رَأَوْا كَشْفَ الْمَادَّةِ وَلَمْ يَرَوْا التَّائِي .

وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْمَادَّةَ بَعْدَ الْفِرَارِ مِنْهَا وَالْإِعْذَارِ فِيهَا ، فَإِنَّ هِيَ أَيْتٌ
 إِلَّا الْغَارَةَ قَارَنُوهَا بِمِثْلِهَا .

قَالَ شَيْبِ بْنِ شَيْبَةَ : إِذَا رَأَيْتَ الشَّرَّ قَدْ أَتَيْكَ إِلَيْكَ فَطَامَنْ لَهُ حَتَّى
 يَتَضَلَّكَ ، وَلَا تَهْجُجْ وَلَا تَبْحَثْ عَنْهُ ؛ فَإِنْ أَتَى إِلَّا أَنْ يَبْرِكَ عَلَيْكَ فَكُنْ
 مِنَ الْأَرْضِ نَاراً سَاطِعَةً تَلْفُظُ^(٣) . وَأَنْشَدَ :

إِذَا عَادَاكَ مَحْسِنُكَ لَيْبٌ فَعَادِ النَّوْمَ وَاحْتَرِسِ الْبَيِّنَاتَا
 وَلَا تُثَرِّ الرُّبُوضَ وَخَلِّ عَنْهَا وَإِنْ ثَارَتْ فَكُنْ شَبْعاً مَوَاتَا

(١) الصَّك : جمع حَسَك . وهي الشوكة .

(٢) لِلنَّجُودِ : السُّكُورِ . وَنَحْوَهُ قَوْلُ أَبِي نُوَاسٍ :

دَعِ عَنْكَ لَوْحِي فَإِنَّ الْاَوَّامَ إِغْرَاءَ وَدَاوَى بِالْقِي كَانَتْ هِيَ الْمَاءُ
 وَأَصْلُ الْفَعْلِ لِلْأَعْنَى حَيْثُ يَقُولُ :

وَكَأْسٌ شَرِبْتُ عَلَى لِقَةِ وَأُخْرَى تَدَاوَيْتُ مِنْهَا بِهَا

انظر سِرَاقَاتِ أَبِي نُوَاسٍ لِمَهْلَبِ بْنِ يَمُوتٍ ص ٧٠ .

(٣) فِي الْأَصْلِ : « سَاطِعَةً سَلْقَى » .

تَجَزُّكَ إِلَى سِوَاكَ وَنَحَّ عَنْهَا غَيْرَ الشَّرِّ أَسْرَعَهُ قَوَاتًا^(١)
 وَإِنْ مَالَتْ عَلَيْكَ وَخَفَتْ مِنْهَا فَوَاجِهُهَا بِجَاهِرَةٍ صِلَاتًا^(٢)
 وَمِنْهُمْ مَنْ أَسْرَعَ بِقَبُولِ الْإِنْصَافِ وَتَرَكَ الْحَاسِبَةَ . قَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ
 بْنُ زَيْتِيقَةَ بْنِ [مَسْعُودٍ] : إِنَّ اللَّامَاتِ وَالذَّنَاتِ كَأَنَّهَا قَبِيحَةٌ ، وَأَقْبَحُ التَّلَامَةِ
 وَالذَّنَّةُ مَا كَانَتْ فِي تَرْكِ نَصْفَةٍ أَوْ شِدَّةِ مَنَافِيَةٍ فِي تَعْدَادِ الذُّنُوبِ . وَأَنْشَدَ :
 مَنَافِسَةُ الْعَدُوِّ أَوْ الصَّدِيقِ تَجَرُّ إِلَى الذَّنَةِ وَاللَّامَةِ
 إِذَا أَعْطَاكَ نِصْفًا ذُو وَدَادٍ وَبَعْضُ النِّصْفِ قَاتِلُهُ السَّلَامَةِ^(٣)
 وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ : لَا تَرْضَ مِنْ عَدُوِّكَ إِلَّا بِالظُّلْمِ ، وَلَا تَقْبَلْ إِنْصَافَهُ
 وَنَافِسَهُ فِي ذَلِكَ^(٤) . قَالَ الْمُبَاسِ بْنُ عَبْدِ الْمَطْلَبِ :

أَمَا طَالِبُ لَا تَقْبَلِ النِّصْفَ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنْصَفُوا حَتَّى تَمُوتَ وَتَقْلُدَا

وَمِنْهُمْ مَنْ أَسْرَعَ بِمَعُونَةِ الدَّهْرِ عَلَى الْعَدُوِّ إِذَا حُلَّ عَلَيْهِ . قَالَ : حَدَّثَنِي
 إِبْرَاهِيمُ بْنُ شُعْبَةَ الْحَزْرَوِيُّ قَالَ : سَمِعْتُ مَنْ حَكَى لِي عَنْ مُصَافٍ بْنِ الزَّيْرِ
 قَالَ : إِذَا رَأَيْتَ يَدَ الدَّهْرِ قَدْ لَطَمَتْ عَدُوَّكَ فَيَادِرُهُ بِرَجْلِكَ ، فَإِنْ سَلِمَ مِنْ
 الدَّهْرِ لَمْ يَسْلَمْ مِنْكَ . وَأَنْشَدَ :

إِذَا بَرَكَ الزَّمَانُ عَلَى عَدُوِّكَ بَنَيْتَهُ أَعْنَتَ لَهُ الزَّمَانُ

(١) فِي الْأَصْلِ : « وَنَحَّ عَنْهَا » .

(٢) مَصْدَرُ صَالَتْ ، وَالْفِعْلُ وَمَصْدَرُهُ لَمْ يَرَدْ فِي الْمَعْجَمِ لِلتَّدَاوُلِ . وَمَادَّةُ (صَلَتْ)
 تَدُلُّ عَلَى الظُّهُورِ وَالسَّرْعَةِ .

(٣) النِّصْفُ ، بِالْكَسْرِ : الْإِنْصَافُ .

(٤) فِي الْأَصْلِ : « مِنْ ذَلِكَ » .

قال العنابي : قالت لطوق بن مالك^(١) : إن من شرط الدهر ومن صناعة الزمان السلب ، فإذا حلت الأيام على عدوك نقلاً وأمكنك منه فزده نقلاً إلى ثقله . قال : فقال لى طروق : من لم يفتن من عدوه انتهر منه ، وحالت الأيام التي كانت يعضاً عليه سوداً . وأنشد :

لله درك ما غلفت بشائر حزان ليس على التراب براقد
أحدثته ثم اضطجعت ولم يبق أسفاً عليك وكيف نوم الحاقد
إن تسكن الأيام منك ، وعلمها ، يوماً نؤفك بالصواع الزائد^(٢)
ولئن سلت لأركنك عارضا بمدى لكل مسالم ومعاند
ومنهم من كان يرى جبر كسر الملو وإفالة عثرته ، ونصرتة عند
وثوب الدهر عليه .

قال : حدثني ابن عبد الحميد قال ابن شبرمة^(٣) : كانت الحرب يوم

(١) في الأصل : « لملك بن طوق » وفي هامشه : « لطوق بن مالك » ، وهو الصواب بديل ما سيأتي بعده . وهو طوق بن مالك بن طوق بن مالك بن عتاب ، كما في جمهرة أنساب العرب ٣٠٤ . وله خبر آخر مع العنابي في الأغاني ١٢ : ٦ . وأبو مالك بن طوق ، كان والياً على الأهواز ، وكان شاعراً . الأغاني ١٧ : ١٥٧ . وهو صاحب دجبة ، ملك بن طوق ، أنشأها في عصر الرشيد ، وهو القاتل للرشيد حين أراد أن يفتك به :

أرى للوت بين السيف والطح كائنا

بلا حظي من حيناً أنلفت

(٢) وعلمها ، أي وعلمها . في الأصل : « توفك » ، تحريف . والصواع : مكبال ، وربما شرب به .

(٣) هو عبد الله بن شبرمة بن حسان بن المنذر الضبي . أبو شبرمة الكوفي القاضي ، ولده أبو جعفر قضاء الكوفة . وكان ثقة في الحديث ، شاعراً حسن الخلق جواداً . ولد سنة ٧٢ وتوفي سنة ١٤٤ . تهذيب التهذيب .

صَيْنَ بَيْنَ الْعَرَبِ نَحْفَةً لَا شَوْبَ فِيهَا ، فَكَانَتْ مَحَارِبُهُمْ كِدَامًا وَاعْتِنَاقًا ،
وَكَانُوا إِذَا مَرُّوا بِرَجُلٍ جَرِيحٍ كَانُوا يَقُولُونَ : خَذْهُ قَوْمُهُ فَانصروه ،
وَأَقْلَاهُ دَمْرُهُ بِمَضْمِيَةِ فَرْدُوهُ إِلَى أَهْلِهِ .

وَقَالَ ابْنُ شُرَيْمَةَ : مَا زِلْنَا نَسْمَعُ أَنَّ الْمَصِيبَاتِ تَنْزَعُ السَّجِيَّاتِ .
قَالَ : وَأَنْشَدَنِي بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ فِي هَذَا الْمَعْنَى :

فَلَوْ بِي بَلَأْتُمْ قَبْلَ مَنْ قَدْ دَعَوْتُمْ لَفَرَجَتْهَا وَحْدِي وَلَوْ بَلَأَتْ جَبْهَتِي
إِذَا لَمَرَّ ذُو الْقُرْبَى وَذُو الْمَقْدَادِ جَعَلَتْ بِهِ سَنَةً سَلَّتْ مَصِيبَتُهُ حَقْدِي^(١)
وَمِنْهُمْ مَنْ رَأَى الْإِفْضَالَ عَلَى عَدُوِّهِ وَتَرَكَ مَجَازَاتِهِ . وَهَذَا كَثِيرٌ لَا يُحْتَاجُ
فِيهِ إِلَى اسْتِثْنَاءٍ شَوَاهِدِهِ .

قَالَ غَيْلَانُ بْنُ خُرَشَةَ الْعَصِيُّ^(٢) — وَقَالَ بَعْضُهُمْ : بَلِ الْأَحْنَفُ
ابْنُ قَيْسٍ^(٣) — لَا تَزَالُ الْعَرَبُ بِغَيْرِ مَا لَيْسَتْ الْمَهَائِمُ وَتَقْلُدُ السُّيُوفَ
وَرَكِبَتِ الْخَيْلَ ، وَلَمْ تَأْخُذْهَا حِمْيَةُ الْأَوْغَادِ . قِيلَ : وَمَا حِمْيَةُ الْأَوْغَادِ ؟ قَالَ :

(١) نَسَبَ هَذَا الْبَيْتَ فِي عَيُونِ الْأَخْبَارِ ٣ : ١٠٧ إِلَى أَبِي الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيِّ .
وَلَيْسَ فِي دِيْوَانِهِ النَّشُورُ فِي ثَقَائِلِ الْمَخْطُوطَاتِ . وَالسَّنَةُ : الْعِدْبُ وَالْقَطْعُ .

(٢) غَيْلَانُ بْنُ خُرَشَةَ ، كَانَ سَيِّدَ بَنِي ضَبَّةَ بِالْبَصْرَةِ ، وَكَانَ مِنَ الْبُلْقَاءِ . الْإِسْتِغْنَاءُ
١٩٤ وَجَهْرَةَ ابْنِ حَزْمٍ ٤ : ٣٠٤ . وَكَانَ غَيْلَانُ أَحَدَ أَصْحَابِ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ .
ثُمَّ انْتَقَضَ عَلَيْهِ وَكَانَ سَيِّئًا فِي أَنْ يَحْزِلَ غَيْثَانَ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَيُؤَلِّيَ مَكَانَهُ عَبْدَ اللَّهِ
ابْنَ عُمَرَ . الْجَهْشِيَارِيُّ ١٤٧ .

(٣) لَقِيَ فِي الْيَمَانِ ٢ : ٨٨ وَ ٣ : ٩٨ أَنَّ الْقَوْلَ لِلْأَحْنَفِ . وَالتَّمَسُّ فِيهِ :
« وَقَالَ غَيْلَانُ بْنُ خُرَشَةَ لِلْأَحْنَفِ ، يَا أَبَا بَحْرٍ ، مَا جَاءَ مَا فِيهِ الْعَرَبُ : قَالَ :
إِذَا تَقْلُدُوا السُّيُوفَ ، وَعَدَدُوا الْمَهَائِمَ ... » . « الْقَوْلُ وَالْجَوَابُ إِنَّمَا هُوَ لِلْأَحْنَفِ .

أَنْ يَرَوْا الْحِلْمَ ذُلًّا ، وَالتَّوَاهِبَ ضَبًّا^(١) .

وقال الشعبي لرجل قال له : ألا تنتقم من فلان فقد عاداك ونصب لك ؟ فقال :

يبت الأعلام في حال الرضا إنا الأعلام في حال الغضب
وأشدني بعض العلماء بيتين وقال : إن الزبير^(٢) كان كثيراً ما يستل بها :

وإني لأعدائي على القتل والقتل بنى الهم منهم كاشع وحسود
أذنب وأرى بالحصى من ورائهم وأبدأ بالحصى لم وأعود
وكان عبد الملك بن مروان إذا أنشد :

إني وإن كان ابن عمي كاشعاً لمرأيت من دونه وورائه^(٣)
ومؤبره نصري وإن كان امرأ متزعزعا في أرضه وجمائه^(٤)
وإن اكتسى ثوباً ثيباً لم أقل ياليت أن علي حسن روائه^(٥)

(١) في حاشية هـ من نسخ البيان : « التواهب هو أن يترك من حقه لصاحبه عند الحاكم ، على وجه الروة ، وكلام الأخلاق . فإذا رأى أن ترك ذلك ذلة فتلك حمية الأوغاد » .

(٢) هو عبد الله بن مصعب . كافي تاريخ الطبري ١٠ : ١١٢ . وكان عادلاً لرشيد على المدينة واليمن . وانظر البيان ١ : ٣٢ و ٣ : ١١٠ .

(٣) الشعر لمهذبل بن مشجعة البولاني ، كافي الحماة ١٨٩٠ بشرح الرزوقي . والكاشع : المضمحل البدولة . وفي الحماة : « غالباً لقاذف من خلفه » .

(٤) في الحماة : « ومفيدة نصري » .

(٥) في الأصل : « ثوباً ثيباً » . تحريف . وفي الحماة : « ثوباً جميلاً » .

وإذا تفرّق في غصاه وقمره وإذا تصلّك كنت من قرّانه^(١)
قال : هذا والله من شر الأشراف . نقي عن نفسه الحدّ والذم
والانتقام عند الإمكان ، والدالة عند الحاجة .

ومهم من أمر بالشفة في الدواة واستمال الخرق فيها .

حدثني نوح بن أحمد عن أبيه عن ابن عباس قال : جاء النابغة الجعدي
إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : هل معك من الشر ما عفا الله
عنه ؟ قال : نعم . قال : أنشدني منه . فأنشده :

وإنّا لقومٌ مانمـُـردٌ خيـُـنا

إذا ما التفتينا أن نجـُـيـُـدَ ونـُـفـُـرا^(٢)

وتنكر يومَ المـُـوع ألوانَ خيـُـنا

من الظن حتى تحبّ التـُـجونَ أشـُـفـُـرا

١٢٨

وليس بمـُـعروف لنا أن نـُـردّها

بـُـحـُـنا ولا مـُـنـُـكـُـراً أن نـُـقـُـفـُـرا

بـُـلقنا الشـُـبـُـاء بمـُـجـُـدنا ونـُـناؤنا

وإنّا لبنى فوق ذلك مـُـظـُـفـُـرا

(١) التفرّق : التوسّع في الإنفاق . ويقال وفره ماله : جله وافرا لم
يقص منه .

(٢) الأبيات من قصيدة للنابغة الجعدي في جمهرة أشعار العرب ١٤٥ - ١٤٨ .
وهي أولى النوبات . ورويت أيضاً في الاستيعاب ص ١٥٩٥ والخزانة ١ :
٥١٣ - ٥١٤ واللائح ١٤٧ ، ٧٧٢ .

فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : إلى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : إلى الجنة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إلى الجنة إن شاء الله » .
ثم رجع في قصيدته فقال :

ولا خير في جهل إذا لم يكن له حلِيمٌ إذا ما أورد الأمرَ أصدراً
ولا خير في جلم إذا لم تكن له بواذرُ عَمَى صَفْوَهُ أن يكذراً^(١)

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا فضلَ الله فاك ! » . قال : فأنثت عليه
عشرون ومائة سنة ، كلنا سقطت له مِنْ أَثَرَتِ أخرى مكانها ؛ لدعوة
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فهذا أحسن ما روى في البادرة التي يُعان بها الجلم .
وقال الشاعر الجاهلي^(٢) :

صَنَعْنَا عن بَنِي ذُهَلٍ وَقَلْنَا : الْقِسْمُ إِنْخُولُ
عَمَى الْأَيْتَامُ أن يَرْجِه رَنَ حَيًّا كَالَّذِي كَانُوا^(٣)
فَلَا صَرْحَ الشُّرِّ وَأَمْسَى وَهوَ عُريَانُ

(١) البادرة : الكلام الذي يسبق من الإنسان في التضرع . كما في اللسان
(بدر) عند إنشاد هذا البيت .

(٢) هو القند الزماني ، واسمه شهل بن شيان . شاعر جاهلي قديم . كان أحد
فرسان ربيعة المشهورين ، شهد حرب بكر وتغلب وقد قارب المائة . الحزاة ٢ :
٥٨ — ٥٩ والأغانى ٣٠ : ١٤٣ — ١٤٤ واللائى ٥٧٩ . والقصيدة هي ثان
مقطوعة في حسانة أبي تمام .

(٣) الحى : الواحد من أحياء العرب ، والبطن من يطونهم . وفي الحانسة :
« قوما » .

مَشِينَا مِشِيَةَ اللَّيْثِ بَدَا وَاللَّيْثُ غَضِبَانُ^(١)
 يَضْرِبُ فِيهِ تَوْهِينٌ وَتَضْجِيعٌ وَإِذْعَانُ^(٢)
 وَطِينٌ مَكْنَمُ الرُّقَى وَهِيَ وَالرُّقَى مَلَأَنُ^(٣)
 وَفِي الشَّرِّ نَجْمَةٌ حَيَّةٌ نَ لَا يُنْجِيكَ إِحْسَانُ

حدثنا أبو مسهر عن أبيه عن خالد بن عمرو الكلبي قال :

كُنَّا مَعَ أَبِي بَرْزَةَ الْأَسْلَمِيِّ^(٤) فِي غَزَاةٍ ، فَكَانَ مَنَا رَجُلٌ يَمْتَارُ لَنَا الْبِرَّةَ
 وَيَقُومُ بِحَوَائِجِنَا ، فَلِذَا أَقْبَلَ قَلْنَا : جِزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا . فَغَضِبَ لِدَعَانَا ، فَتَكُونَا
 ذَلِكَ إِلَى أَبِي بَرْزَةَ ، فَقَالَ أَبُو بَرْزَةَ : كُنَّا نَسْمَعُ أَنَّ مَنْ لَمْ يَصْلَحْهُ الْخَيْرُ أَصْلَحَهُ
 الشَّرُّ ، فَاقْبَلُوا إِلَيْهِ . فَكُنَّا نَقُولُ لَهُ إِذَا أَنَا بِالْحَوَائِجِ : جِزَاكَ اللَّهُ شَرًّا وَغَرًّا^(٥) ،
 فَيَضْحَكُ لِفَذَلِكَ .

وَأَنْشَدَنِي رَجُلٌ عَنْ بَعْضِ الْأَعْرَابِ :

و ١٣٩

أَرَى الْحِلْمَ فِي بَعْضِ الْوُطَائِنِ ذَلَّةٌ وَفِي بَعْضِهَا عِزٌّ يُشْرِفُ فَاعْلَمْ
 إِذَا أَنْتَ لَمْ تَدْفَعْ بِحِلْمِكَ جَاهِلًا سَفِيهَا وَلَمْ تَقْرَنْ بِهِ مِنْ يُجَاهِلُهُ
 لَبَسَتْ لَهُ نَوْبَ الْمَذَلَّةِ صَاغِرًا فَاصْبِرْ قَدْ أَوْدَى بِحَقِّكَ بَاطِلُهُ

(١) فِي الْحِمَاةِ : « غَدَا » .

(٢) فِي الْحِمَاةِ : « وَتَضْجِيعٌ » . وَهُوَ اخْتِلَاطُ الصَّوْتِ .

(٣) فِي الْحِمَاةِ : « غَدَا » بِالْقَدَالِ الْمَجْجَةِ ، أَيْ سَالٍ

(٤) صَاحِبِ جَلِيلٍ ، وَهُوَ نَفْثَةُ بْنُ عَيْدٍ الْأَسْلَمِيُّ ، مَشْهُورٌ بِكَيْفِيَّتِهِ ، نَزَلَ
 الْبَصْرَةَ وَشَهِدَ مَعَ عَلِيٍّ تَقَاتِلَ الْخَوَارِجِ بِالنُّهْرَوَانِ ، وَأَتَى خُرَاسَانَ فَتَزَلَ . وَوَدَّ
 بِالْبَصْرَةِ سَنَةَ ٦٠ . الْإِصَابَةُ ٨٧١٠ وَالْإِسْتِيعَابُ ٢٨٧٢ وَالْإِسْتِغْنَاءُ ١٠٦ .

(٥) الْعَرُ : الشَّرُّ وَالشَّيْنُ ، وَأَصْلُهُ مِنْهُ الْعَرِبُ .

فَأَبَقَ عَلَى جَهْلِهِ قَوْمَكَ إِنَّهُ لَكُلُّ حَلِيمٍ مَوْطِنٌ هُوَ جَاهِلُهُ^(١)
 وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : « استوصوا بالفؤاد خيراً ،
 فإنهم يطفئون الحريق ، ويُسْذَوْنَ البثور^(٢) » .

وقال أبو سلى^(٣) فى الجاهلية :

لَا بَدْءَ لِلشَّوْذِ مِنْ رِمَاحٍ^(٤) وَمِنْ عَدِيدٍ يَبْقَى بِالرَّاحِ^(٥)
 • وَمِنْ كَلَابٍ بَجَّةِ الثَّيَاحِ •

وقال مسلم بن الوليد^(٦) :

حَافَتْ لَنْ لَمْ تَأْتَنِ سَفَاهُهَا خُرَاعَةُ وَالْحَيَّانِ عَوْفٌ وَأَسْلَمٌ
 لَأَرْجَمَنَّ الْوَدَّ بَيْنِي وَبَيْنَهَا بِقَافِيَةٍ تَغْرِى الْعُرُوقَ فَتَحِيْمٌ
 مِنَ اللَّاءِ لَا يَرْجَمَنَّ إِلَّا شَوَارِدًا لَمْ يَأْفُواهُ الرِّجَالُ تَهْتُمُهُمْ
 أَصَابُوا حَالِيًا فَاسْتَعْدُّوا بِنَاهِلٍ إِذَا الْحِلْمُ لَمْ يَمْنَعَكَ فَالْجَهْلُ أَحْزَمُ
 وَلَمْ نَقْصِرِ الْأَبْوَابَ كُلَّهَا بِالْمَارِضَةِ^(٧) فِى هَذَا الْكِتَابِ ، وَلَوْ اسْتَفْصَيْنَا

(١) أى لكل حلِيم موطن يجب أن يجهد فيه وينزع عن حله .

(٢) البثور : جمع بثر ، وهو منبعث الماء بخرقه السيل .

(٣) الحيوان ١ : ٣٥١ / ٣ : ٧٩ . والرجز بدون نسبة فى البيان • ٣٣٥ .

(٤) فى الحيوان والبيان : • من أرماح • .

(٥) فى الأصل : • ومن عدا • . صوابه فى الحيوان والبيان .

(٦) الأبيات لم ترد فى ديوان مسلم ولا لمحققاته . وفى الديوان ١٧٧ - ١٨٣
 قصيدة على روى هذه الأبيات .

(٧) فى الأصل : • المارضة • .

لعُلت بنا الأيَّام وتراخت الليال إلى بلوغ الغاية في تمام الكتاب . وإنما ذكرنا من كل باب عَرْضَ فيه ما دلَّ على معناه الذي إليه تُصَدُّ .

ولم نر الحسد أمرًا به أحدٌ من العرب والمجم في حالٍ من الأحوال ، ولا ندبَ إليه وثَّبه عليه . وقد نبَّه على العداوة وفُصل بين أحوالها بما قد يَنبَغُ ، فظهر فصاحتها على الحسد بذلك .

وكنتم أرواً قليل الحساد حتى اعتصمتُ بمروتك ، واستمسكتُ بنبهك واستندريت في ظلك^(١) ، فتراكم على الحساد وزدحوا ، ورسوا بسهامهم من كل أوبٍ وأفق ، وتأتوا على نتائج الدُّبُرِ^(٢) على سُنتار القَسَلِ . ولئن كثروا لقد كثُرَ بهبوب ريمك إخواني ، وبغفرة أيلك وزهرة دولتك ٩ خلاني . وأنا كما قلت :

فأكثرَ حُسادى وأكثرَ خلقي
وكنْتُ وحُسادى قليلاً وخلاني

فلما بلغت هذا الفصل من تأليف هذا الكتاب دخلَ على عشرة غُرٍ من من الكتَّابِ قد شملهم معروفك ، ورفع مراتبهم جميل نظرك ، فهم من طاعتك والمحنة لك على حسب ما أوليتهم من إحسانك وجزيل فوائذك ، فأفاضوا في حديثٍ من أحاديث الحسد ، فشئب لهم ذلك الحديث شعوباً

(١) استندى بالشجرة : استظل بها وصار في دُفئها . واستندى بخلان : التجأ إليه . وفي الأصل : « واستندأت » .

(٢) نتاج على النوى : نهافت فيه وأسرع وتناشط . وفي الحديث : « ما جعلكم على أن تاتوا في الكذب ، كما يتاج الفرائس في النار » . وفي الأصل : « تاتوا على نتاج » ، صوابه بالياء . والدير : جهالة العمل .

افْتَنُوا فِيهَا - والحديث ذو شجون - فاجروا حتى أمتنى رقعة أناسية^(١) من الحساد فيها سلبم الوعيد ، ومقدمات التهديد والتحذير والتخويف ، للظن على ما ألفت^(٢) من الكتب إن أنا لم أضمن لهم الشركة فيما يُجرى على ، فدفت رُقعتهن إلى من قُرب إلى منهم ، فقرأها ثم قال : « قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ! أَبْظَلِمَ يَرومون النَّبِيلَ وَيَلْتَمِسُونَ الشَّرْكَاءَ فِي الْعُرُوفِ ! تَنْزِعُ الْفُرُوحَ بِالْكَلاَلِيبِ أَهْرُونَ مِنْ بَذْلِ مَعْرُوفٍ بِتَرْهيبٍ » . وَأَنَا يَقُولُ :

أَبْقِ الْحِوَالِثَ مِنْ خَلِيٍّ لَكَ مِثْلَ جَنْدَلَةٍ لِلرَّاجِمِ^(٣)
 قَدْ رَامَنِي الْأَعْدَاءُ قَدْ لَكَ فَامْتَمْتُ مِنَ الظُّلَمِ
 وَدَعَّيْتُ إِلَى مَنْ قُرْبَ مَتِّهَ قَرَأَهَا . وَقَالَ الثَّانِي : « مَكَّةٌ جُلُودٌ ، لِكُلِّ
 مُرْعِدٍ حَسُودٌ ، يَسْتَطِرُّ الشُّرْفُ بِالْتَّهْدِيدِ . خَلَّ الْوَعِيدَ ، يَذْهَبُ فِي الْبَيْدِ » .
 وَأَنَا يَقُولُ :

أَبْرِقْ وَأَرْمِمْ يَازِيْدُ ذُنُوبًا وَعَيْدُكَ لِي بِضَائِرِ^(٤)
 وَدَقَّتْهَا إِلَى الثَّالِثِ قَرَأَهَا وَقَالَ : « سَأَلُوا غُلَامًا ، وَخَوْفُوا هَضْمًا ، لَقُّوا
 حَرْبًا وَلَقِيتَ سِلَاحًا » . وَأَنَا يَقُولُ :

(١) أناسية : جمع إنسي أو أناس . وفي اللسان (أنس) : « وبين جوائز أناسي بالتخفيف - يعني تخفيف الياء - قول العرب : أناسية كثيرة والواحد إنسي وأناس إن شئت » .

(٢) في الأصل : « ألفت » .

(٣) الشعر لماوية ، في أمالي القالي ٢ : ٣١١ . وفي الأصل : « أما الحوادث » و « الزام » ، صوابهما في الأمالي وشرح القصائد السبع لابن الأثير ٣٢٩ .

(٤) البيت للكثير ، كما في اللسان (برق ، رعد) وبجالي المعاني ١٤١ وشرح القصائد السبع ٥٢٣ .

زعم الفرزدق أن سيقتل مريباً أبشِرْ بطول سلامة يا مريب^(١)
ودفعها إلى الرابع فقرأها وقال : « قول الذليل وبوله سيئان » .
وأنشأ يقول :

ماضراً تغلبَ واتلَّ أجونَهَا أم بُلْتَ حيثُ تناطحَ البحرين^(٢) ١٣٠
ودفعها إلى الخامس فقرأها وقال : « نهيق الحمار ، ودمُ الأعيار جُبَارٌ
جُبَارٌ^(٣) » . وأنشأ يقول :

ما أبالي أنبَ بالخزف تيسَ أم لَصَانِي بظهير غيبٍ لئيم^(٤)
ودفعها إلى السادس فقرأها وقال : « إذا عِلقتك الأعباد ، فليهنُ عليك
العُناد » . وأنشأ يقول :

إذا أهلُ الكرامة أكرموني فلا أخشى الموانَ من اللُناع
ودفعها إلى السابع فقرأها وقال : « كيف يخاف الشرعة ، من هو في ذى
النُمة » . وأنشأ يقول :

(١) البيت لجرير في ديوانه ٣٤٨ وجمهرة أنساب العرب ٢٨٣ والشعر ٤٦٦٠ .
ومريب ، هو مريب بن وعوة بن سعيد ، كافٍ جمهرة أنساب العرب . ومريب هذا هو
راوية جرير ، وكان الفرزدق قد حلف ليفتله .

(٢) الفرزدق في ديوانه ٨٨٢ والبيات ٣ : ٢٤٨ والخزاة ٢ : ٥٠١ .
وهو من قصيدة يذكر فيها تضليل الأخطل إياه ، « ادحا في ذلك بني تغلب ،
ويهجو فيها جريرا . وتغلب هم قوم الأخطل . تناطح البحرين : تقابلا . وانظر
الحويان ١ : ١٣ .

(٣) الأعيار : جمع عبر بالفتح . وهو الحمار الوحشي . والجبار : المدر . وكذا
وردت الكلمة مكررة .

كم تنبحون وما ينسى نباحكم

ما يملك الكلب غير النبح من ضرر

ودفعها إلى العاشر^(١) فقرأها وقال : « توكي هلكتي ، لم يعرفوا خبرك ، ولا دوزأ أسرك » . وأنشأ يقول :

فلو علم الكلاب بنو الكلاب بحالك عند سيدنا لدنوا

وعندي صديق لي من الشوفة له أدب ، فقال لي يعقب فراغهم مسيراً :
إن هؤلاء الكلاب قد أظهروا الاستغفاف بقول الحساد ، وضرروا الأمثال
في هوانهم عليك ، وعرفوا أنك في منعة من عز أبي الحسن أطال الله بقاءه ،
ومعقل لا يسأم ولا يُنال . وأنا أقول بالشفقة^(٢) :

توق قوتنا من الحساد قد قصدوا لحط قدرك في سر وفي علن

قلت له : إني أقول بيتين مما جوابك وجواب الحساد :

إن ابن يحيى عبيد الله أمتنى

من الحوادث بعد الخوف من زمني^(٣)

فلست أحذر حصادي وإن سكروا

مادمت نبيك حبل من أبي الحن

فلما رأى صديق اتصالي آثار الكتاب ، باستهانتني للحساد عند اعتلاق

(١) كذا في الأصل بدون أن يذكر قبله ما قل التامن والتاسع . قد يكون
إغفالاً من الجاحظ لها . وقد يكون سقطاً من النسخة .

(٢) في الأصل : « بالشفقة » .

(٣) يحيى عبيد الله بن يحيى بن خاقان ، وزير التوكل ثم المنعم . انظر . روج
الذهب ٢ : ٣٧١ والتنبية والإسراف ٣١٤ وإعتاب الكتاب لابن الأبار ١٥٨ ،
١٦٢ والصخرى ٢١٦ ، ٢٢٨ .

جاءتك أعزك الله ، أنشأ مثلاً يقول نصر بن سيار^(١) :

٣٠

إني نشأت وحُسادى ذور عدى إذا المارج لا تنقص لم أحداً^(٢)
 إن يحدوني على ما قد بنيت لهم فتل حُسن بلائى جرّى العدا
 وليس العجب أن يكثرُوا وأنا أُنق بمحاسنك ، وأهتف بشكرك ،
 ولكن العجب كيف لا تُنقّت أ كبادهم كدا .

وكان بعضهم يقول : اللهم كثر حُسادى لى ؛ فإنهم لا يكثرُونَ
 إلا بكثرة النعمة .

فإن كان والذى سبق منه هذا الدُّعَاء ، فإن الإجابة كانت مخبوءة إلى
 زمان عزك ؛ فقد رأينا تباشرها ، وبدت لنا عند عنايتك غائِبها .

وكان بعض الصالحين يقول : اللهم اجعل لى محسودين ، ولا تجعلهم
 مرحومين ؛ فإن يوم المحسود يوم عِزَّة ، ويوم العاسد يوم ذلَّة .

(١) نصر بن سيار : أمير من الدهلة الشيعان ، كان أمير خراسان سنة ١٢٠
 ولاء هشام بن عبد الملك ، ثم غزا ساوراء النهر ففتح حصونا وغنم كثيراً ، وعمل
 أيضاً على خراسان لمروان بن محمد آخر الأمويين ، وقد اتبى إلى استعمال البعوضة
 الباسية فكتب إلى بنى مروان بالشام فلم يأبهوا بالخطر ، وظل يكافح حتى هُزم
 وتلقب أبو سلم على خراسان ، فخرج نصر من مرو إلى قورس ، واستمر في كفاحه
 إلى أن لحقه المرض في مهاجرة بين الرى وهمدان ، ومات بساوة سنة ١٣١ . وفى
 الأصل : « يقول بشر »

(٢) فى الكتاب العزيز : « من الله ذى المارج » قال قتادة : ذى المارج :
 ذى القواصل والثمن ، وقيل مارج لللائكة ، وهى معاصدها التى تصد فيها
 وترجع فيها . وقال القراء : ذى المارج من نعم الله ، لأن لللائكة ترجع إلى الله
 فوصف الله بذلك .

ويقال : إنه ثلث مات الحجاج سمعوا جارية^(١) خلف جنازته وهي تقول :
 اليوم يرحمنا من كان يحدنا . واليوم تنفج من كانوا لنا تبعاً .
 ويقال : إن زياد بن أبيه قال لحرقة ابنة النعمان^(٢) : أخبريني بحالك .
 قالت : إن ثلث أجملت وإن ثلث فسررت . فقال لها : أجلى . فقالت :
 « بتنا نحمد ، وأصبحتا نرغم »^(٣) . فخطبها زياد وكانت في دبر لها فكشفت
 عن رأسها ، فبذا رأس مخلوق ، فقالت : رأس عروس كاتري يا زياد ؟
 وأعطاهما دنائير فأخذتها وقالت : جزتك بذات فقرت بعد غنى ، ولا جزتك
 يد استفتت بعد فقر !

ولا نعلم الحسد جاء فيه شيء أكثر من حديث روى عن النبي صلى الله
 عليه وسلم : « لا حسد إلا في اثنتين »^(٤) : رجل آتاه الله حفظ القرآن فهو يقوم به

(١) في البيان ٣ : ١٧٧ : « خرجت عجوز من دلمه وهي تقول » .

(٢) حرقة هذه بنت النعمان بن السدس بن امرئ القيس بن محرو بن عدى
 ابن نصر بن ربيعة بن الحارث بن مالك بن عهم بن نمارة بن الحزم . المؤلف ١٠٣ .
 ولها مقطوعة في الحماسة ١٢٠٣ بشرح الرزوقي رويت أيضاً في المؤلف . وبعض
 أخبارها في البيان ٢ : ٨١ / ٣ : ١٤٥ ، ١٦١ . وحرقة بضم الحاء للهجة
 وضع الراء . كما في اللسان والقاموس . قال في اللسان : « وحريق ابن النعمان
 ابن السدس . وحرقة بنته » ، ومثله في شرح الحماسة للبربري لكنه جعل أصلها
 « حرق » كزفر . وفيها بقول الشاعر :

نعم بالله نسلم الحقة ولا حريقاً وأخت الحرة

(٣) أي كنا في نعمة محسودين بالأمس . فأصبحت اليوم ولا حسد لنا ، بل نحن
 في موضع الرثاء .

(٤) في الأصل : « اثنتين » . صوابه في صحيح البخاري . انظر فتح الباري ٣ :
 ٢١٩ و ١٣ : ٢٥٣ وصحيح مسلم ١ : ٥٢٨ - ٥٥٩ والترغيب والترهيب ٣ : ١١
 وسند ابن جبان ١٢٥ ، ١٢٦ .

١٠

رِسَالَةٌ

فِي صِنَائِعَاتِ الْقَوَاد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وهذه هي الرسالة العاشرة من رسائل الجاحظ ، وعنوانها في نسخة الأصل :
« رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله ، في ذم القواد » .
وفي مقبلة نسخة الأصل أيضاً أنها تسمى « صناعات القواد » وتسمى أيضاً
« طبائع القواد » .

وجاء في جمع الجواهر للمصري ١١٦ : « ولجاحظ في هذا النوع رسالة
كتب بها إلى المتصم ، وقيل إلى التوكل ، في الحفص على تعليم أولاده ضروب
العلوم وأنواع الأدب » .

ثم روى المصري طرفاً من هذه الرسالة كانت موضع مقارنة في النص .
وجاء عنوانها في طراز المجالس ٦٧ « صناعات القواد » ثم ساق الرسالة بأكملها .
وكان هذا النص موضع مقارنة أيضاً في نسخته المطبوعة والنسختين المودعتين
بدار الكتب برقم ٦٦ ، ٦٧ أدب م .

وتنأز هذه الرسالة بأنها قد سجلت كثيراً من الألفاظ الدخيلة والروايات
التي كان يستعملها الصناع والعمال وأصحاب المهن المختلفة .

(١) أرشدك الله للصواب ، وعرفك فضل أول الألباب ، ووهب لك ١٣٣ ظ
جميل الآداب ، وجمعتك بمن يعرف عز الأدب كما تعرف زوائد الفنى .

قال أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ : دخلت على أمير المؤمنين
المتعمم بالله فقلت له : يا أمير المؤمنين ، فى اللسان عشر خصال : أدانة يظهر
بها البيان ، وشاهد يُخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل بين الخطاب ، وناطق
يُرَدُّ به الجواب ، وشافع تُدرك به الحاجة ، وواصف تُعرف به الأشياء ،
وواعظ يُعرف به القبيح ، ومُعزّز يُرَدُّ به الأحران^(٢) ، وخاصة يُرعى
بالصنية^(٣) ، ومُلَوِّ يوثق الأسماع .

وقال الحسن البصرى : إن الله تعالى رفع درجة اللسان ، فليس من
الأعضاء شىء ينطق بذكره غيره .

وقال بعض العلماء : أفضل شىء للرجل عقل يؤلفه معه ، فإن فاته ذلك

(١) قبله فى الأصل : « هذه رسالة لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، منسوبة
فى نسخة إلى ذم القواد ، وفى أخرى إلى كتاب صناعات القواد . وفى أخرى إلى
كتاب طبائع القواد » .

(٢) فى الطبعة من الطراز : « ونرد ترد به الأحران » . تحريف .

(٣) فى الأصل : « يذهب بالصنية » . وأثبت ما فى النسخة للطبعة من الطراز .

فَقَالَ يُقَالُ بِهِ ، فَإِنْ قَاتَهُ ذَلِكَ فَمَلَمَ يَمِيشُ بِهِ^(١) ، فَإِنْ قَاتَهُ ذَلِكَ فَوَتْ يَمِيشُ أَمَلَهُ .

وَقَالَ خَالِدُ بْنُ صَفْوَانَ : مَا الْإِنْسَانُ لَوْلَا الْهَانُ إِلَّا ضَالَّةٌ .
أَوْ بَهِيمَةٌ مَرْسَلَةٌ ، أَوْ صَوْرَةٌ مَمْلُوءَةٌ^(٢) .

وَذَكَرَ الصَّمْتَ وَالنُّطْقَ عِنْدَ الْأَخْنَفِ فَقَالَ رَجُلٌ : الصَّمْتُ أَفْضَلُ
وَأَحْمَدُ . فَقَالَ : صَاحِبُ الصَّمْتِ لَا يَتَمَدَّاهُ نَفْعُهُ ، وَصَاحِبُ النُّطْقِ يَنْتَفِعُ بِهِ
غَيْرُهُ . وَالنُّطْقُ الصَّوَابُ أَفْضَلُ^(٣) .

وَرَوَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ : « رَحِمَ اللَّهُ امْرَأً أَصْلَحَ
مِنْ إِسَاءَةٍ » .

قَالَ : وَسَمِعَ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَجُلًا يَتَكَلَّمُ فَأَبْلَغَ فِي
حَاجَتِهِ ، فَقَالَ عُمَرُ : هَذَا وَاللَّهِ الشَّعْرُ الْحَلَالُ .

وَقَالَ مَسْلَدَةُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ : إِنْ الرِّجْلُ لَيْسَ أَلْفَى الْحَاجَةِ فَتَسْتَجِيبُ نَفْسُ لَهَا
بِهَا ، فَيُذَالِحْنَ أَنْصَرَفَتْ نَفْسُ عَنْهَا .

وَتَقَدَّمَ رَجُلٌ إِلَى زِيَادٍ فَقَالَ : أَصْلَحَ اللَّهُ الْأَمِيرَ ، إِنْ أَيْنَاهُ هَكَذَا ، وَإِنْ
أَخُونَا غَضَبْنَا مِيرَاتَهُ . فَقَالَ زِيَادُ : أَتَدْرِي ضَمِيتُ مِنْ لِسَانِكَ أَكْثَرَ مِمَّا ضَمِيتُ
مِنْ مَالِكَ^(٤) .

(١) مَا جَدَّ • يَرَاهُ مَعَهُ • سَاقِطٌ مِنَ الطَّرَازِ .

(٢) الْيَانِ ١ : ١٧٠ .

(٣) فِي الْأَصْلِ وَالطَّرَازِ : • وَالصَّوَابُ • ، صَوَابُهُ مِنْ مَطْبُوعَةِ الطَّرَازِ .

(٤) الْحَبَرُ فِي الْيَانِ ٣ : ٢٢٢ وَهَيْوَنُ الْأَخْبَارِ ٢ : ١٥٩ وَنَزْهَةُ الْأَلْبَابِ ١٢ .

وقال بعض الحكماء لأولاده : يا بني أصلحوا من أنفسكم ، فإن
الرجل لتنبؤه النابتة فيستمر الدابة والنياب ، ولا يقدر أن يستمر اللسان .
وقال شبيب بن شيبه ورأى رجلاً ينكح فأساء القول ، فقال :
يا ابن أخي ، الأدبُ العالِمُ خيرٌ من اللالِ للضعاف .
وقال الشاعر ^(١) :

وكان ترى من صامت لك منجيبٍ زيادته أو نقصه في التكلم
لسانُ الفتى نصفٌ ونصفٌ فؤاده فلم يبقَ إلا صورةُ القوم والذم
نقدٌ يا أمير المؤمنين أولادك بأن يتعلموا من كلِّ الأدب ؛ فإنك إن
أفردتهم بشيء واحد ثم سئلوا عن غيره لم يحسنوه .
وذلك أني لقيت حزاماً ^(٢) حين قدِمَ أمير المؤمنين من بلاد الروم ،
فأثنته عن الحرب كيف كانت هناك ؟ قال :

لقيتكم في مقدار تخم الإصطبل ، فما كان بقدر ما يحس ^(٣) الرجل دابته
حتى تركناهم في أضيق من تمرغة . وقتلناهم فجعلناهم كأنهم أنابيب يبرجين ^(٤) ،

(١) هو زهير بن أبي سلمى ، كفا في العلفات برواية الروزي ، وليس في رواية
ابن الأثير أو التبريزي أو ديوانه شرح مطلب وشرح الشنري .

(٢) في الأصل : « خزنا » ، وأثبت ما في الطراز وجمع الجواهر . وفي جمع
الجواهر : « وذلك أن حزاماً صاحب خيلك حين سأته عن الوقعة ببلاد الروم » .
(٣) حس الدابة بحسها حساً : نفخ عنها التراب . وذلك إذا فرجها بالهسة .
وفي مطبوعة الطراز قط : « يحس » بالثين .

(٤) الأنابيب : الأكداش ، جمع أنبار ، وهذه جمع نبر بالكسر .

فَوَطَّرَحْتُ رَوْثَةً مَاسَقَطَتْ إِلَّا عَلَى ذَنْبِ دَابَّةٍ .

وعمل أبياتاً في النزل فكانت :

إِنْ يَهْدِمُ الصَّدُّ مِنْ جِي مَعَالِفِهِ

فَإِنْ قَلْبِي بَقِيَ الْوَجْدُ مَعْمُورٌ^(١)

إِنِّي أَسْرَى فِي وَثَاقِ الْحَبِّ يَكْبَعُهُ

لِجَسَامٍ هَرَجٍ عَلَى الْأَسْقَامِ مَعْدُورٌ^(٢)

عَلَّنَ يَحْلِي نَبِيلٍ مِنْ وَصَالِكَ أَوْ

خُسْنِ الرَّفَادِ فَإِنَّ النَّوْمَ مَأْسُورٌ^(٣)

أَصَابَ حَبْلَ شِكَاكِ الْوَحْلِ حِينَ بَدَأَ

وَمِبْضُ الصَّدِّ فِي كَفِيهِ مَشْهُورٌ^(٤)

لَيْسَتْ بِرَقَمٍ هَرَجٍ بِمَدِّ ذَلِكَ فِي

إِصْطَبِلَ وَدَّ فَرَوْتَ الْحَبُّ مَشْهُورٌ^(٥)

(١) القيت : الفصلحة ، وهي من علف المواب .

(٢) عذير الدابة عذرا : شد عليها العذار ، وهو السير الذي يكون عليه اللجام .

وفي جمع الجواهر : « ويح أسرى » في وثاق الحب .

(٣) في جمع الجواهر : « أنزل خيلك نيلاً من وصالك » ، والأسور : للشدود

بالإسار ، وهو الحبل .

(٤) الشكال ، ككتاب : ما تشده قوائم الدابة . وفي جمع الجواهر : « أمنت

فد شكال حين ودعني ومبضع الحب » .

(٥) في الطراز : « إصطبل حب » .

قال : وسألت بَخْتِيشُوعَ [الطيب ^(١)] عن مثل ذلك فقال :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ صَخْنِ الْبِيَارِستان ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَخْتَلِفُ الرَّجُلُ ١٣٣ :
مَقْدَمِينَ ^(٢) حَتَّى تَرَكَنَاهُمْ فِي أَضِيقٍ مِنْ مَحْفَقَةٍ ، فَتَنَانَاهُمْ فَلَوْ طَرَحْتَ مِثْقَالَ
مَا سَقَطَ إِلَّا عَلَى أَكْحَلِ رَجُلٍ ^(٣) .

وعمل آياتاً في الغزل فكانت :

شَرِبَ الْوَصْلُ دَسْتِجَ الْمَجَرِ فَاسْتَعَطَّ أَتَى بَطْنُ الْوِصَالِ بِالْإِسْهَالِ ^(٤)
وَرَمَانِي حَتَّى يَقُولَنْجِ بَيْنَ مُذْهَلٍ عَنْ مَلَامَةِ الْقُدَّالِ ^(٥)
قُقُودِ الْحَبِيبِ يَنْجَلِ الشَّاءُ لِي وَقَلْبِي مُعَذَّبٌ بِالتَّلَالِ ^(٦)
وَقُودِي مُبَرَّسٌ ذُو سَقَامٍ بَابِنَ مَأْسُوءَةٍ ضَلَّ عَنِّي احْتِيَالِ ^(٧)
لَوْ يَبْقَرُاطُ كَانَ مَا بِي وَجَالِي نُوسَ بَاتَا مِنْهُ بِأَكْفٍ بِالِ

(١) التلمذة من طراز المجالس وجمع الجواهر . وهو بختيشوع بن جبريل
ابن بختيشوع ، وكان سريانيا نبيل القدر ، وكان يباهي التوكل في اللباس والهرش ،
وكان عظيم القزلة عنده ، ثم إنه أفرط في إدلاله عليه فحبسه . وكان موته سنة ٢٥٦ .

طبقات الأطباء ١ : ١٣٨ - ١٤٤ والقطبي ٧٢ - ٧٣ .

(٢) اختلف الرجل : ذهب إلى الموتى إذا أخذه بطنه .

(٣) الأكل : عرق في اليد إذا قطع لم يرقأ الدم .

(٤) المستنج ويقال المستنج : آية تحول باليد .

(٥) البيت ساقط من جمع الجواهر .

(٦) وهذا ساقط من الطراز .

(٧) كذا في الأصل وإحدى مخطوطي الطراز . يريد « مأسويه » . وفي سائر

نسخ الطراز : « بابن السوء » . وفي جمع الجواهر : « بابن مأسويه » ولا يستقيم
به الوزن . وابن مأسويه هو أبو ذكريا يحيى أو يوحنا ، خدام للمأمون والمتصم
والواثق والتوكل . القهرست ٢١١ والقطبي ٢٤٨ - ٢٥٦ .

قال : وسألت جعفرًا الخياط عن مثل ذلك فقال :

لقيتهم في مقدار سوق الخلقان ، فما كان يقدر ما يخيط الرجل دروزًا^(١)
حتى قتلهم وتركناهم في أضيق من جربان^(٢) ، فلو طرحت إبرة ما سقطت
إلا على رأس رجل .

وعلى أيّان في النزل فكانت :

فَقَتَّتَ بِالْهَجَرِ دُرُوزَ الْمَوَى إِذْ وَخَزَنَتْنِي إِبْرَةُ الصَّدِّ
فَالْقَلْبَ مِنْ ضَيْقِ سِرَاوِيلِهِ يَعْزُّ فِي بَايَسَكَةِ الْجِهْدِ^(٣)
جَشْمَتْنِي يَا طَلِيلَانَ النَّوَى مِنْكَ عَلَى شَوْزَكْتِي وَجَدْنِي^(٤)
أَزْرَارَ عَيْفَى فَيْكَ مَوْصُولَةَ بِسُرُورَةِ الدَّمْعِ عَلَى خَدَيِ
يَا كَنْبَانَ الْقَلْبِ يَا زَيْقَهُ عَذْبَنِي التَّمَذَّكَارُ بِالْوَعْدِ^(٥)
قَدْ قَصُرَ مَا بَعْدَ مِنْ وَصْلِهِ بِمِقْرَاضٍ بَيْنَ مُرْعَفُ الْخَلْدِ^(٦)

(١) الدرز : موضع الخياطة ، كما في شفاء التليل ، ويقال للضم والضمحل والصبيان :
بنات دروز ، ومنه أخذ الدرزي الخياط الذي صحفته عامة عصرنا بالترزي .

(٢) جربان القميص : جبه . يقال بضم الجيم والراء وبكسرهما ، وهو بالفارسية
كریان .

(٣) في جمع الجواهر : « يخرّب في تسكة الجهد » .

(٤) في جمع الجواهر : « على سوء شقا جدي » ، وفيه أيضاً وحديثي « بدل :
جشمتي » .

(٥) في جمع الجواهر : « بادسبان القلب » ، كما أن سائر البيت فيه محرف .

(٦) في جمع الجواهر : « ما أعرف من وصلة » .

يا حُجْرَةَ النَّفْسِ وَيَا ذَيْلَهَا مَالِي مِنْ وَصْلِكَ مِنْ بَدْ^(١)
 وَيَا جَرِيئَانَ سُرُورِي وَيَا حَبِيبَ حَيَاتِي حُلَّتْ عَنْ عَهْدِي^(٢)
 قَالَ : وَسَأَلَتْ إِسْحَاقَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ - وَكَانَ زَرَّاعًا^(٣) -
 فَقَالَ :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ جَرِيئِينَ مِنَ الْأَرْضِ ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَنْتَقِي الرَّجُلُ
 مَشَارَةً^(٤) حَتَّى تَخْلُتَاهُمْ ، فَتَرَكْنَاهُمْ فِي أَضْيَاقٍ مِنْ بَابٍ ، وَكَانَتْهُمْ أَنْيَابِيرُ سُنْبُلٍ^(٥) ،
 فَلَوْ طَرِحَ قَدْآنُ^(٦) مَا سَقَطَ إِلَّا عَلَى ظَهْرِ رَجُلٍ^(٧) .

وَعَمِلَ أَيْبَاتًا فِي الْفَزْلِ فَكَانَتْ :

زَرَعَتْهُ هَوَاءٌ فِي كِرَابٍ مِنَ الصُّفَا وَأَسْقَيْتُهُ مَاءَ الدَّوَامِ عَلَى الْعَهْدِ^(٨)

(١) الحُجْرَةُ ، بالفهم : «مقدار السراويل والإزار وفي الأصل والطراز للطبوع .
 « يا حُجْرَةَ النَّفْسِ » ، وفي المخطوط : « يا حُجْرَةَ النَّفْسِ وَيَا وَيْلَهَا » ، صوابه من جمع
 الجواهر .

(٢) سبق تفسير الجريان في ص ٣٨٤ . وفي جمع الجواهر : « جيب غرامي » .

(٣) في جمع الجواهر : « زارعا » .

(٤) للمشاراة ، بفتح اللام : الدبرة ، وهي البقعة من الأرض تزرع . وفي طراز
 المجالس : « من سانية » .

(٥) الأنابير ، سبق تفسيرها في ص ٣٨١

(٦) القدان : الذي يجمع أداة الثورين في القران للحرث ، والآلة التي
 يحراث بها .

(٧) في طراز المجالس : « على ظهر ثور » ، تحريف . وفي جمع الجواهر :
 « إلا على رأس رجل » ، وبعده في جمع الجواهر : « فصاروا مثل أكرام التبن » .

(٨) في جمع الجواهر : « في جريب مثلث » .

وَسَرَجَنَتُهُ بِالْوَصْلِ لَمْ أَكُلْ جَاهِدًا لِيَحْرَزَهُ السَّرَجِينُ مِنْ آفَةِ الصَّدِّ^(١)
 فَلَمَّا تَعَالَى الثَّبْتُ وَاخْضَرَّ يَانَعًا جَرَى بِرَافَتَيْنِ الْبَيْنِ فِي سَبِيلِ الْوَدِّ^(٢)
 قَالَ : وَسَأَلْتُ فَرَجًا الرُّخْبِيَّ^(٣) عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ - وَكَانَ حَتَّارًا -
 قَالَ :

لَقِينَاكُمْ فِي مَقْدَارِ بَيْتِ التَّنُورِ ، فَسَاكَانَ بِقَدَرِ مَا يَخْجِزُ الرَّجُلُ خَمْسَةَ
 أَرْغِفَةٍ حَتَّى تَرْكَنَاكُمْ فِي أَضْيَاقٍ مِنْ حَجَرٍ تَنُورِ ، فَلَوْ سَقَطَتْ جَمْرَةٌ مَا وَقَعَتْ
 إِلَّا فِي جَنْفَةِ حَتَّارٍ^(٤) .

وَعَمَلُ أَيْيَاتٍ فِي الْفَزْلِ فَكَانَتْ :

قَدْ عَجَبَنَ الْمَجْرُ دَفِيقَ الْمَوَى فِي جَنْفَةٍ مِنْ خَشَبِ الصَّدِّ
 وَاخْتَمَرَ الْبَيْنُ فَسَارَ الْمَوَى تَذَكَّرِي سِرَجِينَ مِنْ الْبُعْدِ^(٥)
 وَأَنْبَلَ الْمَجْرُ بِمَحْرَاكِهِ يَفْخَمُ عَنْ أَرْغِفَةِ الْوَجْدِ^(٦)

(١) السرجين : السناد يمدد به الأرض ، عرب .

(٢) البرقعات : دود يكون في الزرع ثم يسلخ فيصير فراشاً وفي جمع الجواهر : « وأفرك حب الحب في سبل الود » . وبعده بيتان ، وهما :

أَنَّهُ أَحْكَفَ الْمَجْرُ فِيهَا مَنَاجِلَ فَأَسْرَعَنَ فِيهِ حِينَ أُدْرِكَ بِالْخَمْدِ
 فَيَنْتَوِمُ مَتْنِي إِذْ يَسْطَلُّ لِقَتَا وَيَاوِي تَوْرِي حَارَ مَعْلَقِهِ كَبْدِي

(٣) نسبة إلى رُخْبٍ ، كسكر ، وهي كورة ومدينة من نواحي كابل .

(٤) في جمع الجواهر : « فلو طرحت جردقاً ما وقع إلا في خزان الحَبْرِ عَلَى كَثْرَةِ الْقَتْلِ » .

(٥) السرجين ، سبق تفسيره . وفي جمع الجواهر : « تَزِيحِي بِشَوَاكِ الْمَجْرِ مِنْ بَعْدِي » .

(٦) المحراك أداة تحرك بها النار . وفي جمع الجواهر : « وَأَنْبَلَ الصَّدِّ

مَجْرَانَهُ »

جَرَادِقِ اللُّوْعِدِ مَسْمُومَةِ مَثْرُودَةٍ فِي قَصْعَةِ الْجَهْدِ^(١)
 قَالَ : وَسَأَلَتْ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبْدِ الصَّدِّيقِ أَبِي دَاوُدَ عَنْ مِثْلِ ذَلِكَ
 — وَكَانَ مُؤَدِّيًا — فَقَالَ :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ حَسَنِ الْكِتَابِ^(٢) ، فَمَا كَانَ يَقْدِرُ مَا يَقْرَأُ الصَّحْفُ
 إِمَامَتَهُ^(٣) حَتَّى الْجَانَانُ إِلَى أَضْيَقٍ مِنْ رَنْمٍ^(٤) فَتَنَانَهُمْ ، فَلَوْ سَقَطَتْ دَوَاةٌ
 مَا وَقَعَتْ إِلَّا فِي حِجْرِ مَبْنَى .

وَعَلَّ أَيْتَانًا فِي الْفَزْلِ فَكَانَتْ :

قَدَامَتِ الْمَجْرَانُ صَبِيحَانِ قَابِي فَزَادِي مَحْذَبٌ فِي حَبَالِ^(٥)
 كَثَرَ الْبَيْنُ لَوْحٍ كِيدِي فَمَا أَطَعَ عَنْ هَوْبَتِهِ فِي وَصَالِ^(٦)
 رَفَعَ الرَّمْ مِنْ حَيَاتِي وَقَدْ أَطَعَ لَمَقَى مَوْلَايَ حَبْلَهُ مِنْ حَبَالِ
 مَشَقَّ الْمَلْبِ فِي فَوَادِي لَوْحٍ مِنْ فَاغْرِي جَوَانِحِي بِالْشَّلَالِ^(٧)

ظ ١٣٤

(١) الجرادق : جمع جردق ، وهو الرغيف ، فارسي معرب . وفي جمع الجواهر : « جرادق لقواعد مسمومة » .

(٢) المعنى : الساحة وسط الدار . والكتب : موضع تعليم الصبيان ، وأصل الكتاب هؤلاء الذين يتطون الكتابة ، ثم أطلق الاسم مجازاً على الموضع الذي يتطون فيه . وفي اللسان : « والكتاب موضع تعليم الكتاب » . وفي جمع الجواهر : « في مقدار كنف » .

(٣) إمام الصبي : ما يسميه كل يوم ، يقدر له على مقدار يومه .
 (٤) في جمع الجواهر : « من فم الرنم » . والرنم : يسكون القاف : الرنم : الكتابي السندل للتعبير عن أحد الأعداد ؛ وفتح القاف خطأ شائع .

(٥) جمع الجواهر : « موله ذو حبال » .

(٦) في جمع الجواهر : « لوح وصل » .

(٧) للشق : سرعة الكتابة ، ومد الحروف في الكتابة : الشلال : الد .

لاقَ قلبي بنانه فداد الـ تين من حجر ماليكي في انهمال^(١)
 كرسف البين سؤد الوجه من وصر سلى قتلي بالبيت في إشمال^(٢)
 قال : وسألت علي بن الجهم بن يزيد^(٣) - وكان صاحبَ حمام -
 عن مثل ذلك فقال :

تعيّناهم في مثل بيت الأنبار^(٤) ، فلما كان إلّا بقدر ما يفسل الرجل
 رأسه حتى تركناهم في أضيق من باب الأتون ، فلو طرحت ليفة ما وقعت
 إلّا على رأس رجل .

وعمل آياتاً في النزل فسكانت :

ياؤودة المجر حاتمت الصفا لما بدت لي ليفة الصدا^(٥)
 يا ميّز الأقسام حتى متى تنقع في حوض من الجهد
 أوقد أتون الوصول لي مرة منك يزنيبيل من الود^(٦)

(١) أصله : « لاق السواة : أصلىح مدادها . وفي طراز المجالس : « لاق قلبي
 مداده » ، وفي جمع الجواهر : « لاق كبدى دوائه » .

(٢) الكرسف : القطن ، وكانوا يجلو « هو أو الصوف في الدواة .

(٣) في جمع الجواهر : « وسألت الجهم بن بدر » .

(٤) لهه جنى البيت الذى تحتفظ فيه الثياب . وفي اللسان : « والأنبار : بيت
 التاجر الذى ينضد فيه ثاعه » . وبعده في جمع الجواهر : « فقاتلناهم بتقدار
 ما تخلق الثروة ، ثم الجأناهم إلى أضيق من الأتون ، فهو زناهم بقدر ما يفسل الرجل
 وجهه ، فلو طرحت ليفة . . . »

(٥) جمع الجواهر : « بما بدا من ليفة » .

(٦) الأتون : القود ، وهو بتشديد التاء ، وتخفيفها من لغة العامة . والزنييل
 بكسر الزاي كفتيدل . وقد تفتح ، وهو القلة .

قالين: مَذْ أَوْفَدَ حَمَانَهُ قَدْ هَاجَ قَلْبِي مَسَاخَ الْوَجْدِ^(١)
أَفَدَ خِطْبِي الصَّافَا وَالْمَوَى نُحَالَةَ النَّاقِصِ لِلْمَهْدِ^(٢)
قال : وسألت الحسن بن أبي قحاشة^(٣) عن مثل ذلك - وكان
كثُراتًا - فقال :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ سَطْحِ الْإِيْرَانِ ، فَمَا كَانَ إِلَّا بِقَدْرِ مَا يَكْنُسُ الرَّجُلُ
رَزِيْلًا^(٤) حَتَّى تَرَكَنَاهُمْ فِي أَصْبَحٍ مِنْ جُحْرِ التَّخْرَجِ ، ثُمَّ قَتَلْنَاهُمْ بِقَدْرِ
مَا يَشَارِطُ الرَّجُلَ عَلَى كَنْسٍ كَنِيفٍ ، فَلَوْ رَمَيْتَ بَابِنَةَ وَرَدَانَةَ^(٥) مَا سَفَطْتُ
إِلَّا عَلَى فَمٍ بِالْوَرَةِ^(٦) .

وعمل أياتنا فكانت :

أَصْبَحَ قَلْبِي بَرَّيْخًا لِلْمَوَى تَسَاحُ فِيهِ فَتَقَةُ الْهَجْرِ^(٧)
بَنَاتِ وَرْدَانَ الْمَوَى لَلْبَلِ أَصْبَرُ مِنْ دَا الْوَجْدِ فِي صَدْرِي^(٨)

(١) في جمع الجواهر : « هيج قلبي - شلج الوجْد » .

(٢) جمع الجواهر : « بحالة الناقص » .

(٣) جمع الجواهر : « الحسن بن أبي قحاش » .

(٤) الزيل : الزنيل ، وهو القفة . وفي جمع الجواهر : « رزيلة » .

(٥) بنت وردان ، هي للروقة في مصر بالحفس . معجم المؤلف ٣٦ وانظر

الحويان ٢ : ١٥٣ ، ٣ : ١٣ ، ٣٧١ ، ٤ : ٣٩ ، ٢٧٢ ، ٣٠٠ . وابنة وردانة ،

لها من لغة العامة في عصره .

(٦) في جمع الجواهر : « إلا على ظهر قنيل » .

(٧) البريخ : مجرى البول . ينلج ، من السلاح بالنفس ، وهو التجو . وفي جمع

الجواهر : « للموى غرجا » .

(٨) البيت ساقط من جمع الجواهر .

خَنَافُسُ الْهِجْرَانِ أَتَشْكُنُنِي يَوْمَ تَوَلَّى مُعْرِضًا صَدْرِي^(١)
أَسْقَمَ دِيدَانُ الْهَوَى مُهْجَتِي إِذْ سَاحَ الْبَيْنُ عَلَى عَمْرِي
قال : وسألت أحمدا الشَّرايبيَّ عن مثل ذلك فقال :

و ١٣٥

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ حَمْنِ بَيْتِ الشَّرَابِ ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَصْقِي الرَّجُلُ
دَنَا^(٢) حَتَّى تَرَكْنَاهُمْ فِي أَضْيَقِ مِنْ رِطْلِيَّةٍ^(٣) فَفَقَطْنَاهُمْ ، فَلَوْ رَمَيْتُ تَفَاحَةً
مَا وَقَعَتْ إِلَّا عَلَى أَنْفِ سَكْرَانٍ .

وعمل أبياتنا في الغزل فسكات :

شَرِبْتُ بِكَأْسٍ لِلْهَوَى نَبْذَةً مَعًا ، وَوَقَعَتْ خَرَجُ الْوَصْلِ فِي قَدَحِ الْهَجْرِ^(٤)
فَسَالَتْ دِينَانُ الْبَيْنِ يَذْفَعُهَا الصَّبَا فَكَسَّرْنَ قَرَابَاتِ خُرَّتِي عَلَى صَدْرِي^(٥)
وَكُنْ مِزَاجُ الْكَأْسِ غَلَّةَ لَوْعَةٍ وَدُورِقَ هِرَانٍ وَقَيْنِيَّتِي غَدِيرٍ
قال : وسألت عبد الله بن طاهر^(٦) عن مثل ذلك — وكان طباحا —
فقال :

لَقِينَاهُمْ فِي مَقْدَارِ صَحْنِ الْمُضِيخِ ، فَمَا كَانَ بِقَدْرِ مَا يَشْوِي الرَّجُلَ سَحْلًا حَتَّى

(١) جمع الجواهر : « نوى قول معرشة » .

(٢) جمع الجواهر : « بمقدار ما يبزل الرجل دنا » .

(٣) الرطلية ، بفتح الراء وكسرهما : نسبة إلى الرطل ، والمراد وعاء أو كأس
يسع رطلا من الشراب . وانظر الحيوان ٣ : ٢٣٦ . وجده في جمع الجواهر :
« ثم سألت دماؤم كالهردى ، فلو طرحت كأسا لما وقع إلا في كف رجل » .

(٤) جمع الجواهر : « بكأس الهوى من راحة الهوى » .

(٥) القرابات : ضرب من الأواني ، كما هو ظاهر ؛ ولم أجده في المعجم .

(٦) جمع الجواهر : « عبد الله الطاهري » .

تركناهم في أضيئ من موقد نار ، قتلناهم فلو سقطت مفرقة ما وقعت
إلا في قدر^(١) .

وعمل آياتنا في النزل فكانت :

يا شعبة الفالوذ في حمره اخـ لم وتوزينج النفوس الظما
أنت جوزينج القلوب وفي الآبـ نر كاين الخبيصة البيضاء^(٢)
عدت متهمًا بـ كبايج وذـ بعد جوداعة بحسب شواء^(٣)
يا نسيم القدور في يوم عرسـ وشيها بشهدة صفراء^(٤)
أنت أشتى إلى القلوب من الزبـ لـ مع الرسيان بعد الفداء^(٥)
أطيم الحاسدون ألوان غرـ في قصاع الأحران والأدواء^(٦)

(١) جمع الجواهر : « لقيتم في مقدار مطبخ أمير المؤمنين ، فما كان إلا بمقدار ما يشوى الرجل حملاً أو جدياً ، أو يفرغ من طبخ ثلاثة ألوان أو يحقد فالوجهة . حق تركناهم في أضيئ من أثناف القدور . فلو طرحت . لمقة لنا وقعت إلا على بطن تيل » .

(٢) في جمع الجواهر : « الصفراء » .

(٣) الكبايج : لحم يباع بالخذ والتوابل ، ويضاف إليه أحياناً الزعفران والسذاب . محاضرات الراغب ١ : ٢٩٢ وكتاب الطبخ للبغدادي ٩ . والجوداب ، بالضم : طعام يتخذ من سكر ورز ولحم . وانظر باقي صفته في كتاب الطبخ ٧٠ - ٧٢ .

(٤) جمع الجواهر : « ياقتار القدور » و « بشهدة يضاء » .

(٥) الرسيان : ضرب من أجود التمر . وفي اللسان : « وأهل العراق يضربون الزبد بالترسيان مثلاً لا يستطاب » .

(٦) في جمع الجواهر : « والصفراء » .

قد غلا القلبُ مذناًثُ عنك داري غليانَ القدور عند الصَّلاة^(١)
 هام قلبي لثا كسرن غصارا تِ سرورى مفارقُ الشَّعْءِ^(٢)
 ففضلُ على العيدِ يومِ جُد بوصلِ يَكْتَبُ به أعدائى^(٣)
 وتفضلُ على الكتيبِ يَبْزُما وِزْدِ وِصلِ يَشْفِى من الأدواءِ^(٤)
 قال : وسألتُ — أطلال الله بقاءك — محمد بن داود الطوسى عن مثل
 ذلك — وكان فرأى — فقال :

١٣٥ ظ

لقيناهم في مقدار صَحْنِ باط^(٥)، فما كان إلا بندر ما يفرش الرجل
 بيتنا^(٦) حتى تركناهم في أضيّق من مِنصّة فقتلناهم ، فلو سَطَطتِ مَحْدّة ما وقفتُ
 إلّا على رأس رجل .

ثم عمل أبياتاً في الغزل فكانت :

كسَحَ المجرُ ساحةَ الوصلِ لثا غَبرَ البينِ في وجوه الصَّفاءِ^(٧)
 وجَرى البينُ في مرافقِ ريشِ هى مذكورة ليوم القماءِ^(٨)

(١) في الأصل وطرز الجالس : « السلاء » . صرا به في جمع الجواهر .

(٢) التفارث : الصفاة للتخفة من التفار ، وهو الطين الحر .

(٣) العيد والمعمود : الذى عمده الحب ، أى أوجعه وأضناه .

(٤) البزء اورد : ضرب من الحبز يحشى بشواء ، دقوق ، ضاف إليه الحل والأطوبة .

وانظر رقية صفته في كتاب الطيخ ٥٩ .

(٥) جمع الجواهر : « في مثل تريع السطاط » .

(٦) جده في جمع الجواهر : « أو بيتين » .

(٧) الكسح : الكس . وفي الأصل والطرز : « كسر » تحريف . وفي

جمع الجواهر : « كس » ، وهى بمعنى كسح .

(٨) الرافق : جمع مرققة ، وهى المدة .

فرشَ الحجر في بيوتِ همومٍ تحت رأسى وسادةَ البرحاه^(١)
 حينَ هَيَّأت بيتَ خَيْشٍ من الوص لي لأبوابه ستور البهاء^(٢)
 فرشَ البحرُ لى بيوتِ مُسوج مُتكاها مطارح الحصباء^(٣)
 رِقَّ للصبِّ من براغيثٍ وجِد تَعترى جِلْدَه صباغ ماء^(٤)
 قال : فضحك المتعمم حتى استلقى ، ثم دعا مؤذنب وله فأمره أن يأخذهم
 بتعليم جميع العلوم .

ثم كتاب الجاحظ وفه لغة ، ويده الحول والقوة ، والله سبحانه الوفي للوفا .
 والحمد لله أولاً وآخراً ، وصلواته على سيدنا محمد نبيه وآله وصحبه وسلامه .
 بعه زيادات ليست للجاحظ^(٥)

-
- (١) في الأصل ومخطوط الطراز : « لى بيوت » ، صوابه في مطبوع طراز
 المجالس . والبرحاء : الشدة ، والشقة . وفي جمع الجواهر :
 فقد بث في فراش همومى تحت خدى وسائدًا لثنائى
- (٢) الخيش : ثياب رقاق النسيج غلاظ الحيوط تتخذ من مشافة السكان .
- (٣) المتكأ : ما يتوكأ عليه لسطعام أو شراب أو حديث . وفي الأصل وطراز
 المجالس : « متكأها من الحصباء » ، صوابه في جمع الجواهر . والمطارح : جمع
 مطرح ، بالكسر ، وهو للفرش ، كما في المعجم الوسيط .
- (٤) في جمع الجواهر : « من بواعث وجد قد تخالسه » . وبعد هذا البيت في
 جمع الجواهر بدلا من الكلام التالى هنا : « يأبى للؤميين » ، إنما ينطق اللسان بما
 يتصور الجنان . ويظهر في الكلام ما يحظر على الأوهام ، فمن لم يعرف إلا شيئاً
 واحداً لم يتكلم عليه ، ومن كثر عليه كثرت خواطره ، وانست مذاهبه ، ورب
 هزل أتق من جد إذا أميب به موضع الحاجة ، ووضع بحيث تقع هم النفوس
 به . والسلام » . ثم قال الحصرى معقباً على هذه الرسالة :
- « والباحظ صنع هذه الأشعار لما وضع هذه الأخبار ، وكان قد برأ على الشعر
 سراًفاً له » .

(٥) وهى في مقدار ثلاث ورقات من الأصل ، على لسان أهل الصناعات .

فهرس الكتب والرسائل

ص	
١	مناقب الترك
٨٧	المعاش والمعاد
١٣٥	كتبان السر وحفظ اللسان
١٧٣	نفر السودان على البيضاء
٢٢٧	في الجد والهزل
٢٧٩	في نفى التشبيه
٣٠٩	كتاب الفتيا
٣٢١	إلى أبي القرج بن نجاح الكاتب
٣٣٢	فصل ما بين العداوة والحد
٣٧٥	في صناعات القواد
